

https://t.me/kotokhatab

موعِدٌ مع القَدَر

(زهرة الفاوانيا العاشقة)

Penny in Love

رواية

تأليف



ترجمة

أفنان سعد الدين

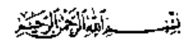
مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





mohamed khatab



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Peony in Love
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Random House, an imprint of the Random House Publishing Group,
a division of Random House, Inc., New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون
ش.م.ل.
Copyright © 2007 by Lisa See
All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2010 م

ISBN: 978-614-421-135-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1 - 961 +) 785107 - 785108 - 786233
ص. ب: 13 - 5574 شوران - بيروت 2050 - 1102 - لبنان
فاكس: (1 - 961 +) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

http: // www.asp.com.lb الإنترنت: شبكة على الموقع

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+ 9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+ 9611) 786233

المحتويات

ملاحظات المؤلفة

•

في العام 2000، كتبتُ مقالة قصيرة لصالح مجلة فوغ عن العرض الذي قدّمه مركز لينكولن لأوبرا حديقة الفاوانيا. وبينما كنت أقوم بالأبحاث لتلك المقالة، صادفت قصة العذارى الملتاعات، فأثارت القصة فضولي. وبعد مرور فترة طويلة على كتابة المقالة، ظللن يسكن تفكيري. إذ إننا عادة ما نسمع أنه في الماضي لم تكن هناك نساء مؤلفات أو فنانات أو مؤرخات او كبيرات طهاة. ولكن النساء بالطبع كن يقمن بهذه الأمور غير ان إنجازاتهن غالباً ما كانت تضيع أو تنسى أو تخفى عن عمد. وهكذا، عندما سنحت لي فرصة هنا أو هناك، بحثت في اي شيء استطعت أن اعثر عليه عن العذارى الملتاعات، وتوصلت إلى المعرفة انهن شكلن جزءاً من ظاهرة اكبر منهن بكثير.

في اواسط القرن السابع عشر، بدأ المزيد من أعمال الكاتبات ينشر في دلتا نهر يانغجي في الصين أكثر من بقية أنحاء العالم في ذلك الوقت. ووصل عددهن إلى الآلاف، وهن غالباً نساء مربوطات الأقدام، يعشن في عزلة، وينحدرن من عائلات ميسورة. وكانت بعض العائلات تنشر قصيدة واحدة مكتوبة بقلم أم أو ابنة تريد ان تحيي ذكراها أو تكرمها. ولكنني اكتشفت وجود نساء أخريات، كاتبات محترفات، لا يكتبن فقط لجمهور عام اوسع وإنما يعلن عائلاتهن بكلماتهن المكتوبة. فكيف يمكن أن يوجد عدد هائل من النساء يقمن بهذه الأعمال الاستثنائية من دون ان اعرف بأمرهن؟ لماذا لم تعرف جميعاً بأمرهن؟ ثم صادفت تعليق الزوجات الثلاث ، وهو الكتاب الأول من نوعه الذي ينشر في أي مكان في العالم. وادركت انه كتب بقلم ثلاث زوجات لا أقل. وبهذا تحول اهتمامي إلى هوس.

هناك عناصر عدة مرتبطة ببعضها بعضاً هنا، وهي اوبرا تانغ خيانجو، والعذارى الملتاعات، وتاريخ تعليق الزوجات الثلاث والتغييرات الاجتماعية التي مهدت الطريق لهذه الكتابات. أعلم أنها معقدة ومتداخلة بعض الشيء، لذا من فضلكم تحملوني.

أعد تانغ خيانجو حديقة الفاوانيا في أثناء حكم سلالة سونغ بين عامي (906 إلى 1127)، ولكنه كان يتحدث عن سلالة مينغ التي تقع بين

عامي (1368-1644)، وهو وقت سادت فيه فورة الفن بالإضافة إلى الفوضى السياسية والفساد.

في العام 1598، ومع اكتمال الأوبرا، أصبح تانغ من أهم المشجعين على العاطفة، أي العواطف العميقة والحب العاطفي. وككل الكتّاب البارعين، كتب تانغ ما كان يعرفه، ولكن هذا بالضبط لم يعنِ أن الحكومة رغبت في سماعه. وعلى الفور تقريباً، أيدت مجموعات أخرى إخضاع الأوبرا للرقابة لأنها اعتبرتها سياسية فوق الحدّ وفاسقة. وعلى الفور، لم تعد تظهر أي نسخ جديدة إلى أن أصبحت ثمانية مشاهد فقط من أصل خمسة وخمسين مشهداً أصلية هي ما يُمثّل على خشبة المسرح. وعانى النص حتى من المعاملة السيئة، وحرمت بعض النسخ بينما عُدّلت نسخ أخرى أو أعيدت كتابتها بشكل كامل لتلائم تغيرات المجتمع أكثر من النسخ السابقة.

في العام 1780، وخلال حكم الإمبراطور كيانلونغ، تصاعدت حدة معارضة الأوبرا وتم تصنيفها على أنها مجدِّفة . ولكن لم يحدث إلى عام 1868 أن أصدر الإمبراطور تانغجي التحريم الرسمي الأول واصفاً حديقة الفاوانيا بالفاسدة، فأمر بإحراق كل النسخ وتحريم كل إنتاجاتها.

ولقد استمرت الرقابة التي أخضعت لها الأوبرا حتى يومنا هذا. فقد تم تأجيل عرض مركز لينكولن مؤقتاً عندما اكتشفت الحكومة الصينية محتوى المشاهد التي أعيدت ومنعت الممثلين والملابس والمناظر من مغادرة البلاد. وبهذا أثبتت مجدداً أن الأوضاع كلما تغيرت أكثر بقيت على حالها.

باستثناء اللقاءات العاطفية بين شخصين غير متزوجين ونقد الحكومة، أعتقد أنني أعرف لماذا اعتبر الناس الأوبرا مزعجة إلى هذا الحد؟ إن حديقة الفاوانيا هي أول عمل أدبي في تاريخ الصين تقوم فيه البطلة، وهي فتاة في السادسة عشرة من عمرها، بتقرير مصيرها، وهو أمر مدهش ومثير في آن معاً. إنها تثير وتفتن النساء اللواتي كان يسمح لهن، باستثناءات نادرة، أن يقرأن الأوبرا من دون أن يسمعنها أو يشاهدنها أبداً. ويمكن مقارنة الشغف الذي نشأ عنها بالتعصب ضد عمل الكاتب غوتيه فيرتر في أوروبا في القرن الثامن عشر أو رواية ذهب مع الريح في الولايات المتحدة. لقد تأثرت الفتيات الصينيات المتعلمات المنحدرات من عائلات ثرية، وبشكل نموذجي بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة من أعمارهن وزيجاتهن مرتبة مسبقاً، بالقصة أكثر من غيرهن. وبسبب اعتقادهن أن الحياة تقلد الفن، فقد قلدن ليينانغ وامتنعن عن الطعام وذبلن ومتن وكلهن أمل أنهن قد يستطعن بطريقة ما أن يحددن أقدارهن بالضبط كما

فعل شبح لينيانغ.

لا يعرف أحد بشكل مؤكد حقيقة سبب موت العذارى الملتاعات، ولكنه قد يكون تجويع الذات. وربما نظن أن مرض فقدان الشهية (أنوركسيا) مشكلة حديثة، ولكنها ليست كذلك. وسواء أكنا نتحدث عن صالحات العصور الوسطى أو العذارى الملتاعات في القرن السابع عشر في الصين أو الفتيات المراهقات اليوم، فالنساء لديهن حاجة إلى مقدار معين من الاستقلالية. إذ يشرح العالم راندولف بيل أن النساء الشابات يستطعن عن طريق تجويع أنفسهن أن يحولن المنافسة من العالم الخارجي، الذي لا يتمتعن فيه بأي سيطرة على أقدارهن ويواجهن هزيمة شبه مؤكدة، إلى صراع داخلي يتحكمن فيه بذواتهن ودوافعهن الجسدية. وبينما كانت العذارى الملتاعات يحتضرن، كتبت الكثيرات منهن، ومن بينهن خياوكينغ ويو نيانغ، قصائد نشرت بعد موتهن.

ولكن هؤلاء النساء الكاتبات، سواء أكن العذارى الملتاعات أو عضوات نادي حديقة الموز ، لم يظهرن هكذا ببساطة ويختفين في الفراغ. فقد خضعت الصين لتغيير جذري في وسط القرن السابع عشر عندما سقطت سلالة مينغ وأقام الغزاة المانشو من الشمال سلالة كينغ. فعانت البلاد لنحو ثلاثين عاماً من حالة من الفوضى. إذ إن النظام السابق كان فاسداً، فاندلعت حرب وحشية. (في يانغجو، حيث ماتت جدة زهرة الفاوانيا، يقال إن نحو 80000 شخص قتلوا خلال عشرة أيام). وهكذا فقد الكثير من الناس بيوتهم. وتعرض الرجال للإذلال. وأجبروا على حلق مقدمة رؤوسهم كدلالة على الخضوع للإمبراطور. وفي ظل النظام الجديد، تداعى النظام العلمي الإمبراطوري، وهكذا لم تعد هناك أي قيمة للطريقة التقليدية التي اعتاد بها الرجال أن ينالوا الشرف والثروات والقوة. فانسحب رجال من الطبقات العالية في المجتمع من الحكومة والحياة العملية ليحولوا اهتمامهم إلى جمع الصخور، وكتابة الشعر، وتذوق الشاي، وحرق البخور.

أما النساء اللواتي احتللن مكانة وضيعة في المجتمع، فقد عانين من مصاعب جمة. وتعرضن للبيع أو المقايضة بالوزن مثل الأسماك ورطلاً مقابل رطل وأقل قيمة من الملح. وأصبحت الكثيرات منهن، مثل خياوكينغ في الحقيقة وشجرة الصفصاف في القصة، عبدات أو محظيات. ولكن بعض النساء حظين بأقدار مختلفة جداً وأفضل بكثير. إذ ترك الرجال البوابات الأمامية مفتوحة بسبب الأمور الكثيرة التي تشغل بالهم. فخرجت النساء اللواتي عشن طوال حياتهن في عزلة وأصبحن كاتبات محترفات وفنانات

وراميات ومؤرخات ومغامرات. واجتمعت نساء أخريات، فيما قد يعتبر شكلاً مبكراً من جماعات الكتب، ليقرأن ويكتبن الشعر ويناقشن الأفكار. فذهبت أعضاء نادي حديقة الموز الخمس اللواتي أصبحن سبعاً في ما بعد، في جولات وكتبن عما رأينه وعشنه وهن لا يزلن يعتبرن نبيلات وفخورات ونساء ذوات مكانة عالية. ولم يكن نجاحهن ليتحقق لولا النمو في التعليم الأنثوي ووجود اقتصاد سليم ومؤسسات طباعة كثيرة وانشغال جمهور الرجال بمعظمه بأمور أخرى.

ولكن هذه الكتابات لم تكن كلها فرحة أو احتفالية. فقد تركت بعض النساء، مثل أم زهرة القاوانيا، قصائد على الجدران أصبحت شائعة بين أفراد الطبقة المثقفة بسبب حزنها وبسبب الفضول الذي يدفع أحدنا إلى قراءة أفكار شخص ما على شفير الموت. وقد حملت هذه القصائد بين طياتها، بالإضافة إلى كتابات العذارى الملتاعات، نوعاً من الرومانسية يجمع بين مُثل العاطفة التي تترافق مع فتنة امرأة تذوي من المرض أو من حمى النفاس أو تقتل شهيدة أو تموت وحدها في غرفة فارغة شوقاً إلى حبيبها.

إن تشين تونغ وتان زي وكيان بي نساء حقيقيات. (وقد تغير اسم تشين تونغ لأنه يماثل اسم حماتها) فقد حاولت أن أبقى مخلصة لقصتهن قدر المستطاع بحيث إنني تقيدت في أغلب الأحيان بحقائق تبدو مدهشة جداً أو مبنية على الصدفة بحيث لا يمكن أن تكون حقيقية. فعلى سبيل المثال، استخدمت كيان بي لوح أسلاف من البيت لتتفرع تحت شجرة الخوخ تكريماً لشخصية دو ليننيانغ الخرافية التي زارتها بعد ذلك في حلمها مع وو رين. ولكن على حدّ علمي، لم تقابل تشين تونغ زوجها المستقبلي على الإطلاق ولم تعد إلى الأرض كشبح جائع.

لقد أراد وو رين أن يعترف الناس بزوجاته الثلاث جميعاً، ولكنه حرص أيضاً على حمايتهن، لذا كتب على الغلاف: التعليق المشترك لزوجات وو ووشان الثلاث عن حديقة القاوانيا . وكان ووشان أحد الأسماء الأدبية التي يستخدمها عندما يكتب. ولم تظهر أسماء تان زي وكيان بي وتشين تونغ إلا على صفحة الغلاف والمادة الملحقة.

تم نشر الكتاب في غمرة اهتمام كبير وقرأه عدد كبير من الناس. ومع ذلك، ففي ذلك الوقت من الماضي، انقلبت الموازين واستبدل المديح والثناء بالنقد اللاذع والصارم. فاتُهم وو رين أنه مغفل أو متلهف لنشر أسماء زوجاته لدرجة أفقدته القدرة على تمييز ما هو ملائم. وأيد المرشدون

الأخلاقيون، الذين عارضوا حديقة الفاوانيا لسنوات، إخضاع الأوبرا للرقابة من خلال النصح العائلي والعقائد والحظر الرسمي، واقترحوا إحراق كل نسخ حديقة الفاوانيا بالإضافة إلى كل الأعمال المتممة لها، ومن بينها التعليق، على أنه أكثر السبل الفعالة لمحو هذه الكلمات المسيئة إلى الأبد. وبرروا ذلك بقولهم إن قراءة مثل هذه الكتب تجعل النساء، وهن سخيفات وغير مثقفات بطبيعتهن، يصبحن فاسقات وميتات القلب. وذكر معظمهم أن المرأة الجاهلة وحدها هي من تعتبر امرأة صالحة. وأمر المرشدون الأخلاقيون الرجال أن يذكّروا أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم وأخواتهم أنه ليس هناك كتابة أو نقش في الفضائل الأربع، وهكذا انقلبت الظروف التي ألهمت النساء للكتابة والرسم والذهاب في جولات ضدهن. ولكن العودة إلى الطقوس كانت تعني شيئاً واحداً؛ وهو العودة إلى التزام الصمت.

تحول اتجاه الجدالات مجدداً. فاتجهت عائدة إلى تعليق الزوجات الثلاث . فكيف يمكن لثلاث زوجات، لا أقل، أن يتمتعن بهذه البصيرة عن الحب؟ كيف استطعن إبداع هذا العمل المثقف؟ كيف تمكن من جمع كل النسخ للأوبرا ليقارن بينها؟ لماذا احترقت المخطوطات الأصلية التي كتبتها تشين تونغ وتان زي؟ إن هذا يبدو منطقياً تماماً لأنه لم يكن من الممكن مقارنة أسلوب الخط لدى الزوجات الثلاث. وفي المواد الملحقة، كتبت كيان يي أنها قدمت القرابين للزوجتين السابقتين تحت شجرة الخوخ. ووصفت وزوجها حلماً صادفا فيه دو ليتيانغ. ألم يكن من الممكن لهذين أن يفرقا بين الحقيقة والخيال والأحياء والموتى واليقظة والحلم؟ ونتيجة لذلك، لم يستطع الناس التوصل إلا إلى استنتاج واحد؛ لقد كتب وو رين التعليق بنفسه، ولكنه رد قائلاً: "دع أولئك الذين يصدقون يصدقون والذين يشكون يشكون".

في غضون ذلك، توجب إعادة تطبيق النظام في العالم. فأعلن الإمبراطور عدة قوانين، وكلها تهدف إلى إعادة السيطرة على المجتمع. وأعلن أن العلاقة لا تتم إلا بين الزوج والزوجة ويجب أن يكون الأساس لها هو المنطق وليس العاطفة. ولم يعد يُسمح بإنتاج المزيد من الكتب السرية للنساء بحيث إن الفتاة التي تتزوج وتذهب إلى بيت زوجها يجب ألا تكون لديها أي فكرة عما سيحدث لها. وكافأ الإمبراطور أيضاً الآباء لسيطرتهم على بناتهم، فإن جلبت البنت العار لأسلافها كان لوالدها الحق بأن يقطعها إرباً. وسرعان ما دفعت هذه القوانين النساء إلى العودة خلف الأبواب المغلقة، فبقين هناك إلى أن سقطت سلالة كينغ وقامت جمهورية

الصين عام 1912.

في شهر أيار/مايو من العام 2005، وقبل عشرة أيام على ذهابي إلى هانغجو لأجري بحثاً حول الزوجات الثلاث، تلقيت مكالمة من مجلة مور يطلبون فيها مني أن أكتب مقالاً عن الصين. وكان التوقيت مثالياً. فبالإضافة إلى الذهاب إلى هانغجو، زرت بلدات صغيرة في دلتا نهر يانغجي (ويبدو على العديد منها أن الوقت لم يمر عليها منذ مائة عام). وبالإضافة إلى ذلك، فقد زرت مواقع أشير إليها في الرواية (كمزارع لونغجينغ للشاي ومعابد متنوعة) وسوجو.

ولا بد أن هناك علاقة بين الاندفاع الذي شعرت به لكتابة المقال والعذراء الملتاعة التي تسكنني. ويجب ان أعترف أن ذلك لم يكن صعباً لأنني مهووسة طوال الوقت، ولكن المهمة أجبرتني على التنقيب في أعماقي والتفكير فعلاً بشعوري حيال الكتابة ورغبة النساء أن يجعلن صوتهن مسموعاً من قبل ازواجهن وأطفالهن ورؤسائهن في العمل. وفي الوقت نفسه، فكرت كثيراً في الحب. فكل النساء على الأرض، والرجال أيضاً، يتمنون ذلك النوع من الحب الذي يحولنا ويرتقي بنا فوق الحياة اليومية ويمنحنا الشجاعة لنتخطى مآسينا الصغيرة: كانفطار قلوبنا على الأحلام التي لم تتحقق وخيبات الأمل الشخصية والمهنية وعلاقات الحب المحطمة.

القسم الأول

في الحديقة



الفصل الأول

على جناحي الرياح

•

قبل يومين من حلول ذكرى ميلادي السادسة عشرة، استيقظت باكراً جداً فوجدت خادمتي شجرة الصفصاف، لا تزال نائمة على الأرض بجانب سريري. وقد كان ينبغي لي أن أوبخها لكسلها، ولكنني أردت أن أنفرد بنفسي لدقائق معدودة أستمتع بها بمشاعر الحماسة والترقب التي ملأتني، إذ اعتباراً من هذه الليلة كنت سأحضر عرضاً لأوبرا حديقة الفاوانيا الذي سيقام في حديقة بيتنا. لطالما عشقت هذه الأوبرا لدرجة أنني كنت قد جمعت إحدى عشرة نسخة من أصل ثلاث عشرة من نسخها المطبوعة المتوفرة في البلاد. فكنت أحب أن أستلقي على السرير وأقرأ قصة العذراء ليانغ وحبيب أحلامها وهما يخوضان مغامراتهما ويحققان انتصار حبهما في نهاية المطاف. ولكنني الآن كنت سأشاهد الأوبرا بأم عيني تعرض لثلاث ليالٍ متواصلة تتخللها ليلة السبعة المزدوجة ، التي توافق اليوم السابع من الشهر السابع ويوم مهرجان مناسبة العشاق وذكرى ميلادي. وذلك على الرغم من أنها محرّمة بطبيعة الحال على النساء والفتيات. وكان قد وجه والدي الدعوة إلى عائلات أخرى لحضور الاحتفالات التي سنقيمها، ومن بينها منافسات ومآدب ضخمة. وهكذا، فقد كنا ستمضي وقتاً مدهشاً.

استيقظت شجرة الصفصاف وفركت عينيها، وعندما رأتني أحدق إليها، سارعت بالنهوض على قدميها وقدمت لي آخر التهاني. فشعرت بموجة أخرى من الحماس تغمرني، ولهذا فقد تصرفت بتدقيق شديد عندما ساعدتني على الاستحمام والبستني ثوباً أرجوانياً من الحرير وسرّحت شعري. إذ إنني أردت لمظهري وتصرفاتي أن يعكسا قمة المثالية والإتقان.

إن أي فتاة توشك أن تبلغ السادسة عشرة من عمرها تدرك مدى جمالها. وبينما أنا أنظر في المرآة، شعرت بجمالي يتوهج من الداخل. فقد كان شعري حريرياً أسود اللون، وعندما سرّحته شجرة الصفصاف، شعرت بالفرشاة تمر بين خصلاته من قمة رأسي وحتى ظهري. وكانت عيناي على شكل أوراق الخيزران وحاجباي دقيقين وكأنهما مرسومان بريشة الخطاط. أما خداي فقد توهجا بلون أوراق الفاوانيا الزهرية الشاحبة. ولطالما أحب والدي ووالدتي أن يعلقا على مدى ملائمة هذا اللون لاسمي: زهرة الفاوانيا.

فبذلت قصارى جهدي أن أفعل كل ما هو ملائم لرقة اسمي ونعومته. فقد كانت شفتاي الممتلئتان الناعمتان وخصري الدقيق وجسمي الرشيق كلها مهيئة للمسة زوجي، ولا أود أن أقول إنني كنت مختالة ومتباهية لأنني مجرد فتاة في الخامسة عشرة. وقد شعرت بالاطمئنان لتفوق جمالي، ولكنني كنت متمتعة بالقدر الكافي من الحكمة لأن أدرك أنه سريع الزوال.

كان والداي يعشقانني ويحرصان على أن أنال ثقافة عالية. فعشت حياة ثمينة، كل ما أفعله فيها هو تنسيق الزهور والعناية بجمالي والغناء لأسلي والدي. وقد تمتعت بقدر كبير من الامتياز والتفوق لدرجة أن خادمتي كانت ذات قدمين مربوطتين. ولطالما اعتقدت وأنا فتاة صغيرة أن كل الحفلات التي نقيمها وكل المأكولات التي نأكلها خلال يوم السبعة المزدوجة مخصصة للاحتفال بي. ولم يكن أحد يصحح أخطائي لأنني معشوقة العائلة وطفلتها المدللة. وكنت أتعامل مع كل أمور حياتي بمنتهى الروية والاطمئنان. فأنا في منتهى السعادة. وكانت هذه آخر ذكرى ميلاد لي أمضيها في البيت قبل أن أتزوج وأنتقل إلى بيت زوجي. فأردت أن أستمتع بكل لحظة.

غادرت غرفتي في جناح الفتيات غير المتزوجات وتوجهت نحو قاعة الأسلاف لأقدم القرابين لجدتي. وبعد أن أمضيت وقتاً طويلاً في الاستعداد لم يسعني إلا أن أقدم لها انحناءة سريعة. إذ إنني لم أود أن أتأخر عن مائدة الفطور. فأسرعت وقدماي عاجزتان عن المضي بالسرعة التي أريدها، ولكنني عندما رأيت والديّ جالسين معاً على الشرفة المطلة على الحديقة، خففت من سرعتي. فإن كانت أمي متأخرة، أصبح بوسعي أن أتأخر أنا أيضاً.

سمعت أمي تقول: "لا ينبغي أن تظهر الفتيات غير المتزوجات علناً، كما أنني قلقة على زوجات إخوانك أيضاً، إنك تعلم أنني لا أشجع هذا النوع من التجمعات. وأن ندعو الغرباء إلى البيت لحضور العرض فهذا...".

أمسكت أمي عن الكلام. وقد كان ينبغي لي أن أسرع، ولكن أمر الأوبرا كان يهمني كثيراً بحيث إنني تلكأت قليلاً بعيداً عن الأنظار خلف أغصان التعريشة المزهرة.

قال أبي: "ليس العرض علنياً. ولن تجلس النساء بين الرجال ويلحقن العار لأنفسهن بل سيختفين خلف الستارة".

"ولكن الرجال سيجلسون على مسافة قريبة جداً. وقد يرون جواربنا وأحذيتنا من تحت الستارة. وقد يشمون رائحة شعرنا ومساحيق تجميلنا.

ومن بين كل عروض الأوبرا، لم تختر إلا واحدة تتحدث عن قصة حب لا ينبغي لفتاة غير متزوجة أن تسمعها!".

كانت والدتي عتيقة الطراز في معتقداتها وسلوكها. وأثناء الفوضى الاجتماعية التي تلت الجائحة التي وقعت عندما سقطت سلالة مينغ الحاكمة وتولي الغزاة المانشو زمام السلطة، استغلت العديد من نساء النخبة الفرصة لمغادرة قصورهن وركوب القوارب للسفر عبر القنوات المائية والكتابة عما يدور حولهن ونشر ملاحظاتهن. ولكن أمي كانت معارضة تماماً لهذه التصرفات وموالية لسلالة مينغ التي أطيح بها وظلت مخلصة لها. ولكنها كانت تقليدية إلى حدٍّ كبير من نواحٍ أخرى أيضاً. ففي الوقت الذي بدأت فيه نساء كثيرات من دلتا نهر يانغجي يعدن تأويل الفضائل الأربع، وهي العفة والسلوك والحديث والعمل، لطالما وبختني أمي لتذكرني بمعانيها الأصلية والقصد الكامن وراءها كأن تقول لي: "احفظي لسانك في كل الأوقات، ولكن إن توجب عليك أن تتكلمي، انتظري إلى أن تحين اللحظة المناسبة لذلك دون أن تسيئي لأحد".

لطالما استبد الانفعال بأمي لهذه الأمور لأنها محكومة بالعاطفة والشغف والحب، وهذه القوى مرتبطة مع بعضها في الكون ونابعة من القلب، وهو نبع الوعي. أما والدي، من ناحية أخرى، فقد كان موجهاً بالمنطق والعواطف الحكيمة، وهذا ما جعله يسخر من قلقها حيال قدوم الغرباء إلى البيت.

"إنك لا تتذمرين عندما يحضر أعضاء النادي الشعري الخاص بي لزيارتي".

"ولكن ابنتي وبنات أخواتك لا يخرجن إلى الحديقة أثناء وجودهم هنا. وليست هناك فرصة لوقوع أي تصرفات غير ملائمة. وماذا عن العائلات الأخرى التي دعوتها؟".

صاح بغضب بعد أن نفد صبره قائلاً: "إنك تعلمين سبب دعوتي لهم. إن المفوض تان مهم بالنسبة إليّ في الوقت الحاضر. فلا تناقشيني في هذه المسألة أكثر من ذلك!".

لم أستطع أن أرى وجهيهما، ولكنني تخيلت وجه أمي يشحب بسبب قسوته المفاجئة لأنها لم تنبس بحرف واحد.

كانت أمي تدير العالم الداخلي في بيتنا. واعتادت أن تحتفظ بأقفال مصنوعة من المعدن المطروق داخل جيوب ثوبها إن رغبت أن تقفل باباً لتعاقب إحدى المحظيات أو لتحفظ أثواب الحرير التي وصلت من معاملنا

للاستخدام البيتي أو لتحمي حجرة المؤذن أو مقر حياكة الستائر أو الغرفة المحجوزة لخدمنا في حال أرادوا رهن ممتلكاتهم بسبب حاجتهم إلى بعض المبالغ الإضافية من المال. ولكنها لم تستعمل أي قفل منها بدون وجه حق، مما أكسبها احتراماً إضافياً وامتناناً من اللواتي يسكن غرف النساء. ولكن إن هي شعرت بالاستياء، كما شعرت في تلك اللحظة، راحت تعبث بالأقفال بأصابعها بعصبية وتوتر.

انتهت موجة غضب والدي وحلت محلها لهجة استرضاء غالباً ما استخدمها مع والدتي، فقال: "لن يرى أحد ابنتنا أو بنات إخواني، وسنحافظ على كل الأعراف والتقاليد. إن هذه مناسبة خاصة، ويجب أن أكون كريماً في تعاملاتي. وإن فتحنا بابنا لهذه المرة فقط، فقد تفتح أبواب أخرى قريباً".

ختمت أمي المحادثة قائلة: "يجب أن تفعل ما تظن أنه الأفضل لمصلحة عائلتنا".

اغتنمت تلك اللحظة لأسرع في دخول الشرفة. ولم أكن قد فهمت كل ما قيل، ولكنني لم أكترث حقاً، فكل ما كان يهمني هو أن الأوبرا ستعرض في حديقتنا وأنني وبنات عمي سنكون أول الفتيات اللواتي يشاهدنها في أنحاء مدينة هانغجو كافة. ولم نكن سنجلس بين الرجال بالطبع بل خلف الستارة لئلا يرانا أحد، كما قال والدي.

بحلول الوقت الذي دخلت فيه أمي إلى حديقة الربيع لتناول الفطور، لاحظت أنها قد استعادت هدوءها المعتاد.

نبهتني وبنات أعمامي وهي تمر بطاولتنا قائلة: "ليس من مظاهر حسن التربية أن تتناول الفتاة طعامها بسرعة كبيرة. فعندما تنتقلن إلى بيوت أزواجكن، لن تود حمواتكن أن يشاهدنكن وأنتن تتناولن طعامكن بأفواه مفتوحة على وسعها كما يفعل سمك الشبوط في البحيرة. وبعد ذلك، ينبغي لنا أن نكون مستعدات لاستقبال الضيوف حين وصولهم".

فتناولنا طعامنا بأسرع وقت ممكن ونحن نحاول في الوقت نفسه أن نبدو سيدات شابات مهذبات.

حالما انتهت الخادمات من تنظيف المائدة، اقتربت من أمي وسألتها: "أتسمحين لي أن أذهب إلى البوابة الأمامية؟" وقد كنت آمل أن أستقبل الضيوف بنفسي.

فأجابت وهي تبتسم بعذوبة كلما طرحت عليها سؤالاً غبياً: "نعم، يمكنك فعل ذلك في يوم زفافك".

انتظرت بفارغ الصبر وأنا أعلم أن المحفات بدأت عندئذ تعبر عتبة بابنا الرئيسة وتدخل قاعة الجلوس حيث سيجلس زوارنا لشرب الشاي قبل أن يدخلوا القسم الرئيس من المجمع. ومن هناك، سيتوجه الرجال إلى قاعة الأناقة الوافرة حيث سيستقبلهم والدي. أما النساء فسيأتين إلى غرفنا التي تقع في الجزء الخلفي من المجمع بعيداً عن عيون الرجال.

وأخيراً، سمعت أصوات ثرثرة النساء المرحة وهن يقتربن منا. وعندما وصلت خالتاي وبناتهما، ذكرت نفسي أن ألتزم بالحشمة في المظهر والسلوك والحركات. ثم وصلت أختا زوجتي عمي تتبعهما مجموعة من زوجات أصدقاء والدي، أهمهن هي مدام كان، زوجة الرجل الذي ذكره والدي في حديثه مع أمي. (وكان حكام البلاد المانشو قد منحوا زوجها منصباً عالياً كمفوض للطقوس الإمبراطورية). بدت مدام كان طويلة القامة وشديدة النحول. أما ابنتها الصغرى كان زي فقد راحت تنظر من حولها بلهفة. فغمرتني موجة من الغيرة، إذ إنني لم أخرج قط من قصر عائلة تشين. ترى هل يأذن المفوض كان لابنته بعبور بوابة بيته كثيراً؟

تبادلت النساء القبلات والعناق والهدايا. فقدمن إلى بعضهن التين الطازج وشراب الأرز والشاي المعد من زهور الياسمين. وبعد ذلك، أوصلنا النساء والبنات إلى غرفهن حيث وضبن أغراضهن وغيرن ملابس السفر وارتدين أثواباً جديدة. ثم تبادلنا المزيد من العناق والقبلات وذرفنا بعض الدموع وضحكنا كثيراً. وبعد ذلك، انتقلنا إلى قاعة براعم اللوتس التي تعتبر مكان تجمع النساء الرئيس وتتمتع بسقف عال ومنحوت على هيئة ذيل السمكة ومدعوم بأعمدة دائرية مطلية باللون الأسود. وكانت النوافذ والأبواب المنحوتة مطلة على حديقة خاصة من أحد الجانبين وعلى بركة مليئة بزهور اللوتس من الجانب الآخر. وضعت طاولة مقتنيات الأسلاف الخاصة في وسط القاعة ووضعت عليها ستارة صغيرة ومزهرية. وعندما تُلفظ كلمتا ستارة و مزهرية بلغتنا، فهي تبدو مثل كلمة أمان . فشعرنا نحن النساء والفتيات جميعاً بالأمان والطمأنينة ونحن نتخذ مقاعدنا في تلك القاعة الفسيحة.

اتجهت إلى مقعدي وقدماي المربوطتان تكادان تطيران فوق سطح الأرض الحجرية الباردة. وحالما جلست بدأت أنظر حولي في الغرفة. فسررت لأنني بذلت عناية خاصة بمظهري لأن النساء والفتيات الأخريات كن يرتدين أرقى أنواع الحرير المطرز بأشكال الزهور الموسمية. وعندما قارنت نفسي بهن، توجب علي أن أعترف أن ابنة عمي زهرة اللوتس بدت جميلة

للغاية كعادتها. وكنا جميعاً، والحق يقال، نشعُّ من فرط اللهفة والترقب للاحتفالات التي توشك أن تهبط على بيتنا. فحتى ابنة عمي ممتلئة الجسم المكتسة بدت مبهجة وسارة أكثر من المعتاد.

وضعت الخادمات أطباق المربيات الصغيرة على الطاولة، ثم أعلنت أمي بداية مسابقة التطريز، وهي أحد الأنشطة العديدة التي خططت لإقامتها طوال الأيام الثلاثة التي سنمضيها معاً. فوضعنا مشاريع تطريزنا على الطاولة، وراحت أمي تنظر إليها بعين فاحصة بحثاً عن أكثر التصميمات دقة وأشد القطب براعة. وعندما وصلت إلى القطعة التي طرزتها، تحدثت بالأمانة التي تفرضها عليها مكانتها.

فقالت: "إن تطريز ابنتي في طور التحسن. أترون كيف حاولت أن تطرز زهور الأقحوان؟" وتوقفت ثم سألتني: "إنها زهور أقحوان، أليست كذلك؟" وعندما أومأت برأسي، قالت: "لقد أبليت بلاءً حسناً". وقبلتني بنعومة على جبهتي، ولكن الجميع استطاعوا أن يلاحظوا أنني لن أفوز بمسابقة التطريز لهذا اليوم أو أي يوم آخر.

بحلول فترة العصر المتأخر، وبين الشاي والمسابقات وترقبنا لحفل الليلة، بدأ القلق يتملكنا جميعاً. فجالت أمي ببصرها في أنحاء الغرفة متأملة الفتيات الصغيرات المتململات، وعيون أمهاتهن القلقة، وقدم زوجة عمي الرابع المتأرجحة، وابنة عمي المكتسة السمينة القصيرة، وهي تشد ياقتها الضيقة مراراً وتكراراً. فضممت يديَّ إلى بعضهما بشدة وجلست بهدوء قدر استطاعتي عندما نظرت أمي إليّ، ولكنني في أعماقي أردت أن أقفز وألوح بذراعي وأصيح من فرط الانفعال والبهجة.

تنحنحت أمي، فنظرت بضع نساء باتجاهها، ولكن الضجة المهتاجة ظلت متواصلة، فتنحنحت مجدداً، ونقرت بظفر إصبعها على إحدى الطاولات. واستهلت حكايتها بصوت موسيقي قائلة: "ذات يوم، كانت بنات سيد المطبخ السبع يستحممن في البركة عندما أتى إليهن راعي الأبقار جاراً ثوره".

وعندما ميزنا هذه الأبيات الافتتاحية التي تبدأ بها القصة المفضلة لدى كل امرأة وفتاة، ساد الصمت في الغرفة. فأومأت برأسي لأمي معترفة بشدة ذكائها لاختيارها هذه القصة لتهدئتنا. وأصغينا إليها وهي تسرد أحداث القصة التي سرق فيها راعي الأبقار الوقح ثياب ألطف ابنة من البنات، وهي العذراء الحائكة، وتركها وحدها في البركة والأسى يملأ قلبها.

قالت أمي: "عندما اشتد البرد في ليل الغابة، لم يعد لديها خيار

سوى أن تذهب إلى بيت راعي الأبقار لتستعيد ثيابها رغم ما شعرت به من إحراج. وعندما أدركت العذراء الحائكة أنها لا تستطيع أن تنقذ سمعتها إلا بطريقة واحدة، فقد قررت أن تتزوج راعي الأبقار. وماذا تظنن أنه حدث بعد ذلك؟".

صاحت تان زي ابنة مدام تان بصوت ثاقب قائلة: "لقد وقعا في الحب".

هذا هو الجزء من القصة الذي لم يتوقعه أحد. إذ لا أحد يتوقع أن تقع سيدة مبجلة في حب إنسان فانٍ في الوقت الذي غالباً ما يعجز فيه الأزواج، الذين تجمعهم زيجات مدبرة مسبقاً، عن العثور على الحب.

ثم تابعت تان زي فقالت: "وأنجبا الكثير من الأطفال، وعاش الجميع سعداء".

واصلت أمي قائلة: "إلى أن..." بانتظار أن تسمع إجابة من فتاة أخرى.

فأجابت زي مجدداً متجاهلة أمنيات أمي الواضحة: "إلى أن سئم الأسياد المبجلون من هذا وافتقدوا الفتاة التي اعتادت أن تغزل الحرير من الغيوم وتحوله إلى قماش لثيابهم وأرادوا استعادتها".

عبست أمي باستياء واضح، فقد نسيت هذه المدعوة تان زي نفسها تماماً وقد بدا عمرها لا يتجاوز التاسعة حسب تقديري. فألقيت نظرة خاطفة إلى قدميها وتذكرت أنها مشت بدون مساعدة عندما دخلت البيت اليوم. ولا بد أن أيام ربط قدميها قد ولت وطواها الماضي. وربما يكون حماسها نابعاً من قدرتها على المشي مجدداً، ولكن سلوكها رهيب!

قالت زي: "تابعي، أخبرينا المزيد".

أجفلت أمي وتابعت حديثها وكأن خرقاً آخر للفضائل الأربع لم يحدث من قبل قط. فقالت: "استدعت الملكة العذراء العليا الحائكة وراعي الأبقار إليها ثم أخذت دبوس شعر ورسمت مجرة لتفصل بينهما. وبهذه الطريقة، لم يعد هناك ما يشتت تركيز العذراء الحائكة على عملها وبقيت الملكة العليا مرتدية أجمل الثياب. وفي يوم السبعة المزدوجة ، يسمح الأسياد المبجلون لكل الغربان بتشكيل جسر علوي بأجنحتها لكي يتمكن العاشقان من أن يلتقيا. وبعد ثلاث ليالٍ من الآن، إن كنتن أيتها الفتيات مستيقظات بين ساعات منتصف الليل والفجر ووجدتن أنفسكن جالسات في ظل تعريشة كرمة تحت ضوء القمر، فسوف تسمعن صوت العاشقين وهما يبكيان لحظة فراقهما".

يا لها من فكرة رومانسية غلفتنا بإحساس دافئ! ورغم ذلك فمن المستحيل علي أيٍّ منا أن تجلس وحدها تحت تعريشة كرمة في ذلك الوقت من الليل ولو كان ذلك داخل أسوار مجمعنا الآمنة. وبالنسبة إلي علي الأقل، فلم يجد ذلك نفعاً في تخفيف حماستي المتقدة حيال حديقة الفاوانيا - ترى كم سيتوجب علي أن أنتظر بعد؟

حان وقت العشاء، فعدنا إلى حديقة الربيع وتجمعت النساء في مجموعات صغيرة. فجلست الأخوات مع بعضهن وبنات العم مع بعضهن، ولكن مدام تان وابنتها كن غريبتين هنا، فجلست زي بجانبي إلى طاولة البنات غير المتزوجات وكأنها ستتزوج قريباً وليست مجرد فتاة صغيرة. وكنت أعلم أنني سأدخل السرور على قلب أمي إن أبديت الاهتمام بضيفتنا، ولكنني شعرت بالأسف لأنني فعلت ذلك.

تبجحت زي قائلة: "إن والدي يستطيع أن يشتري لي أي شيء أريده". وأرادت بذلك أن تقول لي ولكل من يسمعنا إن عائلتها أكثر ثراء من عائلة تشين.

لم نكد ننهي وجبتنا حتى وصل إلى أسماعنا من الخارج قرع الطبول والصنوج يدعونا إلى الخروج إلى الحديقة. فأردت أن أظهر سلوكاً راقياً وأغادر الغرفة متمهلة، ولكنني كنت أول من وصل إلى الباب. ورأيت ضوء القناديل المرتعش وأنا أسير على طول الممر من حديقة الربيع وعلى حافة البركة المركزية لأعبر حديقة البهجة الدائمة - ثم عبرت من خلال بوابات القمر التي أحاطت بها أشجار المراكبية والخيزران ذات الأغصان المشتبكة. وعندما ارتفع صوت الموسيقى أجبرت نفسي على التمهل في سيري والتقدم بحذر لأنني أدركت أن الرجال الذين ليسوا من أفراد الأسرة قد وقفوا ضمن أسوار حديقتنا هذه الليلة. فإن صدف ورآني أحدهم سيوجه اللوم إلي لحدوث ذلك وستوضع علامة سيئة على شخصيتي. ولكنني اكتشفت أن الحرص والتأني يتطلبان سيطرة على النفس أكثر مما ظننت. إذ إن الأوبرا كانت على وشك أن تبدأ. فأردت أن أعيش كل لحظة من لحظاتها بكل جوارحي.

وصلت إلى المنطقة المخصصة للنساء وجلست على وسادة موضوعة قرب طيات الستارة لكي أتمكن من أن أختلس النظر من الشق. فلم أكن سأتمكن من أن أرى الكثير، ولكن هذا كان يفوق حدود توقعاتي وآمالي. أتت النساء والفتيات الأخريات خلفي وجلسن على الوسائد. وتملكني انفعال

شديد بحيث إنني لم أمانع عندما جلست تان زي إلى جانبي.

أمضى والدي بصفته مخرج العرض أسابيع وهو حبيس إحدى القاعات الجانبية مع الممثلين. وكان قد استخدم جماعة ممثلين مسرحيين مؤلفة من ثمانية أعضاء، كلهم من الرجال، مما أثار استياء أمي إلى حد رهيب، لأن هؤلاء الناس ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع وأشدها وضاعة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أجبر والدي بعض خادمات بيتنا، بمن فيهم شجرة الصفصاف وغيرها، على لعب أدوار متنوعة.

قالت لي شجرة الصفصاف برهبة في أحد الأيام: "إن هذه الأوبرا تحوي خمسة وخمسين مشهداً". وكأنني لا أعرف ذلك مسبقاً. وكان تمثيل الأوبرا كاملة سيستغرق أكثر من عشرين ساعة. ورغم أنني سألت شجرة الصفصاف مراراً، فلم تخبرني أي مشاهد حذفها أبي. وقالت مستمتعة بهذه الفرصة التي سنحت لها لعصياني: "إن والدك يريد أن يبقيها مفاجأة". وعندما أصبحت تجارب الأداء أكثر صعوبة وتطلباً، انتشر الذعر في أنحاء البيت ولا سيما عندما استدعى أحد أعمامي الخدم بالمياه غليونه فلم يملأه أحد وطلبت إحدى العمات ماء ساخناً لحمامها ولكن بلا جدوى. وقد عانيت أنا أيضاً من بعض الانزعاج لأن شجرة الصفصاف أصبحت مشغولة بعد أن أعطيت دوراً مهماً، وهو دور عطر الربيع، خادمة بطلة القصة.

بدأت الموسيقى. فخطى الراوي إلى الأمام، وقدم موجزاً سريعاً للمسرحية مؤكداً أن اشتياق ليو مينغمي ودو ليننيانغ استمر لثلاثة تناسخات قبل أن ينتصر حبهما. ثم قابلنا البطل الشاب، وهو طالب فقير توجب عليه أن يهجر بيت أسلافه ليخضع للامتحانات الإمبراطورية، واسم عائلته هو ليو، ويعني الصفصاف. ثم تذكر البطل حلماً راوده عن فتاة جميلة واقفة تحت إحدى أشجار الخوخ. وعندما استيقظ، اتخذ اسم مينغمي، أي: حلم الخوخ. وكانت شجرة الخوخ، بخضرتها الكثيفة وفاكهتها الناضجة توحي للأذهان بقوى الطبيعة الحيوية، لذا فقد أوحى ذلك الاسم بطبيعة مينغمي العاطفية. أصغيت بانتباه، ولكن لطالما انشغل قلبي بالبطلة ليننيانغ، وشعرت أنني بالكاد أطيق الانتظار لرؤيتها.

اعتلت البطلة خشبة المسرح لتمثيل مشهد بعنوان عتاب الابنة . وكانت ترتدي رداء من الحرير الذهبي وعليه تطريز أحمر وتضع غطاء رأس محلى بكرات ناعمة من الحرير المغزول وفراشات من خرز وزهور تهتز كلما حركت رأسها.

غنت مدام دو مخاطبة زوجها: "إننا نعتز بابنتنا كاللؤلؤة المكنونة" ،

ولكنها وبخت ابنتها قائلة: "إنك لا تريدين أن تكوني جاهلة، أليس كذلك؟".

أضاف الحاكم دو، والد لينانغ، قائلاً: "لا ينبغي للفتاة المؤهلة أن تقصر في التعليم، لذا خذي استراحة من تطريزك واقرأي الكتب التي على الرف".

ولكن النصح لم يبدُ كافياً لتغيير سلوك لينانغ، وهكذا سرعان ما أصبحت تتعلم مع خادمتها عطر الربيع على يد المعلم تشين. فأصابها الملل من الدروس الرتيبة واستظهار القواعد التي كنت أعرفها حق المعرفة، مثل: يجب على الفتاة أن تستيقظ عند انبلاج الفجر وتغسل يديها وفمها وتغطي شعرها وتزينه بالدبابيس ثم تقدم الاحترام لوالدتها ووالدها.

لطالما سمعت أشياء من هذا القبيل بالإضافة إلى نصائح مثل: لا تظهري أسنانك عندما تبتسمين وامشي بتؤدة وثبات وأظهري طهارتك وجمالك وتعاملي باحترام مع زوجات أعمامك، واستخدمي المقص لتشذيب أي خيوط منسولة أو سائبة على أثوابك.

لم تستطع عطر الربيع المسكينة أن تحتمل الدروس، فتوسلت أن يتم صرفها لتذهب وتقضي حاجتها. فضحك الرجال عندما انثنت شجرة الصفصاف نصفين وراحت تتلوى، وأحرجني أن أراها تتصرف هكذا، ولكنها لم تفعل إلا ما أرشدها والدي للقيام به، وهذا ما سبب لي الصدمة.

شعرت بالانزعاج لرؤية ذلك وتركت عيني تجولان بعيداً عن المسرح. فرأيت الرجال، ومعظمهم جالسون وظهورهم باتجاهي، ولكن بعضهم جلسوا بشكل مائل بحيث إنني استطعت أن أرى جانب وجوههم. وقد كنت فتاة عذراء، ولكن هذا لم يمنعني من استراق النظر، وكان هذا تصرفاً وقحاً، ولكنني عشت خمسة عشر عاماً لم ارتكب فيها عملاً واحداً يمكن لأحد من عائلتي أن يصفه بأنه غير لائق.

لمحت عيناي رجلاً يدير وجهه لينظر إلى رجل جالس بجانبه على الكرسي. ولاحظت عظمتي وجنتيه البارزتين المرتفعتين وعينيه الواسعتين اللطيفتين وشعره الأسود الفاحم كالمغارة المظلمة. وكان يرتدي رداء كحلي اللون ذا تصميم بسيط. وكانت مقدمة رأسه حليقة احتراماً لإمبراطور المانشو وضفيرته الطويلة مثنية بارتخاء على إحدى كتفيه. رفع يده إلى فمه ليهمس لصديقه، فتخيلت في تلك الإيماءة الكثير: اللطف والرقي وحب الشعر. ثم ابتسم مظهراً أسناناً بيضاء مثالية وعينين تلمعان مرحاً. وذكرني مظهره الناعس وأناقته بالقط: فهو طويل ونحيل ورشيق وذكي وواثق من نفسه.

وبالمختصر، لقد كان وسيماً. وعندما أدار وجهه لينظر إلى المسرح ويشاهد الأوبرا، أدركت أنني حبست أنفاسي طوال مدة نظري إليه. فزفرت ببطء، وحاولت أن أركز نظري على المسرح. فرأيت عطر الربيع تعود، وهي تشعر بالراحة، حاملة أخباراً عن حديقة كانت قد عثرت عليها بالصدفة.

عندما قرأت هذا الجزء من القصة، شعرت بالتعاطف مع ليناينغ التي عاشت حياة منعزلة جداً لدرجة أنها لم تعرف حتى إن عائلتها تملك حديقة، وأمضت حياتها بطولها بين أربعة جدران. والآن حاولت عطر الربيع أن تغري سيدتها بالخروج للنظر إلى الأزهار وأشجار الصفصاف والشرفات. فتملك الفضول ليناينغ، ولكنها أخفت اهتمامها بكل براعة عن ملاحظة خادمتها.

انقطع الهدوء والرقة بصوت بوق يعلن بداية مشهد السرعة والحصاد . فتوجه الحاكم دو إلى الريف ليوصي المزارعين والرعاة والفتيات اللواتي يقطفن التوت والشاي بأن يعملوا بجد في الموسم القادم. وراح البهلوانيون البهيجة المزينة الأزياء ذوو والرجال ' الطوالي على سائرين والمهرجون كان لقد .ريفية ورقصات أغاني خادماتنا وأدت .الحديقة أنحاء في يترنحون عالم عن تخيلته ما بكل يطلق معنى من للكلمة ما بكل رجولياً مشهداً أصوات وتنافر بها المبالغ الوجوه وتعبيرات المتهورة بالحركات أي :الرجال وحاولت .هذا النغمات تنافر عن عيني أغمضت .والطبول والثرثرة النواقيس .قلبي فهدأ .الخاصة أفكاري بهدوء لأتأمل ذاتي أعماق إلى أنسحب أن قليل قبل لمحته الذي الرجل الستارة شق من رأيت .عيني فتحت وعندما به؟ شعرت بما شعر قد يكون أن أيمكن .مغمضتان وعيناه

جذب أحدهم كمي. فنظرت إلى يميني ورأيت وجه تان زي الصغير النحيل وهي تحدق إلي بإمعان. وقالت: "هل تحدقين إلى ذلك الرجل الجالس هناك؟".

رمشت بعيني عدة مرات، وحاولت أن أستعيد هدوئي بأن أخذت بضعة أنفاس.

فأفضت إلي قائلة: "لقد كنت أنظر إليه أيضاً". ولاحظت أنها تتصرف بجرأة تفوق سنها. ثم تابعت قائلة: "لا بد أنك مخطوبة مسبقاً، ولكن أي". وراحت ترمقني بنظرة ذكية قائلة: "لم يرتب زواجي بعد، فهو يقول إن الاضطرابات التي تعم البلاد تجعل من الصعب على المرء أن يتخذ قراراً مبكراً في هذه الأمور. إذ لا يعلم المرء أي عائلة سيترفع شأنها في المجتمع وأيها سينحدر شأنها. ويقول والدي إنه من المريح أن يزوج المرء

ابنته برجل متوسط الحال".

تساءلت بيني وبين نفسي: أهناك وسيلة لإخراس هذه الفتاة؟

استدارت زي لتواجه الستارة واسترقت النظر من خلال الشق، وقالت: "سأطلب من والدي أن يقوم بالاستفسار عن عائلة ذلك الرجل".

قالت ذلك، وكأنها تملك حرية الاختيار في زواجها! لا أعرف لماذا حدث ذلك، ولكنني أصبحت غيورة وغاضبة لأنها ستحاول أن تسرقه لنفسها. ومع ذلك، فلا أمل لي مع الشاب لأنني مخطوبة سلفاً، كما قالت زي. ولكنني أردت أن أحلم طوال الليالي الثلاث التي ستعرض بها الأوبرا أحلاماً رومانسية، وأتخيل أن حياتي قد تنتهي نهاية مفعمة بالحب كحياة ليننانغ.

صرفت كلمات زي عن أفكاري وعدت إلى الأوبرا لأتابع مشهد الحلم المقطوع . أخيراً، غامرت ليننانغ بالخروج إلى حديقتها، أي حديقتنا. فمرت لحظة جميلة عندما رأتها للمرة الأولى. وتأسفت ليننانغ على جبال الأزهار المخبأة في مكان لا يزوره أحد. ولكنها رأت أيضاً الحديقة نسخة عن نفسها، أي في كامل تفتحها ونضجها ولكنها مهملة ومهجورة. فقاسمتها شعورها وتحركت في داخلي الأحاسيس نفسها التي تحركت في داخلها.

عادت ليننانغ إلى غرفتها وغيرت ملابسها، وارتدت رداء مطرزاً ببراعم الفاوانيا، وجلست أمام المرآة متسائلة عن طبيعة جمالها الفاني كما فعلت أنا صباح هذا اليوم. وجعلت تغني قائلة: "أشفقوا على فتاة جمالها يتفتح كزهرة يانعة عندما لا تستمر الحياة أكثر من عمر الورقة على الشجرة". ففهمت كم يمكن لروعة الربيع أن تكون مزعجة ووقتية. ثم قالت: "أخيراً أدركت ما يعنيه الشعراء بقصائدهم. ففي الربيع تتحرك العواطف وفي الخريف لا يبقى إلا الندم. ترى هل سأقابل رجلاً يوماً ما؟ هل سيجد الحب طريقه إلى قلبي؟ أين سأكشف عن رغباتي الحقيقية؟".

عندما أنهكتها كل المشاعر التي تملكتها، غلبها النوم. فطافت في حلمها إلى حديقة الفاوانيا . وهناك ظهر أمامها ليو مينغمي، وكان مرتدياً رداء عليه نقش الصفصاف وحاملاً غصناً من شجرة الصفصاف. فداعب ليننانغ بأوراق الغصن بلطف وتبادلا كلمات ناعمة. وطلب منها أن تنظم قصيدة عن الصفصاف. ثم رقصا معاً. وبدت ليننانغ رقيقة وناعمة الحركات بحيث إن رقصها كان أشبه بموت دودة الحرير لشدة نعومته ولطفه.

اصطحبها مينغمي إلى كهف الحديقة الوعر، وعندما ابتعدا عن الأنظار، لم أسمع إلا صوت مينغمي المغري وهو يلاطفها بكلماته العذبة.

لطالما حاولت وأنا وحدي في سريري عبثاً أن أتخيل ما حدث في

كهف حديقة الفاوانيا الوعر. ومع ذلك، فلم أستطع أن أفهم ما يجري لأنني ما زلت فتاة غير متزوجة.

وفي نهاية المشهد، انهال شلال من أوراق الفاوانيا وتساقط من فوق كهف الحديقة. فشرعت لينيانغ تغني واصفة السعادة التي ملأت قلبها وهي بصحبة حبيبها.

وعندما استيقظت لينيانغ من حلمها، أدركت أنها عثرت على الحب الحقيقي. طلبت الخادمة عطر الربيع من لينيانغ أن تتناول طعامها، بناء على أوامر مدام دو، ولكن من أين لها بأي شهية للأكل؟ فثلاث وجبات في اليوم لا تخبئ أي وعود وردية وأي حب حقيقي. تسللت لينيانغ بعيداً عن خادمتها وعادت إلى الحديقة لتستأنف حلمها. ورأت الحديقة مفروشة بأوراق الورد. فتشبثت أغصان شوكية بتنورتها وسحبتها لتبقيها في الحديقة، وهناك عاودتها ذكريات حلمها، فترنمت قائلة: "هناك على الصخرة انحنيت بجسدي اللين المطواع". وتذكرت كيف فرشت طيات تنورتها غطاء للأرض خوفاً من عيون السماء ". إلى أن ذابت أحاسيسها وانسابت مشاعرها العذبة.

تلكأت تحت شجرة خوخ محملة بالفاكهة الناضجة، ولكنها ليست مجرد شجرة خوخ عادية. إنها شجرة ترمز بحيويتها وخصبها إلى حبيب أحلام لينيانغ الغامض. فأنشدت لينيانغ قائلة: "سيكون الحظ حليفي إن دفنت هنا بجانبها حين تحين منيتي" .

لطالما دربتني أمي على كتمان مشاعري، ولكن عندما قرأت حديقة الفاوانيا تملكتني مشاعر مختلفة: كالحب والحزن والسعادة. أما الآن، وأنا أرى المسرحية تمثل أمامي وأتخيل ما حدث في الكهف الصخري بين مينغمي ولينيانغ وأرى شاباً ليس من عائلتنا للمرة الأولى، لقد خالجتني مشاعر كثيرة وجعلتني أود أن أنأى بنفسي ولو للحظة واحدة. وشعرت بقلق لينيانغ يتسرب كالرعشة في أوصالي.

نهضت ببطء وخطوت بحذر بين الوسائد، ثم مشيت على طول أحد ممرات الحديقة وكلمات لينيانغ تملأ قلبي بالحنين. حاولت أن أهدئ بالي وسمحت لعيني أن تعثر على السكينة في الخضرة المحيطة بي. ولم تكن هناك زهور تنمو في حديقتنا الرئيسة وإنما سادت الخضرة في المكان مضفية شعوراً بالهدوء. اجتزت الجسر المتعرج الذي يعبر إحدى برك الزنبق الصغيرة ودخلت حديقة هبوب الرياح حيث تبرد النسمات الناعمة في أمسيات الصيف وجهاً حاراً أو قلباً ملتهباً. جلست وتركت نسيم الحديقة يهدئ من

روحي. لقد أردت من كل قلبي أن أختبر كل لحظة من الأوبرا. ولكنني لم أكن مهيئة للشعور الجارف الذي داهمني كالسيل.

وصلت إلى سمعي ألحان الموسيقى عبر الليل حاملة معها قلق مدام دو من فتور ابنتها. ولم تدرك مدام دو حقيقة الأمر بعد. ولكن ابنتها كانت عاشقة. أغمضت عيني، وأخذت نفساً عميقاً وأنا أشعر بتلك المعرفة تتسرب إلى أعماقي.

ثم سمعت صدى أنفاسي يتردد قربي. ففتحت عيني ورأيت شاباً واقفاً أمامي. وكان الشاب نفسه الذي رأيته من شق الستارة.

أفلتت من بين شفتي صرخة مفاجئة صغيرة قبل أن أمالك نفسي. ولكن كيف يسعني أن ألتزم الهدوء؟ فقد كنت وحدي مع رجل ليس من أقاربي. والأسوأ من ذلك هو أنه غريب تماماً.

انحنى الشاب عدة مرات واعتذر شديد الاعتذار.

راح قلبي يخفق بشدة من الخوف والإثارة ومن مجرد غرابة الموقف. ولا بد أن ذلك الشاب كان من أصدقاء والدي. فتوجب عليّ أن أتحلى بالكياسة وأن أحافظ على اللباقة في الوقت نفسه. فقلت بتردد: "ما كان ينبغي أن أغادر العرض. إنها غلطتي أنا".

"ما كان ينبغي أن أغادر أنا أيضاً". فخطا خطوة إلى الأمام فارتد جسدي إلى الوراء في استجابة عفوية. وقال الشاب: "ولكن حب هذين الاثنين..." ثم هز رأسه قائلاً: "تخيلي العثور على الحب الحقيقي".

"لقد تخيلت ذلك مراراً".

شعرت بالأسف حالما غادرت الكلمات فمي. فهذه ليست الطريقة الملائمة للتحدث إلى رجل سواء أكان غريباً أم زوجاً. وكنت أعلم ذلك. ومع ذلك، فقد فلتت الكلمات من لساني. فوضعت أصابعي على شفتي على أمل أن أمنع الكلمات من الإفلات.

قال لي: "وكذلك أنا". ثم تقدم خطوة أخرى إلى الأمام، وقال: "ولكن ليتيانغ وميتغمي يجدان بعضهما بعضاً في الحلم ويقعان في الحب".

فقلت له: "إنك ربما لا تعرف الأوبرا. إنهما يلتقيان فعلاً. ولكن ليتيانغ تطارد ميتغمي فقط بعد أن تصبح شبحاً".

"إنني أعرف القصة. ولكنني لا أتفق معك. إذ يجب على العالم أن يتغلب على خوفه من الشبح...".

"إن خوفه ينشأ فقط بعد أن تحاول إغراءه".

كيف استطعت أن أتفوه بتلك الكلمات؟

فقلت: "يجب أن تسامحني. فأنا مجرد فتاة جاهلة، ويجب أن أعود إلى العرض".

"كلا، انتظري، أرجوك لا تذهبي".

نظرت من خلال الظلام إلى المسرح. لقد انتظرت طوال حياتي لأن أرى الأوبرا. واستطعت أن أسمع لينيانغ وهي تغني قائلة: "في ثوبي الرقيق أرتجف ولا يبقيني من برد الصباح إلا الندم وأنا أرى دموع الورود الحمراء ترتجف على الغصن". أصابت لوعة الحب لينيانغ بالضعف. فهزل جسدها وذبل حتى قررت أن ترسم لنفسها لوحة على الحرير. وهكذا، فإن غادرت العالم بقيت ذكراها حية وظلت صورتها ناضجة بالجمال والرغبة غير المحققة، تماماً كما بدت في الحلم. ويشكل هذا العمل، حتى بالنسبة إلى فتاة حية، دليلاً ملموساً على لوعة عشق لينيانغ لأنه يسلم بحتمية موتها ويتوقعه. أمسكت ريشتها الناعمة، ورسمت غصن الخوخ على أمل أن يعرفها حبيبها إن صدف ورأى اللوحة. وأخيراً، أضافت قصيدة تعبر عن رغبتها في أن تتزوج شخصاً يدعى ليو.

كيف استطاع أي شيء أن يغريني بالابتعاد عن الأوبرا؟ وكيف استطاع رجل أن يفعل ذلك؟ ولو أنني فكرت بالمنطق حقاً، لأدركت على الفور لماذا يعتقد بعض الناس أن حديقة الفاوانيا تغري الشابات باتباع سلوك غير لائق.

لا بد أنه شعر بترددي، فكيف يمكنه ألا يشعر به؟ لأنه قال: "لن أبوح لأحد عن لقائنا. لذا من فضلك ابقي معي. لم تسنح لي الفرصة قط أن أسمع رأي امرأة بهذه الأوبرا".

امرأة؟ لقد بدأ الوضع يزداد سوءاً. خطوت بجانبه وأنا حريصة على ألا يلمس أي جزء من ثيابي ثيابه.

ثم تكلم: "إن المؤلف يقصد أن يحرك مشاعر الحب لدى الأنثى نحونا نحن الرجال. إنني أشعر بمغزى هذه القصة، ولكنني لا أعرف إن كان ما أمر به صحيحاً".

وقفنا على بعد مسافة سنتيمترات من بعضنا. فالتفت ونظرت إلى وجهه. ووجدت ملامحه أكثر رقياً مما تخيلت. وفي ضوء القمر الخافت، رأيت وجنتيه المرتفعتين والدفء الذي يغمر عينيه وامتلاء شفتيه.

"أنا..." فتلاشى صوتي وعجزت عن الكلام بينما راح هو ينظر إلى عينيَّ باحثاً عن معنى. فتنحنحت وقلت: "كيف يمكن لفتاة منعزلة من عائلة راقية..."

"فتاة مثلك؟".

"... أن تختار زوجها؟ إن هذا ليس ممكناً بالنسبة إليَّ. ولم يكن ممكناً بالنسبة إليها أيضاً".

"أتعتقدين أنك تستطيعين أن تفهمي ليبانغ أكثر من مؤلف الأوبرا؟".

فقلت له: "إنني فتاة من العمر نفسه. وأعتقد بواجب الطاعة للأبوين. وسوف أتبع الطريق الذي حدده لي والدي. ولكن الأحلام تراود الفتيات حتى لو كانت مصائرهن محددة".

سألني قائلاً: "إذاً، تراودك أحلام ليبانغ نفسها؟".

"إنني لست واحدة من أولئك الفتيات الرخيصات اللواتي تصادفهن في قوارب المتعة، إن كان هذا مغزى كلامك".

وفجأة توهج وجهي من شدة الإحراج، فقد تفوهت بالكثير. وحدقت إلى الأرض. وبدا حذاء قدمي المربوطتين صغيراً وضئيلاً مقارنة بخفه المطرز. شعرت بعينيه تحدقان إليَّ وتقت إلى أن أرفع نظري، ولكنني عجزت عن ذلك. فأطرقت بعيني أرضاً وغادرت الحديقة.

ناداني بصوت خافت وسألني: "أتقابلينني غداً؟" ثم أتبع ذلك بطلب أقوى فقال: "قابليني غداً ليلاً. قابليني هنا".

لم أستطع أن أجيب أو ألتفت إلى الوراء. وبدلاً من ذلك، توجهت مباشرة إلى حديقتنا الرئيسة وشققت طريقي بحذر بين النساء الجالسات نحو الوسادة الموضوعة أمام طية الستارة. نظرت حولي على أمل ألا تكون إحداهن قد لاحظت غيابي، ثم جلست وأجبرت نفسي على النظر من خلال الشق لأشاهد العرض، ولكن لم يسعني تركيز انتباهي، وعندما رأيت الشاب يعود إلى مقعده، أغمضت عيني. إذ لم أكن لأسمح لنفسي بالنظر إليه. فجلست هناك وعيناي مغمضتان بإحكام والموسيقى والكلمات تتسربان إلى داخلي.

بدأت ليبانغ تحتضر بعد أن أضناها الحب. فأتى أحدهم إلى البيت وقام ببعض الأمور الغريبة، ولكن دون جدوى. وبحلول مهرجان قمر الخريف ، أصبحت ليبانغ ضعيفة جداً وشعرت بجسمها خدراً وواهناً. وتسرب برد الخريف إلى عظامها، وهطل المطر البارد على النوافذ، وعبرت أسراب الإوز السماء الكئيبة. وعندما أتت أمها لتراها، اعتذرت ليبانغ لأنها لن تخدم أبويها إلى نهاية حياتهما. فحاولت أن تنحني لهما احتراماً ثم سقطت مغمياً عليها. وعندما استشعرت نهايتها الوشيكة توسلت عائلتها أن تدفنها في الحديقة تحت شجرة الخوخ. وطلبت سراً من عطر الربيع أن

تخفي لوحتها في كهف الحديقة حيث تعاهدت وحبيبها على الإخلاص في حبهما.

فكرت في الشاب الذي التقيته. ولم يكن قد لمسني، ولكنني اعترفت وأنا جالسة هناك في الجانب المخصص للنساء من الستارة أنني تمنيت لو أنه فعل ذلك. وعلى خشبة المسرح خارجاً، فارقت لينيانغ الحياة. فتجمع المحزون لينشدوا أناشيد العزاء بينما راح والداها ينتحبان من شدة تعاستهما. ثم حدث تغيير مفاجئ للأحداث. فقد وصل مبعوث برسالة من الإمبراطور. ولم يعجبني ذلك الجزء من القصة كثيراً. فقد نال الحاكم دو ترقية. وبدأ احتفال كبير، ولكن كيف استطاعت عائلة دو أن تنسى حزنها بهذه السرعة إن كانت تحب ابنتها كثيراً؟ وفوق كل ذلك، فقد نسي والدها حتى أن يضع نقطة على لوح الأسلاف الخاص بها، وهذا ما تسبب لها بمشاكل كثيرة في المستقبل.

عندما انتهت الأمسية وأويت إلى فراشي لأنام، وجدت نفسي ممتلئة بحنين عميق يكاد يأخذ بأنفاسي.

الفصل الثاني

قفص الخيزران والطلاء اللامع

•

في صباح اليوم التالي، هيمنت جدتي على أفكاري. وشعرت بالحيرة بين رغبتي في مقابلة الغريب مجدداً الليلة وبين الدروس التي تعلمتها منذ الطفولة عن السلوك الملائم الذي ينبغي لي أن أتبعه في حياتي. ارتديت ملابسي واستعددت للذهاب إلى قاعة الأسلاف. وكان الطريق إلى هناك طويلاً، ولكنني رحت أتأمله وكأنني لم أره آلاف المرات من قبل. وكان قصر عائلة تشين يحوي قاعات ضخمة وباحات واسعة وحدائق جميلة تمتد إلى شاطئ البحيرة الغربية. ولطالما ذكرتني وعورة كهوفنا الصخرية بما يعنيه التحمل والقوة في الحياة. ورأيت اتساع البحيرات والأنهار المتعرجة في بحيراتنا وجداولنا الاصطناعية. وتعرفت على الغابات في أشجار الخيزران التي تملأ حدائقنا. ومررت بشرفة تجمع الجمال ، وهي مكان مرتفع للمشاهدة يسمح للفتيات غير المتزوجات في بيتنا أن يتفرجن على الزوار في الحديقة دون أن يراهن أحد. ومن هناك، وصلت إلى سمعي أصوات العالم الخارجي: كعزف الناي الناعم الذي راح يطفو عبر البحيرة ويتسلل بإغراء من فوق سور الحديقة إلى بيتنا. وسمعت أصوات أشخاص يعيشون في العالم الخارجي، كصوت بائع ينادي على بضاعته وجدالاً بين اثنين من المراكبية وصوت ضحك النساء الناعم على أحد قوارب المتعة. ولكنني لم أر ذلك كله.

دخلت القاعة التي تحتفظ فيها عائلتي بألواح أسلافها. وكانت الألواح، وهي عبارة عن رقاقات من الخشب نقشت عليها أسماء الأسلاف بأحرف مموهة بالذهب، معلقة على الجدران. فعلقت هنا ألواح جدي وأخواتهما وإخوتهما وعدد لا حصر له من أبناء الأعمام والعمات الذين ولدوا في عائلة تشين وعاشوا وقضوا أعمارهم فيها.

أشعلت البخور وركعت على إحدى الوسائد وتأملت الكتابة المنقوشة على لوحة سلف العائلة الأكبر الموضوعة على الطاولة. وإلى يسارها، رأيت لوحة لجدي الذي كان عالماً إمبراطورياً قدم إلى عائلتنا المكانة والأمان والثروة. فبدا في اللوحة جالساً مرتدياً أرديته، وبدت ساقاه منفرجتين وممسكاً مروحة مفتوحة في يده، وكانت ملامحه متجهمة والجلد المحيط

بعينيه مجدداً من الحكمة والقلق. لقد كنت في الرابعة من عمري عندما توفي فلا أذكر عنه سوى أنه كان رجلاً يجيد الصمت ولا يطيق وجود أمي أو غيرها من النساء الأخريات في عائلتنا.

إلى يمين طاولة مقتنيات الأسلاف الخاصة رأيت لوحة أخرى لجدتي. فبدت لي ملامحها قاسية وصارمة. وكانت تتمتع بموقع شرف كبير في عائلتنا وفي البلاد أجمع بعد أن قتلت نفسها أثناء وقوع الجائحة. وفي السنوات التي سبقت تضحيتها، كان جدي عالماً إمبراطورياً في يانغجو. فتركت جدتي قصر عائلة تشين هنا في هانغجو وسافرت لمدة يومين بالقارب وبالمحفة لتعيش معه في يانغجو. ثم ذهب والداي إلى يانغجو ليزوراهما غير مدركين أن الكارثة باتت وشيكة. وبعد وصولهما بوقت قصير، غزى السلابون المانشو المدينة.

عندما سألت أمي عن تلك الفترة، قالت لي: "لست بحاجة إلى معرفة ذلك". وفي إحدى المرات، وأنا في الخامسة من عمري، دفعتني وقاحتي إلى أن أسألها إن كانت قد رأت جدتي تشين لحظة موتها. فصفعتني أمي بشدة حتى أوقعتني على الأرض، وقالت: "لا تسأليني عن ذلك اليوم أبداً". لم تعاود أمي ضربي مرة أخرى أبداً، ولا حتى خلال فترة ربط قدمي، ولكنني لم أسألها عن جدتي مجدداً قط.

إن أسمى هدف تستطيع المرأة أن تبلغه في الحياة هو أن تكون أرملة عفيفة ترفض الزواج مرة أخرى ولو عنى ذلك أن تقضي على حياتها. ولكن جدتي قامت بعمل أسمى من ذلك وأجل، فقد آثرت أن تقتل نفسها على أن تستسلم للجنود المانشو. وأصبحت تعد مثالاً استثنائياً للعفة الكونفوشيوسية حالما أنشأ المانشو بلاط سلالة كينغ الحاكمة. فاختاروها كشخصية مبجلة في القصص والكتب التي تقرأها النساء إن كن يأملن أن يرتقين إلى حدود الزوجات والأمهات اللواتي لا غبار عليهن وأن يعززن أمثلة الإخلاص والإحسان للوالدين. وقد بقي المانشو أعداء لنا، ولكنهم استغلوا أمثولة جدتي والنساء الأخريات اللواتي ضحين بأنفسهن خلال الكارثة ليكسبوا احترامنا ويعيدوا النظام إلى حجرات النساء من جديد.

وضعت قرابين الدراق الأبيض الفاخر على الطاولة.

وهمست لها على أمل أن ترشدني قائلة: "هل أتقيه؟ ساعديني، يا جدتي ساعديني". وضعت جبهتي على الأرض دلالة على الإجلال ثم رفعت نظري إلى اللوحة لأدعها ترى إخلاصي وانحنيت مجدداً. ثم نهضت وملست تنورتي، وغادرت الغرفة وأمنياتي تطفو إلى جدتي مع دخان البخور المتصاعد.

ولكنني لم أشعر أنني ازددت ثقة على ما كنت عليه حين دخلت.

وجدت شجرة الصفصاف تنتظرني في الخارج.

فقالت: "تقول أمك إنك تأخرت على الفطور في حديقة الربيع. أعطيني ذراعك يا آنستي الصغيرة، وسوف أصطحبك إلى هناك".

لقد كانت خادمتي، ولكنني أطعتها.

بحلول ذلك الوقت، بدأت الممرات تصطخب بالنشاط. فقد أصبح قصر عائلة تشين موطناً لعدد هائل من الناس، من بينهم أقارب الدم والمحظيات وأطفالهن، وكلهن من البنات، والطاهيات وعاملات البستنة والمربيات والخادمات وغيرهن. والآن بعد أن حل مهرجان السبعة المزدوجة ازداد عدد الناس في بيتنا. وبوجود الكثير من الناس في البيت أصبح مجمعنا مصمماً لإبقاء كل فئة من السكان في مكانها الملائم. وهكذا، فقد تناولت محظياتنا العشر وبناتهن الثلاث والعشرين فطورهن هذا الصباح في قاعتهن الخاصة. وبقيت ثلاث من بنات الأعمام وصلن إلى مرحلة حرجة من عملية ربط أقدامهن محتجزات في غرفهن. وخلافاً لذلك، فقد جلست النساء في حديقة الربيع كلٌ حسب رتبتها. فاحتلت أمي بصفتها زوجة الأخ الأكبر موقع الشرف في الغرفة وجلست مع زوجات أعمامي الأربع حول طاولة واحدة، بينما جلست خمس من بنات الأعمام حول طاولة أخرى مع خادماتهن. وجلست أنا برفقة بنات عمي اللواتي من مثل سني حول طاولة مستقلة. وتجمعت ضيفاتنا في مجموعات حسب أعمارهن ومواقعهن. وفي الزاوية، جلست الخادمات والمربيات ليعتنين بالرضع والفتيات تحت سن الخامسة.

دخلت متبخترة على قدمي الناعمتين كزهرتي زنبق، وتمايلت بنعومة على الأرض وأنا حريصة على كل خطوة أخطوها وجسدي يرفرف كزهرة في النسيم، وعندما جلست، لم تنتبه بنات عمي لوجودي وتجاهلنني تماماً بشكل يتنافى مع الذوق. وبطبيعة الحال، لم آبه لذلك كثيراً. فقد كنت أقول لنفسي إنني مخطوبة سلفاً وعلى وشك الزواج ولم يعد أمامي إلا خمسة أشهر لأمضيها بصحبتهن. ولكن بعد اللقاء الذي حدث في حديقة هبوب الرياح الليلة الماضية، بدأت أشك في مستقبلي.

لقد جمعت بين والدي ووالد زوجي صداقة متينة منذ أيام الطفولة. وعندما تزوج كل واحد منهما تعاهدا أن يوحدا بين عائلتيهما من خلال أطفالهما. فأنجبت عائلة وو ابنين. أما أنا فاستغرقت وقتاً طويلاً حتى وصلت. وقبل ذلك بوقت طويل تمت ملاءمة صفاتي الثماني مع صفات الابن الأصغر. ففرح والداي فرحاً شديداً، ولكن ذلك لم يجعلني أشعر بأي إثارة،

وخاصة الآن، إذ إنني لم أقابل وو رين على الإطلاق، فلم أعلم إن كان يكبرني بعامين أو عشرة أعوام وإن كان وجهه مليئاً بعلامات البثور أو إن كان قصيراً وسميناً وشريراً، ولكنني لم أتلق أي تحذيرات من أمي أو أبي. فأيقنت أن الزواج برجل غريب تماماً هو مصيري الذي لا مفر منه، ولكنه ليس بالضرورة مصيراً سعيداً.

قالت لي المكنسة، ابنة شقيق أبي الأصغر: "إن عذراء اليشب ترتدي لون اليشب اليوم". وقد كان لها اسم زهرة مثل بقيتنا، ولكننا لم نناد به. فقد جعلها سوء طالعها تولد في يوم كان فيه نجم المكنسة واضحاً، وهذه دلالة على أن العائلة التي ستتزوج أحد أبنائها لن يكون الحظ الجيد حليفها، وكانت زوجة عمي الثاني رقيقة القلب، ونتيجة لذلك فقد اكتسبت المكنسة جسماً بديناً ومستديراً كجسم امرأة تجاوزت عمر الإنجاب. فشلت زوجات أعمامي الأخريات، بمن فيهن أمي، حملة لمنعها من الإفراط في الأكل، على أمل أن ينزاح سوء طالعها عن بيتنا حالما تتزوج.

أضافت زهرة اللوتس، ابنة العم الثالث، بلطف: "لا أعتقد أن هذا اللون يناسب بشرتك، وأنا واثقة من أن هذا أمر مؤسف لأن تسمحه عذراء اليشب".

احتفظت بابتسامة على وجهي، ولكن كلماتهما جرحتني في الصميم. فلطالما قال والدي إنني عذراء اليشب وإن زوجي المستقبلي هو الفتى الذهبي، مما يعني أن عائلتينا متساويتان في الثروة والمكانة. وجدت نفسي أتساءل عن الشاب الذي قابلته الليلة الماضية وفيما إذا كان والدي سيجده مقبولاً.

تابعت زهرة اللوتس بتعاطف قائلة: "ولكنني سمعت أن الفتى الذهبي فقد شيئاً من بريقه. أليس هذا صحيحاً، يا زهرة الفاوانيا؟".

كلما تفوهت بنات عمي بأشياء من هذا القبيل، رددت عليهن، إذ كان يتوجب علي ذلك وإلا بدوت ضعيفة. فصرفت الغريب عن أفكاري.

وقلت: "لو أن زوجي ولد في وقت مختلف لأصبح عالماً إمبراطورياً كوالده، ولكن هذا ليس أسلوباً جيداً للحياة في أيامنا هذه. ومع ذلك، يقول والدي إن رين كان ناضجاً منذ طفولته". ورحت أتبجح محاولة أن أجعل كلامي يبدو مقنعاً، فقلت: "سوف يكون زوجاً رائعاً".

أسرّت المكنسة إلى زهرة اللوتس قائلة: "ينبغي أن نأمل ابنة عمنا أن يكون زوجها قوياً. فحماها متوفى وزوجها وو رين هو الابن الثاني لعائلته، ولهذا فسوف تحظى حماتها بسلطة كبيرة عليها".

وكان هذا الكلام شديد اللؤم.

فاعترضتُ على كلامها قائلة: "لقد توفي والد زوجي في الجائحة. أما حماتي فهي أرملة فاضلة".

وانتظرت ما كانت هاتان الفتاتان ستقولانه تالياً. إذ إنهما بدتا على اطلاع كبير. ترى هل وقعت عائلة ووو في أيام عصيبة بعد موت سيد البيت؟ لقد زودني والدي بمهر كبير يتضمن الحقول ومشاريع حياكة الحرير والماشية والحرير والطعام ومبلغاً كبيراً من المال النقدي. ولكن الزواج الذي تملك فيه الزوجة مالاً كثيراً لا يكون سعيداً قط. فغالباً ما يصبح الأزواج خاضعين لزوجاتهم وعرضة للسخرية والاستهزاء بينما تشتهر الزوجات بوسائلهن القاسية وألسنتهن اللاذعة وغيرتهن الشديدة. ترى أهذا هو المستقبل الذي ينوي والدي أن يمنحني إياه؟ لماذا لا أستطيع أن أقع في الحب كما فعلت لينيانغ؟

ختمت المكنسة الحديث باعتداد قائلة: "لا تتبجحي بزواجك المثالي بينما يعرف جميع من في البيت حتى المعرفة أن العكس هو الصحيح".

تنهدت ثم قلت: "من فضلك تناولي قطعة أخرى من الحلوى". ودفعت بالطبق نحو المكنسة.

استرقت ابنة عمي نظرة إلى طاولة الأمهات ثم تناولت قطعة الحلوى بعوديها وحشرتها كاملة في فمها. ورمقتني بنتا عمي الأخريان بنظرات شريرة، ولكنني عجزت عن فعل شيء حيال ذلك. فقد كانتا تطرزان معاً وتتناولان الغداء معاً وتتحدثان من وراء ظهري معاً. ولم أكن أملك سبلاً كثيرة للدفاع عن نفسي رغم أنني كنت أتصرف أحياناً بأسلوب شرير كأن أتباهى بملابسي الجميلة ودبابيس شعري ومجوهراتي. لقد كنت غير ناضجة، ولكنني لم أتصرف بلؤم إلا لأحمي نفسي ومشاعري. ولم أفهم أنني وبنات عمي جميعاً عالقات في المصير نفسه كجداجد حسن الطالع المسجونة في أقفاص الخيزران والطلاء اللامع.

أمضيت بقية وجبة الفطور بصمت والباقيات يتجاهلنني بإصرار وأنا أظن نفسي منيعة أمام أفكار بنات عمي الشريرة، ولكنني بالطبع لم أكن كذلك. وفجأة استولت عليّ الشكوك. فأنا مخيبة للآمال من بعض النواحي أكثر من المكنسة. إذ إنني ولدت بعد الجائحة بأربع سنوات في الوقت الذي خصصت فيه أربعة أسابيع كاملة لمهرجان الأشباح الجائعة ، أي أنه ليس وقتاً ينذر بالخير. وبالإضافة إلى ذلك. فقد ولدت فتاة. أي أنني كارثة بالنسبة إلى أي عائلة. ولا سيما بالنسبة إلى عائلتنا التي عانت من خسائر

فادحة خلال الجائحة. وقد كان من المتوقع لوالدي بصفته الابن الأكبر أن ينجب ابناً ليصبح يوماً ما سيد بيت فيودي الطقوس في قاعة الأسلاف الخاصة ويقدم القرابين لأقاربنا الذين توفوا منذ وقت طويل ليواصلوا إغداق حسن الطالع علينا. وبدلاً من ذلك، فقد أثقل عليه عبء ابنة وحيدة لا فائدة لها. فربما تكون بنات عمي محقات ويكون والدي قد رتب زواجي بشخص عديم الأهمية عقوبة لي.

نظرت إلى الطرف المقابل من الطاولة ورأيت المكتسة تهمس شيئاً في أذن زهرة اللوتس. فالقتا عليّ نظرة خاطفة ثم غطتا فاهيهما لتخفيا ابتساماتهما الساخرة، ولكن شكوكي تلاشت على الفور. وشكرت بنات عمي بيني وبين نفسي. فقد كنت أخفي سراً كبيراً كن ليمتن من فرط الغيرة والحسد إن هن اكتشفنه.

بعد الفطور، انتقلنا إلى غرفة براعم اللوتس حيث أعلنت أمي عن إقامة منافسة في العزف على القانون للفتيات غير المتزوجات. وعندما حان دوري، جلست على منصة مرتفعة أمام المجموعة، ولكنني برهنت أنني عازفة مريعة. فقد ظللت أخطئ الأوتار وأنا أفكر في الشاب الذي قابلته الليلة الماضية. وحالما أنهيت عزفي، صرفتني أمي واقترحت عليّ أن أذهب لأتمشى في الحديقة.

بعد أن تحررت أخيراً من الجلوس في غرف النساء، أسرعت على طول الممر متجهة إلى مكتبة والدي. وكان والدي يمثل الجيل التاسع من علماء عائلة تشين الإمبراطوريين من مستوى الجينشي، وهو أعلى مستوى يمكن الوصول إليه. وشغل منصب نائب مفوض للحرير خلال فترة حكم سلالة مينغ. ولكن عندما ضربت الفوضى أطنابها في البلاد، وبعد أن تحرر والدي من وهم فكرة خدمة إمبراطور جديد، عاد إلى البيت وانهمك باهتمامات تهم الرجال: ككتابة الشعر ولعب الشطرنج وتذوق الشاي وإحراق البخور والآن إنتاج الأوبرا وإخراجها. لقد ثبني والدي من نواحٍ عديدة، كما يفعل الكثير من الرجال في هذه الأيام، فلسفة النساء في الانطواء على النفس. فلم يكن شيء يسعده أكثر من الكتابة على لفائف الورق وسحابة من البخور تكتنفه أو ارتشاف الشاي وهو يلعب لعبة شطرنج مع محظيته المفضلة.

لقد بقي والدي على إخلاصه لسلالة مينغ، ولكنه كان محكوماً بقواعد النفس البشرية. فقد رفض أن يعمل لدى الحكومة الجديدة، ولكن توجب عليه أن يحلق مقدمة رأسه، ويضفر شعره ليظهر خضوعه للإمبراطور سلالة

كينغ. وقمر استسلامه بما يلي: "ليس الرجال كالنساء لأنهم يخرجون إلى العالم حيث يمكن رؤيتهم. ويجب عليّ أن أمتثل لأوامر المانشو وإلا خاطرت بضرب عنقي. وإن مت فكيف ستعيش عائلتي وستنجو أسرتي وأرضي وكل الناس الذين يعملون لأجلي؟ لقد سبق وعانينا الكثير".

دخلت المكتبة. فوجدت خادمة واقفة بجانب الباب مستعدة لتلبية احتياجات والدي. ورأيت على الجدران إلى اليسار واليمين لوحات مصنوعة من شرائح رخامية رسمت عليها مناظر جبال محاطة بالغيوم على خلفية سماء ضبابية. ومع أن النافذة كانت مفتوحة، فقد عبقت في الغرفة رائحة جواهر دراسة العالم الأربع، وهي: الحبر والورق وريش الكتابة وتراب المحبرة. لقد تعاقبت تسعة أجيال على بناء هذه المكتبة. فملأت الكتب كل مكان: على المكتب والأرض والرفوف. وأضاف والدي بصمته الخاصة على هذه المجموعة بأن جمع مئات الأعمال التي كتبت بأقلام النساء خلال حكم سلالة مينغ وأكثر من ألف كتاب من تأليف النساء نشرت منذ وقوع الجائحة. وقال إنه أصبح يجب على الرجال في هذه الأيام أن يعثروا على الموهبة في أماكن غير اعتيادية.

صباح هذا اليوم، لم أجد والدي جالساً عند طاولته. وبدلاً من ذلك، رأيته جالساً بتكاسل على سرير خشبي متأملاً البخار المتصاعد من البحيرة. ورأيت تحت السرير صينيتين تحوي كل منهما كتلاً كبيرة من الثلج. فقد اعتاد والدي أن يدلل نفسه في هذا الجو الحار فيأمر خادماتنا باستخراج الثلج المحفوظ من تحت الأرض واستخدامه لتبريد سريره النهاري. وكانت هناك لوحة معلقة على الجدار فوقه كتب عليها بيت شعر يقول:

لا تأبه بالشهرة بل تحلَّ بالتواضع،
فهكذا سيجدك الآخرون متميزاً.

قال لي وهو يلوح بيده: "تعالي واجلسي، يا زهرة الفاوانيا".

عبرت الغرفة ماشية بمحاذاة النوافذ لكي يتسنى لي أن أنظر عبر البحيرة إلى الجزيرة المنعزلة وما خلفها. ولم يكن يفترض بي أن أنظر خارج جدران بيتنا، ولكن والدي سمح لي اليوم بهذه المتعة. جلست أمام مكتبه على أحد الكراسي المخصصة لأولئك الذين يأتون إليه طلباً للخدمات.

سألني قائلاً: "هل أتيت هاربة من معلمتك مجدداً اليوم؟".

على مر السنين، زودتني عائلتي بمعلمات رائعات، كلهن من النساء،

ولكن منذ الوقت الذي بلغت فيه الرابعة من عمري، اعتاد والدي أن يضعني في حضنه ليعلمني بنفسه كيف أقرأ وأفهم وأنتقد. فعلمني أن الحياة تقلد الفن. وأخبرني أنني من خلال القراءة أستطيع أن أدخل عوالم مختلفة عن عالمي. وعندما أمسك الريشة لأكتب، أستطيع أن أمرن فكري ومخيلتي. وهكذا، اعتبرته معلمي الأفضل.

فذكرته بخجل قائلة: "ليست لدي دروس اليوم".

ترى هل نسي أن ذكرى ميلادي ستحل غداً؟ لم نكن عادة نحتفل بمناسبات الميلاد إلى أن يبلغ المرء الخمسين من عمره، ولكن ألم يخرج الأوبرا لأنه يحبني ولأنني غالية على قلبه؟

ابتسم بتسامح وقال: "بالطبع بالطبع". ثم التفت وقال بجدية: "أهناك الكثير من الثرثرة التافهة في حجرات النساء؟".

فهززت رأسي.

"إذاً، أتيت لتخبريني أنك فزت بإحدى تلك المنافسات التي نظمتها أمك؟".

فتنهدت باستسلام، وقلت: "كلا، يا أبي". وكان يعلم أنني لست متفوقة في تلك المهارات.

صفع فخذه وراح يضحك قائلاً: "لقد كبرت كثيراً ولم يعد يسعني أن أمازحك بعد الآن. ستبلغين السادسة عشرة غداً. ترى هل نسيت هذا اليوم المميز؟".

ابتسمت له، وقلت: "لقد منحتني أفضل هدية".

فأمال رأسه جانباً بتساؤل. وعرفت أنه يمازحني مجدداً ولا ريب فسايرته.

واقترحت قائلة: "أظن أنك أخرجت الأوبرا إكراماً لشخص آخر".

كان والدي قد شجعني على الجرأة على مر السنوات، ولكنه اليوم لم يقدم جواباً سريعاً وذكياً. وعوضاً عن ذلك، قال لي: "نعم، نعم، نعم". وكأنه مع كل كلمة يقولها كان يعيد التفكير في جوابه مجدداً. ثم قال: "بالطبع، هكذا هو الأمر".

سحب نفسه للأعلى، وأنزل ساقيه عن السرير. وبعد أن وقف على قدميه، استغرق لحظة ليرتب ثيابه التي تبدو على هيئة ملابس الفرسان الخاصة بالمانشو، وهي عبارة عن سروال وقميص ضيق مزرر حتى العنق. قال والدي: "ولكن لدي هدية أخرى لك. وأعتقد أنك ستحبينها أكثر".

ذهب إلى صندوق من خشب الكافور وفتحه وأخرج شيئاً ملفوفاً

بحرير أرجواني منسوج ومزين برسوم شجر الصفصاف. وعندما سلمني إياه، علمت أنه كتاب. وتمنيت أن يكون نسخة حديقة الفاوانيا التي نشرها المؤلف العظيم تانغ خيانجو بنفسه. ففتحتها ببطء ثم فتحت طيات الحرير، ووجدت أنها نسخة من حديقة الفاوانيا لا أملكها. ولكنها ليست النسخة التي تمنيتها. فأمسكتها وضممتها إلى صدري مستمتعة بتميزها وقيمتها لدي. ولولا مساعدة والدي لما استطعت أن ألاحق شغفي مهما كنت واسعة الحيلة.

"إنك طيب جداً معي، يا أبي".

فحثني قائلاً: "افتحيها".

لطالما عشقت الكتب، وأحببت أن أشعر بثقلها في يدي، وأشم رائحة حبرها وأتحسس ملمس ورق الأرز.

ذكرني والدي قائلاً: "لا تثني زوايا الصفحة لتعيني مكان وصولك في القراءة، ولا تحكي الأحرف المكتوبة بأظافرك. ولا ترطبي إصبعك بلسانك عندما تقلبين الصفحات. ولا تستخدمي الكتاب أبداً كوسادة تنامين عليها".

كم مرة كان قد ذكرني بهذه الأشياء؟

فوعدته قائلة: "لن أفعل ذلك، يا أبي".

استقرت عيناي على الأسطر الافتتاحية التي يبدأ بها الراوي الأوبرا. وكنت قد سمعت الليلة الماضية الممثل يتحدث عن ثلاثة تناسخات أدت إلى لقاء ليبنيانغ وميغمي في حديقة الفاوانيا .

أخذت المجلد إلى والدي وأشرت إلى المقطع وسألته: "ما هو مصدر هذا الكلام؟ أهو شيء اخترعه تانغ خيانجو أم أنه اقتبسه من قصيدة أو قصة أخرى؟".

ابتسم والدي مسروراً من فضولي كعادته. فقال: "ابحثي في الرف الثالث على ذلك الجدار واعثري على أقدم كتاب فيه. وهناك ستجدين ضالتك المنشودة".

وضعت نسختي الجديدة من حديقة الفاوانيا على السرير النهاري وفعلت ما اقترحه والدي. فأحضرت الكتاب معي إلى السرير وقلبت الصفحات إلى أن عثرت على المصدر الأصلي للتناسخات الثلاثة. واكتشفت أن فتاة من سلالة تانغ وقعت في حب أحد الرهبان. فاستغرقا ثلاثة أجيال ليصلا إلى الظروف المثالية والحب المثالي. فتأملت في نفسي قائلة: أيمكن للحب أن يتحلى بالقوة الكافية للتغلب على الموت ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات؟

أمسكت نسخة حديقة الفاوانيا مجدداً وأخذت أقلب الصفحات ببطء. فقد أردت أن أعثر على مينغمي وأحيي في نفسي ذكرى اللقاء الذي جمعني بالغريب الليلة الماضية. فوصلت إلى افتتاحية مينغمي التي يقول فيها:

"لقد ورثت من الكتب الكلاسيكية عطرها واكتسبت من الطبيعة براعتي بالحروف. وثقبت الجدار ليتسرب شعاع ضوء إلى غرفتي وربطت إليه شعري خوفاً من النعاس...".

سألني أبي: "ماذا تقرأين الآن؟".

لقد ضبطني! فارتبكت وتصاعد الدم إلى وجنتي.

"إنني... إنني...".

"هناك أمور في القصة قد لا تفهمها فتاة مثلك. لذا يمكنك أن تناقشيها مع أمك...".

احمر وجهي أكثر من ذي قبل. فقلت متلعثمة: "ليس الأمر هكذا". ثم قرأت له الأبيات التي بدت في حدّ ذاتها بريئة تماماً.

"آه، أتريدين أن تعرفي مصدر هذه الأبيات أيضاً؟" وعندما أومأت برأسي، نهض وذهب إلى الرفوف وسحب كتاباً وأحضره إلى السرير. ثم قال: "إن هذا الكتاب يتحدث عن أعمال علماء مشهورين. أتريدينني أن أساعدك؟".

"أستطيع أن أفعل هذا، يا أبي؟".

فقال لي وهو يسلمني المجلد: "أعلم أنك تستطيعين ذلك".

قلبت صفحات الكتاب وأنا مدركة لعيني والدي اللتين تراقبانني إلى أن وصلت إلى مدخل عن العالم كوانغ هينغ الذي منعه فقره من توفير المال ثمناً لزيت المصباح. فثقب الجدار ليتمكن من استعارة ضوء جيرانه.

حثني والدي قائلاً: "في الصفحات التالية، ستجدين إشارة إلى صن جينغ الذي ربط شعره بدعامة الجدار خوفاً من الاستغراق في النوم أثناء دراساته".

أومأت برأسي بوقار متسائلة إن كان الشاب الذي قابلته مجتهداً في تحصيل العلم كهؤلاء الرجال القدماء.

تابع والدي قائلاً: "لو كنت صبياً لأصبحت عالماً إمبراطورياً ممتازاً وربما لغدوت أفضل عالم عرفته".

وأراد بذلك أن يجاملني. فتقبلت كلامه بهذا المعنى، ولكنني سمعت

مرارة الندم في صوته أيضاً. فأنا لست ابناً. ولن أصبح كذلك قط.

أضاف بسرعة ربما بعد أن أدرك حماقته قائلاً: "ينبغي لك أن تساعديني أثناء وجودك هنا".

ذهبنا إلى مكتبه وجلسنا. فرتب ملابسه حوله بعناية ثم عدّل ضفيرته بحيث تتدلى بشكل مستقيم على ظهره. ثم تحسس مقدمة رأسه الحليقة. وهي عادةً تذكره أنه اختار التشبه بالمانشو في مظهرهم وملابسهم ليحمينا. ثم فتح درجاً وأخرج بضع مجموعات من القطع النقدية الفضية.

وسحب مجموعة منها على الطاولة وقال: "يجب أن أرسل بعض المبالغ النقدية إلى الريف. فساعديني في عدها".

كنا نملك مساحات شاسعة من الأراضي مزروعة بأشجار التوت. وفي منطقة غودانغ غير البعيدة عن مدينتنا توجد قرى كاملة تعتمد على عائلتي في معيشتها. فكان والدي يعتني بالناس الذين يزرعون الأشجار ويحصدون الأوراق ويطعمون ديدان القز ويعتنون بها ويغزلون خيوط الحرير.

قال لي والدي: "لا تبدين على طبيعتك اليوم. ما الذي يشغل بالك؟".

لم يكن يسعني بالطبع أن أخبره عن الشاب الذي قابلته أو عن الحيرة التي شعرت بها حيال مقابلته مجدداً الليلة في حديقة هبوب الرياح . ولكن إن استطاع والدي أن يساعدني في فهم شخصية جدتي والخيارات التي قامت بها إذاً لربما عرفت ما يجب أن أفعله الليلة.

"إنني أفكر في جدتي تشين. ترى هل كانت شجاعة دائماً؟ ألم تمر بلحظات شعرت فيها بالتردد وفقدان الثقة؟".

"لقد درسنا هذا التاريخ...".

"نعم، درسنا التاريخ، ولكن ليس جدتي. كيف كانت؟".

لقد كان والدي يعرفني حق المعرفة وكنت أنا، على عكس كل البنات الأخريات، أعرفه حق المعرفة أيضاً. فتعلمت على مر السنوات أن أميز تعبيرات وجهه: كالطريقة التي يرفع بها حاجبيه دهشة عندما أسأله عن هذه الشاعرة أو تلك أو الابتسامة التي يبديها عندما يجري لي اختباراً في التاريخ وأجيبه إجابة غير صائبة والطريقة العالمة التي يمسك بها ذقنه عندما أطرح عليه سؤالاً عن حديقة القاوانيا ولا يعرف الإجابة. والآن رمقني بنظرة متمعنة وكأنه يزن قبضة من الفضة.

وقال أخيراً: "لقد سقطت مدينة تلو أخرى على يد المانشو. ولكنهم أيقنوا من أنهم سيلاقون مقاومة مخلصة قوية عندما يصلون إلى دلتا نهر

يانغجي. فقرروا أن يجعلوا من يانغجو عبرة لبقية المدن في المنطقة".
لقد سمعت هذا الكلام مراراً. فتساءلت إن كان سيطلعني على أي شيء لم أكن أعرفه سلفاً.
"ثم أعطى الجنرالات، الذين كانوا حتى ذلك الحين قد أبقوا الجنود تحت سيطرة شديدة، أوامرهم بالسماح للرجال بإطلاق العنان لرغباتهم ونهب أي ثروات يريدونها سواء أكانت نساء أم فضة أم حريراً أم تحفاً أم حيوانات كمكافأة لهم لقاء خدماتهم". توقف والدي ورمقني بالنظرة المتمعنة نفسها وقال: "أتفهمين ما عنيته.. بشأن النساء؟".
بصراحة تامة، لم أفهم شيئاً. ولكنني أومأت برأسي.
فتابع بفتور قائلاً: "ظلت الدماء تتدفق في المدينة لعشرة أيام. ودمرت النيران البيوت والقاعات والمعابد. ولقي الآلاف والآلاف من الناس حتفهم".
"ألم تخف؟".
"لقد كان الجميع خائفين. ولكن جدتك علمتنا كيف نتحلى بالشجاعة". ثم نظر إليّ مجدداً ليتأكد إن كان يجب عليه أن يتابع أم لا. ثم التقط مجموعة أخرى من النقود وواصل العد. واختتم كلامه بدون أن يرفع عينيه عن قطع الفضة قائلاً: "الآن تعرفين لماذا أفضل أن أنظر إلى الجبال فقط وأن أقرأ الشعر وأكتب بريشة التخطيط وأقرأ الكتب وأصغي إلى الأوبرا".
ولكنه لم يخبرني أي شيء عن جدتي! ولم يقل أي شيء قد يساعدني في اتخاذ قرار بشأن ما سأفعله الليلة أو فهم حقيقة شعوري.
قلت له بخجل: "يا أبي..".
فأجاب دون أن يرفع نظره: "نعم".
وقلت له متلعثمة: "لقد كنت أفكر في الأوبرا وعشق لينيانغ. أتظن أن هذا قد يحدث في الحياة الواقعية؟".
"بكل تأكيد. لقد سمعت قصة خياوكينغ، أليس كذلك؟".
بالطبع سمعت عنها، فهي أكثر عذراء أضناها العشق على الإطلاق.
فقلت بسرعة: "لقد ماتت صغيرة جداً. أحدث لها هذا لأنها جميلة؟".
أجاب والدي: "إنها تشبهك من نواح عدة. فقد كانت رشيقة وأنيقة بطبيعتها، ولكن والديها، وهما من أفراد الطبقة الراقية، خسرا ثروتهما. فأصبحت الأم معلمة وتعلمت خياوكينغ على يديها، ولكن ربما أكثر من اللازم".
سألته مفكرة في مدى السعادة التي أدخلتها على قلبه بإظهار الاهتمام بكتبه: "كيف يمكن لأحد أن يتعلم فوق اللازم؟".

أجاب والدي: "عندما كانت خياوكينغ فتاة صغيرة، زارت إحدى الراهبات. وفي جلسة واحدة تعلمت خياوكينغ أن تلقي محاورة القلب لبوذا بدون أن تنسى حرفاً واحداً. ولكن الراهبة شعرت أن خياوكينغ محرومة من حسن الطالع. فإن امتنعت الفتاة عن القراءة، أمكنها أن تعيش للثلاثين. وإن لم تفعل...".

"ولكن كيف ماتت من لوعة العشق؟".

"عندما بلغت السادسة عشرة من عمرها اتخذها رجل من هانغجو محظية له وخبأها بعيداً هناك..." وأشار والدي إلى النافذة وتابع قائلاً: "في الجزيرة المنعزلة ليحميها من زوجته الغيورة. فعانت خياوكينغ من الوحدة والوحشة. ولم يبق لها عزاء إلا قراءة حديقة الفاوانيا. فقرأت الأوبرا مراراً وتكراراً إلى أن أصبحت مهووسة بها، فأصيبت بلوعة الحب وذبلت وضعفت. وبينما هي تحتضر، ألفت قصائد تشبه بها نفسها بلينيانغ". أصبح صوت والدي خافتاً واحمرت وجنتاه، وقال: "لقد كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط عندما فارقت الحياة".

كنت أحياناً أتحدث مع بنات عمي عن خياوكينغ ونخترع تفسيرات لما تعنيه عبارة العيش على الأرض من أجل متع الرجال . ولكن بينما راح والدي يتحدث، لاحظت أن ضعف خياوكينغ كان يثير إعجابه ويثيره. ولكنه ليس الرجل الوحيد الذي أسرته قصة حياتها وموتها. فقد كتب رجال كثيرون قصائد لها وألف أكثر من عشرين رجلاً مسرحيات عنها. فلا بد أن حياة خياوكينغ وموتها يتمتعان بصفة جذابة ومثيرة للرجال. ترى هل كانت المشاعر نفسها تتملك الغريب؟

أضاف والدي بصوت حالم: "لطالما فكرت في خياوكينغ وهي تقترب من نهايتها الوشيكة. لقد كانت تشرب كوباً واحداً من عصير الكمثرى في اليوم. أتتخيلين هذا؟".

بدأت أشعر بعدم الارتياح. فقد كان والدي، ولم أود أن أتخيل أن المشاعر نفسها التي تملكتني في الليلة الفائتة قد تتملكه. ولطالما قلت لنفسي إنه وأمي بعيدان عن بعضهما وإنه لا يحظى بسعادة حقيقية مع محظياته.

تابع والدي وهو غافل عن قلقي: "أرادت خياوكينغ، كما فعلت لينيانغ، أن ترسم لوحة لنفسها. فتطلب الأمر من الفنان ثلاث محاولات ليرسمها بشكل صحيح. وازدادت خياوكينغ ضعفاً بمرور كل يوم، ولكنها لم تنسَ أن تؤدي واجب العناية بجمالها. فكانت كل صباح تسرّح شعرها

وترتدي أجمل أثواب الحرير. ثم ماتت وهي جالسة ومظهرها غاية في الجمال لدرجة أن من أتوا لرؤيتها اعتقدوا أنها لا تزال حية. ثم أحرقت زوجة الرجل قصائد خياوكينغ وجميع صورها ما عدا قصيدة واحدة فقط".

حدق والدي من النافذة إلى الجزيرة المنعزلة وعيناه خاليتان من التعبير ومليئتان بالشفقة ربما أو الرغبة أو الشوق، من يدري؟

قطعت صمته العميق وقلت: "لم يضع كل شيء، يا أبي. فقبل أن تموت خياوكينغ، لفت بعض المجوهرات في أوراق مهملة وأعطته لخادمتها. وعندما فتحت الخادمة اللفة وجدت إحدى عشرة قصيدة مكتوبة على هذه الأوراق المهملة".

"ألقي عليّ إحدى هذه القصائد، هلا تفعلين ذلك، يا زهرة الفاوانيا؟".

لم يساعدني والدي على فهم حقيقة شعوري، ولكنه منحني بصيصاً من الأفكار الرومانسية التي ربما يشعر الغريب بها وهو ينتظرني لأذهب إليه. أخذت نفساً عميقاً وبدأت ألقي القصيدة.

"صوت المطر البارد وهو يرتطم بالنافذة المهجورة لا يحتمل...".

أمرتني أمي قائلة: "من فضلك أقفلي فمك!" ولم تكن أمي تأتي إلى هنا أبداً. وبدا ظهورها مفاجئاً ومثيراً للقلق. ترى كم مضى عليها وهي تصغي إلينا؟ قالت لوالدي: "إنك تحدث ابنتنا عن خياوكينغ، ولكنك تعرف حق المعرفة أنها ليست الوحيدة التي ذهبت إلى حتفها بسبب قراءة حديقة الفاوانيا".

أجاب والدي بهدوء: "إن القصص تخبرنا كيف ينبغي لنا أن نعيش". وحاول أن يخفي الدهشة التي اعترته لحضور أمي ولهجتها الاتهامية.

سألت أمي: "وأي درس تنطوي عليه قصة خياوكينغ لابنتنا؟ لقد ولدت زهرة الفاوانيا في عائلة من أرقى العائلات في هانغجو. أما الفتاة الأخرى فهي فتاة رخيصة تباع وتشترى كالأثاث. إن ابنتنا طاهرة، أما الأخرى فهي...".

قاطعها والدي قائلاً: "إنني مدرك لمهنة خياوكينغ. ويجب عليك ألا تذكريني بذلك. ولكنني عندما أتحدث مع ابنتنا عن خياوكينغ فأنا أقصد بذلك الدروس التي يمكن للمرء أن يتعلمها من الأوبرا التي ألهمتها. إنك بالتأكيد لا ترين ضرراً في هذا".

"لا ضرر؟ هل تقترح أن يكون مصير ابنتنا شبيهاً بمصير دو لينيانغ؟".

ألقيت نظرة خاطفة بمكر إلى الخادمة الواقفة أمام الباب. ترى كم سيمضي من الوقت قبل أن تنقل هذا الكلام، بسرور على الأرجح، إلى

خادمة أخرى لينتشر في أنحاء البيت؟".
أجاب والدي بنبرة هادئة: "نعم، تستطيع زهرة الفاوانيا أن تتعلم منها. إن لينيانغ جميلة وقلبها طيب وطاهر كما أن رؤياها ثابتة ومخلصة وبعيدة النظر".
أجابت أمي: "يا للهول! لقد كانت تلك الفتاة غارقة في الحب حتى أذنيها! كم يجب أن تموت من الفتيات قبل أن ترى المخاطر المحدقة بابنتنا وغيرها؟".
اعتدت أن أتهامس وبنات عمي عن هذه الأحداث المؤسفة في وقت متأخر من الليل عندما نظن أن أحداً لا يسمعنا. وتحدثنا عن يو نيانغ التي أصبحت مغرمة بالأوبرا في سن الثالثة عشرة ثم ماتت في سن السابعة عشرة والنص إلى جانبها. فألف الشاعر الكبير تانغ خيانجو قصائد يرثيها بها عندما سمع نبأ وفاتها. ولكن سرعان ما أصبحت هناك العديد والعديد من الفتيات اللواتي قرأن القصة فسيطرت عليهن لوعة الحب مثل لينيانغ وذبلن ومتن على أمل أن يجد الحب الحقيقي طريقه إليهن ويعيدهن إلى الحياة.
قال أبي: "إن ابنتنا عنقاء، وأريد أن أراها تتزوج تنيناً لا غراباً".
لم يرضِ هذا الجواب أمي. وقد كان بوسعها أن تحول لمطلع الثلج إلى أزهار عندما تكون سعيدة. أما إن كانت حزينة أو غاضبة، كما هي الآن، استطاعت أن تحول الغيوم الداكنة إلى أسراب من الحشرات اللاسعة.
أعلنت أمي قائلة: "إن الفتاة التي تتلقى تعليماً مفرطاً فتاة محكوم عليها بالموت. ولا ينبغي أن نتمنى الموهبة لزهرة الفاوانيا. فإلى أين ستؤدي كل هذه القراءة؟ إلى السعادة الزوجية أم إلى خيبة الأمل والهلاك والموت؟".
"لقد قلت لك من قبل: لن تموت زهرة الفاوانيا بسبب قراءة الكلمات".
بدا على أمي وأبي أنهما نسيا وجودي معهما في الغرفة. فلم أتحرك خوفاً من أن يلاحظاني. وكنت قد سمعتهما البارحة يتجادلان حول هذا الموضوع نفسه. ونادراً ما كنت أراهما معاً إلا في المهرجانات والطقوس الدينية التي تقام في قاعة الأسلاف حيث يتم التخطيط لكل كلمة وفعل سلفاً. فتساءلت الآن إن كانا يتصرفان على هذا النحو طوال الوقت.
سألت أمي: "كيف ستتعلم أن تصبح زوجة وأماً صالحة إن استمرت بالمجيء إلى هنا؟".

سألها دون أن يعتريه أي قلق: "وكيف لا تصبح صالحة؟" ثم أثار دهشتي وحنق أمي حين قال مستشهداً بكلمات الحاكم دو: "يجب على السيدة الشابة أن تدرك معاني الأحرف لئلا تكون ضعيفة في فنون الحوار مع زوجها. إن دور زهرة الفاوانيا هو أن تصبح راعية أخلاقية. أليس كذلك؟ ينبغي أن تكون سعيدة لقلة اهتمامها بالأثواب الجميلة ودبابيس الشعر وطلاء وجهها بالمساحيق. ورغم أنها جميلة فيجب علينا أن نتذكر أن وجهها ليس وحده ما يميزها. إن جمالها انعكاس للفضيلة والموهبة اللتين تتمتع بهما في أعماقها. ويوماً ما ستقدم العزاء والراحة لزوجها بقراءة الكلمات الجميلة على مسامعه. وفي نهاية المطاف، إننا ندرب ابنتنا لتصبح أماً صالحة لا أكثر ولا أقل تعلم بناتها أن يكتبن الشعر ويتقن مهاراتهن النسائية. وفوق كل ذلك، يجب أن تدفعها لتساعد حفيدنا في دراساته إلى أن يصبح كبيراً بما يكفي لأن يترك غرف النساء. وعندما ينهي دراساته، يحل يوم مجدها وشرفها. وعندئذ فقط ستلمع وتتألق وتتميز عن سائر النساء".

لم تستطع أمي أن تناقشه في هذه النقطة فأذعنت قائلة: "أتفق معك طالما أن قراءتها لا تتسبب في تخطيها للحدود. إنك لا ترضى لابنتنا أن تصبح عنيدة. أليس كذلك؟ وإن كان لا بد من أن نروي قصصاً لابنتنا، ألا تستطيع أن تحدثها عن الأسياد المبجلين؟".

لم يوافق والدي. فالتفتت أمي إلي وقالت لوالدي: "إلى متى ستبقيها هنا؟".

"قليلاً فقط".

اختفت أمي بهدوء كما دخلت بعد أن فاز والدي بالنقاش على ما أظن. إذ إنه لم يبدُ على الأقل قلقاً وهو يكتب ملاحظة في دفتر حساباته ثم يضع ريشة كتابته وينهض ويمشي إلى النافذة ليتأمل الجزيرة المنعزلة.

دخل أحد الخدم إلى الغرفة وسلم والدي رسالة مختومة عليها ختم رسمي أحمر اللون. فتحسسها والدي وهو مستغرق بالتفكير وكأنه يعلم مسبقاً ما كتب بداخلها. ولأنه بدا غير راغب أن يفتحها بحضوري. فقد نهضت وشكرته مجدداً لإعطائي نسخة حديقة الفاوانيا وغادرت المكتبة.

الفصل الثالث

الرغبة

•

عشنا ليلة دافئة ومترفة أخرى في حجرات النساء. وتمتعنا بتناول مأدبة تتضمن طبق الفاصولياء المجففة تحت أشعة شمس الربيع والمطهية مع قشور اليوسفي المجففة والسرطانات الحمراء التي تبلغ حجم بيضة الدجاج والتي تصبح متوفرة في مياهنا المحلية فقط في هذا الوقت من السنة. وأضيفت مكونات أخرى إلى أطباق النساء المتزوجات لتساعدهن على الحمل بينما منعت مكونات أخرى عن النساء الحوامل: كلحم الأرانب لأن الجميع يعلمون أنه قد يتسبب للطفل بتشوه يدعى شفة الأرنب، بالإضافة إلى لحم الحمل لأنه قد يسبب بولادة طفل مريض. ولكنني لم أشعر بالجوع، فقد سبقني ذهني منذ الآن إلى حديقة هبوب الرياح .

عندما دعتنا الصنوج والطبول إلى الحديقة، تلكأت خلف الجميع وبذلت ما بوسعي لأن أتصرف بدماثة وأمازح زوجات أعمامي والمحظيات وزوجات ضيوف والدي. وانضممت إلى آخر مجموعة غادرت حجرات النساء. فلم تبق إلا الوسائد الموضوعة على الطرف الخارجي المخصص للنساء. فجلست على واحدة منها ونظرت حولي لأتأكد من أنني قمت بالخيار الصحيح. ووجدت أمي جالسة في وسط المجموعة بصفتها المضيفة. وفي هذه الليلة اجتمعت كل الفتيات غير المتزوجات معاً باستثنائي أنا. أما تان زي فقد توجهت، من تلقاء نفسها أو بناء على إصرار أمي، إلى مجموعة الفتيات اللواتي من مثل سنها لتجلس معهن.

هذا المساء، اختار والدي أجزاء مهمة من الأوبرا للعرض. وتبدأ أحداثها بعد موت دو لينيانغ وسقوط العالم ليو مينغمي طريح الفراش في رحلته الطويلة للخضوع للامتحانات الإمبراطورية. فيمنح معلم لينيانغ السابق مينغمي المأوى في ضريحها قرب شجرة الخوخ. وحالما بدأت المقطوعة الموسيقية التالية، أدركت أننا متوجهون مع لينيانغ إلى الحساب. ولم أعد أستطيع أن أرى الممثلين. فتوجب عليّ أن أتخيل وجه القاضي المخيف وهو يتحدث. توسلت لينيانغ إلى القاضي وقالت له إن خطأ مريعاً قد ارتكب لأنها صغيرة جداً على التواجد هناك وإنها لم تتزوج أو تشرب الشراب، ولكنها سقطت ضحية الشوق الذي سلبها حياتها.

اخترقني صوت القاضي وهو يطالب بتفسير من روح الزهرة التي أورثت لينيانغ لوعة العشق وتسببت بموتها. فقال: "كيف يمكن لأحد أن يموت بسبب حلم؟" ثم تفقد سجل الزواج ووجد أنه من المقدر فعلاً للينيانغ أن تلتقي مينغمي. فمنحها حرية التجول في العالم كشبح لأن النقطة لم توضع على لوحها بحثاً عن الزوج الذي من المقدر لها أن تتزوجه. وبعد ذلك، أمر روح الزهرة أن تحفظ جسم لينيانغ من الفناء. فعادت لينيانغ كشبح إلى العالم الأرضي لتعيش قرب قبرها تحت شجرة الخوخ. وعندما قدمت الأخت ستون، الراهبة التي كلفت برعاية القبر، القرابين على طاولة تحت الشجرة، شعرت لينيانغ بامتنان عميق بحيث إنها نثرت براعم الخوخ ومزجتها بأفكارها المحبة.

عندما تعافى مينغمي عند الضريح، تملكه القلق. فبدأ يتمشى في أنحاء الحديقة. فشاءت الصدفة، مع أنها من ترتيب القدر، أن عثر على الصندوق الذي وضعت فيه لينيانغ لوحتها. فظن أنها صورة السيدة المبجلة غوانين وأخذ اللوحة إلى غرفته وأحرق البخور بجانبها وهو مسرور لرؤية شعر غوانين الناعم وفمها الصغير الذي يشبه برعم الورد والهيئة التي عقد به شوق الحب حاجبيها. ولكنه كلما نظر عن كثب أكثر ازداد قناعة من أن المرأة التي على الحرير لا يمكن أن تكون سيدة مبجلة. فلا بد أن غوانين تطفو في الهواء، ولكنه رأى أقداماً صغيرة كالزنابق تحت تنورتها. ثم رأى القصيدة المكتوبة على الحرير وأدرك أنها لوحة رسمتها فتاة فانية لنفسها.

بينما هو يقرأ السطور فهم القصد من الصفصاف على أنه ليو وأن الفتاة التي في اللوحة تحمل أيضاً غصن الخوخ في يدها وكأنها تعانق مينغمي، أي حلم الخوخ. فكتب قصيدة رداً عليها وطلب منها أن تخرج من اللوحة وتنضم إليه.

سيطر الترقب الهادئ على النساء في الجانب الآخر من الستارة بينما بدأ شبح لينيانغ الداكن يخرج من قبر حديقتها ليغري العالم ويجتذبه.

انتظرت إلى أن بدأت تطرق على نافذة مينغمي وبدأ هو يطرح عليها أسئلة عن هويتها ثم نهضت وغادرت بسرعة. واختلجت في داخلي مشاعر لينيانغ نفسها وهي تطفو حول عالمها وتناديه وتغبطه بكلماتها. وسمعت لينيانغ تغني قائلة: "إنني زهرة جعلتها تتفتح في ظلمة الليل. ومع أنني أساوي ألف قطعة ذهبية فأنا أمنحك نفسي بلا تردد". لقد كنت فتاة غير متزوجة، ولكنني أدركت ما عنته بأمنيتها. قبل مينغمي عرضها. ومرة تلو أخرى سأل لينيانغ عن اسمها، ولكنها رفضت أن تقوله

له. فقد بدا من الأسهل عليها أن يمنح حبها على أن تكشف عن هويتها.

خفقت من مرعتي وأنا أقترب من الجسر المتعرج الذي يؤدي إلى حديقة هبوب الرياح . وتخيلت قدمي الصغيرتين المخفيتين تحت تنورتي الفضفاضة وهما تتفتحان كزهرتي زنبق مع كل خطوة أخطوها. ملست فستاني الحريري ومررت أصابعي في شعري لأتأكد من أن الدبابيس كلها في مكانها الصحيح. ثم وضعت راحتي يدي لدقائق على قلبي محاولة أن أهدئ من دقاته اليائسة القلقة. وبدأت أتذكر من أنا وما هو موقعي. فأنا الابنة الوحيدة لعائلة أنجبت علماء إمبراطوريين من أعلى الرتب لتسعة أجيال. وأنا مخطوبة وقدماي مربوطتان. فإن حدث أي مكروه، لن أستطيع الهرب كفتاة كبيرة القدمين ولن أستطيع أن أطفو كشبح في غيمة كما فعلت لينيانغ. وإن ضبطني أحد فسوف تفسخ خطوبتي، وهذا أسوأ ما يمكن لفتاة أن تفعله لتتسبب بالخزي والإحراج لعائلتها. ولكن حماقتي وغباوتي أعميا بصري وبصيرتي وشوش الترقب ولرغبة عقلي وتفكيري.

ضغطت أصابعي بقوة على عيني وتخيلت أمي في غمرة ألمي. ولو بقي لدي شيء من التعقل لتخيلت خيبة أملها بي. ولو بقي لدي شيء من المنطق، لأدركت مقدار القسوة التي ستعاني به مراجل غضبها. وعوضاً عن ذلك، حاولت أن أتخيل كرامتها وجمالها ومكانتها. فقد كان هذا بيتي وحديقتي وشرفتي وليلتي وقمري وحياتي.

خطوت على الجسر المتعرج ودخلت حديقة هبوب الرياح . وهناك وجدته بانتظاري. أول الأمر، لم نتبادل أي كلمات. إذ إنه ربما فوجئ أنني قد أتيت. ومع ذلك، فهذا لم يعبر كثيراً عن شخصيتي. وربما تملكه الخوف نفسه الذي تملكني من أن يضبطنا أحد أو ربما كان يتنفس عبيري كما كنت أنا أدخله إلى رئتي وعيني وقلبي.

استهل الحديث قائلاً: "إن اللوحة لا تمثل لينيانغ وحدها". ولجأ بذلك إلى الرسمية كوسيلة يحتمي بها كلينا من ارتكاب خطأ مريع. ثم قال: "إنها ترمز إلى مستقبل مينغمي معها وإلى برعم الخوخ في يدها وكلمات الدعوة لشخص يدعى الصفصاف في قصيدتها. إنه يرى زوجته المستقبلية في قطعة الحرير الهشة تلك".

بدت كلماته بعيدة كل البعد عن الكلمات الرومانسية التي تقت إلى سماعها. ولكنني كنت فتاة فحذوت حذوه.

وأجبت قائلة: "إنني أحب براعم الخوخ. فهي تظهر مراراً وتكراراً. هل مكثت حتى رأيت المشهد الذي تنثر فيه لينيانغ أوراق الورد على المذبح

تحت شجرة الخوخ؟" وعندما أومأ برأسه تابعت قائلة: "هل تبدو البراعم التي ينثرها شبح لينيانغ مختلفة عن تلك التي تعصف بها الرياح؟".

لم يجب عن سؤالي، وعوضاً عن ذلك، قال بصوت خشن: "دعينا ننظر إلى القمر معاً".

سمحتُ لشجاعة لينيانغ أن تستقر في قلبي. فخطوت خطوات قصيرة عبر الحديقة إلى أن وصلت إلى جانبه. وكان القمر ليلة غد سيكتمل ربعه، ولهذا فقد بدا الآن مجرد رقاقة صغيرة من الفضة معلقة في السماء. وهب نسيم مفاجئ من البحيرة وبرد وجهي الملتهب كالنار. وانحلت خصلات من شعري متداعية بشرئي. فسرت رعشة في أوصالي.

سألني بعد أن وقف خلفي واضعاً يديه على كتفي: "هل تشعرين بالبرد؟".

أردت أن ألتفت وأواجهه وأنظر إلى عينيه. وكانت لينيانغ قد نجحت بإغراء العالم، ولكنني لم أعرف ما أفعله مع الغريب.

رفع يديه عن كتفي. وشعرتُ أنني شاردة اللب قليلاً. وكان الشيء الوحيد الذي منعني من الهرب أو السقوط مغمياً عليّ هو انبعاث الحرارة الصادرة من جسده. فقد كنا واقفين بقرب بعضنا إلى هذا الحد، ولكنني لم ابتعد عنه.

أتى إلينا صوت الأوبرا من بعيد. وظل مينغمي ولينيانغ يواصلان اللقاء. فكان دائماً يسألها عن اسمها وهي دائماً ترفض أن تعطيه إياه ويطرح أسئلة مثل: "كيف يمكن لخطواتك أن تبقى عديمة الصوت؟" فاعترفت لينيانغ أنها لا تترك آثار أقدام على التراب. وأخيراً، في إحدى الليالي، وصلت الفتاة الشبح المسكينة وهي خائفة ومرتجفة لأنها قررت أخيراً أن تخبره عن هويتها وحقيقتها.

في حديقة هبوب الرياح ، وقف شابان مسمرين في مكانيهما خائفين أن يتحركا أو ينطقا أو يهربا. وشعرت بأنفاسه على عنقي.

غنى صوت مينغمي من الحديقة قائلاً: "هل أنت مخطوبة؟" .

وقبل أن أسمع جواب لينيانغ، همس صوت الغريب في أذني قائلاً: "هل أنت مخطوبة؟".

"لقد عقدت خطوبتي منذ كنت طفلة رضيعة". واستطعت بالكاد أن أميز صوتي لأن كل ما استطعت سماعه كان صوت النبض في أذني.

تنهد من خلفي قائلاً: "لقد اختيرت زوجة لي أيضاً".

"إذاً لا ينبغي أن نقابل بعضنا".

فقال لي: "أستطيع أن أودعك وأرحل. أهذا هو ما تريدينه؟".

سمعت من المسرح لينيانغ تفضي إلى عالمها بخوفها من أنه يريدها فقط كمحظية وليس كزوجة ولا سيما بعد كل ما حدث بينهما. وعندما سمعت هذا، أخذ الاستياء يعلي في داخلي فجأة. إذ إنني لست الوحيدة التي ترتكب خطأ. فاستدرت وواجهته.

وقلت له: "أهذا هو ما تتوقعه زوجتك في زواجكما، أن تقابل نساء غريبات؟".

ابتسم ببراءة. ولكنني تذكرت أنه خرج خلسة من حديقتنا في الوقت الذي ينبغي له فيه أن يشاهد الأوبرا مع والدي وأعمامي والمفوض تان والضيوف الآخرين.

فردد علي المثل المعروف القائل: "رغم أن الرجال والنساء مختلفون، إلا أنهم في الحب متشابهون". ثم أضاف قائلاً: "إنني لا آمل أن أحظى برفيقة في البيت فقط ولكن بحبيبة أيضاً".

أجبته بلهجة لاذعة قائلة: "إنك تبحث عن محظيات قبل أن تتزوج".

باعتبار أن كل الزيجات مرتبة سلفاً ولا يتمتع فيها العريس أو العروس بأي رأي، تشكل المحظيات مصدر خوف لكل زوجة. إذ إن الأزواج يقعون في حب المحظيات. وبالإضافة إلى ذلك، فهن يأتين باختيارهن وليس عليهن مسؤوليات ويمكنهن الاستمتاع بصحبة أزواجهن دائماً بينما يُعتبر الزواج واجباً صرفاً ووسيلة لإنجاب الأبناء الذين يؤدون الطقوس في قاعة الأسلاف.

قال لي: "لو أنك زوجتي لما احتجت قط لأي محظيات".

أطرقت خجلاً وسررت دون أن أعرف السبب في ذلك.

قد يقول بعضهم إن هذا كله سخيف، وقد يقول آخرون إنه من المستحيل لما حدث أن يحدث قط بهذه الطريقة. وقد يقول غيرهم إن هذا حدث في مخيلتي، وهي مخيلة محمومة أودت بي في النهاية إلى كتاباتي المهووسة ونهايتي الحزينة. وقد يقول بعضهم إنه حتى لو حدث كل شيء بالطريقة التي رويتها فقد استحققت نهايتي الحزينة ومصيراً أسوأ من الموت، وهو ما حصلت عليه في الواقع، ولكنني في ذلك الوقت لم أشعر إلا بالبهجة.

قال لي: "أعتقد أنه من المقدر لنا أن نلتقي، فأنا لم أعلم عن وجودك هنا الليلة الماضية. ليس بيدنا أن نقاوم القدر. وبدلاً من ذلك، يجب علينا أن نتقبل أن القدر قد منحنا فرصة خاصة".

احمرت وجنتاي خجلاً واشحت بوجهي.

طوال الوقت استمر عرض الأوبرا في حديقتنا. وقد كنت أعرفها جيداً جداً. فتسربت القصة إلى أعماق إدراكي رغم أن ذهني انصرف عنها قليلاً بسبب الغريب. وأخيراً سمعت لينيانغ تعترف أنها صورة طيفية محبوسة بين الحياة والعالم الآخر. وترددت أصداء صرخات مينغمي المرعوبة في أنحاء حديقة هبوب الرياح . فارتجفت مجدداً.

تنحنح الشاب وقال: "أظن أنك تعرفين هذه الأوبرا جيداً جداً".

أجبت متظاهرة بالتواضع. وهذا ما دل على حماقتي بسبب الظروف: "إنني مجرد فتاة وليست أفكاري على أي قدر من الأهمية".

نظر إليّ بحيرة. وقال: "إنك جميلة. وهذا يسرني. ولكن ما يوجد هنا في الداخل". ومد طرف إصبع يده بدون أن يمسني مشيراً إلى نقطة فوق قلبي. مكان كل مشاعري. وقال: "هذا هو ما أريد أن أعرفه".

شعرت بالمكان الذي كاد أن يلمسه يتوهج. وكنا كلينا جريئين ومتهورين. ورغم أن كلمات لينيانغ المثيرة وأفعال مينغمي المنفعلة وصلتا إلى مبتغيهما. كنت أنا مجرد فتاة حية لا تستطيع أن تتخلى عن حذرها بهذه السهولة بدون أن تدفع ثمناً باهظاً.

في الحديقة. تخلى مينغمي عن خوفه من الشبح وأعلن حبه للينيانغ ووافق أن يتزوجها. ثم وضع النقطة التي نسي والد لينيانغ أن يضعها على لوحة الأسلاف عندما نال ترقيته. وفتح مينغمي القبر ونزع حجر الدفن من الخشب الموضوع في فم لينيانغ. وبهذا تنفس جسمها أنفاس الحياة مجدداً.

قلت: "يجب أن أذهب".

"هلا تقابليني غداً مجدداً؟".

قلت له: "لا أستطيع فسوف يفتقدونني".

وقد اعتبرتها معجزة أن أحداً لم يلحق بي في كلتا الليلتين. فكيف يمكنني أن أحظى بفرصة أخرى؟

"غداً. ولكن ليس هنا". وتابع كلامه وكأنني لم أرفض لتوي فسألني قائلاً: "هل هناك مكان آخر؟ ربما أبعد من هذه الحديقة؟".

"إن حديقة إطلالة القمر تقع بجانب الشاطئ". وكنت أعرف موقعها. ولكنني لم أذهب إلى هناك قط. إذ لم يكن يسمح لي بالذهاب إلى هناك حتى مع والدي. فقلت: "إنها أبعد مكان عن القاعات والحديقة".

"إذاً سأنتظرك هناك. وستأتين إليّ".

توجب عليّ التحلي بقوة إرادة رهيبة لأستدير مبتعدة وأتوجه عائدة

إلى الأوبرا. وشعرت بعينيه وهما تنظران إليّ وأنا أعبر الجسر المتعرج.

لم يكن ليسمح لأي فتاة أخرى، ولا حتى تان زي المدللة، أن تقابل زوجها المستقبلي هكذا، ناهيك عن رجل غريب. وذلك بمحض إرادتها واختيارها بدون مراقبة أو إدانة من أحد. لقد سمحت لمشاعري أن تنساق بعيداً وراء قصة لينيانغ. ولكن لينيانغ ليست فتاة حية تتحمل تبعات أفعالها مثلي.

الفصل الرابع

اعتلال الربيع في الصيف

*

كل الفتيات يفكرن في زفافهن. إذ يقلقنا أن نجد أزواجنا باردي العواطف أو لئيمين أو مهملين، ولكننا معظم الوقت نتخيل أموراً رائعة ومبهجة. فكيف يسعنا ألا نخترع خيالات في عقولنا في حين أن الحقيقة شديدة القسوة؟ وهكذا في ظلمة الليل وأنا أسمع صوت تغريد العندليب، تخيلت زفافي وزوجي وهو ينتظرني في بيته وكل ما يؤدي إلى اللحظة التي سنتحد بها، ولكنني تخيلت بدلاً من وجه الزوج الذي لا أعرفه وجه الغريب الوسيم.

حلمت بآخر هدايا العروس تصل إليّ. وتخيلت بريق دبابيس الشعر والأقراط والخواتم والأساور والمجوهرات ووزنها. وفكرت في الحرير الراقي الذي سيغطيني حتى الحرير الذي يصنعه والدي في مصانعه. وتصورت آخر رأس ماشية من القطيع الذي سيتلقاه والدي مهراً لي. وتخيلت الطريقة التي سيذبح بها والدي الحيوان ثم يلف الرأس والذيل ليعيدهما إلى عائلة وو كدلالة على الاحترام. وفكرت في الهدايا التي سيرسلها والدي مع أجزاء الحيوان، كأغصان شجر الأرطماسيا لتطرد الأشباح الشريرة قبل وصولي، والرمان ليرمز إلى خصوبتي، والعناب لأن كتابته تبدو مثل إنجاب الأطفال بسرعة ، وسبع حبوب لأن حروف كلمة حبة مشابهة لكلمة مولود في الكتابة واللفظ.

حلمت بما ستبدو عليه الحفة عندما تأتي وتأخذني. وفكرت في لقاء حماتي للمرة الأولى عندما تسلمني كتاب الزفاف السري الذي سيعلمني كيف أتصرف كعروس. تخيلت المرة الأولى التي سأكون فيها وحدي مع الغريب ونحن غير مثقلين بالهموم عن المال وطبقة الموظفين. فكنا سنستمتع بالنهار والليل بالابتسامات والكلمات والنظرات، ولكن هذه كلها أفكار عذبة وأحلام لا طائل منها.

عندما حل الصباح وحلت معه ذكرى ميلادي ويوم مهرجان السبعة المزدوجة ، لم أشعر بأي شهية للأكل. فقد كان ذهني مليئاً بأفكار وذكريات عن أنفاس الشاب على خدي وكلماته الهامسة. وأدركت بسعادة كبيرة أنني أعاني من لوعة الحب.

اليوم. أردت لكل شيء أفعله، من اللحظة التي استيقظت بها إلى أن التقيه في حديقة بإطلالة القمر ، أن يتم باختياري. فطلبت من شجرة الصفصاف أن تنزع رباط قدمي وسمحت لها أن تمسك كاحلي الأيمن براحة يدها ورافقتها وهي تنزع الرباط من حول قدمي بحركة منومة. ثم نفعت قدمي بغطس من أوراق الكريفون لتبقي جلدي ناعماً وسهل الربط. ثم أزالت الجلد الميت واستعملت مسحوقاً مصنوعاً من لحاء جذور السنفورية الغربية لتزيل البقع الخشنة ورشت الشب بين أصابعي لتعالج أي التهابات وأنهت العملية برشة خفيفة من المسحوق المعطر.

لطالما اعتبرت قدمي المربوطتين غاية في الجمال وأفضل صفة من صفاتي وافتخرت بهما فخراً عارماً، واعتدت أن أبذل انتباهاً كبيراً لخدمة شجرة الصفصاف واحرص على أن تعمل على تنظيف طيات قدمي تنظيفاً تاماً وتزيل الجلد الميت وتبقي أظافري قصيرة قدر المستطاع. وهذه المرة، زادت حساسية جلدي بسبب دفء المياه وبرودة الجو. إن قدمي المرأة هما أعظم سر وأكبر هبة. وإن حدثت معجزة وتزوجت الغريب فقد كنت سأعتني بهما في السر وأرش عليهما المسحوق لأعطرهما ثم ألفهما بإحكام لكي تبدوا صغيرتين ورفيعتين قدر المستطاع.

طلبت من شجرة الصفصاف أن تجلب لي صينية محملة بعدة أزواج من الأخفاف. فحدقت إليها باستغراق. ترى أي زوج سيفضل، الحريري الأُرجواني المُزَرّق المطرز بالفراشات أم الأخضر الباهت المطرز باليعاسيب الصغيرة؟

نظرت إلى الحرير الذي جلبته لي شجرة الصفصاف وتساءلت إن كان سيحبه. ألبستني شجرة الصفصاف ملابسي ومشطت شعري وغسلت وجهي ووضعت عليه المسحوق ومن ثم وضعت الحمرة على شفتي.

ظل تفكيري تائهاً ومستغرقاً في أفكار الحب، ولكن ما زال يجب علي أن أقدم القرابين لأسلافي في قاعة الأسلاف يوم السبعة المزدوجة . فلم أكن أول من توجهت من عائلتي إلى قاعة الأسلاف صباح هذا اليوم. إذ إننا جميعاً نتمنى الثروة والحصاد الجيد والذرية. وعندما وصلت، رأيت قرابين الطعام التي قدمت للأسلاف لتشجع تبادل الهدايا في ما بيننا وتحثهم على منحنا الخصوبة والازدهار. فرأيت جذور القلقاس الكاملة التي ترمز إلى الخصوبة وعلمت أن زوجات أعمامي والمحظيات قدمنها للأسلاف ليمنحوا الأبناء لسلالتنا. وتركت محظيات جدي كومات صغيرة من الأزهار. وكن يملن للإسراف في قرابينهن على أمل أن يحتفظن بمكانتهن في العالم حيث تُقبل

القرابين على أنهن ملكية جدي وأن تهمس جدتي بكلمات طيبة عنهن في أذنه. أما أعمامي فقد قدموا الأرز ليضمنوا السلام والوفرة، بينما قدم والدي طبقاً دافئاً من اللحوم ليشجع على المزيد من الثروة وموسماً وافراً من ديدان القز. كما تم تقديم عيدان الأكل والأوعية من أجل أسلافنا أيضاً ليتسنى لهم تناول طعامهم بسهولة وأناقة.

بينما أنا متوجهة إلى حديقة الربيع من أجل تناول الفطور سمعت أمي تناديني. فتبعت مصدر صوتها إلى غرفة الفتيات الصغيرات. وعندما دخلت، باغتتني الرائحة المميزة للمرق الخاص المصنوع من كل من البخور ونوى المشمش والعليق الأبيض الذي استخدمته مربيتي العجوز لكل بنات عائلة تشين خلال عملية ربط الأقدام. فرأيت زوجة عمي الثاني ممسكة بابنتها الصغرى زهرة السحلبية الجالسة على حضنها وأمي راكعة على ركبتيها أمام الاثنتين. واجتمعت حولهن كل الفتيات الأخريات اللواتي يعشن في هذه الغرفة، وأكبرهن لا تتجاوز السابعة من عمرها.

قالت أمي عندما رأتني: "تعالي إلى هنا، يا زهرة الفاوانيا. فأنا بحاجة إلى مساعدتك".

كنت قد سمعت أمي تتذمر من أن ربط قدمي زهرة السحلبية لا يجري كما يجب وأن زوجة عمي الثاني تؤدي عملها برقة قلب وتساهل. فأمسكت أمي إحدى قدمي الفتاة الصغيرة بخفة في يدها. وكانت كل العظام المطلوب كسرها قد كسرت، ولكن لم تُجدِ أي جهود نفعاً في جعلها تنصهر وتتشكل في هيئة أفضل. فقد بدا ما رأيته شبيهاً بجسم أخطبوط مليء بالعيدان الصغيرة المكسورة والناتئة. وبمعنى آخر، بدت قدمها أشبه بكومة أرجوانية وصفراء قبيحة وعديمة الفائدة.

وبخت أمي زوجة عمي الثاني قائلة: "تعلمين أن الرجال في عائلتنا ضعفاء، فقد تخلوا عن وظائفهم وعادوا إلى البيت بعد الجائحة ورفضوا العمل للإمبراطور الجديد حتى إنهم لم يعودوا يملكون أي سلطة حقيقية. وأجبروا على حلق مقدمة رؤوسهم، ولم يعودوا يمتطون الجياد مفضلين الراحة في المحفات. وبدلاً من خوض المعارك والصيد والجدال، أصبحوا مهتمين بجمع قطع الخزف الرقيقة واللوحات المرسومة على الحرير. لقد انسحبوا من الحياة وأصبحوا أكثر... أنثوية". وتوقفت قبل أن تتابع كلامها بسرعة قائلة: "وفي هذه الحالة يجب علينا أن نصبح أكثر أنثوية من ذي قبل".

وبهذا هزت قدم زهرة السحلبية. فانتحبت الفتاة وسالت الدموع على

خدي زوجة عمي، فلم تعرهما أمي أي اهتمام.

وقالت: "يجب علينا أن نتبع الفضائل الأربع والطاعات الثلاث. تذكري: عندما تكونين ابنة أطيعي أباك وعندما تصبحين زوجة أطيعي زوجك وعندما تصبحين أرملة أطيعي ابنك. إنك تدركين صحة كلامي".

لم تتفوه زوجة عمي بكلمة واحدة. ولكن هذه الكلمات أفزعتني، فقد تذكرت بوضوح تام كل مرة تم فيها ربط قدمي إحدى بنات عمي، وغالباً ما كانت زوجات أعمامي يفرطن في إظهار الرحمة. فكانت أمي تحمل على ربط القدمين بنفسها وتدفع كلاً من الابنة والأم للبكاء ألماً وشقاء.

قالت أمي بصرامة للأم الباكية وابنتها: "هذه أوقات عصيبة. إن ربط أقدامنا يساعدنا أن نصبح أكثر نعومة وضعفاً وصغراً". وتوقفت مجدداً ثم أضافت بنبرة ألطف ولكنها ليست أقل إصراراً: "سوف أريك كيف تفعلين هذا وأتوقع منك أن تفعليه لابنتك مدة أربعة أيام اعتباراً من اليوم. يجب عليك كل أربعة أيام أن تضيقي الربط أكثر فأكثر. امنحي ابنتك نعمة حب الأم. أتفهمين ما أقوله؟".

تقاطرت دموع زوجة عمي من خديها على شعر ابنتها. فأدرك جميع من في الغرفة أن زوجة عمي لن تتحلى بقوة أكبر مما هي عليه الآن وأن هذا المشهد سيتكرر ثانية.

وجهت أمي انتباهها إليّ مجدداً، وقالت: "تعالي واجلسي بجانبي". وحالما جلسنا وجهاً لوجه، ابتسمت لي ابتسامة أمومية حنونة، وقالت: "هذه آخر أقدام تربط في البيت قبل زواجك، لذا أريدك أن تذهبي إلى بيت زوجك وأنت تجيدين المهارات الملائمة لربط قدمي ابنتك يوماً ما".

رمقتني الفتيات الأخريات بنظرات إعجاب وهن يتمنين أن تفعل أمهاتهن هذا لهن أيضاً.

قالت أمي: "للأسف، يجب علينا أولاً أن نصلح ما تعرض للإهمال هنا". ثم سامحت زوجة عمي بأن أضافت بلطف قائلة: "كل الأمهات يجبن عندما يقمن بهذا العمل. فقد مرت أوقات استبد بي الضعف فيها. وقد يغرينا ألا نشد الأربطة بقوة كافية. ولكن ما الذي يحدث عندئذ؟ تمشي الطفلة وتبدأ العظام تتحرك داخل الأربطة. ألا تدركين، يا أختي أنك، في الوقت الذي ظننت نفسك تقدمين فيه معروفاً لابنتك، زدت من شدة محنتها وألمها؟ يجب أن تتذكري أن الوجه القبيح منحة من السماء. أما الأقدام المربوطة بإهمال فهي دلالة على الكسل ليس من قبل الأم فقط

ولكن من الابنة أيضاً. أي رسالة يقدم هذا لأهل العريس المرتقبين؟ ينبغي أن تبدو الفتيات رقيقات كالزهور. ومن المهم أن يمشين بأناقة ويتمايلن بخفة ويظهرن احترامهن للآخرين. وهكذا، تصبح الفتيات غاليات كالجواهر الثمينة".

أصبح صوت أمي قاسياً مجدداً وهي تتحدث إلي.

"يجب أن نكون أقوياء وأن نصحح الأخطاء عندما تحدث. والآن أمسكي كاحل ابنة عمك بيدك اليسرى".

ففعلت ما قالته لي.

طوت أمي يدها على يدي وضغطت، وقالت: "يجب أن تمسكيها بإحكام شديد لأنه..." وألقت نظرة خاطفة على زهرة السحلبية وقررت ألا تنهي جملتها، ثم تابعت قائلة: "إننا لا نقوم بغسل الثياب، يا زهرة الفاوانيا، ولكنك بالتأكيد قد رأيت شجرة الصفصاف أو الخادمات الأخريات وهن يغسلن ملابسك أو أغطية سريرك".

فأومأت برأسي.

"هذا حسن. إذاً فأنت ترينهن عندما يعصرن الملابس بأكبر قوة ممكنة ليخرجن كل المياه المتبقية. وسوف نقوم نحن بعمل مشابه. من فضلك افعلي كما أفعل تماماً".

إن الحرف الخاص بحب الأم مؤلف من عنصرين: الحب والألم. ولطالما فكرت أن هذا الشعور هو ما تشعر به البنات حيال أمهاتهن اللواتي يتسببن لهن بالألم بربط أقدامهن. ولكنني عندما نظرت إلى دموع زوجة عمي وشجاعة أمي أدركت أن هذا الشعور هو ما تشعر به الأمهات أنفسهن. فالأم تعاني أشد المعاناة عندما تلد وعندما تربط القدمين وعندما تودع ابنتها حين زواجها. فأردت أن أتمكن من أن أظهر لبناتي كم أحبهن، ولكنني شعرت بالغثيان شفقة على ابنة عمي الصغيرة وخوفاً من الإخفاق في تنفيذ مهمتي.

خاطبت أمي زوجة عمي قائلة: "أيتها الأم، أمسكي ابنتك بإحكام". ثم نظرت إلي وأومأت إلي برأسها بتشجيع وقالت: "ضعي إحدى يديك حول القدم لكي تلتقي بيدك الأخرى... وكأنك ستعصرين الملابس".

جعل الضغط على عظام القدم المكسورة زهرة السحلبية تتلوى. فلفت زوجة عمي ذراعيها بشدة حول ابنتها.

تابعت أمي قائلة: "أتمنى لو أننا نستطيع أن نفعل هذا بسرعة، ولكن العجلة ورقة القلب هما ما تسببان بهذه المشكلة في المقام الأول".

أبقت قبضتها محكمة على الكاحل بيدها اليسرى بينما ضغطت بيدها اليمنى نحو الأصابع. وبدأت ابنة عمي تصرخ.

شعرت أنني مصابة بالدوار ولكنني متحمسة أيضاً. فقد كانت أمي تظهر لي المزيد من حبها الأمومي.

تتبعت حركتها، ولكن صراخ ابنة عمي اشتد.

قالت أمي: "حسناً. اشعري بالأصابع وهي تصبح مستقيمة تحت أصابعك. ضعيها في مكانها الصحيح وأنت تعصرينها بيدك".

وصلت إلى الأصابع ثم تركتها. فظلت قدما زهرة السحلبية تبدوان مشوهتين بصورة رهيبة. ولكن بدلاً من النتوءات الخارجة من اللحم بدت القدمان أشبه بفرتي قلفل طويلين. وراح جسد زهرة السحلبية من فوقي يتلوى وهي تنتحب وتحاول أن تلتقط أنفاسها.

أشارت أمي قائلة: "إن المرحلة التالية مؤلمة". ونظرت إلى إحدى بنات العم الجالسات إلى جنبها وقالت: "اذهبي وأحضري شاو. أين هي على كل حال؟ لا يهم. أحضريها وحسب وبسرعة!".

عادت الفتاة بصحبة مربيتي العجوز. وقد كانت في ما مضى تنحدر من عائلة نبيلة، ولكنها أتت للعمل لدينا عندما أصبحت أرملة في سن مبكرة. وكلما تقدمت في السن، أصبحت أمقتها أكثر لأنها شديدة الصرامة وعديمة التسامح.

أمرتها أمي قائلة: "ثبتي ساق الفتاة. لا أريد أن أرى أي حركة من الركبتين وما دونهما باستثناء الحركات الصادرة مني أو من ابنتي. مفهوم؟".

كانت شاو قد مرت بهذه الأمور عدة مرات وتعلم ما ينبغي القيام به.

ألقت أمي نظرة خاطفة إلى حشد الفتيات، وقالت: "تراجعن إلى الوراء. افسحن لنا مجالاً".

ورغم أن الفتيات كن فضوليات كالفئران، فقد كانت أمي رئيسة النساء في بيتنا. ففعلن ما طلبته منهن.

"فكري في قدميك، يا زهرة الفاوانيا، عندما تفعلين هذا. إنك تعرفين كيف تكون الأصابع مطوية تحت القدم وكيف يكون وسط القدم مثنياً على نفسه، أليس كذلك؟ إننا نحقق هذا عن طريق لف العظام تحت القدم وكأننا نلف جورباً. أتستطيعين فعل هذا؟".

"أعتقد ذلك".

سألت أمي زوجة عمي قائلة: "أأنت جاهزة، أيتها الأم؟".

بدت زوجة عمي، التي كانت معروفة ببشرتها الشاحبة، شبه شفافة وكأن روحها بالكاد تسكن جسدها.

قالت لي أمي: "مرة أخرى، قلدي حركاتي".

لففت العظام تحت القدم بتركيز شديد لدرجة أنني بالكاد لاحظت صراخ ابنة عمي. وثبتت يدا شاو الفاسيتان ساقيها بقوة بحيث إن براجمها أصبحت بيضاء. فتقيأت زهرة السحلبية من شدة معاناتها وانطلق القيء من فمها ولطخ ثياب أمي ووجهها. فاعتذرت زوجة عمي اعتذاراً شديداً بصوت ملؤه الخزي. وغمرني الشعور بالغثيان، ولكن أمي لم تجفل أو تتردد للحظة في مهمتها.

وأخيراً، أنجزنا مهمتنا. فنظرت أمي إلى عملي وربتت على وجنتي. وقالت: "لقد أنجزت عملاً ممتازاً. وربما تكون هذه موهبتك المميزة. سوف تصبحين زوجة وأماً رائعة".

ولم تكن أمي قد أشعرتني قط باستحسانها لأي شيء كنت قد فعلته.

لفت أمي القدم التي عملت هي عليها أولاً، وقامت بما عجزت زوجة عمي عن القيام به. فلفت الرباط بشكل ضيق جداً. وبحلول ذلك الوقت، لم تعد لدى زهرة السحلبية أي دموع تذرفها لأن الصوت الوحيد الذي سمعته كان صوت أمي وصوت حفيف القماش وهي تمرره من فوق القدم وتحتها مراراً وتكراراً إلى أن استعملت الأمتار الثلاثة كلها على القدم الصغيرة.

شرحت أمي قائلة: "إن عدد الفتيات اللواتي يربطن أقدامهن يزداد أكثر من أي وقت مضى في تاريخ بلادنا. ويعتقد البرابرة المانشو أن ممارساتنا النسائية دليل على التخلف. إنهم يرون أزواجنا، ولكنهم لا يستطيعون أن يرونا في حجرات النساء. ويدل قيامنا بربط أقدام بناتنا على الثورة ضد هؤلاء الأجانب. انظرن من حولكن تجدن أن خادماتنا وجوارينا لهن أقدام مربوطة. وحتى العجائز والفقيرات والضعيفات لهن أقدام مربوطة. سوف نواصل وسائلنا النسائية. فهذا هو ما يجعلنا قيمات ولائقات للزواج. ولا يحق لهم أن يمنعونا من هذا!".

خاطت أمي الأربطة لتغلقها ثم وضعت القدم على وسادة وبدأت تعمل على القدم التي قمت أنا بإعادة تشكيلها. ثم وضعت هذه القدم أيضاً على وسادة. ونزعت أصابع زوجة عمي بلطف من على خدي زهرة السحلبية اللذين لا يزالان مبللين بالدموع ثم أضافت بضع أفكار أخيرة.

فقالت: "لقد جعلنا ربط أقدامنا نفوز من ناحيتين. فنحن النساء

الضعيفات هزمنا المانشو. وهكذا، فشلت سياستهم فشلاً ذريعاً بحيث إن نساءهم أصبحن الآن يحاولن تقليدنا نحن. وإن خرجتِ إلى الشارع استطعتِ رؤيتهن بأحذيتهن الكبيرة القبيحة ذات الكعوب الصغيرة المصنوعة على هيئة الأقدام المربوطة. إنهن لا يستطعن منافستنا أو منعنا من الاعتزاز بثقافتنا. والأهم من كل ذلك، فلا تزال أقدامنا المربوطة مثار إعجاب أزواجنا. وتذكرن أن الزوج الصالح هو من يسعد زوجته أيضاً".

بسبب الأحاسيس التي ملأتني بعد لقائي الغريب، شعرت أنني فهمت مغزى كلامها. ومع ذلك، فمن المثير للاستغراب أنني لم أرَ والدي ووالدتي يتصرفان بطريقة ودية مع بعضهما. ترى هل السبب هو أمي أم أبي؟ لطالما تعامل والدي معي بعطف وحنان. فقد كان يحتضنني ويقبلني كلما التقينا في الممرات أو زرته في مكتبه. ولا بد أن قلة التواصل بينهما ناتج عن نقص من جانب أمي. ترى هل بدأت زواجها بالخشية نفسها التي أشعر بها الآن حيال زواجي؟ ألهذا السبب اتخذ والدي لنفسه محظيات؟

نهضت أمي وأبعدت تنورتها المبللة عن ساقيها، ثم قالت: "سوف أغير ملابسي. يا زهرة الفاوانيا، من فضلك اذهبي إلى حديقة الربيع . وأنتِ أيتها الأم، اتركي ابنتك هنا، واذهبي مع زهرة الفاوانيا. لدينا ضيوف ولا بد أنهن بانتظارنا. اطلبي منهن أن يبدأن بتناول الفطور من دوني". ثم أضافت مخاطبة شاو: "سأرسل بعض العصيدة إلى الفتاة. فاحرصي على أن تتناولها. ثم أعطيها بعض الأعشاب لتخفيف الألم. ويمكنها أن تخلد إلى الراحة اليوم. إنني أعول عليك أن تعلميني بكل ما يرشح من قدميها خلال الأيام الأربعة التالية. يجب ألا نسمح بتكرار ما حدث. فهذا غير منصف بالنسبة إلى الفتاة ومخيف للفتيات الأصغر سناً".

بعد أن غادرت أمي، وقفت على قدمي. وللحظة، شعرت بالغرفة تصبح مظلمة. وأخيراً صفا ذهني ولكن معدتي ظلت مضطربة.

فتمكنت من القول: "خذي وقتك، يا زوجة عمي. سأقابلك في الممر عندما تستعدين".

أسرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي ورفعت غطاء مبولة الغرفة وتقيأت. ولحسن الحظ، لم تكن شجرة الصفصاف هناك لتراني لأنني لم أجد تفسيراً أقدمه لما حدث لي. ثم نهضت وغسلت فمي وعدت إلى الممر ووصلت بالضبط عندما خرجت زوجة عمي من حجرة الفتيات.

أخيراً فعلت شيئاً جعل أمي تفتخر بي فخراً عارماً، ولكنه جعلني أيضاً أشعر بالغثيان. فرغم كل رغبتي في أن أتحلى بالقوة كلينيانغ، ما

زلت رفيقة القلب كزوجة عمي. وهكذا، فقد كنت سأعجز عن إظهار حبي الأمومي لابنتي وسأعتبر كارثة في ما يتعلق بربط قدميها. وتنبت الا تعلم امي بذلك ابداً. وربما لن تسمح حماتي لغير إخفاقي ان يخرج من بوابات بيت عائلة وو بالضبط كما لم تسمح أمي لأحد أن يعرف بضعف زوجة عمي. ويندرج هذا التصرف ضمن النصيحة القائلة بعدم القيام بأي شيء يتسبب بفقدان ماء وجه العائلة. وإن تحلت عائلة وو بالطيبة وكرم الأخلاق، فسوف تبذل ما بوسعها لإبقاء السر ضمن جدران بيتهم الأربعة.

توقعت ان أسمع أصواتاً هامسة عندما دخلت بصحبة زوجة عمي إلى حديقة الربيع لأن كل امرأة في القصر كانت قد سمعت بالتأكيد صوت صراخ زهرة السحلبية. ولكن زوجة عمي الثالث كانت قد استغلت الفرصة لتتولى دور القيادة. وبعد أن وُضعت الأطباق على الطاولات، انشغلت النساء بالأكل والثرثرة وكان شيئاً خارجاً عن المألوف لم يحدث صباح السبعة المزدوجة في قصر عائلة تشن.

نسيت أن أقوي من عزيمتي ضد تعليقات بنات عمي اللاذعة التي تأتي مع الفطور. ولكن ما أثار استغرابي هو أن كلماتهن ابتعدت عني كالجلد الميت المتقشر الذي أزالته شجرة الصفصاف عن قدمي. ومع ذلك، فلم استطع أن اتناول طعامي ولا حتى الحلوى الخاصة التي طلبت أمي من الطاهية أن تعدها من اجل ذكرى ميلادي. فكيف يسعني ان اذوق الطعام وابلعه ومعدتي لا تزال مضطربة من ربط قدمي ابنة عمي ومن سعادتي السرية ومن خشيتي أن يضبطني أحد الليلة؟

بعد الفطور، عدت إلى غرفتي. وفي وقت لاحق، سمعت وقع الأقدام الصغيرة على الأرض بينما غادرت الأخريات غرفهن متوجهات إلى غرفة براعم اللوتس . فلففت إحدى لوحاتي في قطعة من الحرير لأعرضها في منافسة اليوم. وأخذت نفساً عميقاً وخطوت إلى الممر.

عندما وصلت إلى غرفة براعم اللوتس ، التمست جانب أمي. فلاحظت أن مشاعرها الدافئة التي اظهرتها لي في وقت سابق قد تبخرت في الهواء، ولكن القلق لم يساورني بسبب انشغالها الشديد اليوم بوجود الضيوف والمنافسات والاحتفال، وهذا هو ما اعتقدته عندما ابتعدت عني.

حان وقت منافسة الفن. إنني أعترف بافتقاري إلى البراعة في التطريز وعزفي الأخرق على القانون، ولكن رسمي كان أسوأ من ذلك. بدأت المنافسة بفئة زهور الفاوانيا. وحالما تم عرض كل الرسوم، تحولت عيون مترقبة نحوي.

وسألت إحدى الضيوف: "أين زهرة الفاوانيا التي رسمتها، يا زهرة الفاوانيا؟".

فأفضت زوجة عمي الثالث للأخريات قائلة: "إنه اسمها، ولكنها لا تتمرن أبداً على رسم الزهور".

تلت هذه المنافسة منافسة أخرى عن زهور الألحوان وأخرى عن براعم الخوخ وأخيراً عن زهور السحلبية. فوضعت رسومي خلسة على الطاولة. وبدت زهور السحلبية التي رسمتها كبيرة الحجم ففازت فتاة أخرى بالمنافسة. وفي ما بعد أتى دور منافسة رسم الفراشات ثم الفراشات والزهور معاً. فلم أشارك في أي من هاتين الفئتين.

فكرت في نفسي أننا دائماً نرسم الزهور والفراشات نفسها، ولكن ماذا يمكننا أن نرسم غير ذلك؟ إن رسوماتنا تتعلق بما نستطيع أن نراه في الحديقة كالفراشات والزهور. وبينما أنا واقفة هناك أتأمل وجوه زوجات أعمامي وبناتهن وضيفاتنا الجميلة المكسوة بالمساحيق، رأيتها تمثل تَوْقاً حزيناً، ولكنهن أيضاً كن يلاحظنني. فلم يغب ذهولي عن ملاحظة النساء الأخريات المدربات على ملاحظة الضعف والهشاشة.

أشارت زوجة عمي الرابع قائلة: "يبدو على زهرة الفاوانيا أنها مصابة باعتلال الربيع في الصيف".

أضافت زوجة عمي الثالث قائلة: "نعم، لقد لاحظنا جميعاً تورد خديها. ترى ما الذي يشغل بالها؟".

عرضت زوجة عمي الرابع مساعدة قائلة: "سأقطف غداً بعض الأعشاب وأغليها لتشربها وتخفف اعتلالها الربيعي".

كررت أمي كلامها قائلة: "اعتلال الربيع في الصيف؟ كلا، إن زهرة الفاوانيا ذات تفكير عملي".

قالت زوجة عمي الثاني: "إننا جميعاً نحب أن نرى بناتنا هكذا، ولكنها قد تبوح بأسرارها للفتيات الأخريات. فهن جميعاً يتمنين أن تكون لهن أفكار رومانسية أيضاً. ينبغي لكل فتاة أن تبدو بهذا الجمال في ذكرى ميلادها السادسة عشرة. ما زالت أمامها خمسة أشهر إلى زواجها. وأعتقد أننا جميعاً يمكننا أن نتفق أنها اينعت وأصبحت جاهزة للقطف".

بذلت جهدي قدر المستطاع أن أجعل وجهي يبدو عسيراً على سبر أغواره كبحيرة عميقة في ليلة صيفية رطبة، ولكنني فشلت. فراحت بعض النساء العجائز يسخرن من إحراجي الطفولي.

اتفقت أمي معها قائلة بنبرة صوت لا مبالية: "إذاً، فمن الجيد أنها

ستتزوج عما قريب. ولكنك على حق، يا زوجة شقيق زوجي، فربما ينبغي لها أن تتحدث إلى ابنتك. وأنا واثقة من أن زوج المكنسة سيكون ممتناً لأي تحسين يطرأ على ليلة زفافهما". ضمت يديها إلى بعضهما برقة وقالت: "الآن، هيا بنا إلى الحديقة لنجري آخر منافساتنا".

بينما خرجت النساء خلف بعضهن، شعرت بعيني أمي تراقباني وهي تفكر متأملة في ما قيل أمامها. فلم تكلمني. ورفضت أنا أن أنظر إلى عينيها. فأصبحنا أشبه بتمثالين حجريين في الغرفة. شعرت بالامتنان أنها قامت بحمايتي. ولكن قول هذا يعني أن أعترف... بماذا؟ أنني مصابة بلوعة الحب؟ أنني قابلت شخصاً في حديقة هبوب الرياح في الليلتين الماضيتين؟ وأنني أنوي أن أقابله الليلة في حديقة إطلالة القمر، وهي مكان في بيتنا لا يسمح لي بالذهاب إليه؟ فجأة شعرت أنني تغيرت بشكل جذري. إن نمو الجسم لا يحول الفتاة إلى امرأة ولا تفعل الخطوبة ذلك ولا المهارات الجديدة. ولكن الحب هو ما كان قد حولني إلى امرأة حقيقية.

استنجدت بجدتي وبكرامتها واتزانها، وبدون التفوه بكلمة واحدة رفعت رأسي وخرجت من الباب إلى الحديقة.

جلست على أصيص من الخزف، وبدت الحديقة في عيني جميلة وملهمة جداً. فألقت زوجات أعمامي وبناتهن مقاطع شعرية لشاعرات شهيرات تتحدث عن براعم الخوخ والأقحوان والسحلبية. ولكنني فتشت في ذاكرتي إلى أن عثرت على قصيدة كئيبة كتبت على جدار في يانغجو بقلم امرأة مجهولة خلال الجائحة. فانتظرت إلى أن ألقت الأخريات قصائدهن ثم بدأت أتحدث بنبرة صوت حزين تعكس مزاج الكاتبة اليائسة:

"الأشجار مجردة من أوراقها،
وأسمع من بعيد صوت الإوز الحزين.
لو أن بكائي بدل الدموع دماً يصبغ براعم شجرة الخوخ،
ولكنني لن أستطيع أبداً أن أجعلها تتفتح.
قلبي فارغ وحياتي لم تعد لها قيمة بعد الآن.
وكل لحظة أذرف ألف دمعة".

تغلغلت هذه القصيدة، التي تعتبر أكثر قصائد الجائحة حزناً، في أعماق قلوب الجميع. فذرفت زوجة عمي الثانية، التي ما زالت مستاءة من ربط قدمي ابنتها، الدموع مرة أخرى. ولكنها لم تكن الوحيدة التي

تأثرت. فقد ملأت مشاعر أنثوية أمومية الحديقة. واشتركنا جميعاً في يأس تلك المرأة التائهة.

ثم شعرت بعيني أمي تخترقانني. ورأيت لون وجهها يشحب واحمر خديها يبدو واضحاً كالكدمات على وجنتيها. وكان صوتها بالكاد مسموعاً عندما قالت: "في هذا اليوم الجميل، تتسبب ابنتي بالحزن لنا جميعاً".

فلم أفهم سبب استياء أمي.

أفضت أمي إلى الأمهات من حولها قائلة: "إن ابنتي ليست على ما يرام. وأخشى أنها قد نسيت السلوك الملائم." ثم نظرت إليّ مجدداً وقالت: "ينبغي أن تمضي بقية اليوم والأمسية في سريرك".

كانت أمي تتمتع بسيطرة كاملة عليّ. ولكن هل يعني هذا أنها ستمنعني من حضور الأوبرا لأنني ألقيت قصيدة رثاء؟ ملأت الدموع عينيّ لمقاومتها.

وقلت بصوت مثير للشفقة نوعاً ما: "إنني لست مريضة".

"ليس هذا ما قالته لي شجرة الصفصاف".

فاحمر وجهي من شدة الغضب وخيبة الأمل. فعندما أفرغت شجرة الصفصاف مبولة الحجرة، لا بد أنها لاحظت أنني تقيأت، فأخبرت أمي. والآن علمت أمي أنني فشلت، مرة أخرى، في مهمتي الوشيكة كزوجة وأم. ولكن هذه المحرقة لم تجعلني أدرك خطأي، بل زادتني تصميماً على لقاء الغريب في حديقة إطلالة القمر. فوضعت سبابتي على خدي وأملت رأسي ورسمت على وجهي صورة لأجمل ملامح خالية من التعبير ومجردة من الأذى لعذراء من مدينة هانغجو.

"أوه، يا أمي، إنني أعتقد أن ما قالته زوجات أعمامي صحيح. ففي هذا اليوم الذي نكرم فيه العذراء الحائكة تركت ذهني ينصرف إلى الجسر الأعلى والأسمى الذي سيتشكل الليلة ليلتقي عليه الحبيبان. وربما أكون قد عانيت من حالة مؤقتة من المشاعر الربيعية. ولكنني لا أعاني من حمى الربيع أو آلام من أي نوع أو أي متاعب نسائية. إن هفوتي هي مجرد دلالة على وضعي كعذراء ليس إلا".

بدوت بريئة جداً، فنظرت إليّ النساء الأخريات بتعاطف كبير، بحيث إن أمي كانت ستعاني من وقت عصيب إن عزمت على صرفي من الغرفة.

فسألت بعد وقت طويل قائلة: "من تود أن تلقي قصيدة؟".

بدا كل شيء يحدث في قاعة النساء اختباراً من نوع ما. فذكرني كل اختبار بنقصي، إذ إنني لم أتفوق في ربط القدمين ولا التطريز ولا الرسم

ولا العزف على القانون ولا حتى إلقاء الشعر. كيف يسعني أن أذهب إلى زوجي الآن وأنا أحب شخصاً آخر من كل قلبي؟ كيف يسعني ان اكون الزوجة التي يستحقها زوجي ويحتاج إليها ويريدها؟ لقد اتبعت أمي كل القواعد، ولكنها فشلت في منح الأبناء لأبي. وإن فشلت أمي في دورها كزوجة، فكيف يسعني أنا أن أنجح على الإطلاق؟ ربما ينصرف زوجي عني ويحرجني أمام صداق ويجد المتعة في صحبة الفتيات المغنيات حول البحيرة او في اتخاذ المحظيات.

تذكرت عبارة اعتادت أمي أن ترددها مراراً: "إن المحظيات حقيقة لا مفر منها. ولكن المهم هو أنك تختارينهن بملء إرادتك ثم تعاملينهن المعاملة التي تريدينها. فلا تضربيهن بنفسك، بل دعي زوجك يقوم بذلك".

ولكن هذا ليس ما أردته في حياتي.

اليوم، حلت ذكرى ميلادي السادسة عشرة. وفي هذه الليلة، تتحد العذراء الحائكة وراعي الأبقار على الجسر الأعلى والأسمى، وفي حديقتنا، توشك ليانغ أن تُبعث مجدداً إلى الحياة بسبب حب مينغمي. أما أنا فقد رحت أترقب لقائي مع الغريب في حديقة بإطلالة القمر . وقد لا أكون أكثر شابة مثالية في العالم، ولكنني شعرت وأنا تحت أنظاره أنني كذلك فعلاً.

الفصل الخامس

الحذاء المُوحل

•

كتب كونفوشيوس قائلاً: "احترموا الأشباح والأرواح، ولكن أبقوها بعيدة عنكم". وعندما حل يوم السبعة المزدوجة نسي الناس أمر الأشباح والأسلاف. فالجميع أرادوا أن يستمتعوا بالاحتفال، بدءاً من الألعاب المميزة إلى عرض الأوبرا. بدّلتُ ملابسي وارتديت بلوزة حريرية مطرزة بزوج من الطيور المحلقة فوق زهور الصيف لتستحضر السعادة التي شعرت بها في لقائي مع الغريب. وارتديت تحتها تنورة بيضاء من الحرير طُرزت ببراعم التفاح البري على حاشيتها مما لفت الانتباه إلى حذائي الأرجواني المُزّرق الملون. وزينت أذني بأقراط ذهبية متدلية وأثقلت معصمي بأساور الذهب المحلاة باليشب التي تلقيتها كهدايا من عائلتي على مر السنوات. لم أكن مفرطة الأناقة على الإطلاق. ففي كل مكان من حولي، رأيت نساء وفتيات جميلات يتمايلن عبر الغرفة، بعضهن بمشيتهن الإيقاعية الناعمة ليحيين بعضهن بعضاً وحليهن الذهبية ترن بنغمة موسيقية.

على طاولة مقتنيات الأسلاف التي نصبت من أجل المناسبة في غرفة براعم اللوتس ، أحرقت عيدان البخور في مراجل برونزية مالئة الغرفة بعبق لاذع شهي، ووضعت أكوام من الفاكهة، ومنها البرتقال والبطيخ والموز وغيرها، على أطباق من القش. وفي آخر الطاولة، نُصبت آنية خزفية مليئة بالماء وأوراق الكريفون التي ترمز إلى الحمام الطقسي الذي يقدم للعرائس. وفي وسط الطاولة، وُضعت صينية دائرية قطرها متر واحد تقريباً لها مركز دائري محاط بستة أقسام. فكان الوسط يرمز إلى العذراء الحائكة وراعي الأبقار وجاموسه الذي يخوض في الجدول مذكراً بالمكان الذي اختبأت فيه العذراء. أما الأقسام المحيطة به فترمز إلى أخوات العذراء الحائكة الأخريات. دعت أمي الفتيات غير المتزوجات واحدة تلو الأخرى ليضعن قرابينهن في كل قسم من الأقسام المحيطة.

بعد المراسم، جلسنا لتناول وليمة فخمة. واتسم اسم كل طبق من الأطباق التي تناولناها بمعنى خاص، كطبق حافر التنين الذي يرسل الطفل ، وهو عبارة عن فخذ من اللحم متبل بعشرة أنواع من التوابل ومطهو ببطء على نار هادئة. ويسمى بهذا الاسم لأنه يشاع عنه أنه يجلب الأبناء.

ثم أحضرت الخادمات دجاجة لكل طاولة، وبضربة قوية، كسرن الطين المشوي الذي يكسو كل دجاجة ففاحت رائحة الزنجبيل والفطر في الغرفة. وتم تقديم طبق تلو آخر، وكل واحد منها منكه بنكهة معينة ترضي أحد الأذواق، فمنها الجيد والسيئ والعطر والدبق والحلو والحامض والمالح والمر. وقدمت لنا الخادمات للتحلية كعك الشعير المخبوز مع الأرز الدبق والفاصولياء الحمراء والجوز وعشب ضفاف الأنهار ليساعدنا على الهضم ويقلل من الدهون ويطيل العمر. وهكذا، فقد كانت وجبة سخية، ولكن التوتر سيطر على أعصابي بحيث إنني لم أشعر برغبة في الأكل.

تبعت الوليمة منافسة واحدة أخيرة. فأطفئت المصابيح، وسنحت الفرصة لكل فتاة غير متزوجة لأن تدخل الخيط في الإبرة على ضوء عود بخور واحد. وكان إدخال الخيط في الإبرة بنجاح يعني أن الفتاة ستنجب ابناً فور زواجها. فملأ الضحك الغرفة عند كل محاولة فاشلة.

حاولت أن أنضم إلى الضحك قدر استطاعتي، ولكنني بدأت من الآن أخطط للطريقة التي سأقابل بها الغريب دون أن يضبطني أحد. فتوجب علي أن أستخدم مهاراتي الماكرة وأستنبط وسيلة لتساعدني. وكان بوسعي فقط أن أخمن وأفكر في كل خطوة، كما اعتدت أن أفعل عندما ألعب الشطرنج مع والدي.

على عكس الليلة الماضية، لم أرغب أن أجلس في الصف الأمامي الذي أكون فيه الأقرب إلى الأوبرا ولكن كل النساء يستطعن أن يرينني. ولم أستطع أيضاً أن أتلكأ كما فعلت الليلة الماضية. فلو فعلت ذلك مجدداً، لشكت أمي بأمري لأنها تعلم أنني أعشق الأوبرا لدرجة يستحيل بها أن أتأخر عنها ثانية. وتوجب علي أن أبدو وكأنني أحاول أن أرضيها وخاصة بعد ما حدث عصر اليوم. وبينما راح عقلي يبحث عن الاحتمالات، لمحت ثان زي، فبدأت أخطط لتحركاتي. نعم، لقد عزمت على استغلال هذه الطفلة لأغلف نفسي بالبراءة.

عندما نجحت زهرة اللوتس بإدخال الخيط في الإبرة وصفق لها الجميع، مشيت عبر الغرفة إلى زي التي جلست على طرف أحد الكراسي على أمل أن تختارها أمي لتأخذ دورها في اللعبة. ولم يكن هذا سيحدث قط لأن زي لم تكن تحضر لمراسم زفافها، فهي مجرد فتاة صغيرة لم يختر لها أهلها زوجاً بعد.

ربتُّ على كتفها، وقلت: "تعالي معي، أريد أن أريك شيئاً".

نهضت عن الكرسي فأخذت يدها وأنا حريصة على أن ترى أمي ما

أفعله.

فأومأت الفتاة برأسها وملامحها تبدو جادة.

"أتودين أن تري هدايا عرسي؟".

فهتفت الفتاة من فرط السعادة. أما أنا فقد فعلت الشيء نفسه في داخلي، ولكن لسبب مختلف كلياً.

فتحت صناديق ملابسي وأريتها أثواباً من الحرير والساتان اللماع. وعندما بدأ قرع الطبوع والصنوج يدعونا إلى الحديقة، نهضت زي على قدميها. وبدأت النساء يتجمعن في الممر خارج غرفتي.

فأسرعت قائلة: "يجب أن تري فستان زفافي. سيعجبك غطاء الرأس".

عاودت الفتاة الجلوس وهي تتلوى بلهفة على غطاء سريري.

أخرجت تنورة عرسي الحمراء المطرزة التي تحوي عشرات الثنيات الصغيرة. وكانت النساء اللواتي استخدمهن والدي لخياطتها قد عدلن قطب التطريز لتبدو أشكال الزهور والغيوم ورموز الحظ السعيد المتشابكة مصفوفة بشكل مثالي. وفي يوم زفافي، كان التصميم سينفرج فقط إن اتخذت خطوة واسعة جداً. وبدت البلوزة متقنة بشكل مماثل. وبدلاً من أربع عُرىً فقط لتغلقها عند عنقي وتحت صدري وتحت ذراعي صنعت الخياطات عشرات العُرى الصغيرة المضفورة لتربك زوجي وتطيل ليلة الزفاف. أما غطاء الرأس فقد اتسم بالبساطة والأناقة وزُين بحديقة من الأوراق الخضراء الرقيعة التي ترتجف كلما حركت رأسي وتلمع في الضوء، وألحق به خمار أحمر لأغطي به وجهي لئلا أرى زوجي حتى يرفعه. لطالما أحببت ملابس زفافي، ولكنها لم تحرك الآن في داخلي إلا المشاعر القاتمة. فما فائدة تزييني ولفي كهدية دون أن أكن أي مشاعر للشخص الذي سأمنح له؟

تباهت زي قائلة: "إنه جميل، ولكن والدي وعدني أن يكون غطاء رأسي محلى باللآلئ واليشب".

لم أهتم بما قالته لأنني كنت أصغي بعناية لما يجري خارج غرفتي. وكانت الطبول والصنوج لا تزال تستدعي الجمهور، ولكن الممر ظل هادئاً. فأعدت ملابس زفافي إلى مكانها. ثم أخذت يد زي وخرجت من الغرفة.

تجولنا معاً في الحديقة. فرأيت بنات أعمامي يتجمعن معاً خلف الستارة. ومما لا يصدق، فقد اكتشفت أنهن خصصن لي مكاناً. لوحت زهرة اللوتس إليّ لأنضم إليهن. فابتسمت لها ثم انحنيت لأهمس في أذن زي.

"انظري، إن البنات غير المتزوجات يردن أن تجلسي معهن".

"أحقاً ذلك؟".

ولم تنتظرني لأمنحها المزيد من التشجيع، بل انطلقت متوجهة في طريقها عبر الوسائد إلى الفتيات الأخريات وجلست وبدأت على الفور تتحدث إلى بنات أعمامي بلا توقف. لقد اظهرن لي بعض اللطف، وهكذا رددت عليهن.

تظاهرت بالبحث عن وسادة متوفرة قرب الوسط، ولكن بحلول هذا الوقت بالطبع لم تبق أي وسادة شاغرة. فتصنعت خيبة الأمل وجلست بنعومة على وسادة على الطرف خلف قسم النساء.

كان مشهد الليلة الافتتاحي مشهداً لطالما أحببت أن أراه، ولكنني لم استطع إلا أن أسمعه من مكاني خلف الجمهور. لقد هربت لينيانغ وميتغمي وهذا أمر غير وارد على الإطلاق في ثقافتنا، وحالما تزوجا، اعترفت لينيانغ أنها عذراء. إذ إن جسدها الطاهر بقي محفوظاً في قبرها وهي شبح. وانتهى المشهد برحيل لينيانغ وميتغمي إلى هانغجو حيث اعتزم أن يتم دراسته من أجل الخضوع للامتحانات الإمبراطورية.

لم يكن القسم الثالث من الأوبرا يعجبني. فقد كان بمعظمه يتناول العالم خارج حديقة لينيانغ ويحوي مشاهد المعارك، ولكنه حظي باهتمام الجمهور في الجانب الذي جلست فيه. واستغرقت النساء من حولي بالقصة. فانتظرت إلى أن لم أعد أطيق الانتظار أكثر من ذلك، ثم نهضت ببطء، وقلبي يخفق بعنف، وملست تنورتي ومشيت بلا مبالاة قدر المستطاع باتجاه حجرات النساء.

ولكنني لم أذهب إلى حجرة الفتيات غير المتزوجات، بل انعطفت في الممر الرئيس وأسرعت على طول السور الجنوبي لبيتنا ومررت ببرك صغيرة وحدائق إلى أن لمحت شاطئ البحيرة. فرأيت حديقة بإطلالة القمر وشعرت بوجود الغريب هناك. وكان القمر وحده يضيء ظلمة الليل. فبحثت في الظلام إلى أن عثرت عليه جالساً على حاجز يحيط بالطرف الأقصى من الشرفة وهو لا ينظر إلى الماء بل إليّ أنا. فانقبض صدري لتلك المعرفة. وكان الطريق مفروشاً بالحصى المرصوف على أشكال الخفافيش رمزاً للسعادة وظهور السلاحف رمزاً لطول العمر والمال رمزاً للرخاء، وهذا يجعل كل خطوة تجلب الفرح والحياة المديدة والمزيد من الثراء. وكان الأسلاف قد صمموا هذه الممرات لأسباب صحية أيضاً. إذ بعد تقدمهم في السن، أصبحت الحصى تدلك أقدامهم أثناء المشي. ولا بد أن هذا قد حدث في زمن سحيق لم يُسمح فيه للنساء بالقدوم إلى الحديقة لأنني وجدت المشي على الحصى بقدمي المربوطتين صعباً جداً. فبذلت جهدي لأخطو كل خطوة

في مكانها الصحيح بين الحصى والأنوازن وأنا أتقدم إلى الأمام مدركة أن هذا يبرز جمال مشيتي الناعمة.

ترددت قبل أن أدخل حديقة إطلالة القمر وخذلتني شجاعتي. إذ لطالما كان هذا المكان محرماً عليّ لأنه محاط بالماء من ثلاثة جوانب، أي أنه يقع خارج جدران حديقتنا. ثم تذكرت إصرار لينايانغ وأخذت نفساً عميقاً ومشيت إلى وسط الحديقة وتوقفت. فوجدته مرتدياً رداء طويلاً من الحرير الكحلي، وكان يضع إلى جانبه على الحاجز زهرة فاوانيا وغصن صفصاف. ولم يقف بل راح وحسب يحدق إليّ. فحاولت أن أتحلى بالهدوء الشديد.

قال لي: "أرى أن لديكم حديقة مطلة على ثلاثة اتجاهات. لدي واحدة مشابهة في بيتي، ولكن حديقتنا تطل على بركتنا وليس على البحيرة".

لا بد أنه لاحظ ارتباكي، لذا شرح قائلاً: "من هنا يمكنك أن ترى القمر بثلاث طرائق: في السماء، ومنعكساً على الماء، ومنكسراً من الماء إلى المرآة". ثم رفع يده وأشار بوهن إلى المرآة المعلقة فوق قطعة الأثاث الوحيدة في الشرفة، وهي سرير خشبي منقوش.

قزل لساني وتأوهت. وحتى تلك اللحظة لم أعتبر وجود سرير في الحديقة أكثر من مكان ليرتاح فيه الكسالى، ولكنني الآن ارتجفت لفكرة وجود السرير والمرآة والليالي التي تمنيت أن أمضيها في حديقة إطلالة القمر ببيته.

ارتسمت ابتسامة على وجهه، ترى هل وجد إحراجي مسلياً أم أن أفكاره كانت كأفكاري؟ بعد لحظة طويلة وغير مريحة بالنسبة إليّ، نهض وأتى إلى جانبي وقال: "هيا بنا ننظر معاً".

وعندما وصلنا إلى الحاجز، تمسكت بأحد الأعمدة لأثبت نفسي.

فقال وهو ينظر إلى صفحة الماء المصقولة كالزجاج: "إنها ليلة جميلة". ثم التفت إلي وقال: "ولكنك أجمل منها بكثير".

غمرتني السعادة ثم اجتاحتني موجة رهيبة من الخزي والخوف.

فنظر إلى وجهي متسائلاً، وقال: "ما الخطب؟".

امتلأت عيناي بالدموع، ولكنني أجبرت نفسي على حبسها، وقلت: "إنك ربما ترى ما تريد أن تراه فقط".

"أرى فتاة حقيقية أريد أن أكفكف دموعها بيدي".

فاضت عيناي وسالت دمعتان على خدي.

وأشرت حولي بيأس وقلت: "كيف يسعني أن أصبح زوجة صالحة الآن؟ بعد كل هذا؟".

"إنك لم ترتكبي أي خطأ".

ولكنني بالطبع ارتكبت خطأ بمجرد قدومي إلى هنا. أليس كذلك؟ ولكنني لم أرد أن أتحدث عن ذلك. فخطوت مبتعدة عنه وطويت ذراعي وقلت بصوت ثابت: "إنني دائماً أخطئ بالنوتات الموسيقية عندما أعزف على القانون".

"لا أكترث لأمر القانون".

أجبت قائلة: "ولكنك لن تتزوجني". فارتسمت على وجهه نظرة متألمة، وأدركت أنني جرحت شعوره. فقلت بسرعة متلعثمة: "إن قطبي كبيرة جداً وغير مرتبة".

"إن أمي لا تجلس في قاعة النساء طوال اليوم لتقوم بالخياطة والتطريز. ولو أنك زوجتي لقمت معها بأشياء أخرى".

"إن رسومي سيئة".

"ماذا ترسمين؟".

"الأزهار كالمعتاد".

"إنك لست فتاة اعتيادية. فلا ينبغي أن ترسمي موضوعات اعتيادية. إن تسنى لك أن ترسمي أي شيء تريدينه، فماذا ستختارين؟".

لم يسألني أحد عن ذلك من قبل. وفي الواقع، لم يسألني أحد على الإطلاق أي شيء من هذا النوع من قبل. ولو أنني فكرت وأردت أن يكون سلوكي ملائماً لأجبت أنني سأستمر بالتدرب على أزهاري. ولكنني لم أكن أفكر.

"سأرسم ما أراه هنا: البحيرة والقمر والحديقة".

"طبيعة إذاً".

فجذبتني فكرة وجود طبيعة حقيقية مختلفة عن الطبيعة المخبأة على ألواح من الرخام في مكتبة والدي.

تابع قائلاً: "إن بيتي في الطرف المقابل للبحيرة يقع في أعلى التلة، وكل غرفة فيه تطل على مشهد. ولو أننا متزوجان لأصبحنا رفيقين وذهبنا في نزهات إلى البحيرة والنهر لنرى المد".

أدخل كلامه على قلبي السعادة والحزن في آن معاً. لقد بدأت أتوق إلى حياة لن أحظى بها قط.

أضاف قائلاً: "لا ينبغي أن تقلقي من أخطائك. فأنا واثق من أن

زوجك ليس مثالياً أيضاً. انظري إليّ أنا. فمنذ بدأ حكم سلالة سونغ أصبح طموح كل شاب أن يعتلي منصباً رسمياً، ولكنني لم أخضع للامتحانات الإمبراطورية ولا أطمح للخضوع لها".

ولكن هذا ما كان يفترض بالرجال أن يفعلوه! إن الرجل المخلص لسلالة مينغ يؤثر أن يعيش حياة داخلية على أن يعمل في الخدمة المدنية في ظل النظام الجديد. لماذا قال ذلك؟ أيظنني قديمة الطراز أو مجرد غبية؟ أيظن أنني أتمنى له العمل في مجال التجارة؟ إن جني المال كتاجر عمل وضيع ومبتذل.

فقال: "إنني شاعر".

ابتسمت ابتسامة عريضة. فقد أخبرني حدسي بذلك منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها من خلال الستارة. ثم قال: "إن أعظم المهن هي أن يعيش المرء حياة أدبية".

وأتمم قائلاً: "أريد زوجة تصبح رفيقة لي لتشارك الحياة والقصائد. ولو أننا أصبحنا زوجاً وزوجة لجمعنا الكتب وقرأنا وشربنا الشاي معاً. لقد قلت لك من قبل إنني أريدك من أجل ما هو هنا".

وأشار مجدداً إلى قلبي ولكنني شعرت الآن بشعور مختلف.

قال لي بعد لحظة: "إذاً أخبريني عن الأوبرا. أتشعرين بالحزن ألا ترى ليني‌انغ تلتقي أمها مجدداً؟ إن الفتيات يحببن هذا المشهد على حد علمي".

وقد كنت أحب هذا المشهد فعلاً. إذ بينما تستعر المعارك بين قطاع الطرق وقوات الإمبراطور، تلجأ مدام دو وعطر الربيع إلى نزل في مانغجو، فتعتري الدهشة مدام دو ويتملكها الخوف لرؤية ما ظنته شبح ابنتها. ولكن أجزاء روح ليني‌انغ الثلاثة اتحدت مجدداً بحلول ذلك الوقت فعادت فتاة حية من لحم ودم.

قلت له: "كل فتاة تأمل أن تعترف بها أمها وتحبها حتى لو ماتت وأصبحت شبحاً وحتى لو هربت مع حبيبها".

اتفق الشاعر معي وقال: "نعم، إنه مشهد جيد عن عالم العواطف الجياشة يعبر تعبيراً صادقاً عن حب الأم. أما المشاهد الأخرى الليلة..." وتابع بلا مبالاة قائلاً: "إن السياسة لا تهمني لأنها مجال منطقي بارد العواطف. ألا توافقينني الرأي؟ إنني أفضل المشاهد التي تحدث في الحديقة".

أيهزأ بي يا ترى؟

قرب وجهه من وجهي، فوجدت أنفاسه عابقة بأريج السحلبية والمسك.

وشعرت بالهواء بيننا يصبح ثقيلاً. وتدفقت مشاعري ودمائي في داخلي. فلم أتحرك لأنني لم أعرف ما أفعل أو ما يتوقع مني أن أفعله. ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً. إذ لم يكن من المتوقع مني أن افعل أياً من هذا. وعندما تراجع للخلف وراقبني بعينيه السوداوين الكبيرتين، ارتجفت من شدة الشوق.

لم يكن أكبر مني بكثير، ولكنه كان رجلاً يعيش في العالم الخارجي ويتمتع بخبرة كبيرة عن النساء اللواتي يجلسن في قاعة شرب الشاي فتطفو أصواتهن عبر البحيرة لتصل إلى مسامعي. ولا بد أنني بدوت في نظره أشبه بالطفلة، إذ إنه تعامل معي بتلك الطريقة من بعض النواحي. فتراجع مسافة كافية ليمنحني فرصة لأثبت نفسي.

قال: "لا أستطيع أبداً أن أقرر إن كانت نهاية الأوبرا سعيدة أم حزينة".

أجفلت من جملته. فهل مضى وقت كثير منذ أتيت إلى هنا؟ ولا بد أنه لاحظ رعبي لأنه أضاف قائلاً: "لا تقلقي، فلا تزال هناك بضعة فصول". ثم أخذ زهرة الفاوانيا التي أحضرها معه بإحدى يديه وأمسك برعمها باليد الأخرى، ثم قال: "لقد أحرز مينغمي شرفاً كبيراً في الامتحانات الإمبراطورية".

كان عقلي وجسدي أبعد ما يكونان عن الأوبرا. فتوجب عليّ أن أجبر نفسي على التركيز، وهذا ما أراده، على ما أعتقد.

فقلت له: "ولكنه عندما يقدم نفسه للحاكم دو على أنه صهره الجديد يتعرض للاعتقال". وعندما ابتسم أدركت أنني قمت بما هو صواب.

"فيأمر الحاكم بتفتيش أمتعة مينغمي و...".

فأكملت عنه قائلة: "ويعثر الحراس على صورة لينيانغ. فيأمر الحاكم دو بضرب مينغمي وتعذيبه لظنه أن العالم قد دنس قبر ابنته".

وقال: "يصر مينغمي أنه أعاد لينيانغ إلى هذا العالم وأنهما قد تزوجا، فيستشيط الحاكم دو غضباً ويأمر بقطع رأس مينغمي".

ملأ عطر زهرة الفاوانيا التي في يده أنفاسي. فتذكرت كل الأمور التي تمنيت لو أنني قمت بها ليلة البارحة. فأخذت غصن الصفصاف من على الدرابزين وبدأت ببطء أدور حوله وأتحدث بنعومة مداعبة إياه بكلماتي.

وسألت: "هل تنتهي القصة بحزن؟ يتم استدعاء الجميع إلى المحكمة الإمبراطورية ليعرضوا مشاكلهم على الإمبراطور". وبعد أن درت دورة كاملة، توقفت لألقي نظرة خاطفة على عينيه ثم لففت حوله مجدداً، وهذه المرة تركت أوراق غصن الصفصاف تلامس جذعه.

فقال بصوت أجش: "عُرضت لينانغ على والدها، ولكنه عجز أن يتقبل وجودها على قيد الحياة حتى وهو ينظر إليها بأم عينه".

"وبهذه الطريقة، يوضّح تانغ خياتجو أن الرجال مقيدون بعالم المنطق البارد". أبقيت صوتي منخفضاً مدركة أنه سيتوجب على الشاعر أن يبذل جهده ليسمعني، وقلت: "وعندما يحدث أمر إعجازي، لا يعود بوسع الناس أن يفكروا في شكل منطقي". تنهد فابتسمت وقلت: "يصر الحاكم دو على إخضاع لينانغ للعديد من الاختبارات...".

"فيتضح أنها تلقي ظلاً وتترك آثار أقدام عندما تمشي على الأرض".

فهمست قائلة: "هذا صحيح، كما أنها تجيب أيضاً عن أسئلة متعلقة بالمشاعر السبعة: الفرح والغضب والحزن والخوف والحب والكراهية والرغبة".

"هل خالجتك هذه المشاعر؟".

وقفت أمامه، واعترفت قائلة: "ليس جميعها".

"الفرح؟" ووضع الزهرة التي يحملها بيده على خدي.

"اليوم تماماً عندما استيقظت".

"الغضب؟".

فأجبت وهو يمرر الوردة على فكي قائلة: "قلت لك إنني لست مثالية".

"الحزن؟".

"كل عام في ذكرى وفاة جدتي".

"ولكنك لم تجربي هذا الشعور بنفسك". ثم أبعد الزهرة عن وجهي ومررها على ذراعي، ثم قال: "وماذا عن الخوف؟".

ففكرت بالخوف الذي شعرت به وأنا قادمة إلى هنا، ولكنني قلت: "أبداً".

"هذا حسن". وأبقى الزهرة على معصمي، ثم قال: "والحب؟" فلم أجبه، ولكن وجود الزهرة على جلدي جعلني أرتعش، فابتسم وقال: "والكره؟".

فهززت رأسي لأنني لم أعش طويلاً أو أرَ ما يكفي لكي أكره أحداً.

قال لي: "لم تبقَ إلا واحدة". وعاود تمرير الزهرة مجدداً على ذراعي ثم سحبها بعيداً ليضعها مجدداً على مكان خلف أذني وجعلها تنزلق ببطء إلى أسفل عنقي وقمة ياقتي ثم رفعها إلى حنجرتي، وقال: "ماذا عن الرغبة؟".

وكنت قد توقفت عن التنفس.

فقال: "إنني أرى إجابتك في وجهك".

قرب شفتيه من أذني وهمس قائلاً: "لو أننا متزوجان لما أضعنا وقتنا بشرب الشاي وإجراء المحادثات..." ثم تراجع إلى الخلف ونظر إلى البحيرة قائلاً: "أتمنى..." واختلج صوته. فلاحظت أن هذا أحرجه. وكان يشعر بتلك اللحظة بعمق كما شعرت أنا. ثم تنحنح وابتلع ريقه بصعوبة. وعندما تحدث تالياً، تصرف وكأن شيئاً لم يحدث بيننا، وأصبحت حرة مجدداً.

"أتمنى لو أنك تستطيعين أن تري بيتي. إنه على الجانب الآخر من البحيرة على جبل ووشان".

سألته مشيرة إلى التلة التي تقع في الطرف المقابل للبحيرة تماماً: "أليس ذلك هو؟".

"نعم، هذه هي التلة. ولكن الجزيرة المنعزلة، رغم جمالها، تحجب المنظر عن بيتنا. إن بيتي يقع خلف قمة الجزيرة تماماً. أتمنى لو تستطيعين رؤيته. فهكذا تنظرين إليه وتعبرين الماء وأنت تفكرين فيَّ".

"ربما أتمكن من رؤيته من مكتبة والدي".

"إنك على حق! فقد لعبت الشطرنج مع والدك هناك مرات عديدة واستطعت أن أرى بيتي من النوافذ. ولكن حتى لو استطعت أن تري الجبل، فكيف ستعرفين أي بيت هو بيتي؟".

لم يقوَ عقلي وهو في تلك الحالة المضطربة على التفكير بوضوح بما يكفي ليعثر على حل ممكن.

"سوف أريك البيت، لكي تتمكني من العثور عليَّ. وأعدك أن أنظر من هناك كل يوم لأعثر عليك إن وافقت على النظر إليَّ".

وافقت. فقادني إلى الجانب الأيمن من الحديقة قرب الشاطئ. وأخذ غصن الصفصاف من يدي ووضعه مع زهرة الفاوانيا على الحاجز. وعندما جلس بجانبهما وأرجح ساقيه من فوق الحاجز، فهمت أنه يريد أن أقوم بالشيء نفسه. قفز إلى الأسفل ووقف على إحدى الصخور ومد ذراعيه إليَّ.

"أعطيني يديك".

"لا أستطيع". ورغم كل التصرفات غير اللائقة التي قمت بها مساء ذلك اليوم، فلم أكن سأتبعه. إذ إنني لم أخرج من قصر عائلة تشن قط. فقد أصر والدي ووالدتي على هذا الأمر بشكل خاص.

"إنه ليس بعيداً".

"إنني لم أخرج عن نطاق حديقتنا قط. وأمي تقول...".

"إن رأي الأمهات مهم، ولكن...".

"لا أستطيع أن أفعل هذا".

"وماذا عن الوعد الذي قطعته لي؟".

خارت عزيمتي وأصبحت ضعيفة كابنة عمي المكتسة عندما يقدم لها طبق من الحلوى.

"إنك لست الفتاة، أقصد المرأة، الوحيدة التي ستخرج من حديقتها الليلة. فأنا أعرف الكثير من النساء اللواتي يركبن القوارب في البحيرة هذا المساء".

فقلت بازدراء: "تقصد نساء قاعات الشاي".

فقال: "بالطبع لا. إنني أتحدث عن شاعرات وكاتبات قد انضممن لنوادي الشعر والأدب. إنهن يردن مثلك أن يأخذن من الحياة أكثر مما هو متوفر داخل حدائق بيوتهن. وبعد أن غادرن الحجرات الداخلية، أصبحن فتاتات ذوات قيمة. هذا هو العالم الخارجي الذي أريد أن أريك إياه لو أنك تصبحين زوجتي".

ولكنه لم يقل إن الحلم سيستمر هذه الليلة فقط.

وعندما مد ذراعيه هذه المرة، جلست على الحاجز ومررت ساقيّ برقة قدر المستطاع وابتعدت بنفسي عن أمان القصر. فقادني إلى اليمين على طول الصخور التي تحاذي الشاطئ. لقد كانت فعلتي شنيعة. ومما أثار دهشتي فلم يحدث معنا أي شيء مريع. ولم يضبطنا أحد ولم تثب أشباح من خلف الأشجار لتخيفنا أو تقتلنا عقاباً على هذا الخرق للقوانين.

أمسك بمرفقي لأن الصخور كانت زلقة وملساء ومغطاة بالطحالب. فشعرت بحرارة يديه من خلال كمي قميصي الحريريين. وملأ هواء دافئ تنوري وكأنها جانح حشرة صغيرة تحمله الرياح. لقد خرجت من البيت ورأيت أشياء لم أرها من قبل قط. وكانت أوراق الكروم والنباتات تكسو أسوار بيتنا وتخفيه عن الأنظار. وبدت أشجار الصفصاف الباكي متدلية فوق البحيرة وأوراقها تداعب سطح الماء. لامست وروداً برية متفتحة على الضفة وملأ عبيرها الهواء وثيابي وشعري وبشرة يدي. واهتاجت في جسدي مشاعر غامرة: الخوف من أن يضبطني أحد والبهجة لخروجي من البيت والحب للرجل الذي كان قد أخرجني إلى هنا.

توقفنا وأنا غير واثقة من بعد المسافة التي قطعناها ماشيين.

قال لي مشيراً عبر البحيرة إلى ما وراء الحديقة المبنية حديثاً على الجزيرة المنعزلة: "إن بيتي يقع هناك ويوجد معبد على التلة. إنه مضاء بالمشاعل مساء اليوم. هل تربنه؟ إن الرهبان يتركون الأبواب مفتوحة في

كل الاحتفالات. وإن نظرت إلى الأعلى قليلاً ثم إلى اليسار وجدت موقع بيتي".

"أستطيع أن أراه".

كان القمر رقيقاً، ولكنه بدا كافياً لأن يرسم ممراً عبر البحيرة من قدمي إلى عتبة باب بيته. فشعرت أن القمر سمح لنا بأن نحظى بهذا الوقت معاً.

في هذه الظروف الاستثنائية جداً، شوش تفكيري إحساس غريب. فقد شعرت بحذائي الصغير مبللاً تماماً ووصل الماء إلى حاشية تنورتي. فتراجعت خطوة صغيرة بعيداً عن طرف البحيرة التي شكل ماؤها تموجات صغيرة على سطحها الهادئ. وتخيلت تلك التموجات وهي تصيب القوارب التي تحمل العشاق في البحيرة وتلامس حدائق إطلالة القمر التي يلجأ إليها الأزواج والزوجات الشباب بعيداً عن عيون أهل البيت.

قال لي: "سيعجبك بيتي. إذ لدينا حديقة جميلة، ليست كبيرة كحديقتكم، وفيها كهف صغير و حديقة إطلالة القمر وبركة وشجرة خوخ تملأ براعمها في الربيع كل البيت بعطر رائع. وكلما رأيتها، سأفكر فيك".

احمر وجهي وأشحت به بعيداً. وعندما رفعت نظري رأيته يحدق إلى عيني. وعلمت أنه يتوق إلى ما أتوق إليه. ثم انقضى ذلك الإحساس.

قال لي: "يجب أن نعود".

حاول أن يحث الخطى، ولكن حذائي أصبح زلقاً الآن فمشيت ببطء.

وبينما نحن نقترب من القصر، بدأت أصوات الأوبرا تزداد وضوحاً. فعلمت من صراخ مينغمي المتألم وهو يتعرض للتعذيب والضرب على يد حراس الحاكم دو أننا اقتربنا من النهاية.

رافقني وأعادني إلى حديقة إطلالة القمر . وهكذا، انتهى كل شيء. ففي اليوم التالي، كنت سأستأنف تحضيرات زفافي بينما يعود هو للاستعداد إلى ما يقوم به الشباب ليرحبوا بزوجاتهم.

أمعن النظر إلى عيني، وقال: "لقد أحببت التحدث إليك عن الأوبرا".

قد لا تبدو هذه أكثر رومانسية، ولكنني اعتبرتها كذلك لأنها أظهرت لي حبه للأدب ولاهتمامات الحجرات الداخلية وأنه يريد بالفعل أن يعرف رأيي.

أخذ غصن الصفصاف وسلمني إياه قائلاً: "احتفظي بهذا ليذكرك بي".

"وماذا عن زهرة القاوانيا؟".

"سأحتفظ بها إلى الأبد".

ابتسمت بيني وبين نفسي لعلمي أنني أشارك الزهرة الاسم نفسه.

اقترب مني. وعندما تكلم، اختلج صوته من عمق مشاعره، فقال: "لقد حظينا بثلاث ليال من السعادة. إن هذا أكثر مما يحظى به معظم الأزواج في حياتهم كلها. سأتذكرها إلى الأبد".

عندما امتلأت عيناي بالدموع، قال: "يجب أن تعودي. لن أغادر إلى أن نفصل مسافة آمنة بيننا".

عضضت على شفتي لأمنع نفسي من البكاء والتفت بعيداً. مشيت وحدي على طول الحديقة الرئيسة ووقفت بجانب البركة لأدس غصن الصفصاف في بلوزتي. وعندما سمعت الحاكم دو يتهم ابنته عندما تقدمت في حضرته بأنها مخلوق مثير للاشمئزاز من عالم الموتى، تذكرت أن حذائي وساقي وأسفل تنورتي أصبحت ملوثة بالوحل. فتوجب علي أن أذهب إلى الغرفة وأغير ملابسي بدون أن يراني أحد.

قالت المكنسة وهي تخرج من الظل: "ها أنت ذا. لقد أرسلتني أمك للبحث عنك".

فتذكرت شجرة الصفصاف عندما لعبت دور عطر الربيع وقلت: "لقد كنت.. لقد توجب عليّ أن أستخدم مبولة الغرفة".

فابتسمت ابنة عمي ابتسامة العارف.

وقالت: "لقد ذهبت إلى غرفتك ولم أجدك هناك".

راحت المكنسة تنظر إلي بشك بعد أن ضبطتني وأنا أكذب. فراقبت ابتسامتها وهي تتسع وعيناها تجولان من وجهي إلى جسمي وتنورتي وحاشيتها المتسخة وحذائي الملوث بالوحل. فاختفت تعابير وجهها بقناع مبهج ولفت ذراعها بحنان حولي وقالت بنبرة جميلة: "لقد أوشكت الأوبرا أن تنتهي، ولا أريدك أن تفوتي النهاية".

دفعني طيشي وانغماسي بسعادتي الخاصة للاعتقاد أنها أرادت أن تساعدني. فتراجعت قوتي المخبأة التي ظهرت عندما سمحت لنفسي بالقفز عن الحاجز في حديقة إطلالة القمر وتوارت داخل ركن خفي في داخلي. فلم أهرب من المكنسة لأجلس على وسادتي الخاصة في الجزء الخلفي وراء الجمهور ولكنني سمحت لنفسي أن أنقاد بعجز وغباء وتصميم سخيف عبر النساء الجالسات وأمام أمي تماماً إلى الوسائد الأمامية. وهناك جلست محشورة بين زي الصغيرة وابنة عمي. ولأنني جلست بجانب زي فقد وجدت نفسي مرة أخرى أمام شق الستارة الذي يسمح لي باستراق النظر إلى المسرح.

نظرت عبر بحر الرجال ذوي الشعر الأسود إلى أن عثرت على شاعري جالساً بجانب والدي. وبعد بضع دقائق، أجبرت نفسي على إبعاد نظري عنه والنظر إلى المسرح حيث كان الإمبراطور يحاول أن يوحد الطرفين معاً. فقُرئت البلاغات وقدمت التكريمات، ومع ذلك فلم يساهم أي شيء في التوصل إلى صلح بين الحاكم دو وابنته.

قفز الرجال على الجانب الآخر من ستارتنا وصفقوا وصاحوا تقديراً للعرض. أما النساء على جانبنا فقد أومأن برؤوسهن لحقيقة هذه النهاية المحتومة.

صعد والدي إلى المسرح كما فعل في الليلة الأولى. فشكر الجميع على قدومهم إلى بيتنا لحضور عرضنا المسرحي المتواضع. وشكر الممثلين الزوار وخدم البيت الذين تم إبعادهم عن واجباتهم اليومية للتمثيل في العرض.

قال والدي: "هذه ليلة عن الحب والمصير. لقد رأينا كيف انتهت قصة لينيانغ وميغمي ونعلم كيف ستنتهي قصة العذراء الحائكة وراعي الأبقار في وقت متأخر من هذه الليلة. والآن دعونا نلقي نظرة على قصة حب اخرى".

يا إلهي! لقد كان سيعلن شيئاً عن زواجي! فاخفض شاعري رأسه لأنه لم يرد أن يسمع ذلك أيضاً.

قال والدي: "إن العديد منكم يعلمون أنني محظوظ بوجود صهري المستقبلي وصديقي الحميم هنا. لقد عرفت وو رين لوقت طويل وهو بمثابة ابن لي".

وعندما رفع والدي ذراعه ليشير إلى الرجل الذي سأتزوجه، أغمضت عيني. قبل ثلاثة أيام، كنت لأتبع إشارته بلهفة لأحظى بلمحة واحدة عن زوجي المستقبلي. ولكنني الآن لم أستطع أن أتخلى عن المشاعر الرقيقة التي راحت تفور في داخلي وأردت أن احتفظ بها لوقت أطول بقليل.

تابع والدي قائلاً: "إنني محظوظ لأن رين يحب الأدب كثيراً. ولكن الحظ لا يكون حليفي عندما يغلبني بلعبة الشطرنج".

ضحك الرجال مجاملة له. أما في الجانب المخصص لنا من الستارة، فقد ساد الصمت. وشعرت بتحديقات الاستهجان والازدراء من النساء خلفي تخترقني كالخناجر. فتحت عيني واسترقت النظر إلى يميني فرأيت زي تحدق من خلال شق الستارة وفمها مفتوح برعب. فلا بد أنها وجدت زوجي قبيحاً ومريعاً فعلاً.

تابع والدي قائلاً: "إن العديد من الحضور لهذه الليلة هم من

الضيوف ولم يقابلوا ابنتي من قبل، ولكن أفراد عائلتي يجلسون جميعاً هنا وقد عرفوا زهرة الفاوانيا طوال حياتها". ثم قال مخاطباً زوجي المستقبلي وأفضى إليه أمام الجميع قائلاً: "ليس لديّ شك في أنها ستكون زوجة صالحة لك... باستثناء أمر واحد. إن اسمها ليس مناسباً. فاسم أمك أيضاً هو زهرة الفاوانيا".

نظر والدي عبر جمهور الرجال وتحدث إلينا من خلف الستارة قائلاً: "من الآن فصاعداً سيصبح اسم ابنتي هو تونغ، أي: المثلثة، لأنها مثلثة أمك، يا صديقي الشاب".

هززت رأسي غير مصدقة. لقد غير والدي اسمي للتو إلى الأبد وأصبحت الآن أدعى تونغ، أي مجرد مثلثة، بسبب حماتي، وهي امرأة لم أقابلها بعد ستتحكم بحياتي إلى حين وفاتها. لقد فعل والدي هذا بدون أن يسألني أو حتى أن يحذرني، ولكن شاعري كان على حق. فالليالي الثلاث التي أمضيناها معاً هي ما ستعينني على الحياة طوال عمري. ولكن هذه الليلة لم تنته بعد. فصممت على ألا أغرق في بحر اليأس.

أعلن والدي قائلاً: "لنجعلها ليلة احتفالية". وأشار إلى مكان جلوس النساء خلف الستارة. فأتت الخادمات ليرافقونا إلى قاعة براعم اللوتس . واستندتُ على ذراع شجرة الصفصاف لتسندني وترافقني إلى غرفتي. وعندئذ، أتت أمي إلى جانبي.

قالت لي: "يبدو أنك فتاة مميزة لهذه الليلة". ولكن لطف كلماتها لم يخف خيبة الأمل الظاهرة في نبرة صوتها. ثم قالت لشجرة الصفصاف: "اسمحي لي أن أصطحب ابنتي إلى غرفتها". فتركتني شجرة الصفصاف وتأبطت أمي ذراعي. كيف استطاعت أن تبدو جميلة ورقيقة جداً في الوقت الذي أخذت فيه أصابعها تنغرز في لحمي من خلال حرير البلوزة؟ لا أعرف. تفرقت الأخريات وتركن رئيسة النساء في عائلة تشين تقود ابنتها الوحيدة إلى قاعة براعم اللوتس المخصصة للنساء. وتبعتنا بهدوء وكأنهن أوشحة تطيرها الرياح، ولم يعرفن ما فعلته. ولكن بدا لهن من الواضح أنني كنت في مكان ما لا ينبغي لي الذهاب إليه لأنهن استطعن جميعاً أن يلاحظن أن قدمي، وهما أكثر أجزاء جسم المرأة خصوصية، ملوثتان بالوحل.

لا أعرف ما الذي جعلني ألتفت إلى الوراء، ولكنني فعلت. فرأيت زي الصغيرة تمشي مع المكنسة. وكان تعبير وجه ابنة عمي يوحي بالظفر والشماتة. ولكن زي كانت لا تزال صغيرة جداً وعديمة الثقافة بحيث إنها

عجزت عن إخفاء مشاعرها. فبدا وجهها أحمرَ وفكها منقبضاً وجسمها كله متيبساً من شدة الغضب، ولم أعرف السبب في ذلك.

وصلنا إلى قاعة براعم اللوتس . فتوقفت أمي للحظة لتقول للأخريات أن يستمتعن بوقتهن وإنها ستعود في غضون بضع دقائق. ثم أخذتني بدون أن تتفوه بكلمة واحدة إلى غرفتي في قاعة الفتيات غير المتزوجات وفتحت الباب ودفعتني للداخل بلطف. وبعد أن أغلقت الباب، سمعت شيئاً لم أسمعه من قبل. فقد بدا لي أشبه بصوت احتكاك المعادن. وعندما حاولت أن افتح الباب مجدداً لأرى ما حدث، أدركت للمرة الأولى أن أمي استخدمت أحد أقفالها لتحتجزني.

لم يغير غضب والدتي من الكلمات التي همسها الشاعر في أذني ولم يغير أيضاً من المشاعر التي ظلت تسري في عروقي حيث لمسني بزهرة الفاوانيا. أخرجت غصن الصفصاف الذي أعطاني إياه وداعبت به خدي. ثم وضعته في الدرج. وخلعت حذائي المبلل وأعدت ربط قدمي برباط نظيف. لم استطع أن أرى من نافذتي الجسر الأسمى والأعلى الذي يجمع العذراء الحائكة براعي الأبقار، ولكن عطر الورود البرية ظل عالقاً في شعري وعلى بشرتي.

الفصل السادس

الأبواب المغلقة والقلب المفتوح

•

لم تأتِ أمي مجدداً على ذكر الرطوبة والوحل على حذائي وتنورتي وجواربي. وأخذت إحدى الخادمات هذه الأشياء ولم تعدها قط. ولكنني ظللت محتجزة في غرفتي. وطوال الأسابيع الطويلة التي أمضيتها رهن الاحتجاز، بدأت بالشك في كل شيء. ولكنني في البداية كنت مجرد فتاة حزينة محبوسة في غرفتها ليس لديها أحد لتتحدث إليه. إذ إن شجرة الصفصاف منعت من الدخول إلي إلا لتحضر لي وجباتي والماء العذب من أجل غسل وجهي ويديّ.

أمضيت ساعات أمام نافذتي. ولكن المنظر الذي نطل عليه كان محدوداً برقعة صغيرة من السماء في الأعلى وباحة البيت في الأسفل. فقلبت أوراق نسخ حديقة الفاونيا بحثاً عن مشهد الحلم المقطوع، وحاولت أن أفسر ما جرى بين ليني‌انغ ومينغمي في الكهف. وشغل الغريب أفكاري في كل لحظة من اليوم. ففضت المشاعر التي ملأت صدري على شهيتي وجعلت رأسي يدور. وفكرت متأملة في طريقة تساعدني على الاستمرار بالتشبث بمشاعري حالما أخرج من هذه الغرفة.

في صباح أحد الأيام، وبعد مرور أسبوع على احتجازي، فتحت شجرة الصفصاف الباب، وعبرت الغرفة بهدوء ووضعت صينية من الشاي وزبدية من العصيدة للفطور. وكنت قد افتقدت صحبتها وعنايتها بي عندما كانت تسرح شعري وتغسل قدمي وتربطهما وتسليني بأحاديثها. وفي الأيام الفائتة، التزمت شجرة الصفصاف الهدوء الشديد وهي تحضر وجباتي. ولكنها اليوم ابتسمت بطريقة لم أرها من قبل قط.

صبت الشاي وركعت أمامي وهي تنظر إلى وجهي بانتظاري أن أسألها.

فقلت لها متوقعة أن أسمع منها أن أمي قد قررت أن تطلق سراحي أو أنها سمحت لها بالبقاء في غرفتي مجدداً: "أخبريني ما حدث".

أجابت وعيناها مشرقتان من السعادة: "عندما طلب مني السيد تشن أن أمثل دور عطر الربيع، وافقت على أمل أن يراني أحد الرجال من الجمهور فيقترب من والدك ويسأله إن كان يرغب ببيعي لأصبح محظية في

بيت آخر. فأتي العرض الليلة الماضية ووافق والدك. وسوف أغادر عصر هذا اليوم".

شعرت وكأن شجرة الصفصاف قد صفعتني على خدي لتوها. فأنا لم أكن لأفكر في هذا أو أتخيله ولو بعد عشرة آلاف سنة.

"ولكنك ملكي أنا!".

"في الواقع لقد كنت حتى البارحة ملكاً لوالدك. أما اليوم، فقد أصبحت ملكاً للسيد كوان".

جعلتني ابتسامتها وهي تقول هذا أكاد أنفجر غضباً.

فقلت لها: "لا يمكنك أن تغادري. فأنت لا تودين ذلك".

وعندما لم تجب، علمت أنها تريد فعلاً أن تغادر. ولكن كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ لقد كانت خادمتي ورفيقتي. ولم يدر بخلدي قط أن أفكر بالمكان الذي أتت منه أو كيف أصبحت خادمة لي، ولكنني لطالما اعتقدتها ملكاً لي. فقد شكلت جزءاً من حياتي اليومية كالاستيقاظ والنوم. واعتادت أن تنام تحت قدمي عندما أنام وتكون أول شخص أراه في الصباح وتشعل المجمرة في الصباح الباكر قبل أن أفتح عيني وتحضر الماء الساخن من أجل استحمامي. ولطالما ظننتها ستذهب معي عندما أذهب إلى بيت زوجي. إذ يفترض بها أن تعتني بي عندما أحمل وأنجب الأبناء. وباعتبارها من سني نفسها، فقد توقعت منها أن تبقى معي إلى أن أموت.

اعترفت لي قائلة: "كل ليلة بعد أن تستغرقي في النوم، أستلقي هنا على الأرض وأخفي دموعي في منديلي. وكنت لسنوات آمل أن يبيعني والدك. وإن حالفني الحظ فسيجعل مني مالكي الجديد محظية له". وتوقفت ثم قالت بنبرة عملية: "محظية ثانية أو ثالثة أو رابعة".

صدمني أن أعرف أن مشاعر شوق من هذا النوع تخالج خادمتي، فقد سبقتني بتفكيرها ورغباتها ربما لأنها قادمة من العالم خارج حديقتنا، ذلك العالم الذي أصبحت فجأة مهووسة به ولكنني لم أسألها قط عنه.

"كيف يسعك أن تفعلي هذا بي؟ أين عرفانك للجميل؟".

تلاشت ابتسامتها. ترى هل امتنعت عن الإجابة لأنها لا تريد أن تكون ملكاً لي أم لأنها لا تشعر بذلك؟ كانت تتمتع بوجه جميل. ولكنني في تلك اللحظة استطعت أن ألاحظ شدة مقتها لي وأن أدرك أنها على الأرجح قد كرهتني لسنوات طويلة.

اعترفت قائلة: "إنني ممتنة لأن عائلتك آوتني". ثم قالت: "والآن يمكنني أن أحظى بحياة مختلفة عن الحياة التي ولدت فيها عندما كنت

بضاعة رخيصة".

وكنت قد سمعت هذا المصطلح من قبل، ولكنني لم أرد أن أعترف أنني لم أفهم معناه كلياً.

تابعت قائلة: "إن عائلتي تنحدر من يانغجو حيث توفيت جدتك. وكالعديد من العائلات، عانت عائلتي معاناة شديدة. لقد ذبحت النساء القبيحات والمسنات مع الرجال. أما النساء كوالدتي فقد تم بيعهن بالوزن في الأكياس كما يباع السمك المملح. وكان مالك أمي الجديد تاجراً. فباعني بعد أن باع أخواتي الثلاث. وأصبحت منذ ذلك الحين كالريشة في مهب الريح".

أصغيت إليها بإمعان.

فتابعت قائلة: "عمل تاجر العبيد على ربط قدمي وتعليمي القراءة والكتابة والغناء والتطريز والعزف على الناي. ومن هذه الناحية، ليست حياتي مختلفة عن حياتكن، ولكنها من نواحٍ أخرى مختلفة كل الاختلاف. لقد كان أولئك الناس يزرعون الفتيات في أراضيهم بدلاً من المزروعات". أطرقت شجرة الصفصاف ونظرت إليّ خلسة، ثم قالت: "حان الربيع وذهب الشتاء، وكان بوسعهم أن يحتفظوا بي إلى أن أصبح كبيرة بما يكفي ليبيعوني من أجل المتعة، ولكن التضخم الذي حل بالأسواق تسبب بانخفاض الأسعار. فتوجب عليهم أن يخففوا من حمل محصولهم. وذات يوم، ألبسوني ثوباً أحمر وطلوا وجهي بمساحيق التجميل وأخذوني إلى السوق. فتفحص والدك أسناني وأمسك قدمي بيديه وربت على جسمي".

"لم يكن ليفعل ذلك!".

"بل فعل، واشتراني هنا، ثم اشتراني ببضعة أثواب من القماش. وفي السنوات القليلة الماضية، كنت آمل أن يتخذني والدك محظية رابعة له وأن أنجب له الابن الذي عجزت أمك والأخريات أن ينجبنه له".

جعلتني تلك الفكرة أشعر بالاشمئزاز.

فقالت بشكل واقعي لا مفر منه: "اليوم سأذهب إلى مالكي الثالث. لقد باعني والدك مقابل بعض اللحم والمال النقدي. إنها صفقة مربحة. وهو سعيد بها".

باعها مقابل اللحم؟ لقد عقدت خطبتي أنا لأتزوج مقابل مهر يتضمن حيوانات مفرزة. وهكذا، فقد لا أكون وشجرة الصفصاف مختلفتين عن بعضنا على كل حال. إذ لا تملك أي واحدة منا رأياً في تقرير مستقبلها.

قالت شجرة الصفصاف: "ما زلت صغيرة السن. وقد أنتقل إلى سيد

آخر مجدداً إن لم أنجب ابناً أو أجعل سيدي سعيداً. لقد علمني تاجر العبيد أن شراء محظية يضيف شجرة إلى حديقة الرجل. فبعض الأشجار تنتج الفاكهة وبعضها الآخر تمنح الظل والمتعة للعين. آمل ألا يتم التلاعب وبيعي مجدداً".

قلت بدهشة: "إنك أشبه بخياوكينغ".

"إنني لا أتمتع بجمالها أو موهبتها، ولكنني آمل أن يكون مستقبلي أفضل من مستقبلها وأنني لن أولد في يانغجو".

هذه هي المرة الأولى التي فهمت فيها حقيقة أن وجودي في حديقة القصر ليس على الإطلاق شبيهاً بحياة الفتيات في العالم الخارجي. إذ إن أموراً مريعة ورهيبة تحدث هناك. ولكن كل هذا أخفي عني. فشعرت بالامتنان لذلك ولكنني شعرت بالفضول أيضاً. لقد ماتت جدتي هناك، ولكنها أصبحت الآن مبجلة. وأنت شجرة الصفصاف من هناك أيضاً وتحدد مصيرها كمصيري: وهو أن تسعد الرجل الذي في حياتها وتنجب له الأبناء وتبرع في الفضائل الأربع.

قالت شجرة الصفصاف فجأة وهي تنهض عن ركبتيها: "إنني ذاهبة".

"انتظري"، ووقفت على قدميّ وعبرت الغرفة إلى إحدى الخزائن وفتحت درجاً فيها. وبحثت في مجوهراتي وزينة شعري باحثة عن قطعة لا تبدو عادية جداً ولا مترفة جداً. فاستقر رأيي على دبوس شعر من الريش الأزرق على شكل عنقاء محلقة وذيلها يتطاير خلفها برقة. فوضعته في يد شجرة الصفصاف.

"تزيني بهذا الدبوس عندما تقابلي سيدك الجديد".

قالت لي: "شكراً لك". ثم غادرت الغرفة.

وبعد دقيقتين، دخلت شاو، مربيتي السابقة ورئيسة خدمنا إلى الغرفة، وقالت: "من الآن فصاعداً ساعتني أنا بك".

وكان هذا أسوأ خبر سمعته في حياتي.

لقد أعدت أمي خططاً لي، وتوجب على شاو، التي أصبحت الآن تعيش في غرفتي، أن تحرص على تنفيذها. فأعلنت شاو قائلة: "سوف تستعدين لزفافك، يا تونغ، ولا شيء آخر". وكانت تعني كل حرف قالته.

عندما سمعت اسمي الجديد، انتابتني رعشة من اليأس. فقد تحدد مكاني في العالم بالتعيين واللقب. فمن خلال اسمي بدأت مسبقاً أتحول من ابنة إلى كنة وزوجة.

طوال الأسابيع السبعة التالية، كانت شاو تحضر وجباتي ولكن معدتي أصبحت مجرد حاوية ملؤها الألم. فتجاهلت الطعام أو دفعته بعيداً عني بإصرار. ومع مرور الوقت، تغير شكل جسدي. فبدأت تنورتي تعلق على وركي بدلاً من خصري وأصبحت ملابسي فضفاضة ترفرف حول جسدي.

ولم تزرني أمي قط.

راحت شاو تذكرني كل يوم: "لقد خاب أملها بك. كيف يمكن أن تكوني قد خرجت من رحمها؟ إنني أقول لها إن البنت السيئة بنت نموذجية".

لقد كنت فتاة مثقفة ولكنني لم أكن نظيرة لأمي. فقد كان من واجبها أن تسيطر عليّ وتزوجني بشاب من عائلة طيبة. ورغم أنها رفضت أن ترى وجهي، فقد استمرت بإرسال المبعوثين إليّ. ففي كل صباح، كانت زوجة عمي الثالث تأتي إليّ قبل الفجر مباشرة لتعلمني كيف أطرز تطريزاً متقناً.

فقالت لي بصوت له رنين: "لم يعد يسمح لك بالمزيد من القطب الخرقاء وغير المتقنة". ولهذا فقد كانت تأمرني أن أفك القطب وأبدأ من جديد كلما ارتكبت خطأ. وهكذا، وبعيداً عن التشوش وبمساعدة توجيهات زوجة عمي المحددة، تعلمت جيداً. ومع كل قطبة تطريز، اعتصر الألم قلبي شوقاً لشاعري.

حالما خرجت زوجة عمي من الغرفة، أدخلت شاو زوجة عمي الثاني التي بدأت تلقنني دروساً بالعزف على القانون. وبالرغم مما يشاع عنها أنها متساهلة، فقد تعاملت معي بصرامة شديدة. فإن أخطأت بالعزف، ضربتني على أصابعي بعصا من الخيزران. فتحسن عزفي بسرعة مدهشة وأصبح واضحاً ورائعاً. وتخيلت كل نوتة موسيقية تطفو من النافذة وتسافر عبر البحيرة إلى بيت شاعري لتجعله الموسيقي يفكر فيّ كما أفكر فيه.

في وقت العصر المتأخر، وبينما بدأت ألوان السماء تظهر في الغرب، أتت زوجة عمي الرابع، وهي أرملة ولا أطفال لها، لتعلمني عن الحياة الزوجية.

فأرشدتني زوجة عمي قائلة: "إن أعظم قوى المرأة هي إنجاب الأبناء، فهذا يمنحها السلطة أو يسلبها منها. فإن منحت زوجك ابناً، متعته من التماس المتعة على البحيرة أو اتخاذ المحظيات. تذكري أن طهارة المرأة تزداد من خلال العزلة، ولهذا السبب أنت هنا الآن".

أصغيت بعناية لما قالته لي، ولكنها لم تخبرني شيئاً مما أريد معرفته

عن ليلة زفافي وكيف أمضيها مع شخص لا أحبه ولا أستلطفه ولا أعرفه. فأخذت أستحضر الساعات المؤدية إليها. وتخيلت أمي وزوجات أعمامي وبنات أعمامي يغسلنني ويلبسنني ملابس زفافي ويعطينني الحبات الخمس وقطعة اللحم ويضعن قلب حيوان داخل التنورة الداخلية التي سأرتديها على جلدي مباشرة والدموع التي سيذرفها الجميع وهم يقودونني إلى المحفة ودوسي على عتبة باب بيت عائلة وو وتركي لتلك التنورة الداخلية تسقط بكنزها المخبأ على الأرض لتضمن ولادة الأبناء السريعة والسهلة وأخيراً دخول غرفتي. لقد أصبحت هذه الأفكار، التي لطالما ملأتني من قبل بالتوقعات السعيدة، تجعلني الآن أرغب بالهرب بعيداً. ولكن ما زاد شعوري سوءاً هو أنني عاجزة عن الهرب من مصيري.

بعد العشاء، أخذت زوجة عمي الخامس استراحة من الاجتماع المسائي في غرف النساء لتدربني على تحسين خطي. وقالت لي: "إن الكتابة اختراع من عالم الرجال، وتعتبر الكتابة بطبيعتها فناً عاماً وشيئاً ينبغي لنا نحن النساء أن نتجنبه. ولكن يجب عليك أن تتعلميها لتساعدي ابنك يوماً ما بدراساته".

عملنا بجد على كتابة صفحة تلو أخرى. فنسخنا قصائد كاملة من كتاب الأغاني وتدربنا على كتاب تعليم الخط ونقلنا دروساً من كتاب تعليم المواعظ للنساء إلى أن تلطخت أصابعي بالحبر.

إلى جانب إتقان الرسم بالريشة، قدمت لي زوجة عمي الخامس دروساً بسيطة ونقية. فقالت: "إن أفضل ما تستطيعين فعله هو أن تتخذي القدماء معلمين لك. وقد وُجد الشعر على الأرض ليجعلك نقية ولا يفسد عقلك وأفكارك ومشاعرك. اجعلي نفسك حسنة الطالعة. وتحدثي بلطف ولكن لا تقولي شيئاً. نظفي نفسك بإتقان شديد وحافظي على ذهن متناغم. وبهذه الطريقة، ستظهرين فضيلتك وتعبرين عنها".

أطعتها، ولكنني شعرت بكل خط أرسمه بريشتي وكأنه مداعبة أمنحها لشاعري وكل حرف أكمله وكأنه هدية أقدمها للرجل الذي غزا أفكاري وعواطفي.

كانت شاو تبقى معي في غرفتي في كل دقيقة من اليوم والليلة. فاعتادت أن تنام على الأرض بجانب سريري وتبقى في الغرفة عندما أستيقظ وعندما أفرغ مبولة الغرفة وعندما أقوم بدروسي وعندما أخلد إلى النوم. وكنت أبقى معها أيضاً وأصغي لشخيرها وأشم رائحة أنفاسها وأراقبها وهي تنظف قدميها. وعلى الرغم من كل شيء، فلم يخرج من فمها إلا

الكلام الصارم.

قالت لي: "إن المرأة تصبح عنيدة من خلال العلم، وقد لاحظت أمك هذا لديك". وناقضت بكلامها هذا الدروس التي علمتني إياها زوجات أعمامي، ثم قالت: "إن ذهنك يصبو إلى ما وراء حدود الغرف الداخلية، ولكن العالم الخارجي خطر جداً، وتريدك أمك أن تدركي هذا. انسي كل ما قد تعلمته. يقول كتاب تعليمات الأم وين إنه ينبغي للفتاة أن تعرف بضعة حروف مكتوبة فقط، مثل كلمات: حطب الموقد وأرز وسمك ولحم. إذ إن هذه الكلمات هي التي ستساعدك على إدارة البيت. وكل ما عدا ذلك خطر".

كلما انغلق باب تلو الآخر ليحتجزني، انفتح قلبي أوسع فأوسع. لقد منحت زيارة في الحلم إلى حديقة الفاوانيا لينابغ لوعة الحب، ومنحتني إياها زيارات إلى حدائق بيتنا. ورغم أنني لم أعد أسيطر على نشاطاتي وكيفية ارتداء ملابسي وحياتي المستقبلية مع ذلك المدعو وو رين، ولكن مشاعري ظلت حرة طليقة. فتوصلت إلى الاعتقاد أن جزءاً من لوعة الحب يأتي من هذا الصراع بين السيطرة والرغبة. إذ إننا في الحب لا نملك أي سيطرة. فقلوبنا وعقولنا تتعرض للتعذيب والمضايقة والإغراء والبهجة بسبب قوة المشاعر الغامرة التي تدفعنا لمحاولة نسيان العالم الحقيقي. ولكن هذا العالم موجود فعلاً، ولهذا يجب علينا كزوجات أن نفكر كيف نسعد أزواجنا بأن نكون لهم زوجات صالحات وننجب الأبناء وندير بيوتنا ببراعة ونعتني بجمالنا لئلا تنصرف أذهانهم عن مهماتهم اليومية أو ألا يضيعوا أوقاتهم مع المحظيات. إننا لا نولد متحليات بهذه القدرات، بل يجب أن يتم تلقيننا إياها على يد النساء الأخريات. ومن خلال الدروس والحكم والمهارات المكتسبة نعاد صياغتنا وتتم السيطرة علينا.

لقد أحكمت أمي سيطرتها عليّ من خلال توجيهاتها حتى وهي ترفض أن تراني، وتحكمت زوجات أعمامي بي من خلال دروسهن، وكانت حماتي ستتحكم بي بعد الزواج. وهكذا، تتحكم بي كل أولئك النساء معاً من لحظة ولادتي إلى موتي في كل دقيقة من حياتي.

على الرغم من كل تلك السيطرة، فقد طفوت بعيداً بمشاعري. وكان الشاعر في كل لحظة يغزو أفكاري مع كل قطبة تطريز وكل مداعبة للأوتار وكل درس إرشادي. فسكن طيفه شعري وعينيّ وأصابعي وقلبي. وحلمت بما كان يفعله ويفكر فيه ويراه ويشمه ويشعر به. وعجزت عن تذوق الطعام بسبب تفكيري فيه. وكلما هب نسيم معطر بأريج الورد من

نافذتي اهتاجت مشاعري واضطربت. ترى هل كان يتوق إلى الزواج بزوجة تقليدية أم زوجة عصرية كالزوجة التي تحدث عنها عندما التقينا في حديقة إطلالة القمر ؟ هل ستمنحه زوجته المستقبلية ما أراد؟ ولكن ماذا عني؟ ماذا سيحدث لي الآن؟

عندما حل الليل، ألقى ضوء القمر بظلال الخيزران المبعثرة على غطاء سريري الحريري. فبدأت أهيم في هذه الأفكار المظلمة. ثم خطوت فوق شاو وذهبت إلى الدرج حيث احتفظت بغصن الصفصاف الذي أعطاني إياه الشاعر في آخر ليلة لنا معاً. وبمرور الأسابيع، تساقطت منه ورقة تلو أخرى وتجعدت إلى أن لم يبق إلا الغصن الخشبي. فأصبح قلبي الصغير مغموراً بالحزن.

بمرور الوقت، تحسن عزفي على القانون وحفظت القواعد وعملت على تحسين تطريزي. وبعد مرور شهرين على عزلتي، أعلنت زوجة عمي الثالث قائلة: "لقد أصبحت جاهزة لصنع حذاء لحماتك".

إن خياطة حذاء الحماة تقليد تقوم به كل عروس كدلالة على الاحترام. ولكنني لطالما خشيت هذه المهمة لعلمي أن تطريزي سيفضح أخطائي على الفور. فأصبحت الآن أخشاها أكثر من أي وقت مضى. إذ رغم أن قطبي لم تعد تتسبب لي بالإحراج أو لعائلتي بالعار، فأنا لم أعد أكن أي مشاعر لتلك المرأة أو أشعر بالحاجة إلى إثارة إعجابها. حاولت أن أتخيل أنها أم شاعري. فكيف سيسعني أن أحمي نفسي من اليأس غير ذلك؟ كان اسم حماتي نفس اسمي، زهرة الفاوانيا. لذا فقد جسدت هذه الزهرة، وهي الأصعب للرسم أو التطريز، في تصميمي. وأمضيت ساعات في تطريز كل ورقة من أوراقها إلى أن أنهيت الحذاء بعد شهر من العمل. فحملته في يدي وأريته لزوجة عمي الثالث.

فقالت: "إنهما مثاليان". وكانت تعني ذلك فعلاً. وربما لا أكون قد نسجته بخصلات من شعري أو جعلته مبهجاً للنظر كما تود أن تراه، ولكنه بدا منذهلاً بكل المقاييس. فقالت لي: "يمكنك أن تلفيه الآن".

في اليوم التاسع من الشهر التاسع، وهو اليوم الذي نحيي فيه ذكرى سيدة الأرجوان التي تعرضت لمعاملة سيئة على يد حماتها فشنقت نفسها في الحمام الذي توجب عليها أن تنظفه كل يوم، انفتح باب غرفتي ودخلت أمي. فانحنيت لأظهر لها احترامي ثم وقفت ويداي مضمومتان أمام صدري وعيناي مكتئبتان.

"يا للهول! إنك تبدين..." فجعلتني الدهشة في صوت أمي ألقي عليها

نظرة خاطفة، ولا بد أنها كانت لا تزال غاضبة مني لأن تعبير وجهها بدا مضطرباً. ولكنها لطالما أتقنت فن إخفاء مشاعرها وسرعان ما هدأت ملامحها، فقالت: "لقد وصلت آخر هدايا مهرك. فقد تودين أن تتفرجي عليها قبل أن نضعها في أماكنها. ولكنني أتوقع منك...".

"لا تقلقي يا أمي، فقد تغيرت".

قالت لي: "أرى ذلك"، ومجدداً، لم أستشف من نبرة صوتها السرور بل القلق. ثم قالت: "تعالي وألقي نظرة. وبعد ذلك، أريدك أن تنضمي إلينا لتناول الفطور".

بينما أنا أغادر غرفتي، خالجتني مشاعر مرتبطة معاً بخيط رفيع: مشاعر الوحدة واليأس والحب العميق لشاعري. فتعلمت أن أنفس عن أحزاني بالتنهيدات.

تبعت أمي إلى حجرة الجلوس وأنا أمشي على بعد مسافة احتراماً لها، ووجدت أن هدايا مهري قد وصلت إلى البيت موضوعة بصناديق مطلية بطلاء لامع فبدت أشبه بتوابيت من الزجاج. تلقت عائلتي الهدايا المعتادة: كالحرير والساتان والذهب والمجوهرات والخزف والسيراميك والكعك والحلوى وأباريق الشراب واللحم المشوي. وكانت بعض هذه الأشياء لي، ولكن معظمها كانت لوالدي. وقدمت هدايا وافرة من المال لأعمامي، وكل هذا يدل على أن الزفاف سيتم سريعاً. فقرصت عظمة أنفي لأمنع نفسي من البكاء، وحالما كبحت جماح مشاعري، رسمت ابتسامة مزيفة على وجهي. فقد خرجت من غرفتي أخيراً وأدركت أن أمي ستراقب أي زلة في تصرفاتي. فتوجب عليّ أن أتوخى الحذر.

وقع نظري على رزمة ملفوفة بالحرير الأحمر، فألقيت نظرة خاطفة على أمي، وأومأت لي لتسمح لي بفتحها. فنزعت طيات الحرير الناعمة ووجدت بداخلها نسخة حديقة الفاوانيا التي طبعها المؤلف تانغ خيانجو بنفسه، وهي النسخة الوحيدة التي لم تكن لدي مسبقاً. ففتحت الرسالة التي أتت معها، وجاء فيها: "عزيزتي المثيلة، إنني أتطلع قدماً للسهر بصحبتك لنشرب الشاي ونتحدث عن الأوبرا". وكانت الرسالة موقعة من زوجة شقيق زوجي التي تعيش في بيت عائلة وو. لقد كانت مبالغ المهر جيدة، ولكن هذه الهدية أوحت لي بأن هناك على الأقل شخصاً في عائلة وو من حجرات النساء أستطيع أن أجد بصحبته الرفقة والتسلية.

سألت أمي قائلة: "أيمكنني الاحتفاظ بهذه الهدية؟".

قطبت جبينها، فظننت أنها سترفض، ولكنها قالت: "خذيها إلى غرفتك

ثم عودي مباشرة إلى حديقة الربيع . يجب أن تأكلي".

تشبثت بالمجلدين ومشيت ببطء عائدة إلى غرفتي ووضعتهما على سريري، ثم ذهبت إلى حديقة الربيع حسب أوامر أمي.

بعد أن أمضيت شهرين محتجزة في غرفتي، نظرت إلى الغرفة وكل من فيها بعينين جديدتين. ولاحظت التوتر المعتاد يغلي بين زوجات أعمامي وبناتهن ولمي وأولئك النساء والبنات اللواتي لا نشاهدهن في الصباح، أي المحظيات وبناتهن. ولكن ابتعادي طول تلك المدة جعلني ألاحظ تياراً خفياً لم ألاحظه من قبل كلياً قط. من المتوقع لكل امرأة في مجتمعنا أن تحمل في حياتها عشر مرات على الأقل. ولكن نساء عائلة تشين عانين من صعوبات في الحمل وإنجاب الأبناء. فشكلت قلة الأبناء عبئاً أرهق الجميع. وكان يفترض بالمحظيات أن ينقذن سلالتنا التي أوشكت أن تنقرض. ورغم أننا أطعمناهن وكسوناهن وآويناهن، فلم تنجب أي منهن ابناً. وربما لم يكن يسمح لهن بمشاركتنا طعام الفطور، ولكنهن بقين معنا في كل الأحوال.

لاحظت أن موقف بنات عمي نحوي قد تغير. فقد عرضت علي المكنسة، التي أشرفت على احتجازي، الحلوى واستخدمت عودَي الطعام لتضع بعضها في طبقي. وصبت لي زهرة اللوتس الشاي، وقدمت لي وعاء عصيدتها الذي أضافت إليه السمك المملح والكراث. وأتت زوجات عمي إلى الطاولة، ورحبن بعودتي بوجوه مبتسمة والححن عليّ لتناول الطعام. ولكنني لم أضع لقمة واحدة في فمي، وتجاهلت حتى حلوى الفاصولياء التي أحضرتها شاو من طاولة أمي.

وعندما انتهت الوجبة، انتقلنا إلى قاعة براعم اللوتس . وتشكلت مجموعات صغيرة، إحداها للتطريز والأخرى للرسم والتخطيط والثالثة لقراءة الشعر. ثم وصلت المحظيات وأتين ليقبلنني ويقدمن لي الأكلات اللذيذة ويقرصن خدي ليحلن إليه لونه. وكانت اثنتان من محظيات جدي فقط لا تزالان على قيد الحياة، ولكنهما بدتا مسنتين جداً. وأبرز المسحوق الذي يضعانه على وجهيهما تجاعيدهما، ولم تجعلهما زينة شعرهما تبدوان أصغر سناً، بل جعلت الشعر الأبيض أكثر وضوحاً. وبدا محيطا خصرهما منسحين، ولكن أقدامهما ظلت صغيرة وجميلة كما كانت في تلك الليالي عندما استمتع جدي بإمساكها بيده.

قالت محظية جدي المفضلة: "إنك تصبحين أكثر شبهاً بجدتك يوماً بعد يوم".

وأضافت الأخرى: "إنك لطيفة وطيبة المعشر مثلها تماماً".

تابعت المفضلة قائلة: "من فضلك انضمي إلينا في التطريز أو اختاري اي نشاط آخر. إذ يسرنا أن تتواجدي بصحبتنا في أي نشاط ترغبينه. فنحن اخوات في هذه الغرفة. وعندما اخترنا من المانشو في يانغجو، عبرت جدتك عن نفسها بصراحة تامة في هذا الموضوع".

قالت المحظية الأخرى بنبرة خنوعة: "إنها تنظر إلى مستقبلك من حيث هي. وقد كنا نقدم لها القرابين نيابة عنك".

بعد أسابيع عديدة أمضيتها في عزلة، كشفت لي الثرثرة والقلق والمنافسة، وكلها مخفية خلف نشاطات التطريز والخط وقراءة الشعر، غموض النساء اللواتي يعشن في قصر عائلة نشين. فشعرت بالدموع تملأ عيني وأنا ابذل جهدي لأتصرف كابنة صالحة بينما أصغي إليهن واحمي نفسي من قلقهن المزيف وأدرك الحقيقة المحتومة لحياتي.

ولكنني لم استطع ان احارب امي.

أردت أن أغوص في مشاعري وادفن نفسي بأفكار عن الحب. وقد لا تتسنى لي وسيلة للهرب من زواجي، ولكنني ربما استطيع أن أهرب منه كما فعلت في هذا البيت الذي ولدت فيه، أي بالقراءة والكتابة والتخيل. لم أكن رجلاً أو قادرة على منافسة كتابة الرجال. ولم أشعر بالرغبة في كتابة مقالة من ثمانية أجزاء، حتى لو خضعت للامتحانات الإمبراطورية. ولكنني كنت قد تمتعت بمقدار معين من المعرفة اكتسبته من والدي عندما جلست على حضنه وأنا فتاة صغيرة وعندما أعطاني نسخاً من الكتب الكلاسيكية ومجلدات من الشعر لأدرسها، وهذه ميزة لا تتمتع بها معظم الفتيات. فقررت أن استخدم كل هذه المعرفة لأنقذ نفسي. ولم أنو ان اكتب الشعر عن الفراشات والزهور بل توجب عليّ أن أعثر على شيء لا اراه معبراً وحسب وإنما مساعداً لي على الصمود لبقية حياتي.

قبل ألف سنة، كتب الشاعر هان يون قائلاً: "كل الكائنات التي لا تعيش بسلام تصيح". وقارن بهذا حاجة البشر إلى التعبير عن مشاعرهم بالكتابة بالقوى الطبيعية التي تجبر النباتات على الحفيف في الرياح أو المعادن على الرنين. وهكذا ادركت ما يجب علي أن افعله، وهو أمر عملت عليه من قبل لسنوات. ومع غياب العالم الخارجي عني أمضيت كل حياتي التأمل في داخلي واصبحت مشاعري متسجمة اخيراً. لقد اراد شاعري ان يعرف أفكاري عن المشاعر السبعة. فصممت أن أعثر عليها كلها في حديقة الفاوانيا التي وضحتها وان ابحث في أعماقي وأكتب ليس ما كان قد لاحظه النقاد ولا ما ناقشته زوجات اعمامي عن هذه المشاعر وإنما

تجربتي الخاصة معها. وعزمت على أن أنهي مشروعي مع وقت زفافي لكي أتمكن من الذهاب إلى بيت وو رين ومعي شيء يذكرني إلى الأبد بليالي الحب الثلاث التي كنت قد أمضيتها مع شاعري. ونظرت إلى مشروعي على أنه طريق خلاصي في السنوات المظلمة التالية. وربما أصبح حبيسة في بيت زوجي، ولكن عقلي سيسافر إلى حديقة إطلالة القمر حيث التقي شاعري مراراً وتكراراً دون أن يكتشفنا أحد. وقد لا يقرأ شاعري ما سأكتبه أبداً، ولكنني سأتخيل نفسي دوماً وأنا أقدمه له عندما نلتقي في عقلي وقلبي.

نهضت على قدمي فجأة موقعة كرسيي على الأرض. فجعل الصوت جميع النساء والفتيات يحدقن إليّ. ورأيت الطريقة التي توارى فيها كرههن وغيرتهن خلف وجوههن الجميلة المليئة بالقلق المزيف والاهتمام المصطنع.

فقالت أمي مخاطبة إياي باسم الجديد: "يا تونغ!".

شعرت وكأن هناك نملاً يزحف داخل رأسي. فحاولت أن أضبط ملامح وجهي قدر المستطاع.

"أتسمحين لي بالذهاب إلى مكتبة والدي، يا أمي؟".

"إنه ليس هنا. فقد ذهب إلى العاصمة".

فصدمني ذلك الخبر. إذ إنه لم يعد إلى العاصمة منذ تولي المانشو السلطة.

وتابعت أمي قائلة: "ولكن حتى لو كان هنا، فسوف ارفض. إن تأثيره سيئ عليك. فهو يظن أن الفتاة يجب أن تعرف عن خياوكينغ. حسناً، انظري إلى الدرس الذي علمك إياه". لقد قالت هذا أمام كل امرأة تعيش في بيتنا وأظهرت لي احتقاراً وازدراء لم أتخيلهما من قبل. ثم قالت: "لقد انقضت العاصفة. ويجب علينا أن نتذكر من نحن؛ إننا نساء ينتمين إلى الحجرات الداخلية ولا نتجول في الحديقة".

قلت لها: "يجب أن أبحث عن شيء، من فضلك، يا أمي، اسمحي لي بالذهاب. سأعود سريعاً".

"إذاً، سأرافقك. دعيني أمسك ذراعك".

"إنني بخير، يا أمي. سأعود على الفور".

لقد كذبت عليها في كل ما قلته تقريباً، ولكنها سمحت لي بالذهاب.

غادرت قاعة براعم اللوتس وأنا أشعر بالدوار قليلاً وتجولت عبر الممرات إلى أن استطعت أن أخطو خارجها إلى الحديقة. وكان الشهر التاسع قد حل، فبدت البراعم باهتة وأوراقها متساقطة. وكانت قد غادرت الطيور إلى مكان أكثر دفئاً. وبوجود المشاعر القوية التي سرت في داخلي، آلمني أن

أرى بقايا ضعف الشباب والحياة والجمال.

عندما وصلت إلى طرف بركتنا، ركعت على ركبي لأتمكن من رؤية انعكاس صورتي على سطحها البراق كالزجاج. فوجدت أن لوعة الحب جعلت وجهي نحيلاً وشاحباً. وبدا جسمي أقل امتلاء. وشعرت أنه لم يعد يقوى على حمل وزن بلوزتي الحريرية. وتدلت أساوري الذهبية واسعة حول معصمي، وحتى دبابيس شعري المصنوعة من اليشب أثقلت على جسدي الضئيل. ترى هل سيتعرف شاعري عليّ إن رآني الآن؟

وقفت مجدداً وتلكأت للحظة لأرى انعكاس صورتي مرة أخيرة ثم عدت أدراجي إلى أن دخلت الممر مجدداً ومشيت إلى البوابة الأمامية. على مدى السنوات الست عشرة الماضية كنت قد أتيت إلى هنا مرات عدة ولكنني لم أتخطاها أو أعبرها محمولة على المحفة أبداً لأنه من المقرر لهذا أن يحدث يوم زفافي فقط. فتحسست سطحها بأصابعي. وكان والدي قد شرح لي مرة أن لدينا بوابة رياح وتار. فالجانب المطل على العالم الخارجي مصنوع من الخشب القاسي ليحمينا من كل عوامل الطقس، ولكنه أيضاً يحمينا من الأشباح والعصابات لأنه يخدعهم ويوهمهم أن لا شيء ذا أهمية أو قيمة موجود في قصرنا. أما الجانب الداخلي للبوابة فقد صنع من الحجارة ليحمينا من النار ويحصننا ضد أي شرور قد تخترق حديقة بيتنا. شعرت بملمس هذه الحجارة وأنا أمرر أصابعي عليها أشبه بملمس تراب الأرض البارد. ومن هناك، توجهت إلى قاعة مقتنيات الأسلاف وقدمت الاحترام لجدتي وأشعلت البخور وتوسلت إليها أن تمدني بالقوة والعزيمة.

وأخيراً ذهبت إلى مكتبة والدي. وعندما دخلت استطعت أن ألاحظ أن والدي كان غائباً من بعض الوقت. فلم أشم رائحة التبغ ولا البخور تعبق في الجو. ولاحظت أن صواني الثلج قد أزيلت من تحت سريره، ولكن المراجل لم تشعل لتدفئة الغرفة من برد الخريف. وفوق كل هذا، فقد شعرت بغياب قوة عقله، ليس من غرفته فقط بل من البيت كله. إنه أهم شخص في عائلة تشن. فكيف لم ألحظ غيابه حتى وأنا وحدي في الغرفة؟

ذهبت إلى الرفوف واخترت أفضل مجموعات كتب الشعر والتاريخ والميثولوجيا والدين التي عثرت عليها وأخذتها إلى غرفتي على ثلاث دفعات. ثم عدت إلى المكتبة وجلست لبضع دقائق على السرير النهاري لأفكر في أي شيء قد أريده أيضاً. فاخترت ثلاثة كتب أخرى من كومة في الزاوية. ثم غادرت المكتبة واتجهت عائدة إلى غرفتي ودخلتها. وهذه المرة أغلقت

الفصل السابع

اليشب المبعثر

•

أمضيت الشهر التالي وأنا مستغرقة بقراءة كل نسخة أملكها من نسخ حديقة الفاوانيا ثم جمعت كل الملاحظات التي كتبتها على تلك النسخ ونسختها على هوامش نسخة تانغ خيانجو الأصلية التي كانت قد أرسلتها لي زوجة شقيق زوجي. وحالما أنهيت هذا، جمعت كتب والدي من حولي وتصفحتها إلى أن تعرفت على الكتاب الأصليين لجميع الآثار الأدبية في المجلد الأول ما عدا ثلاثة منهم ومعظم الكتاب في المجلد الثاني، وذلك بعد مرور شهر آخر. لم أشرح اصطلاحات الأوبرا أو تشبيهاتها البلاغية أو التعليقات التي كتبت عن موسيقاها وأدائها أو أحاول أن أقارنها بأوبرا أخرى. وكتبت تعليقاتي بأحرف بالغة الصغر بين أسطر النص الأصلي.

لزمت غرفتي ولم أغادرها قط. وسمحت لشاو أن تحممني وتلبسني، ولكنني امتنعت عن تناول الطعام الذي أحضرته لي لأنني لم أشعر بالجوع. وساعدني الدوار الذي شعرت به على التفكير والكتابة بوضوح أكبر، على ما يبدو. وعندما أتت زوجات عمي وبناتهن ليأخذنني في نزهة في الحديقة أو يطلبن مني أن أنضم إليهن لشرب الشاي وتناول الحلوى في حديقة الربيع ، شكرتهن ولكنني رفضت طلبهن. ومما لا يثير الدهشة، فلم يعجب أسلوبي الجديد أمي. ولم أطلعها على عملي وهي لم تسألني عنه. ولكنها قالت لي: "لن تتعلمي أن تصبحي زوجة صالحة بالاختباء في غرفتك مع كتب والدك. تعالي معنا إلى حديقة الربيع . تناولي الفطور واصغي إلى زوجات أعمامك أو تعالي إلى الغداء وتعلمي كيف تعاملين محظيات زوجك أو انضمي إلينا لتناول العشاء، وأتقني فن المحادثة".

فجأة أصبحت جميعهن يردنني أن أتناول وجبة، ولكن أمي حذرتني لسنوات من أن أصبح ممتلئة الجسم كابنة عمي المكتنسة ونصحتني أن آكل أقل مقدار من الطعام لأبقى نحيلة يوم زفافي. لقد أدركت الآن أن الشيء الوحيد الذي أملك سيطرة عليه هو جسدي، ولهذا فلم أعد آكل أي شيء، تقريباً. فمن أين لي بأي شهية للطعام وأنا واقعة في الحب؟ إن كل فتاة تمر بهذه التجربة وتعرف حقيقة شعوري بلا شك. فقد ظل قلبي يحلم بشاعري وامتلأت أفكاري بهذا المشروع الذي أيقنت أنه سيحميني من

وحدتي في الزواج. وماذا عن معدتي؟ لقد كانت فارغة ولكنني لم أكترث لذلك.

بدأت أمكث في السرير وأمضي سحابة يومي وأنا أقرأ من المجلدين ثم أسهر طوال الليل وأنا أقرأ على ضوء مصباح الزيت المرتعش. وكلما قرأت أكثر بدأت أكتشف الروابط الصغيرة التي كان قد استخدمها تانغ خيانجو ليشكل كلاً عميقاً. وتأملت في اللحظات الحاسمة في الأوبرا والأحداث التي تنذر بالأحداث التي تليها والدوافع الخاصة وكيف توضح كل كلمة وكل فعل الشيء الوحيد الذي كنت مهووسة به، ألا وهو الحب.

إن شجرة الخوخ على سبيل المثال تمثل محور الحياة والحب. إذ إنها تشكل المكان الذي التقت فيه ليننيانغ وميننغمي للمرة الأولى والذي دفنت فيه والذي أعادها فيه ميننغمي إلى الحياة مرة أخرى. وفي المشهد الأول، غير ميننغمي اسمه بسبب حلم، وهو حلم الخوخ. ولكن الشجرة ذكرت أيضاً بليننيانغ لأن براعم الخوخ رقيقة وأثيرية وشبه عذراء في جمالها. وعندما يُزج بالفتاة في قفص الزواج، تتخلى عن جمالها وتفقد للأبد صورتها الرومانسية. إذ تبقى لديها الكثير من الواجبات لتقوم بها، كأن تلد الأبناء وتكرم أسلاف زوجها وتصبح أرملة فاضلة. ولكن ليننيانغ سبق وخطت الخطوة الأولى في طريق رحلتها إلى الموت.

أخذت حبري وطحنته في مطحنة الحبر وأضفت إليه الماء ثم دونت أفكاري بيدي الرقيقة على الحاشية العلوية للمجلد الأول:

إن معظم من يحزنون لزوال الربيع يتأثرون كل التأثر لرؤية البراعم المتساقطة، كما شعرت عندما مشيت لآخر مرة في حديقتنا. إن ليننيانغ ترى الأوراق فتدرك أن شبابها وجمالها عابران، ولكنها لا تدرك أن حياتها هشة أيضاً.

لطالما أسرت الأوبرا خيالي بتصويرها الصادق للحب الرومانسي المختلف عن الزيجات المدبرة الخالية من العواطف التي نشأت عليها في قصر عائلة تشن وعن زواجي الوشيك. واعتبرت الحب العاطفي شعوراً نبيلاً وأقصى طموح يستطيع رجل أو امرأة أن يصبو إليه. ورغم خبرتي المحدودة التي تنحصر بالليالي الثلاث التي أمضيتها تحت ضوء القمر، فقد اعتقدت أنه يمنح المعنى للحياة.

كل شيء يبدأ بالحب. فقد بدأ حب لينيانغ بجولتها الأولى في الحديقة ثم في حلمها وظل مستمراً إلى الأبد.

لقد استمتعت لينيانغ ومينغمي بصحبة بعضهما. وكانا صادقين في حبهما لبعضهما، كما كنت أنا وشاعري، ولكن هذا بعيد كل البعد عن العلاقة البشعة بين رجل ومحظيته.
إن حبهما طاهر وسامٍ وليس جسدياً، ولطالما تصرفت لينيانغ كسيدة راقية.

بينما أنا أكتب هذا، فكرت في نفسي في الليلة الأخيرة في حديقة إطلالة القمر .
كتبت عن الحلمين، حلم لينيانغ ومينغمي وحلمي. وفكرت أيضاً في اللوحة التي رسمتها لينيانغ لنفسها وقارنتها بمشروعي. فدونت بيدي الرقيقة في الهامش العلوي:

إن اللوحة شكل بدون ظل أو انعكاس تماماً كما الحلم ظل أو انعكاس بدون شكل. إن الصورة ظل بدون إطار، لذا فهي أقرب إلى الوهم منها إلى الحلم.

إن الظلال والأحلام والانعكاسات في المرايا والبرك وحتى الذكريات واهية ومتلاشية، ولكن أتقل حقيقية عن الحقيقة؟ لم أكن أعتبرها كذلك. فغمست ريشتي في الحبر ولمستها وكتبت:

لقد التمست دو لينيانغ السعادة في حلم والتمس ليو مينغمي زوجة في لوحة. إن لم تعتبر أشياء كهذه أوهاماً، إذاً فالأوهام تصبح حقيقية.

عملت بجد كبير وتناولت طعاماً قليلاً جداً حتى بدأت أشك أنني قابلت على الإطلاق أي غريب في حديقة هبوب الرياح لليلتين. ترى هل غادرت والشاعر فعلاً حديقة إطلالة القمر ومشينا على طول شاطئ البحيرة؟ أكان ذلك كله حقيقياً أم حلماً؟ لا بد له أن يكون حقيقياً، إذ إنني عما قريب سأتزوج رجلاً لم أحبه.

عندما تذهب لينيانغ إلى المكتبة تمر بإحدى النوافذ وتود أن تطير لتلاقي حبيبها. ولكن خوفها يمنعها من ذلك.

ملأت الدموع عيني وفاضت على خدي وتساقطت على الورق وأنا أكتب هذه الملاحظة.

استهلكتني رؤى الحب وتخلت عني الشهية القليلة التي أبقتني على قيد الحياة في فترة احتجازي الأولى. لقد اعتادت خياوكينغ أن تشرب نصف فنجان من عصير الكمثرى كل يوم. فآثرت أنا أن أكتفي ببضع رشفات من الشاي. ولم يعد الامتناع عن الأكل وسيلة للحفاظ على سيطرتي على حياتي. وبدأت مشاعر الحب الهائجة والتوق تستنزفني. كتب أحد الحكماء يقول: "إذا عانى الشاعر أشد المعاناة عندئذ فقط يصبح شعره ذا قيمة". فأجابت الشاعرة الشهيرة جو روبو تعليقاً على هذا: "إن الموظفين والعلماء يحفرون لحمهم وينحتون عظامهم ويشيب شعرهم ويستهلكون حياتهم ليقدموا أبياتاً مظلمة وكئيبة".

تعمقت إلى مكان في صميم ذاتي تلاشى فيه كل شيء دنيوي. فلم أعد أشعر سوى بمشاعر الحب والندم والتوق والأمل. جلست في سريري مرتدية ثوباً من أجمل أثوابي طرز عليه زوج من الإوز يطير فوق الزهور والفراشات. وسمحت لعقلي أن يأخذني إلى حديقة الفاوانيا. ترى هل أفقدت الأحلام لينيانغ عقلها؟ هل أفقدتني أحلامي وجولاتي في حديقة عائلتي عقلي؟ ألم أعد طاهرة لأنني كنت قد قابلت رجلاً غريباً وسمحت له أن يلمسني بأوراق زهرة الفاوانيا؟

بينما كنت أكتب بسرعة محمومة ظلت تحضيرات الزفاف مستمرة على قدم وساق من حولي. وذات مرة، أتت الخياطة لتلبسني ثوب الزفاف ثم أخذته لتجعله أصغر. وفي يوم آخر أتت أمي وزوجات أعمامي فوجدنني في السرير والكتب تحيط بي على غطاء السرير الحريري. وبدت وجوههن بشوشة وباسمة، ولكنهن لم يشعرن بالسعادة.

قالت أمي بصوت رنان: "لقد أرسل والدك خبراً من العاصمة. سوف يعود للعمل في خدمة الإمبراطور حالما يتم زواجك".

فسألتها: "هل غادر المانشو؟" ترى هل فاتني تغيير هام في السلالة الإمبراطورية أثناء احتجازي؟

"كلا، سوف يخدم والدك إمبراطور سلالة كينغ".

"ولكن والدي موالٍ للسلالة السابقة. فكيف يمكنه أن...".

قاطعتني أمي قائلة: "ينبغي أن تتناولي طعاماً. اغسلي شعرك وضعي مسحوقاً على وجهك واستعدي لتحييه عندما يعود كما ينبغي لفتاة مؤدبة أن تفعل. لقد منح عائلتنا شرفاً كبيراً ويجب أن تظهري له الاحترام. هيا انهضي الآن!".

ولكنني لم أفعل ذلك.

غادرت أمي الغرفة، ولكن زوجات أعمامي بقين معي وحاولن أن يجعلنني أنهض من السرير، ولكنني كنت زلقة وعديمة الشكل كالسمكة في أيديهن. وكانت أفكاري مُعبرة بشكل مماثل. كيف يمكن لوالدي أن يخدم الإمبراطور مع أنه موالٍ للسلالة السابقة؟ هل ستترك والدتي البيت وتلحق به إلى العاصمة كما توجب لها في السابق أن تذهب إلى يانغجو؟

في اليوم التالي، أحضرت والدتي أحد الضالعين الذين تستعين بهم العائلة لتناقش معه كيف يمكن إضفاء المزيد من الاحمرار على وجهي قبل الزفاف.

سألها: "ألديك شاي الربيع؟ اغليه مع الزنجبيل ليحسن معدتها ويقوي بنيتها".

جربت الشاي، ولكنه لم يجد نفعاً. فكانت مجرد رياح خفيفة لتعصف بي لشدة رقتي ونحولي. وشعرت بغطاء سريري يثقل على جسمي.

أعطاني عشر حبات مشمش حامضة، وهي وصفة شائعة للنساء الشابات اللواتي يسبق تفكيرهن أعمارهن، ولكن الوصفة لم تأتِ بأي فائدة. وعوضاً عن ذلك، تخيلت نفسي أتزوج شاعري وآكل الخوخ المملح عندما أصبح حاملاً بابننا الأول وأنا أعلم أنه سيساعدني بمنع غثيان الصباح.

عاد الضالع لينثر دماء الحيوان المقزز على سريري في محاولة لطرد الأشباح الشريرة التي اعتقد أنها تحوم هناك. وعندما أنهى عمله، قال لي: "إن بدأت تأكلين مجدداً، فسوف تتفوق بشرتك وشعرك في يوم زفافك على كل مقاييس الجمال المتعارف عليه".

ولكنني لم أشعر بأي اهتمام لزواجي بوو رين أو اكترث بتناول طعامي في سبيل إسعاده في يوم الزفاف. إذ إن مستقبلي قد تحدد مسبقاً بعد أن أنجزت كل شيء يجب عليّ إنجازه للتحضير لزفافي. فقد أنهيت التطريز وأصبحت أجيد العزف على القانون. وكانت شاو كل يوم تلبسني بلوزات مطرزة بالزهور والفراشات أو بطيرين محلقين في السماء تعبيراً عن الحب والسعادة التي يفترض أنني أشعر بها حيال حياتي القادمة في بيت زوجي. لم أعد أضع أي طعام في فمي ولا حتى الفاكهة ولم يتجاوز ما

أشربه بضع رشفات من العصير، ولكنني غذيت روحي بالأنفاس الغامضة والتفكير في الحب وذكرى مغامرتي مع شاعري خارج أسوار حديقتنا.

وجه الضالع تعليماته بإبقاء الباب المؤدي إلى القاعة مغلقاً في كل الأوقات لمنع أي الأشباح الحاقدة من الدخول وأمر بتغيير مكان موقد المطبخ وتحويل اتجاه سريري نحوه لاستغلال أقصى حرارة. فحرصت والدتي والخادمات على تنفيذ هذه الأوامر، ولكنني لم أشعر بأي اختلاف. وحالما غادروا الغرفة، عدت إلى كتابتي وأحلامي. فلا يمكن لأحد أن يشفي قلباً حزيناً تواقاً بمجرد تغيير اتجاه السرير.

بعد بضعة أيام، وصلت أمي مع الطبيب جاو الذي أصغى إلى النبض في معصمي وأعلن قائلاً: "إن القلب هو موطن الشعور، وقلب ابنتك مفعم بالكثير من التوق".

سرني أن تم تشخيص مرضي أخيراً على أنه من لوعة الحب، وخطرت فكرة خيالية ببالي، ماذا إن مت من الحب كما ماتت لينيانغ؟ هل سيحزن عليّ شاعري ويعيدني؟ أبهجتني تلك الفكرة، ولكن رد فعل أمي حيال خبر الطبيب كان مختلفاً تماماً، فقد دفنت وجهها بين يديها وبكت.

قادها الطبيب بعيداً عن سريري واخفض صوته قائلاً: "هذا النوع من الكآبة ملازم أيضاً لاختلال في وظيفة الطحال، وقد يتسبب ذلك في انقطاع الشهية للأكل. احذري يا سيدة تشين من أن ابنتك قد تموت من جراء هذا".

يا للهول! إن الأطباء دائماً يحاولون أن يخيفوا الأمهات لأنهم بهذا يكسبون المال.

وقال: "يجب أن تجبريها على الأكل".

وهذا هو بالضبط ما فعلوه. فأمسكت أمي وشاو ذراعيّ بينما دفع الطبيب كتلاً من الأرز المطهو داخل فمي وأطبق فكّي، وأحضرت إحدى الخادمات بخنة الخوخ والمشمش، فأقحم الطبيب القطع المشبعة بالماء داخل فمي إلى أن تقيأت كل شيء.

نظر إليّ باشمئزاز، ولكنه قال لأمي: "لا تقلقي، فهذا الركود سببه العواطف. ولو أنها متزوجة لقلت إن تمضية ليلة مع زوجها ستشفيها. ولكن بما أنها غير متزوجة بعد، فيجب عليها أن تسكت رغباتها. أؤكد لك، أيتها الأم الطيبة، أنها ستشفى في ليلة زفافها. ولكن قد لا يكون لديك وقت كافٍ لتنتظري حدوث هذا، لذا فسوف أنصحك بتجربة شيء مختلف". أمسك بمرفقها وقادها بعيداً ثم اقترب وهمس شيئاً في أذنها. وعندما تركها،

غطى قناع من الإصرار خوفها. وأضاف لها مطمئناً: "غالباً ما يكون الغضب كافياً لتخفيف هذا الركود".

قادت أمي الطبيب إلى خارج الغرفة. فأسندت رأسي على الوسادة. وكانت كتبي مبعثرة حولي على ملاءة السرير. فالتقطت أحد مجلدات حديقة الفاوانيا وأغمضت عينيّ وتركت عقلي ينجرف عبر البحيرة إلى بيت شاعري. ترى هل كان يفكر فيّ كما أفكر فيه؟

انفتح الباب. فدخلت أمي برفقة شاو وبعض الخادمات.

وقالت أمي مشيرة إلى أكوام الكتب التي وضعتها على الطاولة: "ابدأن بتلك الكتب هناك وأنت أحضري الكتب التي على الأرض".

اقتربت أمي وشاو مني وجمعتا الكتب الموضوعة قرب قدميّ.

وأعلنت أمي قائلة: "سنأخذ هذه الكتب. فقد أمر الطبيب بإحراقها".

"كلا!" وشددت ذراعي بشكل فطري على الكتاب الذي أمسكه بيدي، وقلت: "لماذا؟".

"يقول الطبيب جاو إن هذا سيشفيك".

صحت قائلة: "لا يمكنك أن تفعلي هذا. إنها ملك والدي".

فأجابت أمي بهدوء: "إذاً فأنت لا تمانعين".

أسقطت الكتاب الذي كنت ممسكة به وتحررت بعصبية من اللحاف الحريري، وحاولت أن أمنع أمي والأخريات من أخذها. ولكنني كنت شديدة الضعف. وغادرت الخادمات وبحوزتهن الأكوام الأولى من الكتب. فصرخت وذراعاي ممدودتان إليهن وكأنني متسولة ولست الابنة المدللة لعائلة أنجبت تسعة أجيال من العلماء الإمبراطوريين. لقد كانت هذه كتبنا الثمينة بالعلم والسامية بالحب والفن!

كنت قد وضعت نسخي الخاصة من حديقة الفاوانيا على السرير. وبدأت أمي وشاو بأخذها أيضاً. فأصابتني نوبة ذعر مسعورة لما أوشكتا على القيام به.

"لا يمكنكما أخذها! إنها لي!" وحاولت أن أجمع أكبر قدر من المجلدات استطعت الوصول إليه. ولكنني وجدت أمي وشاو قويتين بشكل مثير للدهشة. فقد دفعتاني بسهولة وتغلبتا على جهودي بكل سهولة وكأنني بعوضة مزعجة.

صحت قائلة: "إنه مشروعي، يا أمي، أرجوك! لقد وضعت فيه كل جهدي".

فقالت لي وهي تأخذ نسخة حديقة الفاوانيا التي أهداني إياها والدي

بمناسبة ذكرى ميلادي: "لا أعلم عمّ تتحدثين. لديك مشروع واحد: وهو أن تتزوجي".

سمعت أصواتاً في الباحة التي تقع تحت غرفتي.

فقالت أمي: "يجب أن تري ما قد تسببت به أنانيتك".

أومأت برأسها إلى شاو وسحبتاني معاً من السرير وجرتاني إلى النافذة. فرأيت الخادمات وهن يضرمن ناراً في مجمرة ويلقين واحداً تلو الآخر من كتب والدي داخل ألسنة اللهب. فتلاشت أبيات شعر شعراء سلالة تانغ وتصاعدت في الهواء مع الدخان. ورأيت مجلداً من مؤلفات النساء يحترق ويتجعد إلى أن أصبح لا شيء، فاختنق صدري بالنحيب. تركتني شاو وعادت إلى السرير لتجمع بقية الكتب.

وعندما غادرت الغرفة، سألتني أمي: "هل أنت غاضبة؟".

ولكنني لم أكن غاضبة. إذ إنني لم أشعر إلا باليأس. فربما لا تستطيع الكتب والقصائد أن تشبع الجوع، ولكن بدونها لم تعد لي حياة لأعيشها.

توسلت إلي أمي قائلة: "أرجوك قولي إنك غاضبة. لقد قال الطبيب إنك ستغضبين".

وعندما لم أجب، التفتت وانهارت على ركبتيها وأخفت وجهها بين يديها.

رأيت شاو وهي تلقي بنسخة تلو الأخرى في ألسنة اللهب. وبينما أخذت النيران تلتهم كل واحدة منها، بدأت أرتعش في داخلي. لقد كانت أثمن ممتلكاتي، ولكنها الآن تحولت إلى مجرد رماد متفحم تعصف به الرياح. لقد ضاع مشروعي وضاعت معه كل آمالي. وتخدرت أحاسيسي من فرط اليأس. فكيف سأذهب إلى بيت زوجي الآن؟ كيف سأتخطى وحدتي؟

راحت أمي تبكي بجانبي وجسدها منطوٍ على نفسه إلى أن لامست جبهتها الأرض. ثم جرت نفسها إليّ بخنوع وكأنها خادمة وأمسكت بحاشية تنورتي بأصابعها وأخفت وجهها في الحرير.

وقالت بصوت ناعم بحيث كدت ألا أسمعها: "أرجوك اغضبي مني، يا ابنتي، أرجوك".

وضعت يدي بنعومة على عنقها، ولكنني لم أتفوه بكلمة واحدة، بل قمت بمجرد التحديق إلى النار.

بعد بضع دقائق، عادت شاو وأخذت أمي معها.

بقيت جالسة بجانب النافذة وذراعاي مسنودتان على عتبتها. وبدت الحديقة كئيبة في الشتاء بعد أن جردت العواصف والصقيع الأشجار من

أوراقها وأصبحت الظلال أطول وخفتت الأنوار. لم أعد أملك القوة لأتحرك بعد تدمير كل جهودي وعملي. وفي النهاية، استطعت أن أجبر نفسي على النهوض. فدار رأسي وارتجفت ساقاي وظننت أن قدمي الصغيرتين لن تتمكنا من حمل وزني. توجهت ببطء في طريقي عبر الغرفة إلى السرير. وكان اللحاف الحريري مفتولاً ومجعداً من محاولاتي العقيمة لإنقاذ كتبي. فنزعت اللحاف وتمددت على السرير. وعندما مددت ساقيّ تحت الحرير البارد شعرت بشيء يرتطم بقدمي. فمددت يدي من تحت القماش وأخرجت المجلد الأول من نسخة حديقة الفاوانيا التي أرسلتها إلى زوجة شقيق زوجي. ورغم عملية التطهير المسعورة، نجا هذا الكتاب بكل الكتابات التي على حواشيه. فانتحبت من الامتنان والحزن.

في وقت متأخر من الليل، وبعد ذلك اليوم الرهيب، غادرت سريري وخطوت فوق شاو النائمة متوجهة إلى النافذة. فرفعت الستائر السميكة التي تحجب برد الشتاء عنا. ورأيت الثلوج تغطي كل شيء، فأقلقني أن أفكر في البراعم التي كان العبير يفوح منها ثم حطمها البياض المر القاسي. تأملت القمر وراقبت مساره البطيء عبر السماء. وليلة بعد ليلة، بلل الندى ردائي وأثقل شعري وجمد أصابعي.

لم أعد أطيق الأيام الباردة التي لا نهاية لها. ففكرت في خياوكينغ وكيف اعتادت أن ترتدي ملابسها كل يوم وتملس تنورتها وتبقى جالسة في سريرها لئلا يتبعثر شعرها. لقد حاولت أن تبقى جميلة، ولكن الفكرة المظلمة الباردة حيال حياتي المستقبلية شلتني. فلم أعد أقوم بأي من تلك الأمور لدرجة أنني توقفت عن العناية بقدمي. فأصبحت شاو تغسلهما وتربطهما بحنان بالغ. فشعرت بالامتنان ولكنني توخيت الحذر أيضاً وأبقيت مجلدي الباقي الوحيد من حديقة الفاوانيا مخبئاً في ملابسي الحريرية خوفاً من أن تعثر عليه وتخبر أمي فتأخذه لتحرقه.

أتى الطبيب جاو مجدداً. ففحصني وقطّب جبينه. ولكنه قال عندئذ: "لقد قمت بالعمل الصواب، يا سيدة تشين. عندما طردت عن ابنتك لعنة المعرفة. فقد ساعد إحراق هذه الكتب المنحوسة في طرد الأشباح الشريرة التي تحيط بها".

أصغى لصوت نبضي وراقبني وأنا أتنفس وطرح عليّ بعض الأسئلة السخيفة. ثم أعلن قائلاً: "إن الفتيات العذارى يصبحن عند لحظة الزواج بشكل خاص عرضة لأذى الأشباح الحاقدة. وغالباً ما تفقد هذه الأشباح

الفتيات الشابات عقولهن. وكلما كانت الفتاة جميلة عانت من نوبات البرد والحمى وامتنعت عن الأكل تماماً كما فعلت ابنتك إلى أن تموت". وأمسك بذقنه بإمعان قبل أن يتابع قائلاً: "وهذا أمر لا يقبله زوج المستقبل بالطبع. ويمكنني القول من خبرتي إن العديد من البنات في مدينتنا يستخدمن هذه الذريعة للامتناع عن العلاقة الزوجية مع أزواجهن. ولكن يجب أن تشعري بالامتنان، يا سيدة تشي، لأن ابنتك خالية من هذا النوع من الإثم. فهي ليست على علاقة بأي أشباح ولا تزال طاهرة ولائقة للزواج".

لم تبهج هذه الكلمات أمي. وشعرت أنا أنني أصبحت أسوأ حالاً. إذ لم أجد أي طريقة للتملص من زفافي أو من السنوات التعيسة التي ستليه.

قال الطبيب جاو قبل أن يغادر: "سيساعد الشاي المغلي من الثلج الطازج على إعادة اللون إلى وجنتيها في الوقت المحدد لمراسم الزفاف".

كانت أمي تأتي كل يوم لتقف أمام سريري ووجهها شاحب من الرعب. فتوسلت إليّ أن أنهض وأزور زوجات أعمامي وبناتهن أو آكل قليلاً. فحاولت أن أخفف من قلقها.

وقلت: "إنني بخير، يا أمي. فلا تقلقي".

ولكن كلماتي لم تمنحها أي عزاء. فأعادت الضالع مجدداً. وهذه المرة، راح يشق الهواء حول سريري بسيف محاولاً أن يخيف الأشباح الشريرة التي يدّعي أنها متوارية هنا. وعلق تميمة حجرية حول عنقي ليمنح الأشباح الجائعة من سرقة روحي. وطلب من أمي أن تعطيه إحدى تنانيري فعلق بها رزماً من حبات الفول السوداني قائلاً إن كل حبة تصبح سجناً لأحد الأشباح المتوحشة. وراح يصيح بطلاسمه. فرفعت غطاء سريري على وجهي لئلا يرى دموعي.

إن الزواج يشبه في نظرنا نحن البنات الموت من بعض النواحي لأننا نودع آباءنا وأمهاتنا وأعمامنا وعماتنا وأبناء عمنا وخادماتنا اللواتي اعتنين بنا ونذهب إلى حياة جديدة كلياً. فنعيش مع عائلاتنا الحقيقية التي تُدرج أسماءنا في قاعة أسلافها. وبهذه الطريقة، يشبه الزواج الموت والبعث من جديد من دون الذهاب إلى العالم الآخر. أعلم أنها أفكار كئيبة بالنسبة إلى عروس، ولكن أفكاري نجمت من وضعي التعيس. وجعلت كآبتي عقلي يهيم في أمكنة أشد ظلاماً لدرجة أنني بدأت أعتقد أنني قد أموت مثل خياوكينغ أو غيرها من العذارى اللواتي لوعهن الحب وآمل حدوث ذلك.

فتركت عقلي يسرح في قصصهن ومزجت الحبر بدموعي. ثم اخذت ريشتي لتدفقت أبيات الشعر من طرفها:

لقد تعلمت أن أطرز الفراشات والزهور على ملابسي،
وفعلت ذلك لسنوات لأنني أنتظر يوم زفافي.
ولكن هل يعلم الناس أنني عندما أذهب
فلن تعود الزهور عطرة ولن تطير الفراشات من أجلي؟

ظل تفكيري لأيام يتأجج بالكلمات والمشاعر، فكتبت وواصلت الكتابة، وشعرت أنني خائرة القوى حتى عجزت عن الإمساك بالريشة. فطلبت من شاو أن تكتب قصائدي من أجلي. وعلى مدى الأيام القليلة التالية، لقنتها ثمانيَ قصائد أخرى. وراحت الكلمات تتدفق واحدة تلو أخرى كأزهار الدراق التي تنجرف مع تيار الجدول.

حل الشهر الثاني عشر، وظل الفحم يحترق ليل نهار في المجمرة، ولكنني لم أشعر بأي دفء. فقد كنت سأتزوج بعد عشرة أيام.

طول خفي الحريري سبعة سنتيمترات فقط.
وحزام خصري رخوٌ مع أنني طويته نصفين.
ولأن جسدي الهش لا يعينني على المشي إلى حيث أنا ذاهبة،
فسوف أمتطي جناحي الرياح لتوصلاني إلى هناك.

استبد بي القلق من أن يجدها أحد ويسخر من شعري السخيف أو يقول إن كلماتي زائلة وعديمة الأهمية. فطويت أوراقي ونظرت حولي في أنحاء الغرفة بحثاً عن مكان لأخفيها فيه، ولكن كل أثاثي كان سيؤخذ في نهاية المطاف إلى بيت زوجي.

صممت على ألا يعثر أحد على قصائدي، ولكنني لم أتحلَ بقوة الإرادة لأشعل ناراً لإحراقها. كانت نساء كثيرات يحرقن كلماتهن ظناً منهن أنها ليست بذات قيمة ثم يندمن على ذلك لاحقاً. ولكنني أردت أن أحتفظ بهذه القصائد متخيلةً أنني يوماً ما بعد أن أصبح سيدة متزوجة ولي أطفال فقد أنسى شاعري. فكنت سآتي لأزور أهلي ثم أخرج قصائدي وأقرأها مجدداً وأتذكر أيام الصبا ولوعة الحب. أليس هذا هو الأفضل؟

ولكنني أيقنت أنني لن أنسى ما كان قد حدث أبداً. فجعلني هذا حتى أكثر تصميماً على أن أعثر على مكان آمن لقصائدي. فمهما خبا لي

المستقبل. كنت دائماً سأتمكن من أن أعود إلى هنا وأعيش أحاسيسي مجدداً.
أجبرت نفسي على النهوض من السرير والخروج إلى الممر. وكانت فترة المساء المبكر قد حلت وبدأ الجميع يتناولون عشاءهم. فتوجهت في طريقي إلى مكتبة والدي، ولكنني استغرقت وقتاً طويلاً وأنا أحاول أن أثبت نفسي بالتمسك بالجدران والقبض على الأعمدة أو التشبث بالحواجز. فسحبت كتاباً من غير المحتمل أن يقرأه أحد يتحدث عن تاريخ بناء السدود في المقاطعات الجنوبية ودسست قصائدي بين صفحاته. ثم أعدت الكتاب إلى مكانه وحدقت إليه لأتذكر عنوانه ومكانه على الرف.

عندما عدت إلى غرفتي، أمسكت ريشتي للمرة الأخيرة قبل زواجي ورسمت على الغلاف الخارجي لمجلد حديقة الفاوانيا تفسيري للحلم المقطوع، وهو المشهد الذي التقى فيه مينغمي وليناغ للمرة الأولى، وأظهرت لوحتي العاشقين وهما أمام الكهف قبل لحظات من اختفائهما داخله. ثم انتظرت إلى أن جف الحبر وفتحت الكتاب وكتبت:

عندما يكون الناس أحياء فإنهم يحبون. وعندما يموتون يستمرون بالحب. وإن انتهى الحب بموت الإنسان، فهذا ليس بحب حقيقي.

أغلقت الكتاب واستدعيت شاو.

قلت لها: "لقد رأيتني عندما أتيت إلى هذا العالم، والآن سترينني وأنا أغادر إلى بيتي الجديد. ولا أستطيع أن أثق بأحد غيرك".

انهمرت الدموع على وجه شاو الصارم. وقالت: "ماذا تريدينني أن أفعل؟".

"يجب أن تعديني أن تطيعيني مهما قالت أمي أو قال أبي. لقد سبق وأخذا مني الكثير. ولكن هناك أشياء يجب أن آخذها معي إلى بيتي الجديد. عديني أن تحضريها بعد زواجي بثلاثة أيام".

شعرت بالتردد في عينيها. ثم ارتعشت مرة وقالت: "أعدك".

"من فضلك أحضري لي الحذاء الذي صنعته لمدام وو".

غادرت شاو الغرفة. فاستلقيت ساكنة تماماً وأنا أحدق إلى السقف وأصغي إلى صوت صياح الإوز وهي تعبر السماء. فجعلني صوتها أفكر في قصائد خياوكينغ والطريقة التي وصفت بها ذلك الصوت الحزين.

ثم تذكرت تلك المرأة المجهولة التي عبرت عن يأسها بقصيدة كتبتها على الجدار في يانغجو. وكانت هي أيضاً قد سمعت صوت الإوز. فتنهدت وأنا أتذكر كلماتها: "لو أن بكائي بدّل الدموع دماً يصبغ براعم شجرة

الخوخ، ولكنني لن أستطيع أبداً أن أجعلها تتفتح".

بعد بضع دقائق، عادت شاو وبحوزتها الحذاء وهو لا يزال ملفوفاً بالحرير الذي وضعته فيه.

"ضعيه في مكان آمن. ولا تدعي أمي تعرف أبداً أنه معك".

"بالطبع، يا زهرة الفاوانيا".

ولم يكن أحد قد ناداني باسمي الحقيقي منذ غنّوه والدي في الليلة الأخيرة من الأوبرا.

قلت لها وأنا أمد يدي تحت غطاء سريري وأخرج النسخة التي أنقذتها من حديقة الفاوانيا : "وهناك شيء آخر".

فتراجعت شاو إلى الوراء مرعوبة.

"هذا أهم شيء في مهري، ولكن والدتي ووالدي لا يعرفان بأمره. ويجب ألا تخبريهما. عديني بذلك!".

فتمتمت قائلة: "أعدك".

"احفظيه في مكان آمن. فأنت الوحيدة التي تستطيعين أن تحضريه لي بعد زواجي بثلاثة أيام. لا تنسي ذلك".

عاد والدي من رحلته إلى العاصمة. وللمرة الأولى في حياته أتى ليزورني في غرفتي، فتردد عند الباب قليلاً وهو يشعر بتوتر شديد يمنعه من الاقتراب.

قال لي: "إن زفافك بعد خمسة أيام، يا ابنتي. ولكن أمك تقول إنك ترفضين أن تنهضي وتتزيني. يجب أن تنهضي. فأنت لا تريدين أن تفوتي زفافك".

عندما تنهدت باستسلام، عبر الغرفة، وجلس على السرير وأخذ يدي.

وقال: "لقد أشرت إلى زوجك من أجلك في آخر ليلة من الأوبرا. هل تسبب لك ما رأيته بالتعاسة؟".

فأجبت قائلة: "إنني لم أنظر".

"إنني أتمنى الآن، يا زهرة الفاوانيا، لو أنني أخبرتك بالمزيد عنه، ولكنك تعرفين أمك".

"لا بأس، يا أبي. إنني أعدك بأن أقوم بما هو متوقع مني. ولن أحرجك أو أحرج أمي. وسأسعد وو رين".

تابع أبي متجاهلاً ما قلته: "إن وو رين رجل صالح. وقد عرفته منذ طفولته، فلم أتخيله يقوم بأي شيء غير ملائم". ثم ابتسم قليلاً وقال:

"باستثناء شيء واحد. في تلك الليلة بعد انتهاء الأوبرا اقترب مني وأعطاني شيئاً لأعطيك إياه". وهز أبي رأسه وقال: "قد أكون سيد بيت تشين، ولكن أمك لها قواعدها. فلم أعطك الهدية عندئذ لأنني كنت أعلم أن ذلك ليس ملائماً. واحتفظت بما أعطاني إياه في كتاب من كتب الشعر، وظننته المكان الملائم بسبب معرفتي التامة بشخصية كل منكما".

إن هدية قدمت لي قبل خمسة أشهر أو الآن لن تغير رأيي بزوجي أو زواجي، فقد كنت أرى فيه الواجب والمسؤولية ليس إلا.

هز والدي رأسه وكأنه يصرف فكرة مزعجة عن ذهنه، وقال: "والآن ها هي قبل بضعة أيام على.. ولا أظن أن أمك ستمانع إن أعطيتك إياها الآن".

أقلت يدي ومدها إلى قميصه وسحب شيئاً مطوياً داخل ورق الأرز. فخذلتني قوتي وعجزت عن رفع رأسي عن الوسادة، ولكنني راقبته وهو يفتح الورقة ويخرج زهرة فاونيا مجففة ويضعها في راحة يدي. فحدقت إليها غير مصدقة.

قال والدي: "إن رين يكبرك بعامين فقط، ولكنه حقق الكثير سلفاً. إنه شاعر".

فكررت كلامه قائلة: "شاعر؟" وعجزت عن إدراك ما كنت أحمله بيدي بينما شعرت أنني أسمع كلام والدي من أعماق كهف.

أضاف والدي: "إنه شاعر ناجح أيضاً. فقد سبق ونشرت أعماله مع أنه لا يزال صغيراً. إنه يعيش في جبل ووشان في الطرف المقابل من البحيرة. ولو أنني لم أغادر إلى العاصمة لأريتك بيته من نافذة مكتبتي. ولكنني رحلت، والآن أنت...".

لقد كان يتحدث عن الغريب، عن شاعري. وكانت الزهرة المجففة التي أحملها بيدي الزهرة نفسها التي داعبني بها في حديقة إطلالة القمر. وهكذا، تبين لي أن كل ما خشيته وهم لا صحة له لأنني سأتزوج الرجل الذي أحبه. فقد جمع القدر بيننا إلى الأبد.

بدأ جسدي يهتز بشدة وتدفقت الدموع من عيني. فرفعني أبي في ذراعيه وكأن وزني لا يتعدى وزن ورقة شجر.

قال لي محاولاً أن يخفف عني: "إنني آسف. إن كل فتاة تخشى أن تتزوج، ولكنني لم أدرك أن الوضع سيكون بهذا السوء بالنسبة إليك".

"إنني لا أبكي لأنني حزينة أو خائفة. آه، يا أبي. إنني أسعد فتاة على الإطلاق".

لم يبدُ عليه أنه سمع ما قلته لأنه قال: "لقد كنت لتسعدي مع رين".

وضعني على الوسادة. فحاولت أن أقرب الزهرة من أنفي لأشم إذا كان عبيرها لا يزال باقياً، ولكنني كنت شديدة الضعف. أخذ والدي الزهرة ووضعها على صدري. فشعرت بها ثقيلة فوق قلبي كالصخرة.

امتلأت عينا والدي بالدموع. يا له من يوم مثالي اجتمع فيه الأب وابنته في فرحتهما! لقد منحني الآن هدية زفاف على الإطلاق.

قال لي: "أريد أن أطلعك على أمر ما. إنه سر عن عائلتنا. إنك تعلمين أنه كان لي في الماضي أخوان صغيران".

غمرتني بهجة عارمة لأن وو رين هو نفسه شاعري ولأننا سنتزوج قريباً. وشعرت أنني أشهد معجزة حقيقية بحيث إنني كدت أعجز عن التركيز على كلام والدي. كنت قد رأيت اسمي أخويه في قاعة الأسلاف. ولكن لم يذهب أحد على الإطلاق لينظف قبريهما في مهرجان الربيع. ولطالما ظننت أنهما ماتا حين ولادتهما. ولهذا السبب لم يبد أحد أي اهتمام بهما.

تابع والدي قائلاً: "لقد كانا مجرد صبيين صغيرين عندما تم تعيين والدي في يانغجو. فوثق بي والداي لأعتني بهذا القصر وبالعائلة في غيابهما. ولكنهما أخذا الصبيين الصغيرين معهما. ذهبتُ ووالدتك في زيارة إلى يانغجو، ولكن لم يكن من الممكن أن نختار وقتاً أسوأ من ذلك. ففي الليلة الأولى، هاجمنا المانشو".

أمسك عن الكلام مترقباً رد فعلي. فلم أعرف السبب الذي يدفعه لإطلاعي على أمر كئيب كهذا في هذه اللحظة الرائعة. وعندما لم أقل شيئاً تابع قائلاً:

"عثر علينا المانشو وتم اقتيادي ووالدي وأخويّ بالإضافة إلى الرجال الآخرين إلى منطقة لها بوابة. ولم نعرف ما حدث للنساء. ولم تتحدث أمك عما حدث حتى هذا اليوم، ولهذا يمكنني أن أخبرك فقط عما رأيته. لقد كان واجبي وواجب أخويّ الصغيرين أن نحرص على أن ننقذ حياة والدنا. فوقفنا حوله وحميناه ليس فقط من الجنود ولكن أيضاً من السجناء الآخرين اليائسين الذين لا يردعهم شيء عن تسليمه للمانشو إن ظنوا أن ذلك سينقذهم".

لقد كان هذا أكثر من كل شيء عرفته على الإطلاق. ورغم سعادتي، فقد ظل تفكيري مشوشاً. ترى أين ذهبت أمي وجدتي؟

قال والدي وكأنه يقرأ أفكاري: "لم أحظ بامتياز رؤية شجاعة أمي، ولكنني رأيت أخوي يموتان. آه، يا زهرة الفاوانيا، يستطيع الرجال أن يتصرفوا بمنتهى القسوة".

وفجأة بدا غير قادر على الكلام. فتساءلت مجدداً: لماذا يخبرني كل هذا الآن؟

بعد وقت طويل واصل كلامه قائلاً: "عندما تقابليهما، أخبريهما أنني آسف. قولي لهما إننا نحاول أن نكرمهما قدر استطاعتنا وإننا متحناهما قرابين كبيرة، ولكنهما لم يهبا عائلتنا الأبناء بعد. لطالما كنت ابنة صالحة، يا زهرة الفاوانيا. أرجوك ابذلي ما بوسعك لتساعدينا".

شعرت بالارتباك وظننت أن والدي شعر بذلك أيضاً. إذ إن مسؤوليتي هي أن أجلب الأبناء لعائلة زوجي وليس لعائلة والدي.

فذكرته قائلة: "سوف أتزوج من عائلة وو، يا أبي".

فأغمض عينيه وأشاح بوجهه، وقال بصوت أجش: "بالطبع، سامحيني على هذا الخطأ".

سمعت صوت أناس يأتون إلى القاعة ثم دخل الخدم ونقلوا أثاثي وثيابي وملابسي ومهري - وكل شيء ما عدا سريري - من غرفتي ليأخذوها إلى بيت زوجي. فغمرتني فرحة كبيرة لذلك.

ثم دخلت أمي وزوجات أعمامي وأعمامي وبناتهم والمحظيات وتجمعوا حول سريري. ولا بد أن والدي قد ارتكب خطأ في عد الأيام المتبقية إلى زفافي. فحاولت أن أقف لكي أتمكن من الانحناء لهم، ولكن جسدي كان شديد الضعف والوهن رغم أن قلبي كان مفعماً بالسعادة. وعلق الخدم منخلاً ومرآة أمام مدخل باب غرفتي ليمنعوا دخول الأشباح الحاقدة.

لم يكن سيسمح لي بتناول الطعام خلال مراسم زفافي، ولكن توجب علي أن أتذوق الأطعمة الخاصة التي حضرتها عائلتي لتقدمها في فطور يوم زفافي. ولم أكن أشعر بالجوع، ولكنني قررت أن أبذل ما بوسعي لأطيع الأوامر لأن كل قضمة تبشر بحياة طويلة أعيشها في انسجام مع زوجي. ولكن أحداً لم يقدم لي قطعة اللحم التي يفترض بي أن آكلها لتمنحني القوة لإنجاب الأبناء بينما أمتنع عن قضم العظم ليحمي ذلك حيوية زوجي وخصوبته. وتوجب أن آكل بذور زنبق الماء واليقطين وعباد الشمس لأنجب العديد من الأبناء. ولكنهم لم يقدموا لي هذه الأشياء أيضاً. وبدلاً من ذلك، وقف أفراد عائلتي حول سريري وأجهشوا بالبكاء. لقد ملأهم الحزن لأن يروني أتزوج وأغادر البيت. ولكن البهجة ملأت قلبي. فشعرت

بجسدي خفيفاً وغير مثقل بحيث إنني ظننت نفسي سأطفو بعيداً. أخذت نفساً عميقاً لأثبت نفسي، فقد كنت سألتقي شاعري قبل غروب الشمس. وحتى ذلك الحين، كنت سأستمتع بكل التقاليد والعادات المترافقة مع زواج البنت. وعندما يحل الليل، وفي وقت متأخر جداً، وفي لحظات حميمة في السنوات القادمة، سأمتع زوجي بسرد ذكرياتي عن هذه اللحظات الجميلة.

غادر الرجال. فغسلت زوجات عمي وبناتهن جسدي ولكنهن نسين أن يضفن أوراق الكريفون إلى الماء. ومشطن شعري وثبتنه بدبابيس اليشب والذهب ناسيات أن يضعن غطاء الرأس الخاص بالزفاف. ووضعن المسحوق الأبيض على وجهي، ولكنهن تجاهلن اللون الأحمر الذي يوضع ليضيء شفتي ووجنتي. ووضعن زهرة الفاوانيا المجففة في يدي. ثم ألبسنني تنورة حريرية داخلية بيضاء رقيقة كتبت عليها المواعظ. وبسبب الدموع الكثيرة المنهمرة من حولي، لم أستطع أن أشير إلى أنهن نسين أن يثبتن قلب حيوان على تنورتي الداخلية.

حانت اللحظة التي سيساعدنني فيها لارتداء ملابس الزفاف. فابتسمت لهن. فقد كنت سأفتقدهن كثيراً. وبكيت كما يفترض بي أن أفعل. كم كنت أنانية وعنيدة جداً عندما اختبأت في غرفتي لأقوم بمشروعي في حين أن وقتي مع عائلتي محدود جداً! ولكن قبل أن يحضروا ملابس زفافي، استدعت زوجة عمي الثاني الرجال ليعودوا. فراقبت الخدم وهم ينزعون الباب من إطاره ويحضرونه إلى سريري. فرفعوني بلطف عن السرير ومددوني على الباب. ثم وضعوا جذور القلقاس الكاملة حولي للرمز للخصوبة. فبدوت أشبه بقربان للأسياد المبجلين. وأدركت أنه لن يتوجب علي أن أمشي إلى المحفة. فانهمرت دموع الامتنان من عيني وسالت على صدغي وعلى شعري. إذ إنني لم أدرك مقدار السعادة الذي سيملأني.

حملوني إلى الطابق السفلي وتشكل موكب جميل خلفي ونحن نتحرك على طول الممرات المغطاة. وتوجب علينا أن نذهب إلى قاعة مقتنيات الأسلاف لأتمكن من تقديم الشكر لجميع أسلاف عائلة تشن الذين اعتنوا بي. ولكننا لم نتوقف هناك، بل ذهبنا مباشرة إلى الباحة التي تقع بقرب بوابتنا الرئيسة. ووضعني الحاملون أرضاً وتراجعوا إلى الوراء. فنظرت إلى بوابة الرياح والنار وفكرت أن لحظات معدودة فقط تفصلني عن فتح البوابة وصعودي على محفتي قبل أن ألقي نظرة وداع أخيرة على أبي وأمي ثم أذهب إلى بيتي الجديد.

واحداً تلو الآخر، مر كل سكان بيتنا من أبي وأمي إلى آخر خادم

لدينا وقدموا لي احترامهم. وبعد ذلك، ومما يثير الاستغراب، تركوني جميعاً وحدي. فهدأ قلبي، ورأيت ممتلكاتي تحيط بي: كصناديقي المليئة بالحرير والمطرزات ومرآتي وأشرطتي ولحفي وملابسي. وكانت الباحة في هذا الوقت من السنة باردة وكئيبة. فلم أسمع صوت مفرقعات نارية ولا صوت الصنوج للاحتفال. ولم أسمع صوت حاملي المحفة التي ستحملني إلى بيت زوجي. وبدأت أفكار كئيبة تنجلي أمامي وتوقعني في شركها كالكروم المتشابكة. وأدركت أن أفراد عائلتي أخرجوني إلى هنا، حسب العادة المتبعة مع كل الفتيات غير المتزوجات، لأموت.

ناديت قائلة: "أمي، أبي". ولكن صوتي كان واهناً جداً بحيث لا يمكن أن يُسمع. حاولت أن أتحرك، ولكنني شعرت بجسدي ثقيل وخفيف في آن معاً. أحكمت قبضة يدي وشعرت بزهرة الغاوانيا فيها تسحق وتتحول إلى غبار.

حدث ذلك في الشهر الثاني عشر عندما كان الطقس شديد البرودة، ولكنني بقيت على قيد الحياة طوال ذلك اليوم والليلة التي تلته. وعندما بدأ ضوء زهري ينتشر في السماء، شعرت بأنني لؤلؤة تغرق بين الأمواج. وشعرت بقلبي يتحطم ويتبعثر كحجارة اليشب. وأصبح تفكيري باهتاً كالمسحوق وذائباً كالعطر ومنجرفاً كالغيوم. وأصبحت قوة حياتي رقيقة كأرق نوع من الحرير. فأخذت آخر أنفاسي وفكرت بأبيات من آخر قصيدة كتبتها:

ليس من السهل أن نستيقظ من الحلم.

إن روحي، لو أنها مخلصة، ستبقى إلى الأبد تحت القمر أو بجانب الزهور...

وعندئذ، وفي لحظة واحدة، وجدت نفسي أحلق عالياً وأقطع مسافات شاسعة عبر السماء.

القسم الثاني

الطواف مع الرياح



الفصل الثامن

الفراق

•

توفيت عند الساعة السابعة من اليوم السابع من الشهر الثاني عشر في السنة الثالثة لحكم الإمبراطور كانغخي قبل زفافي بخمسة أيام فقط. وفي تلك اللحظات الأولى التي تلت موتي، اتضحت لي أحداث كثيرة حدثت في الأسابيع والأيام القليلة التي سبقته. فمن الواضح أنه لم تكن لدي أي فكرة عن دنو أجلي، ولكن لمي أدركت ذلك في المرة الأولى التي دخلت فيها غرفتي بعد أن امتنعت عن رؤيتي لوقت طويل. وعندما ذهبتُ إلى حديقة الربيع ، حاولت بنات أعمامي وزوجاتهن والمحظيات ان يجعلنني آكل بعد ان ادركن امتناعي عن الأكل. وفي أيامي الأخيرة، اصبحت مهووسة بالكتابة كما أصبحت لينيانغ مهووسة برسم صورتها. واعتقدتُ أن قصائدي نابعة من الحب، ولكنني أظن أنني أيقنت في أعماقي أنني سأموت. إذ إن ما يدركه الجسد وما يختار العقل أن يصدقه أمران مختلفان. ثم أن والدي ليعطيني زهرة الفاوانيا لأنه أدرك أنني أحتضر فلم يعد السلوك الملائم يهمه بعد الآن. فسررت لأن أعرف أنني سأتزوج شاعري، ولكنني اصبحت على شفير الموت لدرجة تجعل شفائي ضرباً من المستحيل. حاولت أن أنحني لوالدي معتقدة أنني ذاهبة إلى زفافي، ولكنهم ظنوا على الأرجح انني أحاول ان اقلد أعمال لينيانغ عند موتها.

لقد أزيلت ستائر غرفتي ليس لآخذها إلى بيتي الجديد ولكن لأنها تشبه شبكات صيد السمك. فلم تود عائلتي أن اولد مجدداً كسمكة. وأخبرني والدي عن عمي لأنه ارادني أن أوصل لهما رسالة حيث هما وقال: "يوماً ما ستقابلينهما". ولم يكن من الممكن ان يتحدث بصراحة أكثر من ذلك. ومع ذلك فلم أفهم قصده. ووضعت عائلتي القلقاس من حولي. فالعروس تحمل القلقاس إلى بيتها الجديد، ولكنه يقدم أيضاً إلى الموتى ليضمن ولادة الأبناء والأحفاد المستقبليين. وكان التقليد يقضي بأن تؤخذ الفتاة غير المتزوجة إلى الخارج عندما لا يبقى إلا نفس واحد باق. ولكن كيف يستطيع أي أحد أن يحدد هذه الأمور؟ فأنا على الأقل لم أكن طفلة رضيعة عندما توفيت. وربما كان من الممكن أن أترك لتفترسني الكلاب أو ادفن في قبر سطحي وسرعان ما يُنسى أمري.

إننا نتعلم ونحن أطفال عما يحدث بعد الموت من آبائنا ومن القصص الوعظية ومن كل التقاليد، ولكن معظم ما عرفته عن الموت يأتي من حديقة الفاوانيا . ومع ذلك، فلا يمكن للأحياء أن يعرفوا كل شيء، ولهذا فقد شعرت أنني حائرة وتائهة وغير واثقة عندما بدأت رحلتي.

سمعت صوت النحيب الذي علا في الباحة عندما اكتُشف جسدي، وملأني حزن كبير عندما رأيت أقاربي والخادمات اللواتي كن قد اعتنين بي يضربون الأرض بأقدامهم حزناً. فحلت النساء شعرهن ونزعن مجوهراتهن وزينتهن وارتدين ملابس بيضاء من الخيش. وعلّقت إحدى الخادمات وضع المنخل والمرآة المعلقين في مدخل غرفتي. ولقد ظننت أنهما وضعا هناك لعمايتي وأنا ذاهبة إلى بيت رين للزواج، ولكنهما وُضعا هناك استعداداً لموتي. والآن أصبح المقصود من المنخل أن يسمح للطيبة بالعبور بينما تعكس المرآة تعاسة عائلتي إلى سعادة.

انحصر همي الأول برؤية أمي وزوجات أعمامي يخلعن ثيابي عن جثتي ويشاهدن هزالي ونحولي المرعبين. ثم غسلنني عدة مرات وألبسنني عدة طبقات من ملابس، ثم ألبسنني لباساً داخلياً مبطناً لأبقى دافئة في الشتاء. ثم أدخلن أطرافي في الأثواب المصنوعة من الحرير والساتان التي صنعت من أجل مهري، وحرصن على ألا يبقى هناك أي وبر على ثيابي خوفاً من أن أتحول إلى حيوان. ومن أجل الطبقة الخارجية، ألبسنني سترة حريرية مبطنة لها كمان مطرزان بأشكال ريش الطيور الملون. شعرت بالدوار، ولكنني تمنيت لو أنهم ألبسوني ملابس زفافي. فقد كنت عروساً وأردت أن تنتقل معي ملابس زفافي.

وضعت أمي رقاقة من اليشب داخل فمي لتحمي جسدي. ودست زوجة عمي الثاني القطع النقدية والأرز في جيوبي لأتمكن من تهدئة الكلاب التي سألاقيها في طريقي. وغطت زوجة عمي الثالث وجهي بقطعة رقيقة من الحرير الأبيض. وربطت زوجة عمي الرابع خيطاً ملوناً حول خصري لتمنعني من أخذ أي من أطفال العائلة معي وخيطاً آخر حول قدمي لتمنع جسدي من القفز إن تعرضت للتعذيب على يد أحدهم في رحلتي.

علق الخدم ستة عشر علماً ورقياً أبيض على الجانب الأيمن لبوابة بيت عائلة تشين الرئيسة لكي يعلم جيراننا أن ابنة في السادسة عشرة من عمرها قد توفيت. وتجول أعمامي في أنحاء المدينة لزيارة أضرحة المبجلين المحليين، وهناك أشعلوا الشمع وأحرقوا المال ليكون بمثابة وقود رحلة سفري. واستخدم والدي الرهبان، عدداً قليلاً منهم فقط لأنني فتاة، ليرتلوا

الأناشيد طيلة سبعة أيام. ليس من المسموح للمرء في حياته أن يهيم على وجهه حيث يريد، وكذلك هو الحال بعد الموت. فأصبحت وظيفة عائلتي الآن هي أن تقيدني لئلا يغريني شيء بأن أهيم على وجهي.

في اليوم الثالث بعد موتي، وضع جسدي في التابوت مع الرماد والقطع النحاسية والكلس. ثم وضع التابوت غير المغلق في زاوية في الباحة الخارجي بانتظار الضالع ليعثر على الوقت والمكان المناسبين لدفني. ووضعت زوجات أعمامي الكعك في يدي ووضع أعمامي عصياً على كل جانب من جسدي. وجمعوا خدماً وأثاثاً وملابس وأربطة من أجل ربط قدمي ومالاً وطعاماً، وكلها مصنوعة من الورق. وأحرقوها لتصطحبني إلى حيث أنا ذاهبة. ولكنني كنت فتاة صغيرة، ولهذا فقد أدركت سريعاً أنهم لم يرسلوا ما يكفيني.

في بداية الأسبوع الثاني، وصلت إلى مقصدي إلى جسر الميزان حيث قام من هناك بواجبهم من دون أي رحمة. فوقفت في الصف مباشرة خلف رجل يدعى لي وأنا أراقب الذين يتقدموننا وهم يوزنون قبل أن يتقدموا إلى المستوى التالي. ظل لي يرتجف ويهتز لسبعة أيام. وبدا مرعوباً أكثر مني لما كنا نراه ونسمعه. وعندما حان دوره، راقبته برعب وهو يجلس على الميزان. فجعلت كل الخطايا التي ارتكبها في حياته كفة ميزانه تهبط بضعة أمتار وحُكم عليه بعقوبة فورية. فمزق إلى أشلاء وطحن حتى أصبح مسحوقاً ثم أعيد إلى طبيعته وأرسل في طريقه.

أعلن أحدهم بلا شفقة قائلاً: "إن هذا مجرد عينة من المعاناة التي تنتظرك، يا سيد لي. فلا تبك أو تتوسل طلباً للرحمة. لقد فات الأوان على هذا. التالي!".

شلت حركتي من الرعب وأحاط بي آخرون مرعوبون ليقودوني إلى الميزان. ولم أكن أخف من الهواء، وهذا دليل على الطبيعة الحسنة، ولكن خطاياي في الحياة كانت قليلة فتابعت رحلتي.

طوال الوقت الذي وقفت فيه على جسر الميزان، راح الأصدقاء والجيران يقدمون تعازيهم لوالدي. فأعطى المفوض ثان والدي المال ليرسله إلي. وأحضرت مدام ثان الشموع والبخور والمزيد من الأغراض الورقية لتحرق من أجل راحتي. وتفحصت ثان زي القرابين وخمنت نواضحها وقدمت كلمات فارغة من الحزن لبنات أعمامي، ولكنها كانت في التاسعة من عمرها فقط. فما الذي قد تعرفه عن الموت؟

في أسبوعي الثالث، عبرت قرية الكلاب المسعورة حيث يُقابل الأناس

الفاضلون بهز الذيول ولعق الألسن بينما يُمزِّق الأشرار بالأنياب القوية والأسنان الحادة إلى أن تسيل دماؤهم أنهاراً. لم أعش حياة شريرة، ولكنني مررت للكعك الذي وضعته زوجات أعمامي في تابوتي لأرضي الحيوانات ذات القائمتين والأربع قوائم وللعصي التي وضعها أعمامي لأضرب الحيوانات الشريسة. وفي اسبوعي الرابع، وصلت إلى حيث طلب مني ان انظر إلى مرآة لأعرف ما سيكون عليه حالي التالي، فلو كنت شريرة لرأيت افعى تتلوى في العشب او حيواناً مقززاً يتمرغ في الوحل او جرذاً يقضم جثة. ولو كنت صالحة لرأيت حياة جديدة أفضل من حياتي السابقة. ولكنني عندما نظرت إلى المرآة، بدت لي الصورة ضبابية ومبهمة.

كنت سأواصل طوافي على الأرض إلى أن توضع النقطة على لوح اسلافي، وهكذا أصل إلى الراحة. ولم تفارقني أفكاري عن رين. فلمت نفسي لعنادي وامتناعي عن الأكل وحزنت على الزفاف الذي لم نحظ به، ولكنني لم أيأس قط من لقائنا. وفي الواقع، لقد اصبحت اعتقد بقوة حبنا اكثر من اي وقت مضى. فتوقعت من رين ان يأتي إلى بيتنا ويبكي حزناً ثم يطلب من والدي خفاً انتعلته مؤخراً ويحمله إلى البيت مع ثلاثة أعواد مشتعلة من البخور وينادي اسمي في كل زاوية من زوايا البيت ويدعوني لأتبعه. وحالما يصل إلى البيت، يضع خفي على أحد الكراسي مع البخور. ولو أحرق البخور لعامين وتذكرني كل يوم، تمكن من تكريمي كزوجة له. ولكنه لم يفعل كل هذا.

إنه لمن المخالف للطبيعة حتى للميت أن يبقى بدون زوج أو زوجة، ولهذا فقد بدأت أحلم بزفاف ليس سهلاً أو رومانسياً كاحتفال طلب الحذاء. ولكنني لم أحفل بذلك طالما أنه يؤدي بي بسرعة إلى الزواج برين. إذ بعد أن يتم الزواج، ويتم نصب لوح الأسلاف من أجلي، يصبح بإمكاني الخروج نهائياً من عائلة تشين والانضمام إلى عشيرة زوجي حيث أنتمي.

لم أسمع أحداً يتكلم عن حدوث هذا أيضاً. فقررت زيارة رين. لقد امضيت حياتي بطولها وأنا حبيسة جدران البيت. ولكنني الآن تحررت من عائلتي ومن أسوار قصر عائلة تشين. واصبح بإمكاني ان اذهب إلى اي مكان، ولكنني لم اكن اعرف المدينة او كيفية العثور على الطريق. وشعرت ان المشي على قدميّ الصغيرتين صعب جداً. فلم استطع أن امشي أكثر من عشر خطوات بدون ان اترنح في نسيم الرياح. ولكنني قاومت ألمي وارتباكي. فقد توجب علي ان اعثر على رين.

وجدت العالم الخارجي أكثر جمالاً وبشاعة مما تخيلت. فقد رأيت أكشاك الفاكهة الملونة متموضعة بين أكشاك بيع جثث الحيوانات المقززة وعدة الحلاقة. وشاهدت المتسولين الذين تغطيهم الجروح وبترت أطرافهم عمداً يستجدون بالمارّة طلباً للطعام والمال. ورأيت نساء - من عائلات نبيلة! - يمشين في الشوارع وكأنه لا بأس بذلك ويضحكن وهن يتوجهن في طريقهن إلى المطاعم وقاعات الشاي. ورأيت أشخاصاً، لا بد أنهم من الأجانب ببشرتهم البيضاء وعيونهن الزرقاء وشعرهم الأشقر والأحمر والبني، يمشون بجهد وبإصرار على طول الشارع.

شعرت بالضياع والفضول والإثارة. فالعالم بأسره يسير بحركة مستمرة بكل ما فيه من عربات وأحصنة تمشي على طول الشوارع وعربات الملح تجرها الثيران المتثاقلة ورايات وأعلام ترفرف من على الأبنية وأعداد هائلة من الناس يتدافعون في دوامات كبيرة. راح الباعة المتجولون يبيعون السمك والإبر والسلال بأصوات تشق الجو. وأزعجت مواقع البناء أذني بصوت الطرق والصياح، وتعالت أصوات الرجال الذين يتجادلون بشأن السياسة وأسعار الذهب وديون القمار. فغطيت أذنيّ ولكن يديّ، وهما مجرد نفختين من ضباب، لم تمنعا الأصوات المزعجة والمعذبة. فحاولت أن أخرج من الشارع، ولكنني عجزت عن الانعطاف حول الزوايا بسبب طبيعتي الهائمة.

عدت إلى بيت عائلتي وجربت أن أسلك شارعاً مختلفاً. فأوصلني هذا إلى منطقة تسوُّق تُباع فيها المراوح والحرير والمظلات الورقية والمقصات والحجارة الصابونية المنحوتة والمسابح والشاي. وحجبت اللافتات والزخارف من كل الأنواع نور الشمس. فواصلت المشي ومررت بالمعابد ومصانع القطن والنعناع حيث ضربت أصوات آلات السحق أذني إلى أن سالت الدموع من عينيّ. مشيت على شوارع هانغجو المرصوفة بالحصى. فأصيبت قدماي بالكدمات وتمزقت إلى أن سال ما يمكنني أن أصفه بدمي الآخر منها عبر خفي الحريري.

بعد أن اجتزت شارعاً طويلاً مستقيماً لا يؤدي إلى أي مكان، عدت إلى بيت عائلتي. ثم انطلقت في اتجاه جديد. فمشيت على طول السور الخارجي إلى أن وصلت إلى مياه البحيرة الغربية النقية. فرأيت الممرات والأهوار بتموجاتها البراقة وسفوح التلال الخضراء. فأصغيت إلى صوت هديل اليمام طلباً للمطر ونشاحن الغربان. ولمحت الجزيرة المنعزلة. فتذكرت كيف أشار رين إلى بيته هناك على جبل ووشان، ولكنني لم أعرف كيف أصل من هنا إلى هناك. فجلست على إحدى الصخور، وتدلت تنورتي وملابسي

حولي على الشاطئ، ولكنني أصبحت الآن في حالة لا يمكنني أن أتبلل فيها أو أتلوث بالوحل. فلم يعد يتوجب عليّ أن أقلق من الأحذية الملوثة بالوحل أو أي شيء من هذا القبيل. ولم أكن ألقي ظلالاً أو أترك آثار أقدام. ولكن هل جعلني هذا أشعر بالحرية أم بالوحدة القاتلة؟ لقد جعلني أشعر بكلا الشعورين معاً.

غربت الشمس وراء التلال محولة السماء إلى اللون القرمزي والبحيرة إلى لون أرجواني داكن. ارتجفت كقصبة في النسيم. ولف الليل نفسه حول هانغجو كالملاءة، وأصبحت وحيدة على ضفة البحيرة ومنعزلة عن كل شيء وكل شخص أعرفه وغارقة في أعماق اليأس. إن لم يأتِ رين إلى بيت عائلتي للقيام بأي من نشاطات الجنازة ولم أستطع أن أذهب إليه لأن الزوايا والضجة كانت تعوق حركتي، فكيف سأعثر عليه إذاً؟

أطفئت المصابيح والشموع في البيوت والورشات المحيطة بالبحيرة. وخلد الناس إلى النوم، ولكن الشاطئ ظل يلمع بالنشاط. فقد بدأت الأشجار والخيزران تتنفس وترتعش. وأتت الكلاب المسمومة إلى البحيرة في محاولة يائسة لتشرب شربة ماء أخيرة قبل أن تأخذها رعشة الموت. وأتت الأشباح الجائعة، كالذين غرقوا في البحيرة أو الذين قاوموا المانشو أو رفضوا أن يحلقوا مقدمة رؤوسهم فقطعت رؤوسهم عقوبة على ذلك، تجر نفسها عبر الأعشاب. ورأيت آخرين مثلي ماتوا لتوهم ولا يزالون يطوفون قبل أن أعثر على مكان الملائم للراحة، ولكننا جميعاً حرمنا من الليالي الهادئة المليئة بالأحلام الجميلة إلى الأبد.

الأحلام! وثبت على قدمي واقفة. كان رين يعرف حديقة الفاوانيا حق المعرفة، وقد التقت لينيانغ ومينغمي أول مرة في الحلم. ولا بد أن رين قد حاول منذ توفيت أن يصل إليّ في أحلامه، ولكنني لم أعرف وحسب أين ألتقيه وكيف أفعل ذلك. والآن عرفت بالضبط أين أذهب، ولكن يجب عليّ أن أنعطف إلى اليمين لأذهب إلى هناك. حاولت عدة مرات أن أنعطف حول زاوية المبنى. فانعطفت في دائرة أوسع كل مرة إلى أن تمكنت أخيراً من أن أشكل قوساً واسعاً بما يكفي لأن أنجح. تسللت على طول ضفة البحيرة وخطوت فوق الصخور دون أن أقلق من البرك الصغيرة وأزحت الزهور والنباتات الأخرى التي أعاقت طريقي إلى أن وصلت إلى حديقة إطلالة القمر في بيت عائلتي. وعندما بدأت أولى خيوط أشعة الشمس تظهر من فوق الجبل لمحت رين بانتظاري.

قال لي: "لقد كنت آتي إلى هنا على أمل أن أراك".

"زين".

وعندما اقترب مني، لم اخجل وابتعد. فاحتضنني لوقت طويل بدون ان يتكلم ثم سألني: "كيف مت وتركتني؟" وبدا الحزن واضحاً عليه. ثم قال: "لقد كنا سعيدين جداً. فهل قررت انك لا تأبهين لأمري؟".

"لم اعرف من انت. فمن أين لي أن أعرف؟".

أجابني: "بادئ الأمر، لم أعرف من انت أيضاً. وقد كنت أعلم ان زوجتي المستقبلية هي ابنة السيد تشين وأن اسمها هو زهرة الفاوانيا. لم ارغب بزواج مدبر، ولكنني مثلك تقبلت قدري. وعندما التقينا ظننتك إحدى بنات الأعمام في البيت او إحدى الضيفات. فتغيرت مشاعري وفكرت ان أحظى بهذه الليالي الثلاث معتقداً انني بهذا اقتربت من كل ما تمنيته على الإطلاق في زواجي".

"لقد خالجتني المشاعر نفسها أيضاً". وملأني بالشعور بالندم، فأضفت قائلة: "ليتني ذكرت اسمي".

قال لي بكآبة: "وأنا أيضاً لم اقل اسمي. ولكن ماذا عن زهرة الفاوانيا؟ ألم تحصلي عليها؟ لقد أعطيتها لوالدك. كان يجب ان تعرفي ان من انتقيته هو أنا".

"لقد أعطاني إياها عندما فات الأوان على إنقاذي".

فتنهد وقال: "يا زهرة الفاوانيا".

"ولكنني ما زلت لا افهم كيف عرفت أن الفتاة التي التقيتها هي انا".

"لم أعرف إلى أن قام والدك بالإعلان عن زواجنا. لطالما اعتبرت الفتاة التي سأتزوجها فتاة لا وجه لها ولا صوت. ولكن عندما قال والدك إن اسمك سيتغير لأنه نفس اسم والدتي، شعرت نوعاً ما أنه يتحدث عنك. إنك لا تشبهين أمي، ولكنكما تشتركان بالحس المرهف نفسه. لقد تمنيت ان تريني عندما قام بالإعلان وأشار إلي".

"لقد أغمضت عينيّ. إذ إنني أصبحت اخشى بعد ان قابلتك ان ارى الرجل الذي سيصبح زوجي".

ثم تذكرت انني فتحت عيني ورأيت تان زي تتأوه غضباً. ولا بد انها رأت بالضبط من هو زوجي. وكانت قد قالت لي في الليلة الأولى من الأوبرا انها علقت آمالها على الشاعر. فلا عجب انها بدت غاضبة ونحن نمشي عائدات إلى حجرات النساء.

ألححت عليه قائلة: "هل قررت أن من قابلتها هي أنا بناء على

حدسك؟".

فابتسم. وفكرت أننا لو تزوجنا، فهكذا كان سيجيبني في تلك الأوقات التي لا أستطيع فيها التخلي عن عنادي.

قال لي: "لقد عرفت ببساطة شديدة. فبعد الإعلان، صرف أبوك النساء. وعندما وقف الرجال، انفصلت عنهم بسرعة وأسرعت عبر الحديقة إلى أن رأيت الموكب ورأيتك في المقدمة. وبدت النساء يعاملنك كعروس منذ ذلك الوقت". ثم انحنى وهمس في أذني قائلاً: "فكرت في مدى حسن حظنا لأننا لن نعتبر بعضنا غريبين في ليلة زفافنا. لقد سررت لرؤية وجهك وزنابقك الذهبية وأخلاقك". ثم استقام ثانية وقال: "بعد تلك الليلة، حلمت عن حياتنا المستقبلية وكيف سنمضي أيامنا بتبادل الكلمات والحب. فأرسلت لك نسخة حديقة الفاوانيا. ألم تحصلي عليها؟".

كيف يسعني أن أقول له إن هوسي بها هو ما أوردني موارد الهلاك؟ يا للأخطاء والزلات التي ارتكبناها والمأساة الكبيرة التي نجمت عنها! في تلك اللحظة تذكرت أن أشد العبارات قسوة هي لو أن. لو أنني لم أغادر الأوبرا في الليلة الأولى، لذهبت إلى زواجي وقابلت رين في ليلة الزفاف بدون أي حوادث، لو أنني أبقيت عينيّ مفتوحتين عندما أشار والدي إلى رين... لو أن والدي أعطاني زهرة الفاوانيا في صباح اليوم التالي أو حتى بعد شهر أو قبل أسبوع على وفاتي، كيف يمكن للحياة أن تكون عديمة الرحمة هكذا؟

قال رين: "لا يسعنا أن نغير ما حدث، ولكن قد لا يكون مستقبلنا يائساً. فقد عثر مينغمي ولينيانغ على وسيلة اللقاء، أليس كذلك؟".

لم أكن أدرك تماماً كيف تسير الأمور هنا أو ما يسمح لي بالقيام به، ولكنني قلت: "لن أتركك، بل سأبقى معك إلى الأبد".

ضمني رين بقوة بين ذراعيه وأخفيت وجهي على كتفه. فهذا هو المكان الذي لطالما شعرت بالحاجة إلى التواجد فيه، ولكنه سحب نفسه وأشار إلى الشمس التي بدأت تلوح في الأفق.

وقال لي: "يجب علي أن أذهب".

فتوسلت إليه قائلة: "ولكن هناك أشياء كثيرة يجب أن أخبرك إياها. لا تتركني".

ابتسم وقال: "أسمع صوت خادمي في القاعة. إنه يحضر الشاي".

وعندئذ، طلب مني أن أقابله مجدداً، كما طلب في الليلة الأولى من الأوبرا، ثم اختفى.

بقيت هناك طوال اليوم بانتظاره ليأتي إلي في أحلامه إلى أن حل الليل. فمنحتني تلك الساعات متسعاً من الوقت للتفكير. لقد أردت أن أصبح شبحاً عاشقاً. فقد التقت لينيانغ مينغمي في حديقة الفاوانيا في الحلم ثم التقته مجدداً عندما أصبحت شبحاً. وعندما أصبحت بشرية مرة أخرى، ظلت طاهرة وامتنعت عن التضحية بعفتها قبل الزواج. ولكن هل يمكن لذلك أن يحدث في الحياة؟ إذ إن كل قصة أشباح سمعتها تتضمن امرأة تدمر حبيبها أو تعذبه أو تقتله. وتذكرت قصة رونها لي أمي تمتنع فيها البطلة عن لمس حبيبها بالكلمات وتقول: "إن هذه العظام البالية الآتية من القبر لا تضاهي الأحياء. وعندما تجمع علاقة حب بين رجل وشبح فهذا يؤدي به إلى هلاك وشيك، وأنا لا أتحمل أن ألحق بك الأذى". فكرهت أن أخاطر بإيذاء رين بهذه الطريقة. إذ إنه من المقدر لي كلينيانغ أن أكون زوجة. فلا يسعني الآن بعد موتي بشكل خاص أن أظهر نفسي لزوجي في مرتبة أدنى من مرتبة السيدة الراقية. فقد علقت لينيانغ قائلة: "قد تضلل العاطفة شبحاً. ولكن يجب على المرأة أن تراعي الطقوس والتقاليد".

في تلك الليلة، وعندما عاد رين مجدداً إلى حديقة إطلالة القمر، تحدثنا عن الشعر والأزهار وعن الجبال والحب الأبدي والحب المؤقت الذي تقدمه قنينات صالة الشاي. وعندما غادر مع انبلاج الفجر، شعرت أنني مفطورة الفؤاد. إذ إنني طوال الوقت الذي أمضيته أردت أن أهمس رسائل قلبي في أذنه وأن أراه وألمسه كما أردته أن يلمس صميم قلبي الذي ما زال يتوق إليه حتى بعد الموت.

في الليلة التالية، أحضر معه أوراقاً وحبراً وحجراً لطحن الحبر وريشة للكتابة. ثم أمسك بيدي. فطحنا الحبر معاً على الحجر ومشينا إلى البحيرة حيث جمع يدي مع بعضهما لأتمكن من أن أحضر الماء لمزج الحبر.

قال لي: "أملي عليّ الكلمات لأكتبها".

فكرت في التجارب التي مررت بها في الأسابيع الماضية وبدأت أؤلف. فقلت:

"حلقت بجناحي وجفوني ساهرة ومتعبة،
فرأيت الجبال خضراء وندية،
وتألقت البحيرة ولمعت موجاتها،
وأنت جذبتني إليك عبر الغيوم".

عندما خرجت الكلمات الأخيرة من فمي، وضع ريشته ونزع سترتي المبطنة ذات الكمين المطرزين بأشكال ريش الطيور.
كتب القصيدة التالية بخط فخم ولطيف، وأطلق عليها عنوان زيارة من سيدة مبجلة . وكانت تتحدث عني.

"لساني عاجز عن التعبير عن حزني لرحيلك.
فأنا أعيش في ظلام بلا نهاية،
ثم زرتني في أحلامي،
فغمرتني أفكار في ما كان يجب أن يكون،
ولكنني وجدته هنا معك، يا سيدة قلبي المبجلة،
ولكن آهة مفاجئة توقظني من حلمي،
فأجد نفسي وحيداً من جديد".

كتبنا معاً ثماني عشرة قصيدة. فكنت أنا أؤلف بيتاً وينظم هو البيت التالي. واقتبسنا معظم شعرنا من الأوبرا التي نعشقها، فاستشهدت بقول ليتيانغ بعد زواجهما السري: "هذه الليلة آتي إليك وأنا مليئة بالحب وأجعل نفسي ملكاً لك". لقد عبر كل بيت من أبيات الشعر عن حميمية خاصة، وقربنا كل بيت من بعضنا أكثر من ذي قبل. فأصبحت كل قصيدة أقصر من التي سبقتها وانحسرت طبقة تلو أخرى من ملابسي الأبدية. فنسيت قلقي، واقتصر كل شيء كتبناه على كلمات مثل متعة، موجات، إغراء، اندفاع، غيوم.
طلع الفجر، فاندفع بسرعة بعيداً عني وذهب بكل بساطة. ثم ارتقت الشمس إلى كبد السماء وأنا لا أزال أرتدي الطبقات الأخيرة من ملابسي. إن الموتى لا يشعرون بالبرد ولا الحر كما يشعر بهما الأحياء. وعوضاً عن ذلك، فنحن نشعر بشيء أكثر عمقاً مرتبطاً بمشاعر تلك الأحاسيس الجسدية. فارتجفت أوصالي بشدة، ولكنني لم أعاود ارتداء ملابسي. وانتظرت طوال اليوم والليلة لأن يعود رين من أجلي، ولكنه لم يعد. فأدركت أن هناك قوى جبارة تجرني بعيداً عن حديقة إطلالة القمر . ولم أكن أرتدي سوى ردائي الداخلي وثوب مطرز بطيرين يحلقان معاً فوق الأزهار.

مضت على وفاتي خمسة أسابيع. عند هذه المرحلة أصبحت حزينة

بحيث منحت فرصة أخيرة للنظر إلى بيتي والإصغاء إلى عائلتي. فبحثت من تلك المسافة البعيدة على طول شاطئ البحيرة الغربية إلى أن عثرت على بيت عائلتي. في البداية، كل ما استطعت رؤيته هو شؤون الحياة اليومية. فرأيت الخدم يفرغون مبولة الغرفة الخاصة بأمي والمحظيات يتجادلن على أحد أطباق الطعام وابنة شاو تخفي نماذج تطريزها بين طيات نسختي الخاصة من حديقة الفاوانيا. ولكنني رأيت أيضاً حزن والدي. فاجتاحتني موجة من الحزن والأسى. لقد توفيتُ بسبب شدة الحنين وغادرت العالم لأن وفرة هائلة من المشاعر غمرتني واستولت على قوتي وجعلت أفكاري ضبابية. ورأيت أمي تبكي. فأدركت أنها كانت محقة. إذ كان ينبغي لي أن أبتعد عن حديقة الفاوانيا. فقد أحييت في داخلي الكثير من العاطفة واليأس والأمل. والآن ها أنا قد افترقت عن عائلتي وزوجي إلى الأبد.

كان أبي، بصفته الابن الأكبر، مسؤولاً عن كل الطقوس. فتمثل واجبه ومسؤوليته الرئيسان الآن في دفني بشكل ملائم ووضع النقطة على لوح الأسلاف الخاص بي. فهيأت عائلتي وخدمنا المزيد من القرابين الورقية وكل تلك الأشياء التي يظنون أنني أحتاج إليها لحياتي الجديدة. فصنعوا الملابس والطعام والغرف والكتب من أجل تسليتي. ولم يقدموا لي محفة لأن أمي، حتى في موتي، لم ترد لي أن أخرج من البيت. وفي الليلة التي سبقت جنازتي، أحرقت هذه القرابين في الشارع. فرأيت من مكان جلوسي في شرفة الإطلالة شاو وهي تضرم النار وتضرب الأوراق المحترقة بالعصا. وكان ينبغي لأمي أن ترش الأرز حول النار لتجذب انتباه الأشباح الجائعة التي تتوق إلى الطعام لأن شاو لم ترغبها فعلاً. فسرقت كل شيء قبل أن تسنح لي الفرصة لتلقيه.

عندما وصل تابوتي إلى بوابة النار والرياح، رأيت رين. ثم كسر عمي الثاني كوباً له ثقوب في المكان الذي سيستقر فيه رأسي، وهذا يعني أنه من الآن فصاعداً لن يسمح لي سوى بشرب الماء الذي طرحته من جسمي في الحياة. وعلى الرغم من ذلك، فقد شعرت بالبهجة. أطلقت المفرقعات النارية لتطرد ما هو غير مرغوب فيه. ثم وضعت على محفة ليست حمراء كمحفة الزواج بل خضراء رمزاً للموت. وبدأ الموكب. فألقى أعمامي المال ليضمنوا أن أسلك الطريق الصحيح. ومشى رين ورأسه منكس بين أبي والمفوض تان. وتبعتهم محفات تحمل أمي وزوجات أعمامي وبناتهن.

عند وصولهم إلى المقبرة، تم إنزال تابوتي في الأرض. فسمعت دمدمة الرياح التي تمر من بين أشجار الحور وكأنها موسيقى رهيبة. أمسك كل

من امي وابي وأعمامي وزوجاتهم وبناتهم حفنة من التراب والقوها على تابوتي. وعندما غطى التراب سطح التابوت المطلي بالطلاء اللامع، شعرت انني أتوارى تحت الأرض إلى الأبد.

راقبت كل ما حدث وأصغيت بعناية من مكان جلوسي على شرفة الإطلالة . فلاحظت أنهم لم يجروا مراسم الزواج ولم يقدموا وليمة تُمَهِّد الطريق للتفهم الجيد بيني وبين زملائي الجدد. وبدت أمي شديدة الضعف من الحزن بحيث توجب على زوجات أعمامي أن يساعدنها للوصول إلى المحفة. ثم قاد والدي الموكب. ومجدداً مشى رين والمفوض تان إلى جانبه. فمضى وقت طويل لم يتفوه فيه أحد بكلمة، فأي عزاء يستطيع أحد ان يمنحه لأب فقد لتوه ابنته الوحيدة؟ وماذا يستطيع المرء أن يقول للعريس فقد عروسه؟

اخيراً خاطب المفوض تان والدي: "إن ابنتك ليست وحدها من تأثرت بهذه الأوبرا المريعة".

أي نوع من المواساة هذا؟

تمتم رين قائلاً: "ولكنها أحبت الأوبرا". فحدق الرجلان المسنان إليه، فأضاف قائلاً: "لقد سمعت هذا عن ابنتك، يا سيد تشين، ولو حالفني الحظ بالزواج بها لما امتنعت عنها قط".

من الصعب أن أصف مشاعري لرؤيته هناك بعد اللقاء الذي احتضنا فيه بعضنا في الحلم وكتبنا الشعر وتركنا المشاعر تتدفق بيننا. بدت تعزيته صادقة ومقلصة. فملأني الندم مجدداً لعنادي وحماقتي اللذين تسببا في كل ما حدث لي.

قال المفوض تان بغضب: "ولكنها ماتت من لوعة الحب كما حدث لتلك الفتاة المسكينة في الأوبرا!" وبدا غير معتاد على أن يخالفه أحد في الراي.

اعترف والدي: "أوافقك الراي لن ميل الحياة لتقليد الفن لا يشكل عزاء دائماً. ولكن الفتى على حق لأن ابنتي لم تكن تستطيع ان تعيش بدون الكلمات والمشاعر. وانت، أيها المفوض، ألا تتمنى احياناً ان تزور حجرات النساء وتجرب خوض الأعماق الحقيقية لتلك المشاعر؟".

قبل أن يتمكن المفوض تان من أن يجيب، قال رين: "إن ابنتك ليست محرومة من الكلمات والمشاعر، يا سيد تشين. فقد زارتني في أحلامي لليلتين متتاليتين".

كلا! وصحت من مكاني على شرفة الإطلالة . ألا يعرف نتيجة البوح

بهذا السر؟
نظر والدي والمفوض تان إليه بقلق.
قال رين: "في الحقيقة لقد التقينا. وقبل بضع ليال، تقابلنا في حديقة إطلالة القمر في بيتكم. وعندما أتت إليّ أول الأمر، كان شعرها مثبتاً بالدبابيس من أجل الزواج، وكان كُمّا سترتها الخارجية مطرزين بألوان ريش الطيور".
أجاب والدي بشك: "إنك تصفها وصفاً دقيقاً. ولكن كيف عرفتها إن لم تكن قد التقيتها من قبل؟".
ترى هل سيفشي رين سرنا؟ هل سيدمر صورتي في عيني والدي؟
اجاب رين: "لقد ميزتها بقلبي. وقد ألفنا القصائد معاً. حلقت بجناحي عبر السماء وجفوني ساهرة ومتعبة... وعندما استيقظت، كتبت ثماني عشرة قصيدة".
قال والدي: "لقد برهنت لي مجدداً، يا رين، على أنك رجل مفعم بالعاطفة. ولم أكن لأتمنى صهراً أفضل منك".
مدّ رين يده إلى كمه وأخرج بضع أوراق مطوية. وقال: "ظننت أنك قد تود أن تقرأها".
لقد كان رين رائعاً فعلاً، ولكنه ارتكب خطأ رهيباً يستحيل إصلاحه. إذ إنني سمعت وأنا حية أنه إن ظهر ميت لشخص ما في الحلم فأخبر ذلك الشخص الآخرين عنه، أو أسوأ من ذلك، أراهم كلمات الميت. ولهذا السبب ترجو الأشباح وحتى الكائنات عشاقها البشريين ألا يكشفوا عن وجودهم إلى العالم البشري، ولكن البشر عاجزون عن كتم الأسرار.

في الأسبوع السادس على وفاتي، كان ينبغي أن أعبر ما يسمى بالنهر المحتوم. وفي الأسبوع السابع كان ينبغي أن أمثل أمام القضاة الذين يقررون مصيري. ولكن لم تحدث أي من هذه الأشياء بل بقيت عالقة على شرفة الإطلالة . فبدأت أشك أن خطأ قطعياً قد ارتكب.
لم أر والدي أبداً يفاتح رين في موضوع الزواج لأنه أصبح الآن شديد الانشغال بالتحضير للانتقال إلى قصره الجديد في بكين ليتولى منصبه الجديد. وقد كان ينبغي أن أتألم لهذا. فكيف سمح لنفسه أن يقدم الولاء لإمبراطور المانشو؟ وتألمت له فعلاً. وقلقت على مصير والدي بعد أن قرر أن يتخلى عن قيمه وأخلاقه من أجل أن يجمع ثروة طائلة. وخشيت حتى أكثر أن يحاول والدي أن يوقع في الفخ زوجاً غير رين ليقبل أن

بجمع بيني وبينه الزواج، وربما يكون من السهل على والدي أن يلقي بعض المال على الطريق خارج بوابتنا ليلتقطه أحد المارة ويقول لذلك الرجل إنه أخذ مهر العروس وقبل بي زوجة له. ولكن هذا لم يحدث أيضاً.

قالت أمي إنها لن تتبع والدي إلى بكين ورفضت أن تتنازل عن عزيمتها وإصرارها على عدم مغادرة قصر عائلة لين مدى الحياة. فشعرت بالراحة لذلك. ولكن أفراح وضحك الأيام السعيدة السابقة التي أمضيناها في حديقة الربيع قبل أن أنسحب إلى غرفتي، تلاشت من حياة أمي لتحل محلها دموع الألم والحزن. فأصبحت أمضي ساعات في غرفة التخزين التي خططت فيها حاجباي لتشم عطري العالق بثيابي وتلمس الريشة التي كنت أكتب بها وتتأمل القماش الذي طرزته من أجل مهري. لقد قاومتْ أمي لوقت طويل، والآن أصبحت أتوق إليها دائماً.

بعد مرور تسعة وأربعين يوماً على وفاتي، تجمهرت عائلتي في قاعة الأسلاف من أجل وضع النقطة على لوح الأسلاف الخاص بي وتوديعي الوداع الأخير. فاجتمع بعض رواة القصص والمغنين في الباحة. وكان شرف وضع النقطة الغالية الأخيرة على لوح الأسلاف يُمنح لشخص ذي مكانة خاصة كأحد العلماء أو أفراد الطبقة المثقفة. وحالما يتم فعل ذلك، أسكن في اللوح حيث أحرس عائلتي. وتسمح لي نقطة اللوح أن أصبح كإحدى الأسلاف وتمنحني مكاناً أسكنه على الأرض إلى الأبد، بينما يصبح لوح الأسلاف المنقط وسيلة يستطيع أفراد عائلتي من خلالها أن يرسلوا القرابين لتساعدني حيث أنا، ويطلبوا مساعدتي ويزودوني بالراحة كوسيلة لتجنب العدائية المحتملة. وفي المستقبل، عندما تشرع عائلتي في مشروع تجاري جديد أو تسمي طفلاً أو تفكر في عرض زواج، سيستشيرونني من خلال اللوح. وكنت واثقة من أن المفوض ثان، أعلى الأشخاص الذين يعرفهم والدي في هانغجو رتبة، هو من سينفذ وضع النقطة. ولكن والدي اختار الشخص الذي يعني لي أكثر من أي شخص آخر: إنه وو رين.

رأيته أشد ذبولاً مما كان عليه يوم جنازتي. وبدا شعره مشعثاً وكأنه تخلى عن النوم والراحة. وملأ الألم والندم عينيه. والآن بعد أن أصبح من المحرم علي الوصول إليه في أحلامه، أدرك خسارته بكل وضوح. وأردت أن يعرف أنني هناك، ولكنه لم يشعر أو أي شخص آخر بوجودي. إذ إنني كنت أكثر شفافية من نفحة من دخان البخور.

وُضع لوح الأسلاف الخاص بي إلى جانب طاولة مقتنيات الأسلاف.

ونُقش عليه اسمي وساعة ولادتي وساعة موتي. وإلى جانب اللوح، وُضع طبق صغير من دم الديك وريشة. فغمس رين الريشة في الدم ثم رفعها ليضع نقطة البداية للوحي، ولكنه تردد ثم أوقعها وأنّ وهرب من القاعة. فتبعه والدي والخدم إلى الخارج وأجلسوه تحت إحدى الأشجار وجلبوا له الشاي وخففوا عنه. ثم لاحظ والدي أن والدتي كانت غائبة.

تبعناه جميعاً عائدين إلى القاعة. ووجدتُ أمي ممددة على الأرض وهي تنتحب وتقبض على لوحي. فحدق إليها والدي وهو يشعر بالعجز. وجلست شاو القرفصاء بجانب أمي وحاولت أن تنتزع اللوح من يديها، ولكنها لم ترض أن تفلته.

انتحبت أمي قائلة: "دعني أحتفظ بهذا، يا زوجي".

قال لها: "يجب أن توضع النقطة عليه".

فتوسلت إليه قائلة: "إنها ابنتي. دعني أقوم أنا بهذا، أرجوك".

ولكن أمي لا تنتمي إلى الطبقة المثقفة وليست كاتبة أو شاعرة، ولكن والديّ تبادلا نظرة من التفاهم العميق أربكتني وشوشت تفكيري.

قال والدي: "بالطبع، هذا سيكون مثالياً".

لفت شاو ذراعيها حول أمي وقادتها بعيداً. وصرف والديّ راويي القصص والمغنين، وتفرقت بقية العائلة والخدم. وذهب رين إلى بيته.

ظلت والدتي تبكي طوال الليل رافضة أن تترك اللوح رغم ملاطفة شاو المستمرة. كيف لم ألاحظ حبها لي؟ ألهذا السبب منحها والدي الإذن لتضع النقطة على لوحي. ولكن هذا ليس منطقياً، فهذه وظيفة والدي.

في الصباح، توقف والدي بجانب غرفة أمي. وعندما فتحت شاو الباب، رأى أمي مختبئة تحت لحافها وهي تئن من فرط الحزن.

همس والدي لشاو قائلاً: "قولي لها إنه يجب عليّ أن أغادر إلى العاصمة".

التفت ليرحل كارهاً. فرافقته إلى البوابة الأمامية، وهناك صعد في محفته التي ستحمله إلى منصبه الجديد. وبعد أن غابت المحفة عن أنظاري، عدت إلى غرفة أمي. ورأيت شاو راكعة على الأرض بجانب سرير أمي وهي تنتظر.

انتحبت أمي قائلة: "لقد رحلت ابنتي".

تمتمت شاو كلمات تعاطف ومسحت خصلات الشعر المبللة عن على خدّي أمي المخضلين بالدموع.

"أعطيني اللوح، يا سيدة تشين، دعيني أعطيه لسيدي. إذ يجب أن

يؤدي الطقس".

ترى ما الذي كان يدور بخلدها؟ لقد رحل والدي.

لم تكن أمي تعلم ذلك، ولكنها تشبثت باللوح بيديها رافضة أن تتخلى عنه أو عني.

"كلا، إنني...".

تحدثت شاو بصرامة قائلة: "إنك تعرفين الطقوس. فهذا واجب والدها. الآن أعطيني إياه". عندما رأت أمي تتردد قالت: "إنك تعلمين أنني محقة".

أعطت أمي اللوح لشاو رغماً عن إرادتها. وعندما غادرت شاو الغرفة، أخفت أمي وجهها في اللحف مجدداً لتبكي. فتبعت خادمتي العجوز وهي تتوجه إلى غرفة التخزين في الجزء الخلفي من البيت. وراقبتها بعجز وهي تدس اللوح في رف عالٍ خلف مرطبان من مخلل اللفت.

قالت وهي تجلو حنجرتها وكأنها تتخلص من طعم كريه: "إن هذا يسبب المشاكل لسيدتي. ولا أحد يريد أن يرى هذا الشيء القبيح".

بدون النقطة، ظللت عاجزة عن دخول اللوح.

الفصل التاسع

شرفة الإطلالة

•

أصبحت عاجزة عن مواصلة رحلتي إلى ما بعد الشرفة، ولهذا فلم تسنح لي الفرصة أن أدافع عن قضيتي أمام القضاة. وبينما مرت الأيام، اكتشفت أنني ما زلت أكنّ الرغبات والأمنيات نفسها التي راودتني وأنا حية. فقد عمل قدري على تغذيتها بدلاً من تهدئتها. وكانت قد انتقلت معي المشاعر السبعة التي تحدثنا عنها في الأرض- الفرح والغضب والخوف والحزن والحب والكره والرغبة- إلى حيث أنا الآن. لقد اعتبرتُ هذه المشاعر السلفية أقوى وأكثر استمراراً من أي قوة أخرى في الكون؛ أقوى من الحياة وأكثر استمرارية من الموت وأقوى من سيطرة أي شخص. فهي تطفو معنا وحولنا بدون بداية أو نهاية. ورغم أنها جميعاً غمرتني، فلم يكن أي منها أقوى من الحزن الذي شعرت به للحياة التي أضعتها.

اشتقت إلى بيت عائلة تشين. وافتقدت رائحة الزنجبيل والشاي الأخضر والياسمين وأمطار الصيف. وبعد شهور عديدة أمضيتها بلا شهية، أصبحت فجأة أشتهي جذور اللوتس المدمسة مع صلصة الصويا الحلوة ولحم البط المحفوظ وسرطان البحيرة وفريدس الكريستال. وافتقدت صوت العندليب وثرثرة النساء في الحجرات الداخلية وصوت أمواج البحيرة على الشاطئ. وتاق جسدي إلى إحساس الحرير على جلدي وإلى الرياح الدافئة التي تدخل من نافذة غرفتي. وافتقدت رائحة الورق والحبر وكتبي وقدرتي على دخول عالم آخر من خلالها. ولكن أكثر ما افتقدته كان عائلتي .

أمضيت أيامي وأنا أنظر من فوق الحاجز لأراقبهم. فرأيت أمي وزوجات أعمامي وبناتهن والمحظيات يعدن إلى روتين حياتهن اليومي. وسررت عندما رأيت والدي يعود إلى البيت للزيارة ويقيم الاجتماعات في فترات العصر في قاعة الأناقة الوافرة مع الشبان الذين يرتدون أردية أنيقة، ويرتشف الشاي مع أمي في الأمسيات. ومع ذلك، فلم أسمعهما يتحدثان عني أبداً. ولم تذكر أمي أنها لم تضع النقطة على لوح الأسلاف لأنها ظنت أن والدي قام بذلك. ولم يفتح هو الموضوع لأنه ظن أنها هي قامت بذلك. وهذا يعني بالطبع أن والدي لم يدعْ رين ليعود ويضع النقطة على لوحي أيضاً. لقد توجب على شخص ما أن يفعل ذلك لأستريح في مكاني

الملائم، ولكنّ أحداً لم يكن يعرف أنه مخبأ. وإن لم يرَ أحد لوحي، فقد أبقى عالقة هنا إلى الأبد. وعندما تملكني خوف شديد من هذا المصير، عزيت نفسي بمعرفتي أن الحاكم دو قد غادر إلى موعده بعد موت لينانغ مباشرة ناسياً أن يضع النقطة على لوحها أيضاً. ولا بد أن أوجه الشبه الكثيرة التي تجمع بيني وبين لينانغ تعني أنني أيضاً سأعود بقوة الحب الصادق.

بدأت أبحث عن بيت رين. وبعد محاولات لا حصر لها، عثرت ببصري على الطريق عبر سطح البحيرة الغربية مروراً بالجزيرة المنعزلة وعبوراً بالشاطئ الشمالي، وحددت مكان المعبد الذي بدت مشاعله متوهجة بقوة ليلة الأوبرا، ومن هناك حددت مكان بيت عائلة رين.

لقد اقتصر بيت عائلة وو على بضع باحات وحدائق وعدد قليل من السكان. إذ إن شقيق رين الأكبر قد انتقل إلى بيت آخر في مقاطعة بعيدة مع زوجته وابنته. وهكذا كان بيت عائلة وو يأوي فقط رين وأمه وخدمهما العشرة. فهل اعترضت على هذا يا ترى؟ كلا، فقد جعلني العشق الأعمى أرى فقط ما أريد أن أراه. وهو عبارة عن بيت صغير ولكنه حسن الذوق، أبوابه الرئيسة مطلية باللون الأحمر الزاهي وسقفه الأخضر المائل ينسجم بشكل جميل مع أشجار الصفصاف التي تحيط به. ورأيت شجرة الخوخ التي كانت قد أخبرني رين عنها قائمة في وسط الباحة المركزية، ولكنها بدت مجردة من أوراقها. أما رين فقد كان يلزم مكتبته خلال اليوم ليؤلف الشعر ويتناول وجباته مع أمه الأرملة ويتجول في الحديقة وعلى طول الممرات المظلمة ليلاً. فأخذت أراقبه طوال الوقت ناسية أمر عائلتي، ولهذا السبب فوجئت عندما أتت شاو لتزور عائلة وو.

أدخلت مربيتي المسنة إلى إحدى القاعات وطلب منها أن تنتظر، ثم أحضرت إحدى الخادمات رين وأمه إلى الغرفة. لقد مضت سنوات عديدة منذ أصبحت مدام وو أرملة، فارتدت الملابس الداكنة كما هو ملائم. وتخللت خصلات من اللون الرمادي شعرها وأظهرت ملامح وجهها معاناتها لفقدان زوجها. انحنت شاو عدة مرات، ولكنها مجرد خادمة، ولهذا فلم يتبادلوا حديثاً ودياً، ولم تقدم لها مدام وو الشاي.

قالت شاو: "عندما أصبحت آنستي الصغيرة على فراش الموت، أعطتني بعض الأشياء لأعطيها لعائلتكم. والأولى هي..." وفتحت زوايا منديل حريري يغطي سلة وأخرجت رزمة صغيرة ملفوفة بالحرير أيضاً. ثم نكّست رأسها، وقدّمت الرزمة على راحتي يديها قائلة: "لقد كانت آنستي تنوي تقديم

هذه الأشياء لك كعربون للطاعة الأبوية".

أخذت مدام وو الرزمة وفتحتها ببطء وأخرجت إحدى فردتي الحذاء الذي صنعته لها وتفحصته بنظرة الحماة الثاقبة. وبدت زهور الفاوانيا التي طرزتها واضحة على الخلفية الزرقاء الداكنة. التفتت مدام وو إلى ابنها وقالت: "لقد كانت زوجتك موهوبة جداً باستخدام الإبرة".

ترى هل كانت لتقول لي هذا لو انني ما زلت حية؟ أم أنها كانت ستنتقدني كما ينبغي للحماة أن تفعل؟

مدت شاو يدها إلى السلة وأخرجت نسخة حديقة الفاوانيا.

إليكم حقيقة من حقائق الموت: أحياناً ينسى المرء أشياء اعتبرها في الماضي مهمة. وكنت قد طلبت من شاو أن تحضر المجلد الأول إلى بيتي الجديد بعد زواجي بثلاثة أيام، ولكنها لم تفعل ذلك لأسباب واضحة. فنسيتُ وعدها ومشروعي، وحتى عندما رأيت ابنتها تخفي تطريزها في طيات الكتاب فلم أتذكر.

بعد أن وصفت لهما شاو سهري ليلاً لأقرأ وأكتب، مما دفع أمي إلى إحراق كتبي، وأنني خبأت المجلد الأول تحت غطاء سريري، أخذ رين المجلد بيديه وفتحه.

شرحت مدام وو قائلة: "لقد رأى ابني الأوبرا ثم بحث في أنحاء المدينة عن هذه النسخة بالذات. ففكرت أنه من الأفضل أن أدع كنتي ترسلها لزهرة الفاوانيا. ولكن هذا هو الجزء الأول فقط. أين المجلد الثاني؟".

كررت شاو قائلة: "لقد أحرقته أم الفتاة".

تنهدت مدام وو وزمت شفتيها استهجاناً.

سألها ابنها مشيراً إلى الأحرف التي شوشتها دموعي: "أترين؟ إن كيانها يلمع على الورق". وبدأ يقرأ وبعد لحظات رفع نظره وقال: "إنني أرى وجهها في كل كلمة، يبدو الحبر حياً وجديداً، يا أمي. تستطيعين أن تشعري بحركة يديها على الأوراق".

نظرت مدام وو إلى ابنها بتعاطف.

كنت واثقة من أن رين سيقرأ أفكاري عن الأوبرا ويعرف ما عليه أن يفعله وأن شاو ستساعده بأن تطلب منه أن يضع النقطة على لوحي.

ولكن شاو لم تذكر شيئاً عن النقطة الضائعة. ولم يبدُ رين متفائلاً أو ملهماً من أي ناحية، بل على العكس من ذلك، اكتسبت ملامحه تعبيراً حزيناً. فانتابني ألم شديد حتى شعرت أن قلبي سينفطر.

قالت مدام وو لشاو: "إننا ممتنان لك. ففي الكلمات التي رسمتها

ريشة سيدتك عثر ابني على زوجته".

أغلق رين الكتاب فجأة ونهض وأعطى شاو قطعة من الفضة وضعتها في جيبها. ثم غادر الغرفة بدون أن يتفوه بكلمة واحدة وكتابي تحت ذراعه.

في تلك الليلة رأيته وهو جالس في مكتبته مستغرقاً في الحزن والكآبة. ورأيته يستدعي أحد الخدم ويطلب منه شراباً. وراح يقرأ كلماتي وهو يتحسس الصفحات برقة. ثم أمسك رأسه وشرب وترك الدموع تنساب على خديه. شعرت بالاضطراب لرد فعله، فهذا ليس بالضبط ما أردته. فبحثت عن مدام وو ووجدتها في غرفة نومها. وكنا نتشارك في الاسم وفي حبنا لرين. فاعتقدت أنها ستفعل أي شيء يخفف عن ابنها، وبهذا كنا مثيلتين فعلاً.

انتظرت مدام وو إلى أن خيم الهدوء في البيت ثم مشت على طول الممر على قدميها الصغيرتين وفتحت باب مكتبته بهدوء. وكان رين قد وضع رأسه على المكتب واستغرق في النوم. فأخذت مدام وو نسخة حديقة الفاوانيا والزجاجة الفارغة ثم أطفأت الشمعة المرتجفة وغادرت الغرفة. وعندما عادت إلى غرفة نومها، دست مشروعي بين طيات أثوابها الحريرية ذات الألوان الزاهية التي لن ترتديها بعد الآن لأنها أرملة وأغلقت الدرج.

راحت الأشهر تمضي وتتوالى، ولأنني عجزت عن مغادرة شرفة الإطلالة . فقد رأيت كل شخص يتوقف هنا في رحلته عبر مستويات العالم السبعة. ورأيت الأرامل الفاضلات مرتديات طبقات عديدة من الملابس وهن يقابلن أزواجهن الذين ماتوا منذ أمد بعيد في لقاءات بهيجة، وكن يعلمن أنهن سيعاملن باعتزاز وتقدير لعقود آتية. ومع ذلك، فلم أر الأمهات اللواتي توفين أثناء الولادة، إذ إنهن يتوجهن مباشرة إلى بحيرة تجميع الدم . وهو مكان تعاني فيه النساء في جحيم أبدي بسبب الدنس الذي تسببن به في فشلهن في الولادة. ولكن شرفة الإطلالة شكّلت فرصة تسمح للأموات الذين فارقوا الحياة حديثاً أن يودعوا أولئك الذين تركوهم وفي الوقت نفسه تذكرهم بواجباتهم الملقاة على عاتقهم بصفتهم من الأسلاف. فمن هذا الوقت فصاعداً، يصبح من واجبهم أن يعودوا إلى هذا المكان لينظروا إلى العالم ويقيموا أعمال ذريتهم ثم يحققوا أمنياتهم أو ينزلوا بهم العقوبات. وقد رأيت أسلافاً غاضبين يحدّبون أولئك الذين تركوهم وراءهم أو يغيظونهم وينالونهم ورأيت أسلافاً آخرين مغمورين بالقرابين يكافئون

عائلاتهم بالمصاد الوفير والأبناء العديدين.

أتت إليّ بعض العذارى المتاعات اللواتي سمعت أنهنّ تأثرن بلوعة العشق، وهن: شانغ خياولنغ، الممثلة التي ماتت على المسرح، ويو نيانغ، التي ألهم موتها تانغ خيانجو فكتب قصائد رثاء لها، وجين فينغديان، التي تطابق قصتها قصتي باستثناء أن والدها كان تاجر ملح، وغيرهن من الفتيات.

قدمنا العزاء والمواساة لبعضنا. فقد أدركنا جميعاً خلال حياتنا الخطر الكامن في صفحات الأوبرا. إذ إن قراءتها أو قراءة أي شيء آخر قد تورد الفتيات موارد الهلاك، ولكننا جُذبنا بإغراء الموت ونحن شابات وجميلات وموهوبات. وفتننا الألم والسعادة للتفكير في الفتيات الأخريات المتاعات بالحب. لقد قرأنا جميعاً حديقة الفاوانيا ، وكتبنا قصائد عنها، ولقينا حتفنا. فظننا أن كتاباتنا ستعيش إلى ما وراء خراب الوقت وفناء أجسادنا، وهكذا أثبتنا قوة الأوبرا.

أرادت الفتيات المتاعات أن يعرفن قصة رين. فأخبرتهن أنني أعتقد بأمرين: أولهما أنني ورين قد تواحدنا معاً وثانيهما أن الحب سيجمعنا معاً من جديد.

نظرت الفتيات إليّ بشفقة وتمتمن بين بعضهن.

ثم أفضت إليّ الممثلة أخيراً: "لقد التقينا جميعاً بعشاقنا في الأحلام، ولكن ذلك هو كل شيء، أي مجرد أحلام".

اعترفت يو نيانغ قائلة: "لقد ظننت أن العالم الذي أحببته حقيقي أيضاً. آه، يا زهرة الفاوانيا، لقد كنا مثلك تماماً. فحرمنا من حرية الرأي في حياتنا وأجبرنا على الزواج بأزواج لا نعرفهم والانتساب إلى عائلات لا نعرفها. وفقدنا كل أمل بالحب، ولكنا ظللنا نتوق إليه، أي فتاة لا تقابل رجلاً في أحلامها؟".

قالت إحدى الفتيات الأخريات: "دعيني أخبرك عن حبي. لقد اعتدنا أن نلتقي في أحلامي في المعبد. وكنت أحبه حباً شديداً".

أضافت ابنة تاجر الملح: "وأنا أيضاً ظننت نفسي مثل لينيانغ. فتوقعت أن الشاب الذي أحبه سيعثر عليّ بعد أن أموت ويقع في حبي ويعيدني إلى الحياة ثم نحظى عندئذ بالحب الحقيقي وليس حب الالتزامات والواجبات". ثم تنهدت وقالت: "ولكنه مجرد حلم. والآن ها أنا هنا".

جلت ببصري من وجه جميل إلى وجه جميل آخر. فأخبرتني تعابيرها أن كلاً من أولئك الفتيات لها قصة مطابقة لهذه القصة.

قلت لهن: "ولكنني قابلت رين فعلاً ولمسني بأوراق زهرة الفاوانيا". فابتسمن لي تعاطفاً.

وكررت يو نيانغ: "كل الفتيات تراودهن أحلام".

فأشرت إلى العالم الأرضي تحتنا وقلت: "ولكن رين حقيقي. انظرن هناك، ها هو".

نظرت الفتيات، وكلهن بلغن السادسة عشرة من عمرهن، من فوق الحافة وتبعن إصبعي إلى بيت رين حيث جلس ليكتب في مكتبه.

"هذا شاب، ولكن من أين لنا أن نعرف أنه الشاب الذي قابلته؟".

"كيف تعرف أنك قابلته على الإطلاق؟".

في العالم الآخر، أحياناً تصبح إمكانية العودة إلى الماضي لعيش التجارب مجدداً أو رؤيتها ممكنة، ولهذا السبب يعتبر هذا العذاب رهيباً، إذ إن الناس يجبرون على تكرار عيش خطاياهم إلى الأبد. ولكنني الآن عشت نوعاً مختلفاً تماماً من الذكريات. فأخذتُ الفتيات الملتاعات وأعدتهن معي إلى حديقة هبوب الرياح و حديقة إطلالة القمر وإلى آخر زيارة قابلت فيها رين بعد أن أصبحت على ما أنا عليه الآن. بكت الفتيات لرؤية جمال قصتي وصدقها، فهبت عاصفة على هانغجو.

كفكفت الفتيات الأخريات دموعهن. فقلتُ: "عن طريق الموت فقط تثبت لينيانغ عاطفتها التي لا تموت. ولكن سترون، فيوماً ما سنتزوج أنا ورين".

سألت الممثلة قائلة: "كيف سيحدث هذا؟".

فسألتُ إجابة عن سؤالهن مستشهدة بكلام لينيانغ: "أيمكن لأحد أن ينتزع القمر من على سطح الماء أو يقطف الأزهار من الفراغ؟ لم يعرف العالِمُ أنه سيعيد لينيانغ إلى الحياة، ولكنه أعادها، وسوف يكتشف رين ذلك أيضاً".

كانت الفتيات محبات ولطيفات، ولكنهن لم يصدقنني.

قالت يو نيانغ: "ربما تكونين قد قابلته وتحدثت إليه، ولكن لوعة حبك لا تختلف عن لوعة حبنا".

قالت ابنة تاجر الملح محاولة مساعدتي: "كل ما يسعك أن تتمنيه هو أن ينشر أهلك قصائدك. فبهذه الطريقة، ستظل ذكراك حية في أذهان الناس، وهذا ما حدث لي".

"ولي أيضاً".

أجابت الفتيات الأخريات بصوت واحد أن عائلاتهن قد نشرت أيضاً

قصائدمن.

أفضت ابنة التاجر قائلة: "إن معظم عائلاتنا لا تقدم لنا القرابين، ولكننا نتلقى بعض القوت لأن قصائدنا مطبوعة. ولا نعرف لماذا يحدث هذا، ولكنه يحدث".

أزعجني سماع هذه الأخبار. إذ إنني كنت قد خبأت قصائدي في مكتبة والدي وكانت قد أخفت والدة ربين المجلد الأول في أحد ادراجها. فهزت الفتيات رؤوسهن حزناً عندما أخبرتهن بذلك.

اقترحت يو نيانغ قائلة: "ربما ينبغي أن تتحدثي إلى خياوكينغ عن هذه الأمور. فهي ذات خبرة أوسع من خبرتنا. وربما تستطيع أن تساعدك".

فقلت بلهفة: "إنني أود أن أقابلها وأسمع نصيحتها. من فضلكن أحضرنها في المرة القادمة عندما تأتين".

ولكنهن لم يحضرنها، ولم يأت تانغ خيانجو العظيم للزيارة أيضاً رغم أن الفتيات الملتاعات قلن لي إن ذلك المؤلف يقيم في مكان قريب من هنا.

وهكذا، أمضيت معظم الوقت وحدي.

لقد قيلت لي وأنا على قيد الحياة أشياء كثيرة عن حيث أنا الآن، فوجدت معظمها صحيحاً وبعضها الآخر غير صحيح. إذ إن معظم الناس يسمونه العالم السفلي، ولكنني أرفض هذه التسمية لأنه ليس سفلياً فعلاً رغم أن بعض أجزائه كذلك. ويبدا المكان الذي يقع وراء الجغرافية الحقيقية للمكان، أي حيث كنت أنا، عالماً آخر، أي مجرد استمرار للعالم الذي يعيش فيه البشر. إن الموت لا ينهي ارتباطنا بعائلاتنا ولا يغير المواقع التي نحتلها في الحياة أيضاً. فإن كان المرء فلاحاً في العالم الأرضي استمر بعمله في الحقول هنا وإن كان ملاك اراض او عالماً أو أحد أفراد الطبقة المثقفة أمضى بقية أيامه في القراءة وكتابة الشعر وشرب الشاي وإحراق البخور. وتبقى النساء محتفظات بأقدامهن المربوطة، ويواصلن حياتهن كنساء مطيعات يهتممن بعائلاتهن، بينما يظل الرجال المشرفين على العوالم الخارجية، فيواصلون التوجه عبر مكتب تلو الآخر من مكاتب القضاة في هذا العالم المظلم.

واصلت تعلم كل ما كنت أجيده ولا أجيده. فتعلمت أن أطفو وانجرف وانصهر. وبدون مساعدة شاو أو شجرة الصفصاف، تعلمت أن أعتني بقدمي وأربطهما بالأربطة التي أحرقتها عائلتي لأستخدمها هنا.

واكتسبت القدرة على سماع الأصوات من مسافة بعيدة، ولكنني كرهت الضجة المزعجة. وظللت عاجزة عن الانعطاف في الزوايا الحادة أو المشي بشكل متعرج، وعندما نظرت من فوق حاجز الشرفة، استطعت أن أرى الكثير، ولكنني لم أستطع أن أتجاوز محيط مدينة هانغجو.

بعد أن أمضيت بضعة أشهر في شرفة الإطلالة ، أتت امرأة عجوز لزيارتي. وقدمت نفسها لي على أنها جدتي، ولكنها لم تبدُ قط شبيهة بالمرأة ذات الملامح الصارمة التي تظهر في اللوحة المعلقة في قاعة الأسلاف.

ضحكت قائلة: "يا للهول! لماذا يجعلون الأسلاف يبدون على هذه الشاكلة؟ إنني لم أكن أبدو صارمة إلى هذا الحدّ في حياتي".

بدت جدتي حسنة المظهر بشعرها المزين بدبابيس الذهب واللآلئ واليشب وثوبها المصنوع من أرق أنواع الحرير. وكانت قدماها الصغيرتان حتى أصغر من قدمي، وبدا وجهها محفوراً بأخاديد دقيقة، ولكن بشرتها ظلت وضاءة ومشرقة. وكانت يداها مغطاتين بكمين طويلين حسب الطراز القديم. وبدا مظهرها بالمجمل رقيقاً وراقياً، ولكن عندما جلست بجانبي وضغطت بجسمها على فخذي شعرت بقوة مدهشة.

على مدى الأسابيع القليلة التالية، زارتني كثيراً ولكنها لم تحضر جدي قط وتجنبت الإجابة عن أسئلتي المتعلقة به.

فكانت تقول: "إنه مشغول في مكان ما. أو إنه يساعد والدك بمفاوضاته في العاصمة. إن الناس في البلاط مراوغون ووالدك تنقصه الخبرة". أو: "إنه على الأرجح يزور إحدى محظياته... في أحلامها. فهو يحب أن يقوم بذلك أحياناً لأن المحظيات يبقين في أحلامهن شابات وجميلات ولسن عجائز كما أصبحن الآن".

أحببت الإصغاء لتعليقاتها الساخرة عن المحظيات لأنني لطالما سمعت في حياتي أنها تعاملت معهن بطيبة وكرم فأصبحت مثالاً يحتذى للزوجة الرئيسة، ولكنها هنا كانت تحب الإغاظة والمزاح.

صاحت علي في أحد الأيام بعد لقائنا الأول ببضعة أشهر: "توقفي عن النظر إلى ذلك الرجل هناك!".

"كيف عرفت إلى من أنظر؟".

نكزتني بمرفقها، وقالت: "إنني من الأسلاف! وأرى كل شيء! تذكري هذا، يا طفلتي".

فاعترضت بضعف قائلة: "ولكنه زوجي".

أجابتني بحجة قائلة: "إنكما لم تتزوجا قط. ويجب أن تكوني مسرورة

لذلك؟".

"أكون مسرورة؟ من المقدر لي ولرين أن نبقى معاً".

ابتسمت جدتي وقالت: "هذه الفكرة سخيفة. ليس من المقدر لكما أن تبقيا معاً. لقد تم تدبير زواجك بكل بساطة على يد والدك ككل فتاة أخرى. وليس هناك شيء مميز في هذا. وفي حال أنك نسيت، يجب أن تتذكري أنك هنا".

قلت لها: "إنني لست قلقة. فسوف يرتب لي والدي زواجاً".

"ينبغي أن تفكري جيداً بما ترينه في الأسفل هناك".

"إنك تختبرينني. وأنا أدرك...".

"كلا. إن والدك يخطط لأمور أخرى".

"لا أستطيع أن أرى والدي وهو في العاصمة. ولكن ما الذي يهم على أي حال؟ حتى لو لم يدبر زواجاً، فسوف أنتظر رين. ولهذا السبب أنا عالقة هنا. ألا تظنين ذلك؟".

فتجاهلت سؤالي.

تجعد وجهها وكأنها فتحت لتوها مرطباناً من الجبن الفاسد، وسألت: "أتظنين أن الرجل سينتظرك؟" لقد كانت جدتي من الأسلاف الذين نعتز بهم. ولهذا فلم أستطع أن أخالفها الرأي. فقالت وهي تربت على وجهي من خلال كمها الطويل: "لا تقلقي بشأنه كثيراً. إنك حفيدة صالحة. وأنا ممتنة للفاكهة التي قدمتها لي طوال تلك السنوات".

"إذاً لماذا لم تساعديني؟".

"لم يكن لدي شيء ضدك".

كان تعليقاً غريباً، ولكنها غالباً ما تفوهت بأمور لا أفهمها.

أمرتني جدتي قائلة: "الآن انتبهي. يجب عليك أن تفكري في سبب بقائك هنا".

طوال كل هذا الوقت، حلت تواريخ مهمة وانقضت. فنسي والداي أن يقدما لي قرابين العام الجديد الذي حل بعد بضعة أيام على وفاتي. وفي اليوم الثالث عشر من الشهر الأول من العام الجديد، كان يفترض بهما أن يشعلا مصباحاً فوق قبري. وفي مهرجان الربيع ، كان يفترض بهما أن ينظفا قبري ويشعلا المفرقعات ويحرقا المال لاستخدامه هنا. وفي اليوم الأول من الشهر العاشر، أي بداية الشتاء، كان ينبغي أن يحرقا السترات المبطنة والقبعات الصوفية والأحذية ذات الفراء، وكلها مصنوعة من الورق، لتبقيني

دافئة. وخلال العام، كان يفترض بعائلتي أن تقدم لي قرابين من الأرز المطهو واللحم والنقود في اليوم الأول والخامس عشر من كل شهر قمري. وكل هذه القرابين تقدم للوحي المنقط لأتلقاها في العالم الآخر. ولكن عندما لم تخرجه شاو من المكان الذي خبأته فيه ولم يسأل أحد عنه، استنتجت أن والديّ ما زالا حزينين جداً لغيابي بحيث إنهما نسيا أن ينظرا إلى لوح الأسلاف.

خلال مهرجان الشهر المر الذي يحل خلال أكثر أيام الشتاء برودة وظلاماً، اكتشفت شيئاً شتت تفكيري. إذ قبل ذكرى وفاتي الأولى، عاد والدي إلى البيت وأعدت أمي عصيدة خاصة بيوم الشهر المر تحوي عدة أنواع من الحبوب والمكسرات والفاكهة ومنكهة بعدة أنواع من السكر. فاجتمعت عائلتي في قاعة الأسلاف وقدمت العصيدة لجدتي وللأسلاف الآخرين في العائلة. ومرة أخرى، لم يخرج أحد لوحي من مكانه في غرفة التخزين ولم أتلق أي قرابين. ولكنني أيقنت أنهم لم ينسوا أمري، إذ إن أمي ظلت كل ليلة تبكي علي بدموع مرة. فأدركت أن هذا الإهمال عنى شيئاً أسوأ بكثير.

رأت جدتي، بعد أن تناولت العصيدة مع جدي في مكان ما، ما حدث وأتت إلي. فتحدثت بصراحة تامة، ولكنني لم أرد أن أسمع ما أرادت قوله أو أتقبله.

وشرحت قائلة: "إن والديك لن يبجلاك قط. إذ ليس من الطبيعي لوالد أن يبجل طفله، ولو أنك ابن، لضرب والدك تابوتك عقاباً على عقوقك وموتك قبله. ولكنه في نهاية المطاف سيلين ويحرص على أن يزودك بالقرابين. ولكنك فتاة غير متزوجة، ولهذا فلن تقدم لك عائلتك القرابين قط".

"ألأن النقطة لم توضع على لوحي؟".

ابتسمت جدتي وقالت: "كلا، بل لأنك توفيت قبل أن تتزوجي. لقد رباك والداك لتذهبي إلى عائلة زوجك. فأنت تنتمين إليهم ولا تعتبرين من أفراد عائلة تشين. وحتى لو وضعت النقطة على لوحك، فسوف يتم الاحتفاظ به بعيداً عن الأنظار خلف أحد الأبواب أو داخل أحد الأدراج أو في معبد خاص، وهذا ما حدث للفتيات اللواتي أتين لزيارتك".

لم أسمع شيئاً عن هذا من قبل. وللحظة واحدة، صدقت جدتي في ما قالته، ولكنني صرفت أفكارها السيئة عن ذهني.

وقلت: "إنك مخطئة".

"ألأن أحداً لم يخبرك قبل أن تموتي أن هذا سيحدث؟ إذا وضع

لوحك في مذبح العائلة لخاطرا بتعريض نفسيهما للعقوبة من الأسلاف الآخرين". ورفعت يدها ثم قالت: "ليس مني أنا، ولكن هناك آخرين متمسكون بالطرائق التقليدية. فلا أحدٌ يريد أن يرى هذا الشيء القبيح على طاولة مقتنيات العائلة".

فأصررت قائلة: "إن والدي يحبانني. والأم التي لا تحب ابنتها لا تحرق كتبها لتحاول أن تبقيها على قيد الحياة".

وافقتني جدتي قائلة: "هذا صحيح. إنها لم تود أن تفعل هذا، ولكن الطبيب أمرها بذلك آملاً أن يشعل هذا غضبك لدرجة تهزك وتبعدك عن المسار الذي كنت تتجهين فيه".

"ما كان والدي ليخرج الأوبرا في يوم ذكرى ميلادي لو أنه لا يحبني كلؤلؤة ثمينة".

ولكن بينما خرجت الكلمات من فمي شعرت أنها غير صحيحة.

قالت جدتي: "لم يخرج الأوبرا من أجلك، بل من أجل المفوض تان. لقد كان والدك يحاول كسب تأييده من أجل تعيينه في منصبه الجديد".

"ولكن المفوض تان يستنكر عرض الأوبرا!".

"إذاً فهو منافق، وغالباً ما يكون أصحاب النفوذ هكذا".

هل كانت تلمح إلى أن والدي منافق أيضاً؟

تابعت جدتي قائلة: "إن الولاء السياسي امتداد طبيعي للولاء الشخصي. ويؤسفني القول إن والدك يفتقر إلى الاثنين".

لم تقل شيئاً أكثر، ولكن التعبير الذي اعتلى وجهها جعلني أعيد النظر وأدرك أخيراً ما تجاهلته في حياتي وأفهمه.

اكتشفت أن والدي ليس موالياً لسلالة مينغ أو الرجل النزيه الذي لطالما تصورته. وكان هذا من وجهة نظري أمراً ثانوياً. إذ إنه لم يدر بخلدي قط وأنا حية أن والدي قد ندم على إنجابي لأنني فتاة. وعلى الرغم من ذلك، فقد اعتقدت في صميمي حقاً أنه أحبني ورعاني واعتز بي، ولكن حقيقة لوحي وكل ما تنطوي عليه، أي أنني مجرد فتاة غير متزوجة ربتني عائلتي من أجل عائلة أخرى، أثبتت عكس ذلك. فبدون أحد يرعاني من خلال لوحي في العالم الأرضي، أصبح من المقدر لي أن أعاني من مشكلة رهيبة. فلم أعد الآن أكثر من مخلوقة مهملة كقماش حريري ممزق. وقدم لي التجاهل الذي تعرضت له واليتم الذي شعرت به تفسيراً واحداً لسبب بقائي على شرفة الإطلالة .

صحت قائلة: "ما الذي سيحدث لي؟" وبعد مرور عام واحد على

موتي، بدأ ردائي من الآن يبهت وأصبحت أكثر نحولاً من ذي قبل.

"لقد كان في وسع والديك أن يرسلا لوحك إلى معبد العذارى. ولكن هذه فكرة بغيضة لأن هذه الأماكن ليست مخصصة لألواح الفتيات غير المتزوجات فقط بل لألواح المحظيات وبائعات الهوى على حد سواء". طفت جدتي على طول الشرفة وجلست إلى جانبي". ثم قالت: "ولكن الزواج قد يزيل ذلك الشيء القبيح من قصر عائلة تشين".

قلت بتفاؤل: "لا يزال بوسعي أن أتزوج رين. وإن استخدم لوحي في المراسم سيلاحظ الجميع النقطة المفقودة. وستوضع النقطة على لوحي وعندئذ يوضع لوحي ليتم تبجيله على طاولة مقتنيات أسلاف عائلة وو".

"ولكن والدك لم يدبر ذلك. فكري، يا زهرة الفاوانيا، فكري. لقد قلت لك أن تمعني النظر فعلاً. ماذا رأيت؟ ما الذي ترينه الآن؟".

إن الوقت غريب هنا: فهو أحياناً سريع وأحياناً بطيء، وبعد مرور بضعة أيام، ما زال هناك موكب من الشبان يزور والدي.

"إن أبي يلتقي الناس في مواعيد، فهو رجل مهم".

"ألا تصغين يا صغيرتي؟".

إن التجارة تنتمي إلى العالم الخارجي، ولهذا فقد تعمدت طوال تلك الأشهر ألا أصغي إلى محادثات والدي، ولكنني أصغيت إليها الآن. فلاحظت أنه يجري مقابلة مع هؤلاء الشبان. فشعرت على الفور بالرعب من أن يرتب زواجاً بيني وبين شخص آخر غير رين.

استفسر والدي من شاب تلو الآخر قائلاً: "هل ستكون مخلصاً وباراً؟ هل ستكنس قبورنا في مناسبة السنة الجديدة وتقدم القرابين في قاعة أسلافنا كل يوم؟ إنني بحاجة إلى الأحفاد. هل ستمنحني حفيداً أحفاداً ليعتنوا بنا بعد رحيلك؟".

بعد أن سمعت هذه الأسئلة، أصبحت نية والدي واضحة تماماً بالنسبة إليّ وأدركت أنه ينوي أن يتبنى أحد أولئك الشبان. لقد عجز والدي عن إنجاب الأبناء، وهذا محرج لأي رجل وكارثة في ما يتعلق بتقدير الأسلاف. وكان تبني الأولاد من أجل أهداف الطاعة الأبوية شائعاً تماماً. وكان والدي قادراً تماماً على تحمل نفقاته، ولكن شخصاً آخر حل محلي في قلبه الآن!

قالت جدتي: "لقد قدم لك والدك الكثير. فقد لاحظت اهتمامه بك عندما علمك أن تقرأي وتكتبي وتطرحي الأسئلة. ولكنك لست ابناً. وهو بحاجة إلى ابن".

لقد أظهر لي والدي الكثير من الإخلاص والحب والعطف على مدى السنوات، ولكنني أدركت الآن أن كوني ابنة انتقص من مكانتي في عواطفه. فبكيت واحتضنتني جدتي.

شعرت أنني عاجزة عن تقبل ما أراه أمامي. فنظرت إلى بيت رين على أمل أن تكون عائلته قد قدمت لي العصيدة، ولكنهم بالطبع لم يفعلوا ذلك. وقف رين تحت مظلة في المطر المنهمر ليعيد طلاء بوابة بيت عائلته بلون أحمر زاهٍ كرمز للبعث وللسنة الجديدة. وفي تلك الأثناء، وقع والدي عقد تبنٍّ مع شاب ذي عينين صغيرتين. ثم ربت والدي على كتف الشاب قائلاً: "كان ينبغي لي أن أفعل هذا قبل سنوات عديدة، يا بني".

الفصل العاشر

الجائحة

•

يُقال إن النهاية هي خطوة نحو بداية جديدة. ولكن من الواضح أن هذا ليس صحيحاً بالنسبة إليّ. فقد انقضت سبع سنوات كلمح البصر ومرت دون أن أدري وأشعر، ولكن المناسبات والاحتفالات، وخاصة السنة الجديدة، كانت أصعب اللحظات التي مرت عليّ. وقد كنت نحيلة عندما توفيت، فجعلتني قلة القرابين أصبح أضعف وأكثر شفافية بمرور كل عام إلى أن إلى تحولت إلى مجرد طيف عديم الوزن. وبهت لون الثوب الوحيد الذي ارتديته أكثر من ذي قبل. فتحولت إلى مخلوقة مثيرة للشفقة أحوم دائماً حول الحاجز وأنا عاجزة عن مغادرة شرفة الإطلالة .

أتت العذراوات الملتاعات لزيارتي في العام الجديد بعد أن عرفن مدى حزني، فاستمتعت بصحبتهن لأنها ظلت، على عكس الوضع في قصر عائلة تشين، خالية من الغيرة السخيفة. وبعد مرور كل هذا الوقت، أحضرن خياوكينغ معهن. فوجدتها فاتنة بجبهتها العالية وحاجبيها الرقيقين وشعرها المزين بالدبابيس وشفتيها الناعمتين الندبتين وقدميها الصغيرتين عندما مشت برقة على الشرفة. فأدركت سبب إضفائها البهجة على قلوب العديد من الرجال.

قالت خياوكينغ بصوت رنان كالنسيم: "لقد عنونت قصائدي التي خلفتها ورائي: مخطوطات أنقذت من الإحراق . ولكن ما الاستثنائي في هذا؟ إن الرجال الذين يكتبون عنا يسموننا ملتاعات ويقولون إننا الجنس المريض لأننا نعاني دائماً من فقدان الدم واستنزاف طاقتنا. فيستنتجون أن أقدارنا يجب أن تتماشى مع كتابتنا. ولا يدركون أن الحريق لا يأتي حادثة دائماً، إذ غالباً ما ترتاب النساء، وأعدُّ نفسي واحدة منهن، بقيمة كلماتهن وموهبتهن، فيقررن أن يحرقن أعمالهن. ولهذا السبب تحمل الكثير من المجموعات الشعرية العنوان نفسه بالضبط".

تأملتني خياوكينغ منتظرة مني أن أقول شيئاً. ونظرت إليّ الفتيات الأخريات بترقب وحثثنني بعيونهن اللطيفة لأقدم رداً ذكياً.

فقلت: "إن كتابتنا لا ترحل دائماً كحلم ربيعي، فبعضها يبقى في العالم الأرضي حيث يبكي الناس عليها".

وأضافت ابنة تاجر الملح: "وقد نبقى لعشرة آلاف عام".

فنظرت خياوكينغ إلينا بعذوبة وكررت قائلة: "عشرة آلاف عام!" ثم ارتجفت وارتعش الهواء من حولها استجابة لها، وأضافت قائلة: "لا تكوني واثقة جداً. لقد بدأوا ينسون أمرنا منذ الآن. وعندما يحدث هذا..." وأمسكت عن الكلام وثوبها يرفرف من حولها ثم أومأت لنا وطفت مبتعدة.

غادرت الفتيات المتاعات عندما وصلت جدتي. ولكن أي عزاء تستطيع تلك المرأة أن تقدمه لي؟ فهي تود أن تقول: "ليس هناك شيء اسمه الحب، بل فقط الالتزام والمسؤولية". وكانت كلماتها عن زوجها كلها توحي بالواجب وليس الحب أو حتى الحنان.

أصغيت إلى جدتي، وأنا يائسة ومغمومة، وهي تتحدث عن موضوعات غير محددة، وراقبت سير التحضيرات لاحتفال العام الجديد في بيت عائلة رين. فسدد رين ديون عائلته وكنست أمه الأرض ونظفت البيت وأعد الخدم أطباقاً خاصة بالمناسبة وأحرقت صورة سيد المطبخ المعلقة فوق الموقد وأرسلت إلى هنا لتتحدث عن أعمال العائلة الجيدة والسيئة. ولم يفكر أحد في.

التفت إلى بيت عائلتي رغماً عني. فوجدت أن والدي قد عاد من منصبه في العاصمة ليؤدي واجبه نحو الأسلاف. وكان باو، أخي بالتبني، قد تزوج، ولكن زوجته لم تنجح سوى في إنجاب ثلاثة أبناء ميتين. فخابت آمال العائلة. وقد اعتاد باو على تمضية وقته مع النساء الرخيصات على طول شواطئ البحيرة الغربية. فلم يبدُ والدي قلقاً من هذا وهو ذاهب مع أمي إلى مقبرة العائلة في ليلة العام الجديد لزيارة الأسلاف إلى البيت لتمضية العطلة.

ارتدى والدي أفخم أرديته وبالغ في الأناقة. وبدا الشعار المطرز على صدره موحياً لكل من يراه برتبته وأهميته. ورأيته يتصرف بثقة أكبر بكثير مما كان عليه وأنا ابنة في البيت.

بدت أمي أقل ثقة منه بكثير. فقد جعلها الحداد تبدو مسنة وأصبح شعرها الآن مليئاً بالشعر الأبيض وبدت كتفاها نحيلتين وضعيفتين.

قالت جدتي: "ما زالت أمك تهتم بأمرك. ولهذا فسوف تكسر التقاليد هذا العام. إنها امرأة شجاعة جداً".

لم أستطع أن أتخيل أمي تفعل أي شيء مخالف للفضائل الأربع والطاعات الثلاث.

تابعت جدتي قائلة: "لقد تركتها عديمة الأولاد. وكلما رأت كتاب شعر أو شمت عطر أزهار القاوانيا امتلأ قلبها بالحزن. فهذه الأشياء تذكرها بك وترهق قلبها بعبء ثقيل".

لم أرغب في سماع هذا الكلام. فأي فائدة يعود بها علي؟ ولكن جدتي لم تكن غالباً تأبه لمشاعري.

تابعت جدتي قائلة: "أتمنى لو أنك عرفت أمك عندما تزوجت ودخلت عائلتنا. لقد كانت في السابعة عشرة من عمرها فقط. فسرعان ما برهنت على ثقافتها الواسعة ومهاراتها النسائية الخالية من العيوب. إن من واجب الحماة ولزاماً عليها ومكافأةً لها أن تتذمر من كنتها. ولكن أمك لم تمنحني تلك الفرصة. فلم آبه لذلك. إذ إن بيتي كان مليئاً بالأبناء. فسررت لصحبتها ولم أعد أعتبرها كنة وإنما صديقة. ولا يسعك أن تتخيلي الأماكن التي ذهبنا إليها والأمور التي فعلناها".

ذكرتها قائلة: "إن أمي لا تخرج من البيت".

فعارضتني وقالت: "بل فعلت ذلك في تلك الأيام. وفي السنوات التي سبقت سقوط إمبراطور سلالة مينغ. بدأت وأمك نتساءل عن الطبيعة الحقيقية لعمل النساء. ترى هل تميزت بفنونها النسائية التقليدية التي برعت بها أم بحبها للمغامرة أم بفضولها أم بعقلها الجميل؟ لقد كانت أمك، وليس أباك، أول من أبدى اهتماماً للشاعرات. هل علمت هذا؟".

فهززت رأسي.

"لقد شعرت أن من واجب النساء أن يجمعن أعمال النساء الأخريات من أمثالنا ويحررنها وينشرنها وينتقدنها. فسافرنا إلى أماكن عديدة بحثاً عن الكتب والتجارب".

بدا كلامها لي بعيد الاحتمال. فقلت لها محاولة أن أجعلها تتوقف عن المبالغة: "كيف ذهبتما؟ هل مشيتما على الأقدام؟".

أجابت وهي تبتسم لتذكر تلك الأحداث: "نعم. لقد تدربنا على المشي في غرفنا وفي ممرات القصر وجعلنا زنابقنا الذهبية تصبح أقوى لئلا نسبّب الأذى لأنفسنا. ولكن السعادة التي شعرنا بها لما رأيناه وفعلناه خففت عنا كل آلامنا. فقد وجدنا رجالاً يشعرون بفخر عارم حيال النساء اللواتي يعشن في عائلاتهم وينشرون أعمالهن ليخلدوا ذكرى بركة عائلاتهم ويبرزوا ثقافتها ويكرموا زوجاتهم وأمهاتهم. لقد خبأت أمك كل قراءاتها في قلبها كما فعلت أنت. ولكنها ظلت متواضعة في كتاباتها. فرفضت أن تستخدم الحبر والأوراق مفضلة أن تمزج المسحوق بالماء وتكتب على أوراق الأشجار لأنها

لم تود أن تترك أي أثر لنفسها".

حل يوم السنة الجديدة في العالم الأرضي. وفي قاعة أسلافنا، وضع والداي صواني من اللحم والفاكهة والخضار. وبعد المراسم، أخذت أمي ثلاث كرات صغيرة من الأرز وذهبت إلى غرفتي القديمة ووضعتها على عتبة النافذة. وللمرة الأولى منذ سبع سنوات، تناولت طعاماً. وكانت مجرد ثلاث كرات من الأرز، ولكنها أمدتني بالقوة.

نظرت إليّ جدتي وأومأت إيماءة ذكية وقالت: "لقد قلت لك إنها لا تزال تحبك".

"ولكن لماذا الآن؟".

تجاهلت جدتي سؤالي وتابعت موضوعها الأول بحماسة جديدة قائلة: "لقد ذهبت ووالدتك إلى حفلات الشعر التي أقيمت تحت ضوء البدر. وسافرنا لنرى الياسمين وبراعم الخوخ الناضجة. وذهبنا إلى الجبال وإلى المعابد البوذية. واستأجرنا قوارب وتجولنا في البحيرة الغربية وعلى طول القناة الكبرى. وقابلنا فنانات يعلن عائلاتهن من بيع لوحاتهن. وتناولنا طعام العشاء مع راميات سهام محترفات واحتفلنا مع نساء من الطبقة الراقية. وعزفنا على الآلات الموسيقية وشربنا حتى وقت متأخر من الليل وكتبنا الشعر. يا للمتعة التي عشناها والسعادة التي شعرنا بها!".

عندما هززت رأسي غير مصدقة، لاحظت جدتي ذلك، فقالت: "إنك لست أول فتاة لا تعرف طبيعة أمها الحقيقية". وبدت سعيدة لأنها فاجأتني، ولكن سعادتها دامت لفترة وجيزة، ثم قالت: "كنا، كالعديد من النساء في تلك الأيام، نستمتع بالعالم الخارجي، ولكننا لم نعرف عنه شيئاً. فأعملنا ريشة الكتابة وأقمنا الحفلات وضحكنا وغنينا، ولم نأبه لقوات المانشو التي بدأت تجتاح جنوب البلاد".

فقاطعتها قائلة: "ولكن والدي وجدي كانا على علم بما سيأتي".

نظرت إلى جدتي وقالت: "انظري إلى والدك الآن. ماذا تظنين؟".

ترددت لأنني أصبحت أعتبر والدي رجلاً تخلى عن إخلاصه لإمبراطور سلالة مينغ وحتى لابنته الوحيدة. وجرحتني قلة مشاعره العميقة نحوي في الصميم، ولكن مشاعري لم تمنعني من ملاحظة أعماله. كلا، لم تفعل ذلك على الإطلاق. فما زال هناك مكان في قلبي يريد أن يراه. لقد كانت رؤية والدي أشبه بفتح جرح قديم، ولكنني التفت لأنظر إليه الآن.

في السنوات المنصرمة، ازدادت حدة قدراتي البصرية فأصبحت قادرة على رؤية ما وراء حدود هانغجو. ووجدت أن واجبات العام الجديد

أجبرت والدي على المغامرة بالخروج إلى الريف ليزور أراضيه. ولم أكن قد قرأت مشهد الزرعة والحصاد في حديقة الفاوانيا وحسب، ولكنني رأيته أيضاً يمثل على المسرح في حديقة عائلتنا. فشكّل ما رأيته الآن انعكاساً لما حدث على المسرح. فقد أحضر له المزارعون والصيادون وعمال الحرير أطباقاً محضرة على يد أفضل الطهاة في كل قرية. ورقص اللاعبون البهلوانيون وعزف الموسيقيون. ورقصت الفتيات الفلاحات ذوات الأقدام الكبيرة وغنين. فأثنى والدي على عماله وأمرهم أن يقدموا نتاجاً وافراً من المحاصيل والسمك والحرير في السنة القادمة.

رغم الصدمة التي أصابتني لمعرفة حقيقة والدي، فما زلت آمل أن أكتشف أنني مخطئة وأنه رجل عطوف محب للخير. وكنت قد سمعت عن أراضينا وعن أولئك العمال لسنوات، ولكن ما رأيته الآن بيّن لي حقيقة الفقر المدقع الذي يعيشون فيه. فقد بدا الرجال هزيلين وعضلاتهم بارزة من الأعمال الشاقة التي يزاولونها. وأمضت النساء أعمارهن بطولها وهن يعملن بنقل المياه وإنجاب الأطفال وإدارة البيت وغزل الحرير وخياطة الثياب والأحذية وطبخ الوجبات. وبدا الأطفال أصغر من أعمارهم وهم يرتدون ملابس مستعملة ارتداها إخوتهم وأخواتهم من قبلهم. وكان عدد من الأطفال يحملون أيضاً؛ فالصبية يخرجون للعمل في الحقول، بينما تعمل أخواتهم على نسج شرانق الحرير في ماء يغلي تحت أصابعهن المجردة. وهكذا، فقد اقتصر الهدف الوحيد لحياة هؤلاء الناس على تقديم المال لوالدي ولأولئك الذين يعيشون في قصر عائلة تشين.

توقف والدي عند بيت رئيس قرية غودانغ. وكان الزوج ينتمي لقبيلة كيان كجميع سكان القرية أما زوجته فقد بدت مختلفة عن باقي النساء. إذ لاحظت أن قدميها مربوطتان وأنها تتصرف كإحدى أفراد الطبقة الراقية، وأظهر حديثها رقياً وتهذيباً. ولم تنحنِ أمام والدي. كانت مدام كيان تحمل طفلة بين ذراعيها.

فلمس والدي إحدى ضفائر الطفلة الصغيرة وقال: "هذا طفل جميل جداً".

فقال الزوج: "إن الطفلة بي فتاة، أي مجرد فرع آخر عديم الفائدة في شجرة العائلة".

قال والدي بتعاطف: "لديك أربع بنات، والآن هذه الخامسة. يا لسوء حظك!".

لطالما كرهت أن أسمع هذه الكلمات وهي تقال بهذه الفظاظة.

ولكن هل هي أسوأ مما اختبرته بنفسي؟ لقد اعتاد والدي أن يتحدث إلي بوجه باسم، ولكنني كنت على ما يبدو فرعاً عديم الفائدة في شجرة عائلتنا.

نظرت إلى جدتي وأنا أشعر أنني مسلوبة ومقهورة.

وقلت: "كلا، لا أظن أنه سيلقي بالاً لأي شيء يتخطى حدود مشاريعه التجارية".

أومأت برأسها بحزن وقالت: "هكذا كان حال جدك أيضاً".

رغم أن جدتي ظلت تزورني لسنوات، فقد حرصت ألا أطرح عليها أسئلة معينة، إذ إنني خشيت مزاجها المتقلب الذي يصعب توقعه. ومن ناحية أخرى فلم أود أن أبدو فتاة عاقة، ومن ناحية ثانية فلم أرغب فعلاً بمعرفة الأجوبة. ولكنني تشبثت بعماي وجهلي لوقت طويل. فأخذت نفساً عميقاً وتركت أسئلتي تتدفق رغم خوفي من ألا أتحمل الحقائق التي ستتفوه بها مهما كانت.

سألتها قائلة: "لماذا لا تحضرين جدي ليزورني؟ الأنني فتاة؟" وتذكرت أنه لم يهتم بأمري كثيراً وأنا فتاة صغيرة.

فأجابت بأسلوبها الجاف المعتاد: "إنه في إحدى حفر اللعنات".

فعزوت هذا لحقدها المعتاد وسألتها: "وماذا عن عميّ؟ لماذا لا يأتيان لزيارتي؟".

قالت هذه المرة بصوت لطيف لا يحمل سوى الأسى: "لقد ماتا في مكان بعيد عن البيت. وليس لهما أحد ينظف قبريهما، ولهذا يهيمان على وجهيهما في الأرض كشبحين جائعين".

فاشمأزت نفسي وقلت: "إن الأشباح الجائعة مخلوقات رهيبة ومثيرة للاشمئزاز. كيف يمكن أن نحظى بهما في عائلتنا؟".

"هل طرحت على هذا السؤال أخيراً؟".

بدا نفاد صبرها جلياً عليها، فنأيت بنفسي عنها أكثر. ترى هل كانت لتتصرف على هذا النحو في العالم الأرضي وتعاملني كفتاة عديمة القيمة؟ أم أنها كانت ستدللني بحلوى السمسم وتمنحني كنوزاً صغيرة من هدايا مهرها؟

تابعت قائلة: "إنني أحبك، يا زهرة الفاوانيا، وآمل أنك تدركين هذا. وقد أصغيت إليك في حياتك وحاولت أن أساعدك. ولكن هذه السنوات السبع الأخيرة أثارت في نفسي العجب والدهشة. فهل أنت مجرد فتاة لوعها الحب أم أنك تخفي في داخلك ما هو أكثر من ذلك؟".

عضضت على شفتي واشحت بوجهي عنها. وأدركت أنني كنت على حق عندما حافظت على مسافة بعيدة بيني وبينها. وربما جمعت صداقة متينة بينها وبين أمي، ولكنني تخيلت أنها اعتبرتني فرعاً عديم القيمة من شجرة العائلة.

تابعت قائلة: "يسرني أنك هنا على شرفة الإطلالة . لقد أتيت لسنوات لأنظر من فوق الحاجز بحثاً عن ولدي. وطوال السنوات السبع الماضية، حظيت بك إلى جانبي لتؤنسني وحدتي". ثم أشارت بذراعيها المغطاتين بكمين طويلين إلى الأرض الممتدة من تحتنا، وقالت: "إن ولدي يهيمان كشبحين جائعين منذ سبعة وعشرين عاماً ولم أعثر عليهما حتى الآن".

"ماذا حدث لهما؟".

"لقد ماتا أثناء المجاعة".

فقلت: "لقد أخبرني والدي بذلك".

فضاقت عيناها وهي تضع يديها على جنبيها وقالت: "لم يطلعك على الحقيقة". انتظرتها لتكمل كلامها. فقالت: "إنك لن تودي سماعها".

فلم أقل شيئاً والتزمنا كلتانا الصمت لوقت طويل.

بدأت قائلة: "في اليوم الذي التقيتك فيه للمرة الأولى، قلت لي إنني لا أشبه صورتي. والحقيقة هي أنني لا أشبه على الإطلاق اي شيء قيل لك عني، فأنا لم اتساهل مع محظيات زوجي، بل كنت اكرههن. ولم انتحر".

ورمقتني بنظرة حادة، ولكنني أبقيت ملامحي سلبية وغير متوترة.

"يجب أن تدركي، يا زهرة الفاوانيا، أن سقوط سلالة مينغ كان حدثاً مريعاً ورائعاً في الوقت نفسه. فقد انهار المجتمع واصبحت الحكومة فاسدة وانتشرت النقود في كل مكان. ولم يعد أحد يعير اهتماماً للنساء، وهكذا خرجتُ وأمك وقمنا بأشياء كثيرة. لقابلنا، كما قلت لك، زوجات وأمهات اخريات يدرن ممتلكات عائلاتهن وأعمالها، ومنهن معلمات ومحررات وحتى بعض المحظيات. لقد جمع بيننا عالم على شفير الهاوية، فحثرنا فيه على الرفقة ونسينا أمر تطريزنا وأعمالنا المنزلية وملأنا عقولنا بالكلمات والصور الجميلة. وبهذه الطريقة شاركنا احزاننا وأفراحنا ومآسينا وانتصاراتنا مع النساء الأخريات اللواتي يعشن على بعد مسافات بعيدة. وسمحت لنا قراءتنا وكتابتنا أن نشكل عالماً خاصاً بنا يناقض إلى حدٍّ كبير ما يريده آباؤنا وأزواجنا وأبناؤنا. فانجذب بعض الرجال كجدك وأبيك لهذا التغيير. وهكذا، فعندما تولى جدك منصبه الرسمي في يانغجو، ذهبت معه. فعشنا في بيت

جميل. ليس فخماً كالبيت الذي في هانغجو. ولكنه فسيح ويحوي مساحة كبيرة من الحدائق. وكانت أمك غالباً ما تأتي لزيارتنا. يا للمغامرات التي خضناها معاً!".

"في إحدى تلك الزيارات، أتت والدتك ووالدك معاً. ووصلا في اليوم العشرين من الشهر الرابع. فأمضينا معاً أربعة أيام جميلة ونحن نحتفل ونستمتع ونضحك. ولم يلقِ أحد بالاً، ولا حتى جدك ووالدك، لما يجري في العالم الخارجي. وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر، دخلت قوات المانشو المدينة. وخلال خمسة أيام، قتلوا أكثر من ثمانين ألف شخص".

بينما كانت جدتي تروي قصتها، بدأت أعيشها وكأنني كنت إلى جانبها. فسمعت صليل السيوف والرماح وقعقعة الرمح على الرمح والخوذة على الخوذة وصوت حوافر الخيل على الأرض المفروشة بالحصى وصراخ السكان المرعوبين وهم يلجأون إلى الأمان حيث لا يوجد أي أمان. وشممت رائحة الدخان عندما أضرمت النيران في البيوت والمباني الأخرى. وبدأت أشم رائحة الدماء المسفوكة.

تذكرت جدتي الأحداث قائلة: "لقد ساد الهلع بين الناس. فحاولت بعض العائلات أن تتسلق أسطح بيوتها، ولكن القرميد انهار وسقط الناس أمواتاً. واختبأ آخرون في الآبار فغرقوا. وحاول آخرون أن يستسلموا، ولكن تلك كانت غلطة شنيعة؛ فقد قُطعت رؤوس الرجال واغتصبت النساء حتى الموت. كان ينبغي لجدك، بصفته موظفاً حكومياً، أن يحاول حماية الناس، ولكنه، بدلاً من ذلك، أمر الخدم بإعطائنا أكثر الثياب خشونة. فارتديناها ثم ذهبنا بصحبة المحظيات وأبنائنا ووالدك ووالدتك إلى مبنى صغير لنختبئ فيه. ثم أعطانا جدك نحن النساء فضة وجواهر لنخبئها داخل جيوب مخفية قمنا بخياطتها داخل ملابسنا بينما دس الرجال قطعاً من الذهب في قبعاتهم وأحذيتهم وأحزمتهم. وفي الليلة الأولى، اختبأنا في الظلام ونحن نصغي إلى صوت الناس وهم يقتلون وصراخ الذين لم يحالفهم الحظ بموت سريع فعانوا لساعات ودماؤهم تنزف منهم.

في الليلة الثانية، وبعد أن ذبح المانشو خدمنا في الباحة الرئيسة، ذكّرني زوجي كما ذكّر محظياته بأنه يجب علينا أن نحمي عفتنا بحياتنا وأن نهين أنفسنا نحن النساء لأن نضحي من أجل أزواجنا وأبنائنا. وكانت المحظيات لا يزلن قلقات على مصير أثوابهن ومساحيق تجميلهن ومجوهراتهن وزينتهن. ولكنني وأمك لم نكن بحاجة إلى سماع هذه التوصيات لأننا أدركنا واجبنا جيداً. وكنا مستعدتين للقيام بما هو صواب".

توقفت جدتي للحظة ثم تابعت قائلة: "نهب الجنود المانشو البيت. وعندما عرف زوجي أنهم سيصلون في نهاية المطاف إلى المبنى الخارجي، أمرنا بالصعود إلى السطح، وهي طريقة دفعت بالعديد من العائلات إلى الهلاك. ولكن الجميع أطاع أمره. فأمضينا ليلتنا تحت المطر المنهمر. وعندما بزغ الفجر، رآنا الجنود جاثمين على السطح. وعندما رفضنا أن ننزل، أضرم الجنود النار في المبنى، فأمرنا بالنزول إلى الأرض".

تابعت جدتي قائلة: "كان ينبغي أن يقتلونا حالما لامست أقدامنا الأرض، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، والفضل يعود إلى المحظيات. إذ إنهن قردن شعرهن وحللن ملابسهن لأنهن غير معتادات على الملابس الخشنة. وكن، مثلنا جميعاً، مبللات. فأصبحت ملابسهن ثقيلة بسبب المياه وكشفت شيئاً من أجسامهن. فبدا منظرهن هذا بالإضافة إلى الدموع الجميلة على رموشهن مغرياً بحيث إن الجنود قرروا أن يبقونا على قيد الحياة. وهكذا، تم اقتياد الرجال إلى باحة فارغة. واستخدم الجنود حبالاً ليربطونا نحن النساء حول أعناقنا وكأننا سمك ثم اقتادونا إلى الشارع. فرأينا الأطفال ممددين في الشوارع في كل مكان. وانزلقت زنابقنا الذهبية على الدماء والجثث التي سحقت حتى الموت. ثم مشينا بمحاذاة قناة مليئة بجثث تطفو ومررنا بجبال من الحرير والساتان المسلوب. ووصلنا إلى بيت آخر. وعندما دخلنا، وجدنا مائة امرأة على الأقل، وكلهن مبللات وموحلات وباكيات وعاريات. وشاهدنا الرجال وهم يسحبون النساء من الكومة ويرتكبون بحقهن أفعالاً شائنة في العراء وأمام الجميع دون أي اعتبار لحرمتهن".

أصغيت برعب وشعرت بخزي مريع عندما أمر الجنود أمي وجدتي والمحظيات بخلع ملابسهن وراح المطر يسلخ أجسادهن. فبقيت إلى جانب والدتي التي ترأست المجموعة وتسللت بأمان إلى مركز الحشد وهي طوال الوقت مربوطة بالحبل من عنقها مع جدتي والمحظيات. كان الوحل والطين يملآن كل مكان، فاستخدمتهما أمي لتلطخ وجهها وجسمها ووجوه وأجسام النساء من عائلتنا. وبقين طوال اليوم متمسكات ببعضهن ومحافظات على موقعهن في المركز بينما أخذ الجنود ينتزعون النساء الواقفات في الطرف ويغتصبونهن ثم يقتلونهن.

تابعت جدتي قائلة: "كان الجنود ثملين جداً ومشغولين بما يفعلونه. ولو استطعت قتل نفسي، لفعلت ذلك، لأنني تعلمت أن أضع طهارتي فوق كل اعتبار. وفي أجزاء أخرى من المدينة، شنقت النساء أنفسهن وقطعن

أعناقهن وحبست نساء أخريات أنفسهن في غرفهن وأضرمن فيها النيران. وهكذا، احترقت عائلات كاملة من النساء والأطفال والفتيات الصغيرات والأمهات والجدات حتى الموت. وبعد ذلك، تم تقديرهن، فاختصمت بعض العائلات على ملكية الحق بتكريم هذه المرأة أو تلك لانتحارها الفاضل، وذلك لعلمهم بالتكريم الذي سيمنح لهم على يد المانشو. لقد تعلمنا أننا من خلال الموت فقط نستطيع أن نحفظ فضيلتنا وعفتنا، ولكن أمك كانت مختلفة، فهي لم تستسلم للموت ولم تسمح لنفسها أو لأي منا أن نتعرض للأذى. فجعلتنا نتسلل من خلال النساء الأخريات إلى أن وصلنا إلى الطرف الخلفي، واستطاعت بإرادتها أن تقنعنا بالهرب من خلال الجزء الخلفي من المبنى، فتمكنا بالخروج إلى الشارع مجدداً، ووجدنا الشوارع مضاءة بالمشاعل. فتسللنا معاً كالجرذان من زقاق معتم إلى آخر. وتوقفنا عندما ظننا أننا أصبحنا بأمان وعرينا أنفسنا من الحبل وخلعنا ملابس الموتى وارتديناها، وتمددنا عدة مرات على الأرض متظاهرات أننا جثث. ثم أصرت أمك على العودة للعثور على والدك وجدك قائلة: "إن هذا من واجبنا". وظلت مصرة على موقفها رغم أن شجاعتي بدأت تضعف وأخذت المحظيات يبكين وينتحبن.

أمسكت جدتي عن الكلام من جديد، فشعرت بالامتنان لهذا، إذ إنني شعرت بالدوار لما رأيته وشعرت به وسمعته، وقاومت الدموع التي كادت تنهمر من عينيّ حزناً على أمي، فقد تحلت بشجاعة نادرة وعانت الكثير، ولكنها أخفت كل هذه الأسرار عني.

تابعت جدتي قائلة: "في صباح اليوم الرابع، وصلنا إلى بيتنا وعثرنا بأعجوبة على طريقنا إلى حديقة فرجة الفتيات التي كانت أمك واثقة من أنها غير مزودة بحراسة، فاستخدمناها كما استخدمتها الفتيات والنساء من قبل، أي لنرى دون أن يرانا أحد. وضعت أمك يدها على فمي لتكتم صراخي عندما رأيت ابنيّ السادس والسابع مقطعين إرباً بالسيوف ومجرورين إلى الشارع أمام البيت حيث سحقا كما سحق الجميع إلى أن لم يبق منهما شيء إلا العظام المفتتة. فجفت الدموع في عينيّ من شدة الرعب".

هكذا أصبح عماي شبحين جائعين، فبدون وجود جثتيهما، لم يعد من الممكن دفنهما بشكل ملائم. فظلا هائمين على وجهيهما وغير قادرين على أن يكملا رحلتيهما ويعثرا على الراحة. سالت الدموع على خدي جدتي وسمحت لدموعي أن تنساب أيضاً. وفي العالم الأرضي تحتنا، ضربت عاصفة

مدينة هانغجو.

تذكرت جدتي ما حدث وتحدثت قائلة: "لم تستطع أمك أن تجلس مكتوفة اليدين، وشعرت أنه يجب عليها أن تفعل شيئاً ما، بيديها إن لم يكن بشيء آخر، وذلك هو ما ظننته على الأقل. فطلبت منا أن نفك قطب الجيوب المخفية التي تحوي الفضة والجواهر. ففعلنا ما طلبته منا ثم مدت يديها لتأخذ القطع البراقة، وقالت: "انتظرن هنا. وسأرسل لكن المساعدة". ظللنا مسمرات في أماكننا من الخوف والحزن. وقبل أن تتمكن أي منا من أن تمنعها، نهضت على قدميها وخرجت من حديقة فرجة الفتيات ".

شعرت بالغثيان من شدة الرعب.

تابعت جدتي قائلة: "بعد ساعة واحدة، أتى والدك وجدك إلينا وهما يبدوان مرعوبين بعد أن تعرضا لضرب مبرح. فالقت المحظيات أنفسهن على قدمي جدك وهن ينتحبن ويضربن الأرض بأيديهن. وكان التسبب بالضجيج هو ما يجدن القيام به للفت الانتباه. إنني لم أحب جدك قط. إذ لم يكن زواجنا أكثر من زواج تقليدي مدبر، فعمل هو على تأدية واجبه بينما عملت أنا على تأدية واجبي. واعتاد أن يقوم بعمله ويتركني وشأني لأقوم باهتماماتي الخاصة. ولكنني في تلك اللحظة لم أشعر نحوه سوى بالاحتقار لأنني أدركت استمتاعه، رغم هذه الظروف المريعة، بأولئك الفتيات الجميلات وهن ينزلقن كالأفاعي اللزجة على قدميه".

"وماذا عن أبي؟".

"لم يتفوه بكلمة واحدة، ولكن ارتسمت على وجهه نظرة لا ينبغي لأم أن تراها، وهي نظرة الشعور بالذنب لأنه خلف أمك وراءه. وقال: أسرعن! انهضن! يجب أن نتحرك بسرعة . ففعلنا ما قاله لنا لأننا مجرد نساء وأصبح لدينا الآن رجال يملون علينا ما نفعل".

"أين ذهبت أمي؟ وماذا حدث لها؟".

ولكن جدتي بدأت تعيش الأحداث التي تلت ذلك في مخيلتها، وبينما هي تواصل حديثها، بحثتُ عن أمي، ولكنها ظلت مخفية عني. واستطعت فقط أن أتابع القصة من خلال وجهة نظر جدتي.

"نزلنا متسللين إلى الطابق السفلي. ورغم أن أمك قد اشترت حرية والدك وجدك، فلم يعنِ ذلك أننا أصبحنا بمأمن من الخطر. تقدمنا على طول ممر تملؤه الجثث إلى أن وصلنا إلى الجزء الخلفي من البناء الذي نحتفظ بجمالنا وجيادنا في حظيرته. فزحفنا تحت بطون الحيوانات. ولم نشأ

أن نخاطر بالخروج إلى الشارع من جديد. ثم انتظرنا. وبعد بضع ساعات، سمعنا صوت رجال قادمين. ففزعت المحظيات وانزلقن عائدات تحت بطون الأحصنة والجمال. وقرر بقيتنا الاختباء داخل كومة من القش".

بدا صوت جدتي مفعماً بالمرارة لتذكر تلك الأحداث. وقالت: "قال لي جدك: أعلم أن جل اهتمامك ينصب في سلامتي وسلامة ابنك البكر. إنني ما زلت أرغب أن أعيش لبضع سنوات قادمة. وسوف يعتبر عملاً طيباً منك أن تختاري الموت لتحمي عفتك وتنقذي زوجك وابنك".

تنحنحت جدتي وقالت: "يرغب أن يعيش لبضع سنوات قادمة! ما هذا الهراء! لقد كنت أعرف واجبي وأقوم بما هو صواب، ولكنني كرهت أن يتم تجنيدي على يد ذلك الرجل الأناني. لقد اختبأ في الجزء الخلفي من كومة القش. وذهب والدك إلى جانبه. وبقيت أنا كزوجة وأم شرف التمدد فوقهما. فغطيت نفسي قدر المستطاع. ثم دخل الجنود. ولم يكونوا أغبياء. إذ إنهم قتلوا عدداً كبيراً من الناس طوال أربعة أيام. فاستخدموا رماحهم لطعن الكومة. فطعنوا وواصلوا الطعن إلى أن فارقت الحياة. ولكن بعد أن أنقذت زوجي وابني وحافظت على عفتي وتعلمت أن أحداً لم يعد بحاجة إلي".

حلت جدتي ثوبها. وللمرة الأولى، رفعت كميها الطويلين فوق يديها. فرأيت جسمها مليئاً بندوب رهيبة.

قالت مبتسمة قليلاً: "ثم وجدت نفسي أطير في الفضاء. وعندما أصاب الضجر الجنود، رحلوا. فبقي والدك وجدك مختبئين ليوم وليلة آخرين وجسدي البارد يحميهما، بينما انسحبت المحظيات إلى إحدى الزوايا وحدقن لساعات إلى كومة القش الدامية. وعندئذ، انتهى درس المانشو هكذا ببساطة. فتسلل والدك وجدك خارجين من القش. وغسلت المحظيات جسدي وكفنته. وأدى والدك وجدك كل الطقوس الملائمة لأنضم إلى الأسلاف. وأعادني إلى هانغجو لدفني. وتم تكريمي. هذه هي دعاية المانشو التي سُرّ جدك لتصديقها". ثم راحت تتأمل ما حولها من على شرفة الإطلالة بإعجاب وقالت: "أعتقد أنني قد وجدت لنفسي موطناً أفضل".

فقلت بسخط: "لقد استفادا من تضحيتك وسامحا المانشو لتبجيلك لئلا يتوجب عليهما أن يعترفا بالحقيقة".

نظرت إلي جدتي وكأنني ما زلت لا أفهمها. ولم أكن قد فهمتها فعلاً.

اعترفت قائلة: "لقد فعلا ما هو ملائم. وفعل جدك الشيء الصواب والعقلاني بالنسبة إلى بقية العائلة لأن النساء بلا قيمة. أما أنت فلا تزالين

رافضة أن تتقبلي هذا".

شعرت بخيبة الأمل من والدي مرة أخرى. فهو لم يخبرني أي شيء عن حقيقة ما حدث خلال الجائحة. وحتى عندما أتى إليّ وطلب مني أن أطلب السماح من شقيقه، لم يذكر أن أمه انقذت حياته ولم يطلب غفرانها أو يرسل لها شكره.

أضافت جدتي: "ولكن لا تظني أنني سررت بالنتيجة. لقد جلب الدعم الإمبراطوري لفضائلي الأنثوية العديد من المكافآت لذريتي. فأصبحت العائلة أكثر ثراء من ذي قبل وأصبح منصب والدك قوياً جداً. ولكن عائلتنا لا تزال تفتقر إلى شيء نريده من كل قلبها، ولا يعني هذا أنه يجب عليّ أن أمنحهم إياه".

سألتها قائلة: "تقصدين الأبناء؟" ورغم أنني غضبت لما حدث لجدتي، فقد تساءلت في نفسي إن كانت فعلاً قد حرمت عائلتي من أعظم كنز في الوجود.

أفضت إليّ وقالت: "إنني لا أعتبر هذا انتقاماً أو عقاباً. ولكنّ كلّ من تمتعوا بالقيمة والشرف في عائلتنا كن نساء. ورغم ذلك، فقد تمت تنحية بناتنا جانباً لوقت طويل. فظننت أن هذا الوضع سيختلف بالنسبة إليك".

أصبت بالرعب. فكيف استطاعت جدتي أن تتصف بالقسوة وحب الانتقام إلى حد يدفعها لحرمان عائلتنا من الأبناء؟ فنسيتُ السلوك الحسن وسألتها قائلة: "أين جدي؟ لمَ لم يمنح العائلة أبناء؟".

"أخبرتك أنه في إحدى حفر اللعنات. ولكن حتى لو كان إلى جانبي الآن تماماً فهو لا يتمتع بأي سلطة في هذا المجال. إذ إن شؤون الحجرات الداخلية خاضعة للنساء. وقد أذعنت النساء الأخريات في عائلتنا، حتى حماتي، لرغباتي لأنني حتى هنا ما زلت مكرمة من أجل تضحيتي".

بدت عينا جدتي لطيفتين ومفعمتين بالسلام. ولكنني شعرت أنني محطمة وممزقة بين مشاعر متناقضة. فقد تجاوز كل هذا حدود فهمي. إذ إنني أدركت لتوي أن لي عمّين يعانيان في العالم الأرضي كشبحين جائعين وجداً يعاني في حفر اللعنات المظلمة المؤلمة وجدة بعيدة كل البعد عن العطف لدرجة تدفعها لإيذاء عائلتنا بحرمانها من الأبناء. ولكن فوق كل ذلك، لم أستطع التوقف عن التفكير في أمي.

فقلت بسرعة: "لا بد أنك قد رأيت أمي عندما بدأت تطوفين الأرض".

"لقد رأيتها آخر مرة في تلك الليلة المريعة ويداها مليئتان بالجواهر والفضة. ولم أرها من جديد إلى أن وصلت إلى هنا على شرفة الإطلالة بعد مرور خمسة أسابيع على وفاتي. وبحلول ذلك الوقت، اكتشفت أن العائلة بأكملها عادت إلى قصر عائلة تشين وأن أمك تغيرت وأصبحت المرأة التي تعرفينها كأمك، أي المرأة التي تلتزم بالتقاليد وتخشى أن تغامر بالخروج من البيت ولا تمت بصلة لعالم الكلمات والكتب وتعجز عن الشعور بالحب أو التعبير عنه. ومنذ ذلك الحين لم تتكلم أمك عن الجائحة قط، ولهذا فقد عجزت عن السفر إلى هناك معها في أفكارها".

عادت أفكاري إلى سبب مجيء جدتي إلى هنا اليوم، وسالت الدموع على خدي وأنا أفكر في موت عميّ الصغيرين. فأخذت جدتي بيدي ونظرت إليّ بعطف كبير.

"يا فتاتي العذبة زهرة الفاوانيا، إن طرحت سؤالك، فسوف أساعدك في العثور على الإجابة".

"من أنا؟".

"أظنك تعرفين".

لم يعثر عماي على السلام لأنهما لم يدفنا بطريقة ملائمة. ولم أستطع أن أتجاوز شرفة الإطلالة لأن النقطة لم توضع على لوح الأسلاف. وحرمنا نحن الثلاثة من طقوس الدفن الملائمة، وأصبح وصولنا حتى إلى حفر اللعنات ممنوعاً. وعندما خرجت الكلمات من فمي، شعرت بآخر غشاوة تسقط عن عيني.

"إنني شبح جائع!".

الفصل الحادي عشر

المحفّة الحمراء

•

لم يعد لدي مكان أذهب إليه. فأصبحت محرومة ووحيدة. ولم يعد لدي تطريز لأعمل به. وأمضيت سنوات لا أملك فيها ريشة وأوراقاً وحبراً لأكتب. وأضناني الجوع. ولكن لم يكن لدي شيء لآكله. ولم أعد انتظر لأملأ الساعات الفارغة الطويلة بالتحديق من فوق الحاجز إلى العالم الأرضي من تحتي. فقد آلمني كثيراً أن أرى أمي لأنني شعرت بالمعاناة التي عاشتها في السر. وآلمني أن أرى والدي بعد أن علمت أنني لم أكن غالية عليه كما اعتقدت. وعندما خطر رين ببالي اعتصر الألم قلبي. لقد أصبحت وحيدة كما لا ينبغي، وحرمت من كل أشكال الحب والتواصل. وأمضيت أسابيع وأنا أبكي وأتنهد وأصرخ وأئن. فهبت رياح موسمية عاتية في ذلك الموسم في بلدتي.

بدأت أشعر بتحسن بطيء ومتردد. فأسندت ذراعي على الحاجز وانحنيت فوق الحافة ونظرت، ولكنني حجبت عيني عن بيت والدي. وبدلاً عن ذلك راقبت العمال في حقول التوت التي يملكها والدي. ونظرت إلى الفتيات وهن يغزلن خيوط الحرير. ثم اختلست النظر إلى عائلة الزعيم في قرية غودانغ. فأعجبت بمدام كيان التي وجدتها راقية وواسعة المعرفة، ولكن ظروف الجائحة أجبرتها على الزواج بمزارع وجعلتها محظوظة للعثور على زوج وبيت. وتسبب إنجابها للبنات الخمس بخيبة أمل تلو أخرى. ولم تستطع حتى أن تعلمهن القراءة لأن مستقبلهن محدود بالعمل في إنتاج الحرير. ولم يتسنّ لها متسع من الوقت لنفسها، ولكنها اعتادت في وقت متأخر من الليل أن تشعل شمعة وتقرأ من كتاب الأغاني ، وهو الشيء الوحيد الباقي من حياتها السابقة. وخالجتها مشاعر ورغبات كثيرة، ولكنها لم تجد وسيلة لتحقيقها.

ولكن الحقيقة هي أنها لم تشكل هي وعائلتها إلا تشويشاً لذهني. وواصلت النظر إليهم إلى أن لم أعد أحتمل بعد الآن. فاستسلمت لرغباتي وسمحت لعينيّ أن تنظرا إلى بيت رين. فأغظت نفسي وتركت صورة تلو الأخرى تداعب عيني، من شجرة الخوخ التي لا تزال ترفض أن تزهر وأزهار الماغنوليا المثقلة بالعاطفة وضوء القمر الذي يترقرق على صفحة بركة

الزنبق، إلى أن بحثت أخيراً عن رين الذي بلغ الخامسة والعشرين من عمره ولم يتزوج بعد.

في صباح أحد الأيام، وبينما أنا أقوم بطقوسي المعتادة، لمحت عيناي والدة رين تمشي إلى البوابة الأمامية ورأيتها تنظر حولها لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها ثم تثبت شيئاً ما على الجدار فوق الباب مباشرة. وعندما انهت عملها، ألقت مدام وو نظرة خاطفة حولها من جديد. وعندما اقتنعت أن أحداً لا يستطيع رؤيتها، جمعت كفيها وانحنت ثلاث مرات باتجاه محيط البيت. وعندما أنهت طقسها، مضت في طريقها عبر الباحة باتجاه غرفتها الداخلية، ثم جالت ببصرها ملتفتة من جانب إلى آخر. فادركت أنها فعلت شيئاً لا تريد أن يراه أحد، ولكن أعمالها البشرية الجديرة بالشفقة لا يمكن أن تخفى عني أنا.

كنت جالسة على بعد مسافة شاسعة، ولكن عيني أصبحتا الآن قويتين جداً. فركزتهما إلى أن أصبح بصري حاداً ودقيقاً كإبرة التطريز واخترقت الهواء نحو ذلك المكان فوق الباب ووجدت طرف ورقة سرخس. فاستندت إلى الوراء بدهشة لأن الجميع يعرفون أنه يفترض بالسرخس أن يعمي البصر. وضغطت بأصابعي على عيني وأنا قلقة من أن يكون بصري قد تضرر، ولكنه لم يتعرض لأي ضرر على الإطلاق. وفي الواقع، لم أشعر بأي شيء. فاستجمعت شجاعتي واختلست النظر إلى السرخس مجدداً، ولم أشعر بأي ألم الآن أيضاً. وهكذا، تبين لي أن ورقة النبات الضعيفة عديمة الفائدة ضدي.

والآن، بدأت أنظر حولي خلسة، فاكتشفت أن مدام وو كانت تحاول أن تحمي بيتها من شبح أو عدة أشباح، ولكنني لم أر أحداً يتجسس على البيت غيري أنا. ترى هل كانت تعلم أنني أراقبهم؟ هل كانت تحاول أن تحمي ابنها مني؟ ولكنني لن أفكر بالتسبب بأي أذى له! وحتى لو استطعت ذلك، فما الذي سيجعلني أرغب أن أؤذيه؟ إنني أحبه. كلا، إن السبب الوحيد الذي يدفعها لمحاولة إبعادي هو وجود شيء لا تريدني أن أراه. وبعد بضعة أسابيع أمضيتها وأنا مكتئبة وعديمة الهدف، بدأت أحترق من الغيرة والفضول.

راقبت بيت عائلة وو لبقية اليوم. فرأيت الناس يذرعون البيت جيئة وذهاباً، ووضع الخدم طاولات وكراسي في الباحة وعلقوا مصابيح حمراء على الأشجار. وفي المطبخ، راحوا يقطعون الزنجبيل والثوم والبازلاء وينظفون البط والدجاج ويقطعون اللحم. وأتى شبان إلى البيت للزيارة، فلعبوا الورق مع

رين وشربوا حتى وقت متأخر من الليل. وأطلقوا نكات عن براعتهم مع النساء وتمادوا بها بحيث إن وجهي احمر من شدة الخجل.

وفي صباح اليوم التالي، علقت مقاطع شعرية مكتوبة على أوراق ذهبية وحمراء على البوابة الأمامية. فلا بد أن احتفالاً من نوع ما كان على وشك أن يقام. وبعد أن مضى وقت طويل لم آبه فيه لمظهري، مشطت شعري وثبته بالدبابيس ولبست تنورتي وبلوزتي وقرصت خدي لأعيد لهما لونهما وكأنني مدعوة إلى الحفل.

كنت قد جلست لتوي لأراقب الأحداث وهي تتكشف أمامي عندما شعرت بشيء يمس ذراعي. فرأيت أن جدتي قد حضرت.

فقلت لها بدهشة: "انظري إلى الأسفل! هناك الكثير من المرح والبهجة!".

"ولهذا السبب أتيت". ثم نظرت إلى البيت وعبست. وبعد وقت طويل، قالت لي: "أخبريني بما رأيته".

فأخبرتها عن الزينة وعن الشرب في وقت متأخر من الليل وعن الطبخ وأنا طوال الوقت أبتسم وأشعر وكأنني ضيفة ولست مجرد مشاهدة. "إنني سعيدة. أتدركين هذا، يا جدتي؟ عندما يكون شاعري سعيداً، أشعر أنني...".

فهزت رأسها وقالت: "آه، يا زهرة الفاوانيا". وتمايل غطاء رأسها بنعومة وكأنه همس الطيور. ثم أمسكت ذقني بيدها وأدارت وجهي بعيداً عن المشهد لتتمكن من النظر إلى عيني. وقالت: "إنك صغيرة جداً ولا تستحقين أن يفطر قلبك".

حاولت أن أنتزع نفسي منها وأنا منزعجة من محاولتها أن تقلب سعادتي إلى شيء مظلم وغير محبب. ولكن أصابعها أمسكت بي بقوة مدهشة.

وحذرتني قائلة: "لا تنظري، يا صغيرتي".

عندما سمعت ذلك التحذير، انتزعت نفسي بقوة. فوقعت عيناي على بيت عائلة وو تماماً عندما وقفت محفة مكسوة بالحرير الأحمر يحملها أربعة أشخاص أمام البوابة الأمامية. ثم فتح خادم باب المحفة. فظهرت قدمان مربوطتان مثاليتان تنتعلان خفاً أحمر من داخل المحفة المظلم وخرج منها شخص ما. وكانت فتاة ترتدي ثوب الزفاف الأحمر من رأسها إلى قدميها. وبدا رأسها منكساً من ثقل غطاء رأسها المرصع باللآلئ والعقيق الأحمر واليشب والجواهر الأخرى. وكان هناك خمار يغطي وجهها.

واستخدمت إحدى الخادمات مرآة لتعكس أشعة الضوء على الفتاة لتطرد الأحقاد التي ربما رافقتها.

حاولت بعصبية أن أجد تفسيراً غير التفسير الذي رأيته بأم عيني وأدركته جدتي قبلي.

فقلت: "لا بد أن شقيق رين سيتزوج اليوم".

فأجابت جدتي بنعومة: "إن ذلك الفتى متزوج أصلاً، وأرسلت لك زوجته النسخة الأصلية لحديقة الفاوانيا".

"إذاً فهو ربما يتخذ محظية..".

"إنه لم يعد يعيش في هذا البيت. فقد انتقل وزوجته إلى مقاطعة شانغي حيث يعمل قاضياً. ولم يعد أحد يعيش هنا سوى مدام وو وابنها الأصغر. انظري لقد وضع أحدهم سرخساً على الباب".

"لقد وضعته مدام وو هناك".

"إنها تحاول أن تحمي شخصاً تحبه كثيراً".

اهتز جسدي وأنا عاجزة عن تقبل ما حاولت جدتي أن تقوله لي.

فقالت: "إنها تحاول أن تحمي ابنها وعروسه منك".

تدفقت الدموع من عيني وسالت على وجنتي وتقاطرت على الحاجز. فتشكل الضباب على الشاطئ الشمالي للبحيرة الغربية، وأخفى موكب العروس. مسحت عيني وحاولت أن أكبت مشاعري. فظهرت الشمس من جديد من خلال الضباب واستطعت أن أرى المحفة بوضوح والفتاة التي أتت لتحل محلي. خطت الفتاة فوق العتبة، وقادتها حماتي عبر باحات البيت. ومن هناك أوصلتها مدام وو إلى حجرة الزفاف. وسرعان ما تركت الفتاة في عزلة لتهدئ من روعها، وكانت مدام ستفعل ما تفعله الكثير من الحموات اللهين كنتها لما ينتظرها لاحقاً، وهو أن تعطيها كتاباً من النصوص السرية يحدد المتطلبات الحميمة للحياة الزوجية مع رجل لا تعرفه على الإطلاق. ولكنّ كل هذا كان ينبغي أن يحدث لي أنا!

أعترف أنني أردت أن أقتل تلك الفتاة وودت أن أمزق خمارها لأرى من تلك التي تجرأت أن تحل محلي. وأردت أن أريها وجهي الشبحي، وأنتزع عينيها من محجريهما. فتذكرت القصة التي روتها لي أمي عن رجل أحضر محظية إلى البيت. فسخرت المحظية من زوجته الأولى من وراء ظهرها وأهانتها بسبب تغير مظهرها على مر السنوات. فتحولت الزوجة في الحال إلى نمر والتهمت قلب المحظية وأحشائها تاركة رأسها وأطرافها ليأتي الزوج ويجدها. هذا ما أردت أن أفعله. ولكنني لم أستطع أن أغادر شرفة

الإطلالة.
قالت جدتي: "عندما نكون على قيد الحياة نصدق أشياء كثيرة ولا نتعلم أنها خطأ إلا حين نأتي إلى هنا".
فلم أستوعب كلماتها لأنني كنت مسمرة في مكاني من الأحداث التي تجري تحت أنظاري، ولم يكن من المعقول لهذا أن يحدث، ولكنه حدث.
قالت جدتي بصوت حاد: "أستطيع أن أساعدك، يا زهرة الفاوانيا".
فصحت قائلة: "ليست هناك أي مساعدة لي ولا أمل بانتظاري".
ضحكت جدتي ضحكة غريبة لدرجة أنها صرفت تفكيري عن ظروفي المأساوية، فالتفت إليها وبدت ملامح وجهها تتراقص من المرح والعبث، ولم أكن قد رأيت ذلك من قبل، ولكنني كنت مفطورة الفؤاد بحيث لا يمكن لتسلية تلك المرأة العجوز أن تجرح شعوري وأنا في ظروفي اليائسة.
تابعت كلامها وهي تبدو غافلة عن العذاب الذي أرزح تحت وطأته: "اصغي إليّ، تعلمين أنني لا أعتقد بالحب".
فقلت لها: "لست بحاجة إلى سماع كلامك القاسي".
"إنني لا أقسو عليك، وبدلاً من ذلك، أقول إنني ربما أكون غير مصيبة، إنك تحبين ذلك الرجل، وأنا أدرك ذلك الآن، ومن المؤكد أنه لا يزال يحبك وإلا لما حاولت أمه أن تحمي تلك الفتاة منك". ثم ألقت نظرة خاطفة من فوق الحاجز وابتسمت بمكر قائلة: "أترين هنا؟".
فنظرت ورأيت مدام وو تهدي كنتها الجديدة مرآة يد، وهي هدية تقليدية تقدم للعروس لتحميها من الشرور.
تابعت جدتي كلامها فقالت: "اليوم عندما رأيت ما كان يحدث، اتضح كل شيء أمامي، وأدركت أنه يجب عليك أن تعودي إلى مكانك الشرعي".
فقلت: "لا أظن أنني أستطيع ذلك"، ولكن ذهني بدأ يقلب كل الاحتمالات التي تمكنني من السعي وراء الانتقام من تلك الفتاة ذات الملابس الحمراء الجالسة في عزلة بانتظار زوجها.
"فكري يا صغيرتي، فكري. إنك شبح جائع، والآن بعد أن عرفت أنك كذلك، أصبحت حرة لأن تهيمي في أي مكان تريدينه".
"ولكنني عالقة...".
"لا تستطيعين التقدم إلى الأمام ولا التراجع إلى الخلف، ولكنّ هذا لا يعني أنك لا تستطيعين الهبوط للأسفل، وبالإضافة إلى ذلك، يمكنك أن تعودي في أي وقت، ولكنني التمست الرحمة من القضاة، فقد دفعتني أنانيتي لإبقائك معي هنا". وأشاحت بوجهها بنصْ وقالت: "بوجود الرجال

هناك دائماً بيروقراطية. ولا فرق هنا. فرشوت القضاة ببعض القرابين التي تلقيتها في العام الجديد".

"هل سأقابلهم على الإطلاق؟ هل ستسنح لي الفرصة للدفاع عن قضيتي؟".

"فقط عندما توضع النقطة على لوح الأسلاف. وإلا..." وأشارت إلى الخلف قائلة: "فأنت تنتمين إلى هذا المكان".

لقد تكلمت بالصواب... مرة أخرى. لقد كان ينبغي لي بصفتي شبحاً جائعاً أن أهيم على وجهي في العالم الأرضي طوال السنوات السبع المنصرمة.

في تلك اللحظة، غلب التشوش على ذهني بين رغبتي في إلحاق الأذى بالفتاة وإدراكي أنني شبح جائع أهيم على وجهي بحيث إنني للحظة لم أستوعب ما قالته. أبعدت نظري عن الفتاة ذات الملابس الحمراء ونظرت إلى جدتي.

"أتقولين إنني أستطيع أيضاً أن أجعل النقطة توضع على لوحي؟".

انحنت جدتي إلى الأمام وأمسكت بيدي في يديها. وقالت: "ينبغي أن تأملي أن يحدث هذا لأنك عندئذ ستعودين إلى هنا وتنضمين إلى الأسلاف. ولكنك لن تتمكني من أن تجعلي ذلك يحدث. وقد تستطيعين القيام بالكثير من الخدع مع الناس لتجعليهم يقومون بما تريدينه، ولكنك ستظلين عاجزة في ما يتعلق باللوح. أتتذكرين كل قصص الأشباح التي سمعتها وأنت طفلة صغيرة؟ هناك وسائل كثيرة يصبح بها الناس أشباحاً. ولكن لو أنَّ كل الأشباح التي لم توضع النقطة على ألواحها تستطيع أن تجبر الأحياء على إكمال تلك المهمة، لما سمعنا كل تلك القصص عن الأشباح. أليس كذلك؟".

أومأت برأسي محاولة أن أستوعب ذلك كله. ففكرت في أن أقوم أول الأمر بإفساد حفل الزفاف ثم تذكير رين بنفسي ثم جعله يذهب إلى بيت والدي ويضع النقطة على لوحي. وعندئذ، نقيم الزفاف. وبعد ذلك... فهززت رأسي. إذ إن الانتقام والارتباك شكلا غمامة شوشت تفكيري حتى إنني لم أعد أفكر في شكل واضح. وفي الواقع، لقد سمعت الكثير من قصص الأشباح، كما قالت جدتي، ولم تحدث النهايات السعيدة إلا بعد أن تعرضت للجرح والتشويه والدمار.

فسألت قائلة: "أليس ذلك خطراً؟ لقد قالت لي أمي إنها ستقضي على أي شرور قد تزورني بالمقص وإنني إن وضعت القلادات الحامية فسأكون بأمان عندما أمشي في الحديقة. وماذا عن السرخس والمرايا؟".

ضحكت جدتي مرة أخرى ضحكة ثانية لا تقل غرابة عن الأولى.

وقالت مستخفة بأهمية هذه الأمور: "إن السرخس لا يحمي الأحياء من شخص مثلك. وقد يؤذيك إن اقتربت زيادة عن اللزوم. ولكنه لن يدمرك". ثم وقفت وقبلتني، وقالت: "إنك لن تتمكني من العودة إلى هنا إلى أن تسوي أمورك هناك. أتدركين ما أقوله؟".

فأومأت برأسي.

قالت وهي تطفو بعيداً شيئاً فشيئاً: "اعتمدي على الدروس التي تعلمتها وأنت على قيد الحياة. استخدمي فطرتك السليمة وكوني يقظة. سأراقبك من هنا وأحميك بقدر استطاعتي".

ثم رحلت.

نظرت إلى بيت عائلة وو، ورأيت مدام وو تمشي إلى الحجرة الداخلية لتحضر الكتاب السري لتعطيه لكنتها.

ألقيت نظرة أخيرة في أنحاء الشرفة، ثم رفعت نفسي فوق الحاجز وهبطت إلى الباحة الرئيسة نحو بيت عائلة وو، وتوجهت مباشرة إلى غرفة رين. فلمحته واقفاً أمام النافذة يحدق إلى أغصان الخيزران وهي تتمايل في النسيم، وأيقنت أنه سيلتفت إليّ، ولكنه لم يفعل ذلك. قدرت حوله ورأيت الضوء يتراقص على خديه. وكانت أطراف شعره الأسود متدلية فوق ياقته. وضع يديه على حافة النافذة. فبدت أصابعه طويلة ونحيلة ومثالية للإمساك بريشة الكتابة. وحدق من النافذة بعينيه السوداوين الشفافتين كمياه البحيرة الغربية. فاكتسبت ملامحه تعبيراً لم أستطع أن أفهمه. وقد كنت واقفة أمامه تماماً، ولكنه لم يرني أو يشعر بوجودي.

بدأت الفرقة الموسيقية عزفها، وهذا يعني أن رين سيقابل عروسه قريباً. فأدركت أنه يجب عليّ أن أجرب التأثير على شخص آخر إن أردت أن أمنع هذا الزواج. فذهبت بسرعة إلى حجرة الزفاف ووجدت الفتاة جالسة على كرسي زفافها والمرآة موضوعة بأمان على حضنها. ورغم أنها كانت جالسة وحدها، فلم ترفع خمارها عن وجهها. فشعرت أنها فتاة مطيعة وممتثلة للأوامر. ولكنها قوية أيضاً. ولا أعرف كيف أشرح هذا. ولكنّ هدوءها المطلق جعلني أشعر أنها تقاومني شخصياً وكأنها تعلم أنني معها.

أسرعت إلى حجرة مدام وو، فرأيتها راكعة على ركبتيها. ثم أشعلت البخور بصمت واضعة جبهتها على الأرض. ولكن أفعالها لم تبث الرعب في نفسي أو تطردني. وبدلاً من ذلك، امتلأ قلبي بالتصميم وبنوع من السلام لم أشعر به منذ سنوات. نهضت مدام وو وذهبت إلى إحدى الخزائن

وفتحت أحد الأدراج. فرأيت بداخله كتابين ملفوفين بقماش حريري: أحدهما هو الكتاب السري للزوجات وإلى يساره المجلد الأول من كتاب حديقة الفاوانيا . فمدت يديها ولمست الكتاب السري.

فصحت قائلة: "كلا". فإن لم أستطع أن أمنع الزفاف، يجب على الأقل أن أجعل رين يمضي ليلة بائسة مع زوجته.

سحبت مدام وو يدها وكأنها لمست شيئاً مشتعلاً. ثم مدت يدها بتردد مجدداً.

فهمست هذه المرة قائلة: "كلا، كلا".

بدأت الأحداث تتوالى بشكل مفاجئ بسبب وجودي هناك والزواج الذي سيقع في غضون بضع دقائق لدرجة دفعتني للتصرف بدون تفكير في العواقب.

همست لها بتهور: "خذي الكتاب الآخر. خذيه. خذيه".

خطت مدام وو بعيداً عن الدرج ونظرت في أنحاء الغرفة.

"خذيه! خذيه!".

وعندما لم ترَ شيئاً عدلت دبوس شعرها، وأخذت كتابي بطريقة لا مبالية وكأنه الكتاب الذي أتت من أجله وحملته عبر الباحة إلى حجرة الزفاف.

وقالت للفتاة الجالسة: "يا ابنتي لقد ساعدني هذا الكتاب يوم زواجي. وأنا واثقة من أنه سيساعدك أيضاً".

فقالت العروس: "شكراً لك، يا أماه".

أصابني صوت الفتاة بالقشعريرة، ولكنني تخلصت منها معتقدة أنني سأستجمع قواي من جديد وأن انتقامي أصبح وشيكاً.

خرجت مدام وو من الغرفة، وراحت الفتاة تحدق إلى غلاف الكتاب الذي رسمتُ عليه مشهدي المفضل من حديقة الفاوانيا ، وهو مشهد الحلم المقطوع. ولا بد أن هذا المشهد كان يستخدم كثيراً لتزيين كتب النساء السرية لأن الفتاة لم تبدُ قلقة أو متفاجئة من الموضوع.

والآن بعد أن أصبحت نسخة حديقة الفاوانيا بين يديها، أدركت أنني تصرفت بتهور عندما أمرت مدام وو أن تأخذها. إذ إنني لم أرغب أن تقرأ هذه الفتاة أفكاري الخاصة. ولكن خطة جديدة بدأت تتشكل في ذهني. ربما أستطيع أن أستخدم كلماتي المكتوبة لأخيف هذه العروس وأحملها على الفرار من زواجها. فبدأت أهمس في أذنها كما فعلت مع مدام وو.

"افتحيه وانظري من معك. افتحيه واهربي. افتحيه واعترفي أنك لن تستطيعي أبداً أن تفعلي ما يجب أن تفعليه لتكوني زوجة".

ولكنها رفضت أن تفتح الكتاب. فرفعت صوتي وكررت أوامري. ولكنها جلست بهدوء وكأنها مزهرية على الرف. وأدركت أنها لا تنوي أن تفتح كتاب الزواج السري. ويغض النظر عن رغباتي المدمرة، تساءلت في نفسي قائلة: كيف ستصبح زوجة لائقة إن لم تقرأ الإرشادات التي توجه الزوجات؟

جثمت على كرسي منحوت في الطرف المقابل للفتاة. فلم تتحرك أو تتنهد أو تبكي ولم ترفع خمارها لتنظر في أنحاء الغرفة. واستطعت أن ألاحظ وهي جالسة بهذا الهدوء أنها تتبع كل الطقوس التي تؤديها فتاة ذات تربية حسنة وثروة كبيرة. وكانت بلوزتها مفصلة من الحرير الأحمر الفاقع وعليها تطريز شديد الإتقان بحيث إنني أيقنت أنها لم تقم بتطريزه بنفسها.

جربت من جديد وقلت: "افتحي الكتاب. افتحيه واهربي".

وعندما لم يحدث شيء، نهضت وعبرت الغرفة وركعت أمامها. وأصبح وجهانا يبعدان سنتيمترات قليلة عن بعضهما ولا يفصل بينهما إلا خمارها الأحمر غير الشفاف. وقلت: "إن بقيت هنا فلن تكوني سعيدة".

فمرت رعشة صغيرة في أوصالها.

وهمست لها: "اذهبي الآن".

أخذت نفساً عميقاً وزفرت ببطء، ولكنها خلافاً لذلك لم تتحرك. فعدت إلى كرسيي بعد أن باءت جهودي بالفشل مع هذه الفتاة كما حدث مع رين.

سمعت الغرفة تعزف وراء الباب، ودخل شخص الغرفة. فأخذت العروس الكتاب من حضنها ووضعته على الطاولة ثم غادرت لتقابل زوجها.

أثناء مراسم الزفاف والاحتفالات التي تلتها، حاولت أن أتدخل بطرائق كثيرة. ولكن محاولاتي جميعها باءت بالفشل. وقد كنت واثقة جداً من أنه من المقدر لي ولرين أن نعيش معاً. فكيف يمكن للحياة أن تعاملنا بهذه القسوة؟

بعد الوليمة، تمت مرافقة رين وزوجته إلى غرفة الزفاف التي أشعلت فيها الشموع الحمراء فملأتها بوهج ذهبي. وإن ظلت الشموع مشتعلة طوال الليل، فهذه تعتبر إشارة مبشرة بالخير. وكانت قطرات الشمع الذائبة

ترمز للدموع العروس في أول ليلة تمضيها مع زوجها. وإن انطفأت إحدى الشموع، حتى ولو بالصدفة، فهذا نذير شؤم بموت أحد الطرفين أو كليهما. كان صوت الفرقة صاخباً ومرتفعاً. فأفزعني قرع الصنوج وضرب الطبول وملأني خوفاً. وقد اعتادت الفرق أن تعزف بصوت مرتفع في حفلات الزفاف والجنازات لتطرد الأرواح الشريرة، ولكنني لم أكن روحاً شريرة بل مجرد فتاة مفطورة الفؤاد محرومة من قدري. بقيت إلى جانب رين إلى أن أطلقت المفرقعات، فجعلني صوت انفجارها أرتمي من جانب إلى آخر، وشعرت أن ذلك يتجاوز حدود قدرتي على التحمل. فطفوت بعيداً عنه.

راقبت من مسافة آمنة. فرأيت شاعري يرفع غطاء رأس زوجته وخمارها ويسحب الدبابيس التي تثبتهما في مكانهما.

إنها تان زي!

شعرت بمراجل غضبي تغلي. ففي الليلة الأولى في الأوبرا قبل كل تلك السنوات، قالت إنها تريد من والدها أن يستفسر عن رين. والآن حصلت على مبتغاها. يا للمعاناة التي سألحقها بها! لقد قررت أن أطاردها وأملأ أيام حياتها بالبؤس. طوال السنوات الماضية، شعرت بالكثير من التعاسة والألم، ولكنني عندما رأيت زي الآن ملأني شعور بعذاب الألم واليأس. كيف استطاعت والدة رين أن تختار تان زي؟ لم أعرف لم فعلت ذلك، ولكنها اختارت لابنها بين كل نساء هانغجو والصين والعالم الفتاة الوحيدة التي ستسبب لي أعظم أذى. ألهذا السبب التزمت زي الهدوء الشديد وهي تنتظر في حجرة زفافها؟ هل حصنت نفسها بأقوى دفاعاتها بسبب علمها أنني هناك؟ إن كتاب الطاعة الأبوية للفتيات يسمي الغيرة أسوأ المشاعر التي يشعر بها الأسلاف. فشعرت أنني غارقة بها حتى أذني.

فك رين الأربطة حول خصر زي وانزلقت تنورتها بين أصابعه التي لطالما أعجبت بها وتمنيت أن تلمسني ونحن وحدنا في الحديقة. أصابني عذاب شديد حتى شددت شعري ومزقت ثيابي وصرخت وأنا مرعوبة لأنني حرمت من هذا وخجلة لأنني مضطرة إلى رؤيته. فلم يتشكل ضباب حول البحيرة ولم يهطل المطر. ولم يضطر الموسيقيون في الباحة إلى أن يغطوا آلاتهم أو يهربوا ليختبئوا. ولم يتوقف الضيوف عن الضحك وتبادل الدعابات. ولم تجد دموعي مكاناً لتنهمر عليه إلا ثيابي.

في وقت سابق كنت أتوق إلى الهدوء لكي أعود إلى جانب رين، ولكن الصمت الذي ساد الآن زاد الأمور سوءاً لأنه عمق الأحداث وعجل بها. لو كنت في مكان زي لما تصرفت بهذا الهدوء، ولكن زي وقفت

هناك بسلبية كما فعلت عندما توجب عليها أن تقرأ الكتاب السري. نظرت إلى عينيها ولم أجد فيهما أي مشاعر، وتوصلت إلى إدراك أمر ربما لا يستطيع أن يفهمه إلا من هم حيث أنا. فلطالما أرادت زي رين، ولكنها لم تكن تحبه. وظنت نفسها أذكى مني وأجمل وتستحقه أكثر. لقد انتصرت عليّ لأنها في السادسة عشرة من عمرها وعلى قيد الحياة وأخذت ما يفترض أنه ملكي أنا. ولكنها الآن بعد أن حصلت على رين، لم تعرف ما تفعل، ولا أظن أنها ما زالت تريده بعد الآن.

أجبرت نفسي على مشاهدتهما وهو يمسك بيدها ويقربها منه لتلمسه، ولكنها سحبتها بعيداً، ولا بد أن الخوف والجهل قد سيطرا على زي بحيث لم تشعر بأي شيء. وكان ينبغي أن يدفعني هذا إلى التصرف بقسوة أكبر معها، ولكنّ شعوراً آخر بدأ يتسلل إلى أعماق قلبي. لقد شعرت بالأسف على رين، إذ إنه كان يستحق مصيراً أفضل من هذا.

التزم رين الهدوء للحظة محاولاً أن يقرأ تعابير وجه زي، ولكنها بدت شاحبة وفاترة تماماً، فاكتسب وجهه التعبير نفسه الذي اكتسبه قبل حفل الزفاف وهو يحدق من النافذة متأملاً الخيزران. فلم أستطع أن أصدق أنني ميزت تلك النظرة من قبل لأنها نظرة ارتسمت على ملامحي لسنوات. فقد كان يشعر مثلي بالوحدة والبعد عن عائلته وعن الحياة.

حولت انتباهي إلى زي، وظل كرهي لها يسيطر على مشاعري، ولكن ماذا إن استطعت أن أستخدمها كدمية لأصل إلى رين وأجعله سعيداً؟ فكرت أنني أستطيع استغلال قدراتي لأحول زي إلى زوجة مثالية أستطيع أن أسكنها. وإن عملت بجد كفاية، فقد يشعر بي من خلالها ويميزني في تصرفاتها ويدرك أنني ما زلت أحبه.

أغمضت زي عينيها بإحكام، ولاحظت أنها كانت تتوق إلى النوم وتظن أنه سيمنحها مهرباً من نوع ما... ولكن مماذا؟ من زوجها أو من واجباتها الزوجية أو من حماتها أو مني؟ ولو أنها خائفة مني حقاً، فالنوم يشكل خطأ مريعاً. إذ إنني ربما لم أستطع أن أصل إليها في العالم لأنها تضع قلادة حامية ما أو تلقت بركة ليس لي علم بها أو ربما تكون الأنانية العنيدة التي أظهرتها وأنا حية مجرد قسوة في الشخصية تحميها من عواطفها ورقتها وهشاشتها، ولكن دفاعاتها تصبح عديمة الفائدة ضدي بمجرد أن تلج عالم الأحلام.

حالما غفت زي، غادرت لتطفو في الخارج، فتعقبتها من علٍ بعد

مسافة آمنة وأنا أراقب الاتجاه الذي سلكته محاولة أن أفسر نواياها وهناك جزء في أعماقي لا يزال يتوق إلى الانتقام منها. فكرت في كل الوسائل التي أستطيع بها أن أهاجمها في أحلامها وهي في أشد حالاتها هشاشة. فربما استطيع ان اتحول إلى شبح حلاق. إذ إن الأحياء يخشون جميعاً زوار الليل الذين يفدون أحلامهم ويحلقون أجزاء من رأس المرء وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه، ولا يعاود الشعر النمو في تلك المناطق ابداً، بل يبقى أصلع ولامعاً وكأنه تذكير بلمسة الموت. وعادة ما يخشى الناس أيضاً أن يسافروا إلى أماكن بعيدة جداً في أحلامهم لأنهم كلما ابتعدوا أكثر عن البيت اصبح من الأسهل أن يضلوا الطريق ويتوهوا. ولم يكن يستوجب عليّ ان ابذل جهداً كبيراً لأرعب زي وادفعها للاختباء في الغابات حيث أحرص على الا تهرب ابداً من ذلك المكان الرطب حالك الظلمة.

ولكنني لم افعل اياً من هذه الأمور. وعوضاً عن ذلك، انتظرت في حافة رؤياها مختبئة خلف عمود في المعبد الذي زارته ومتوارية في أعماق البركة التي حدقت إليها وكامنة في الظل عندما عادت إلى غرفة نومها الجديدة التي راحت تستكشفها الآن بحرية وهي تظن نفسها آمنة في احلامها. ثم فتحت النافذة ورأت عندليباً جاثماً على شجرة كافور وزهرة لوتس متفتحة. والتقطت المرآة التي اعطتها إياها حماتها وابتسمت لانعكاس صورتها الذي رأته الآن اجمل مما كان عليه خلال اليوم. ثم جلست على حافة السرير وظهرها نحو زوجها النائم. فعجزت حتى وهي في احلامها ان تنظر إليه أو تلمسه. وبعد ذلك، رأيت عينيها مثبتتين وهي تحدق إلى نسخة حديثة المقاوانيا الموضوعة على الطاولة.

قاومت رغبتي في القفز من الظل الذي تواريت فيه في حلم زي لأنني أيقنت أن التحلي ببعض التروي قد يخدمني جيداً على المدى الطويل. وتسارعت الأفكار في ذهني. ما الذي أستطيع أن أفعله لألفت انتباهها دون ان اخيفها كثيراً؟ وكان أخف وأكثر الأشياء التي خطرت ببالي براءة هو الهواء. فبقيت ساكنة قدر المستطاع في مكان اختبائي ثم أخرجت نفساً ناعماً أرسلته باتجاه زي. ورغم شدة هدوئه ولطفه، فقد استطاع أن يلمس خدها. ارتفعت أصابعها إلى حيث لامست أنفاسي جلدها. فابتسمت وأنا جالسة في الظلام. لقد قمت بالتواصل معها، ولكنني بالقيام بذلك أدركت مقدار الحذر والحرص الذي يجب عليّ أن أتحلى به.

فتلفظت بالكلمات بدون صوت قائلة: "اذهبي إلى البيت. استيقظي.

خذي الكتاب. ستعرفين الصفحة التي يجب أن تفتحي عليها". ولم يخرج صوت من فمي بل مجرد أنفاس قطعت الغرفة من جديد إلى زي. فارتجف جسدها عندما لامسها نسيم تلك الكلمات.

في العالم الأرضي، راحت زي تتقلب من جانب إلى جانب، ثم نهضت فجأة ووجهها يلمع بطبقة رقيقة من العرق. وبدأ جسدها يرتجف بشدة، وبدت غير متأكدة من المكان الذي وجدت نفسها فيه. فجالت ببصرها في الظلام إلى أن استقر على زوجها ثم تراجعت إلى الوراء من الدهشة والمفاجأة، كما بدا لي. والتزمت الهدوء التام خشية أن توقظه. ثم تسللت من السرير بهدوء وبطء قدر المستطاع. وبدت قدماها المربوطتان ضئيلتين بحيث إنها كادت تعجز عن الوقوف بشكل مستقيم وارتجف جلدها الشاحب الذي بدا ظاهراً من خف زفافها الأحمر وهي تبذل جهدها لتقف. ثم ذهبت إلى المكان الذي وضعت فيه كتاب الزفاف مع كومة من الثياب على الأرض. فأخذت بلوزتها وارتدتها ثم لفت ذراعيها حول نفسها وكأنها تريد أن تخفي نفسها حتى أكثر.

عبرت الغرفة على قدميها غير المستقرتين وذهبت إلى الطاولة وجلست وقربت إحدى شموع الزفاف منها. ثم حدقت إلى غلاف حديقة الفاوانيا وهي تفكر على الأرجح في حلمها المقطوع. ففتحت الكتاب وقلبت الصفحات. ووصلت إلى الصفحة التي أردتها أن تعثر عليها ولمست الورق بأصابعها الرقيقة. وألقت نظرة خاطفة إلى رين ثم همست بالكلمات التي كنت قد كتبتها بنفسي بصوت منخفض.

"إن حب لينيانغ وعالمها سام وليس دنيوياً، ولكن هذا لا يعني أنه يمنعها من تجربة السعادة الدنيوية ولا ينبغي له ذلك. وهكذا، تعرف لينيانغ كيف تتصرف في بيتها كسيدة راقية بأن تضفي السعادة والمتعة والتسلية على حياة زوجها، وهذا مناسب تماماً للمرأة المحترمة" . لم أعرف كيف خطرت لي هذه الأفكار وأنا فتاة غير متزوجة، ولكن هذه كانت كلماتي وأفكاري الخاصة التي أصبحت الآن أعتقد بها أكثر من أي وقت مضى.

ارتعشت زي، وأغلقت الكتاب، ثم أطفأت الشمعة. وغطت وجهها بيديها وبدأت تبكي. فأدركت أن الفتاة المسكينة خائفة وجاهلة ولا تعرف شيئاً عما يمكنها أن تفعله لترضي زوجها ونفسها. ولكنني بمرور الوقت، وهذا هو كل ما أملكه، كنت سأتصرف معها بجرأة أكبر مما فعلت اليوم.

الفصل الثاني عشر

الغيوم والمطر

•

يتحدث كتاب الطقوس عن واجبات الزواج، وأهمها إنجاب ابن يطعم والديه ويعتني بهما حالما يموتان لأنه هو الوحيد الذي يستطيع القيام بهذه المهمة. وإلى جانب ذلك، فالزواج هو توحيد لعائلتين يضفي الرخاء على كلتيهما من خلال تبادل الهدايا والمهر والعلاقات المتبادلة المفيدة للطرفين. ولكن حديقة الفاوانيا تحدثت عن شيء مختلف كلياً: لقد تحدثت عن الانجذاب والعاطفة بين الزوجين. فقد بدأت لينيانغ حياتها كفتاة خجولة، ولكنها أزهرت من خلال الحب وأصبحت أكثر صراحة وانفتاحاً عندما أصبحت شبحاً. ولأنها ماتت قبل الزواج، فقد أخذت رغباتها غير المحققة معها. وخلال أسوأ المراحل التي مررت بها وأنا عاشقة، قال الطبيب إنني بحاجة إلى الزواج، وكان محقاً في هذا. ولو أنني عشت وقتاً أطول بقليل لشفيت من مرضي. والآن أصبح شوقي، بعد أن بقيت مختبئة في شرفة الإطلالة لسنوات، تواقاً ونهماً كما كانت معدتي. ولم أكن شبحاً مؤذياً أو مفترساً، بل مجرد فتاة بحاجة إلى تعاطف زوجي وحمايته وحبه. وظل شوقي إلى رين عظيماً بقدر شوقي إليه في الليلة الأولى التي التقينا فيها. فقد كان قوياً كالقمر الذي يمتد بين الغيوم وفوق المياه وواضحاً للرجل الذي كان ينبغي أن يصبح زوجي، ولكني بالطبع لم أكن أحظى بقوة القمر. وبعد أن أصبحت عاجزة عن التواصل مع رين بشكل مباشر، استخدمت زي للوصول إليه. فقاومت ذلك بادئ الأمر، ولكن كيف تستطيع فتاة حية أن تقاوم شخصاً قادماً من حيث أتيت؟

إن الأشباح كالنساء مخلوقات ذات طاقة أنثوية باردة ومظلمة وترابية. فسهلت الأمور على نفسي بأن بقيت في حجرة رين لأشهر عديدة حيث لا يتوجب عليّ أن أقلق من شروق الشمس المفاجئ أو أخطط للتوجه في زاوية ضيقة وصعبة. وأمضيت أيامي مختبئة خلف العوارض الخشبية أو متوارية عن الأنظار في زاوية الغرفة. وعندما غربت الشمس، أصبحت أكثر وقاحة وتكاسلاً كالمحظية في غرفة زوجي وأنا أنتظره وزوجته الثانية ليأتيا إليّ.

رفضت مغادرة الغرفة، فسمح هذا لي بتمضية وقت أقل مع زي،

وكان مهرها قد زاد من ثروة عائلة وو كثيراً، وهذا هو السبب الذي جعل والدة رين الأرملة توافق على الاتفاق. ولكن ذلك لم يعوض عن شخصية زي غير المحببة، فقد كبرت زي لتصبح امرأة لئيمة وتافهة، كما كنت قد توقعت لها قبل كل تلك السنوات. واعتدت أن أسمعها خلال اليوم في الباحة تشتكي من هذا الأمر أو ذاك. فكانت توبخ الخادمة قائلة: "إن هذا الشاي عديم النكهة، هل استخدمت الشاي الموجود في هذا البيت؟ لا تفعلي هذا مجدداً. لقد أرسل لي والدي شاياً من أفخر الأنواع لأشربه. كلا، لا يسمح لك بتقديمه لضيافي. انتظري! لم أصرفك بعد! أريدك أن تحضري لي الشاي حاراً هذه المرة. لا أريد أن أكرر هذا مجدداً!".

أما بعد الغداء، فقد كانت تنسحب برفقة مدام وو إلى حجرات النساء حيث يفترض بهما أن تطرزا وترسما وتكتبا الشعر معاً. ولكن زي رفضت أن تشارك في هذه النشاطات، ولم ترض حتى أن تعزف على القانون رغم ما يشاع عن عزفها الماهر. وكان صبرها محدوداً جداً في التطريز، ورمت بمشروعها على الجدار أكثر من مرة. فجربت مدام وو أن توبخها، ولكن ذلك زاد الطين بلة.

صاحت زي في وجه حماتها مرة: "إنني لا أنتمي إليك! لا يمكنك أن تملي عليّ أفعالي! فأنا ابنة المفوض تان مفوض الطقوس الإمبراطورية!".

في ظل الظروف العادية، يتمتع رين بالسلطة الكاملة لأن يعيد زي إلى بيت أهلها أو يبيعها لعائلة أخرى أو حتى أن يضربها حتى الموت بسبب عصيانها لأمه، ولكنها كانت محقة، فقد كان والدها مهماً ومهرها كبيراً. فلم توبخ مدام وو زي أو تطلع زوجها على أفعالها. ونادراً ما خيم الصمت على غرف النساء، ولكنه ظل مثقلاً بالحقد والتأنيب.

سمعت زي تتحدث في فترة العصر المتأخرة بصوت مرتفع حاد بحيث إنه وصل من مكتبة رين إلى غرفة النوم، وراحت تشكو قائلة: "إنني أنتظرك طوال اليوم! ما الذي تفعله هنا؟ لماذا تبقى بمفردك طوال الوقت؟ لا أريد كلماتك وقصائدك، بل أريد مالاً. فأحد تجار الحرير سيحضر نماذج من سوجو اليوم. إنني لا أطلب أثواباً لنفسي، ولكنك بالتأكيد تتفق معي أن الستائر في القاعة الرئيسة رثة وبالية. لو أنك تعمل بجهد أكبر لما توجب علينا أن نعتمد كثيراً على مهري".

عندما قدّم الخدم العشاء على الطاولة، بدأ النقد يتدفق من فمها: "إنني لا آكل سمك البحيرة الغربية، فالمياه ضحلة جداً وطعم السمك فيها مثل طعم التراب". فتناولت كميات قليلة من لحم الإوز المقلي مع الليمون

وتجاهلت الدجاج المسلوق مع بذور اللوتس. فأكل رين البذور التي يشاع أنها تزيد من القدرة على الإنجاب. ووضع الكثير منها في طبق زي. فتجاهلتها عن عمد. وكنت الوحيدة التي عرفت أنها كانت تحرق سراً أوراق اللوتس وتأكل رمادها لتمنع الحمل. إنها النبتة نفسها. ولكنّ لها أهدافاً مختلفة. وقد سررت لاختيارها هذا. إذ إن إنجابها للأبناء يقوي من موقعها في البيت.

يتضمن كل زواج ستة مشاعر: الحب والعاطفة والكره والحقد والخيبة والغيرة. ولكن أين حب زي وعاطفتها؟ فقد عبرت كل أقوالها وأفعالها عن ازدراتها لحماتها وزوجها. ولكن زي ظلت منيعة. فلم يجرؤ أي منهما على الاعتراض لأنها ابنة رجل نافذ يحق لها التذمر من زوجها وجعل عائلته تشعر أنها غير هامة. ولكن هذا ليس زواجاً.

أتى والدا زي للزيارة. فألقت العروس نفسها على قدميهما وتوسلت أن يأخذاها للبيت.

وصاحت قائلة: "لقد ارتكبت غلطة بزواجي به. إن هذا البيت وقاطنيه وضيعون. لقد كنت عنقاء، فلماذا زوجتماني لديك؟".

أهذا هو رأيها بشاعري؟ ألهذا السبب ظلت تزعجه طوال الوقت؟

أجاب المفوض تان ببرود: "لقد رفضت كل العروض. وقد تفاوضت مع ابن قاضي سوجو. وهو يملك بيتاً ذا حديقة جميلة. ولكنك لم تفكري مجرد تفكير في العرض. إن من واجب الأب أن يعثر على زوج مناسب لابنته. ولكنك اتخذت قرارك واخترت من تريدين أن تتزوجي منذ كنت في التاسعة من عمرك. أي فتاة تختار زوجها من خلال استراق النظر من ستارة؟ حسناً. لقد أردت، بل أمرت، أن تتزوجي رجلاً متوسط الحال يعيش في بيت متوسط الحال. لماذا؟ ليست لدي أي فكرة. ولكنني منحتك ما أردت".

"ولكنك والدي! وأنا لا أحب رين! اشترني منه، ودبّر لي زواجاً مختلفاً".

كان المفوض تان رجلاً قاسياً. فقال: "لطالما كنت فتاة أنانية ومدللة وعنيدة، وأمك هي الملامة على هذا".

ولكن هذا الكلام كان بعيداً كل البعد عن الإنصاف. فالأم تستطيع أن تفسد ابنتها بالكثير من العاطفة. ولكن الأب وحده هو من يملك المال والقدرة على أن يمنح ابنته الأشياء التي تريدها.

تابع كلامه قائلاً: "لم أعتبرك أكثر من آفة لعائلتنا منذ اللحظة التي

ولدت فيها". ودفعها بحذائه، ثم قال: "لقد كان اليوم الذي تزوجت فيه يوماً سعيداً لي ولأمك".

لم تنكر مدام تان هذا أو تحاول أن تتدخل لمصلحة ابنتها، بل قالت باشمئزاز: "انهضي وتوقفي عن التصرف بحماقة. لقد أردت هذا الزواج والآن حصلت عليه وصنعت مصيرك بنفسك. فابدأي بالتصرف كسيدة. إن الطاعة هي الوسيلة الوحيدة للزوجة".

عندما لم يجدِ التوسل والدموع نفعاً، تحولت زي إلى فتاة شريرة، فاحمر وجهها وتدفقت كلمات رهيبة من فمها. وبدت أشبه بابن بكر واثق تماماً من موقعه وحقه بالمطالبة بما يريده، ولكن المفوض تان لم يتأثر بكلامها.

"لن أفقد ماء وجهي من أجلك. لقد بذلنا ما بوسعنا لتربيتك من أجل عائلة زوجك. فأصبحت تنتمين إليها الآن".

وجه المفوض تان وزوجته زي لأن تحسن التصرف ومنحا مدام وو بعض الهدايا تعويضاً لها عن اضطرارها إلى تحمل رفقة ابنتهما العنيدة وغادرا. لم يتحسن مزاج زي، بل على العكس من ذلك، ازداد سوءاً. فلم أتدخل عندما رأيتها تعامل كل أهل البيت بازدراء تام خلال النهار. ولكن الليالي كانت ملكي أنا.

في البداية، لم أعرف ما أفعل، وغالباً ما كانت زي تقاومني. ولكنني كنت أقوى منها. فلم يبقَ لديها خيار إلا أن تطيعني. أما إسعاد رين، فتلك مسألة أخرى تماماً. فتعلمت من التجربة والفشل وبالمحاولة والنجاح، وبدأت أفهم تلميحاته وإشاراته وشعوره الداخلي، مما منحني سهولة أكبر في التصرف. فعلمت زي كيف تستغل ما تتمتع به لتبهجه وتغيظه في آن معاً. وفهمت أخيراً ما عناه ثانغ خيانجو عندما كتب عن لينيانغ قائلاً إنها تعزف على الناي . فحرصت على أن تبقى زي مستعدة وجاهزة دائماً لزوجها في اللحظة التي يختارها.

اعتدت أن أهمس في أذنها أموراً تعلمتها عن الزواج من حديقة الفاوانيا وكيف يجب أن تتحلى الزوجة بشخصية محببة وملائمة ولبنة العريكة . وعندما أصغيت وأنا فتاة حية لدروس أمي وزوجات أعمامي التي لا حصر لها وتعليماتهن عن الزواج، ظننت أنني لن أصبح مثلهن أبداً. واتخذت قراري أن أنبذ الماضي وتلك الدروس وبرودة التقاليد والعادات. وأردت أن أتبنى طريقة تفكير حديثة. ولكنني بدأت، ككل الفتيات اللواتي انتقلن إلى بيوت أزواجهن، أقلد أمي وزوجات أعمامي وأعتمد على الأمور

التي قاومتها أشد المقاومة. ولو أنني بقيت على قيد الحياة، فأنا واثقة من أنني كنت في نهاية المطاف سأحمل أطفالاً في جيوبي وأصر على أن تتيح بناتي الطاعات الثلاث والفضائل الأربع، وبهذا أصبح نسخة طبق الأصل عن أمي.

وجهت زي قائلة: "لا تتعقبي نشاطات زوجك طوال الوقت. فلا يحب الرجل أن يشعر بزوجته تراقبه. ولا تفرطي في الأكل. إذ إن الرجل لا يحب أن يرى زوجته تضع الكثير من الطعام في فمها. وأظهري احترامك للمال الذي يكسبه. واعلمي أن الكرم في الإنفاق مختلف عن تبديد المال. فالمحظية فقط هي من تعتبر الرجل آلة لصنع النقود".

بدأت زي تدريجياً تخضع لدروسي، بينما بدأت أنا أكبر وأتخلى عن رومانسيتي التي جعلتني أصبح ملتاعة. وأصبحت أعتقد أن الحب الحقيقي يعني المتعة. فاستمتعت بجعل زوجي يعاني من ألم الاشتياق. وأمضيت ساعات وأنا أفكر في طرائق جديدة لأطيل من معاناته. وبدأت أستغل زي بحرية وبدون ندم أو شعور بالذنب. وجعلتها تقوم بما يجب علي القيام به كزوجة ثم راقبت وأنا أبتسم وأضحك وأبتهج من أعماق قلبي عندما وجد زوجي سعادته بين يديها. والآن عرفت أن أكبر رغبة لزوجي كانت أن يمسك قدمي زي المربوطتين المكسوتين بخفٍّ حريري مطرز أحمر ويستمتع برقتهما وعطرهما والألم الذي عانته لتمنحه هذه السعادة. وعندما رأيت السعادة التي أحسّ بها رين مع زي، منعتها من الابتعاد عنه.

لم يزعجني أن زي لم تشعر بأي تحرك في أحاسيسها. ولم يزعجني أيضاً أنني لم أفهم أفكارها. فإن تعبت أو خافت أو شعرت بالإحراج ضغطت عليها واستغللتها أكثر. ولكنني بمرور الوقت لاحظت أن نظرة اللامبالاة التي على وجهها وقلة تجاوبها ما زالتا تزعجان زوجي. فكلما سألها عما يسعدها أغمضت عينيها، وأشاحت بوجهها عنه. ورغم كل جهودي، فقد أصبح أسلوبها معه أسوأ مما كان عليه في ليلة زواجها.

بدأ رين يبقى في مكتبته ليقرأ إلى أن تستغرق زي في النوم. ولم يعد يحيطها بذراعيه عندما يصعد إلى السرير ليجد الدفء والراحة والرفقة في ساعات نومه. بل اعتاد أن يبقى في جانب السرير المخصص له وهي تبقى في جانبها. وفي البداية، سرني هذا كثيراً لأنه سمح لي بإحاطته بجسمي الشبحي تاركة دفئه يتسرب إلى برودتي. ولكن عندما طلب إغلاق النوافذ وإحضار المزيد من اللحف، انسحبت وتواريت خلف عارضة خشبية في السقف.

بدأ يزور صالات الشاي على شاطئ البحيرة الغربية، فرافقته وبقيت معه وهو يلهو ويفرط في الشرب وعندما بدأ في نهاية المطاف يتسلى مع النساء اللواتي تنحصر مهمتهن في إمتاع الرجال. فراقبت وأنا مفتونة ومسرورة وتعلمت الكثير. وفوق كل شيء، أدركت أنانية زي مع زوجها. فكيف يسعها ألا تفعل ما يفترض بها كامرأة وزوجة أن تفعله؟ أليست لها مشاعر نفسية أو جسدية؟ وبغض النظر عن سعادة رين، هل نسيت أنه قد يقع في حب إحدى أولئك النساء، ويتخذها محظية؟

في إحدى الليالي، ذهبت في جولة مع زي في أحلامها. ومنذ زفافها، لم تعد تزور أماكن جميلة. وعوضاً عن ذلك، أصبحت أحلامها تحدث في الليل وفي الضباب والظلال أثناء خسوف القمر ودون وجود أي شموع أو قناديل مشتعلة. فناسبني هذا كثيراً. واستطعت من مخبأي خلف الأشجار أو الأعمدة أو من ظلام الكهوف والزوايا أن أطاردها وأزعجها وأعلمها. وفي مساء اليوم التالي، اعتادت أن تبقى ساهرة في سريرها وهي شاحبة ومرتعشة إلى أن يأتي زوجنا إليها فتفعل كل ما يطلبه منها، ولكن تعابير وجهها لم تبعث السرور في نفسه.

في تلك الليلة، غامرت بالخروج في حلمها إلى حديقة. فخرجتُ من الظلال السوداء وقابلتها وجهاً لوجه. فصاحت بالطبع وفرت مبتعدة، ولكن إلى أي مدى تستطيع أن تركض؟ لقد نال منها التعب حتى وهي تحلم. أما أنا فلم أتعب أبداً.

ركعت على ركبتيها وفركت فروة رأسها محاولة أن تشعل بعض الشرارات على أمل أن تخيفني هذه الأضواء المنفجرة، ولكنه مجرد حلم. ولا يمكن لهذا الاحتكاك أن يخيفني.

صاحت زي: "دعيني وشأني". وعضت طرف إصبعها بشدة لتتسبب بنزيف الدم. وأشارت بإصبعها محاولة أن تضع اللوم عليّ لأنها كانت تعلم أن الدم المتخثر مرعب للأشباح، ولكنه مجرد حلم. فلم تملك أسنانها القوة لتمزق جلدها. ولم تتمتع الطلاسم مهما كانت مؤذية لي في العالم الأرضي بأي تأثير عليّ في الأحلام.

قلت لها بعذوبة: "إنني آسفة، ولكنني لن أتركك وشأنك أبداً".

غطت فمها بيديها لتكتم صراخها المصعوق بعد أن اكتشفت أن كل المخاوف التي رفضت الاعتراف بها حقيقية. فرأيتها تئن وتتلوى تحت غطاء سريرها.

خطوت بضع خطوات إلى الوراء في الحلم، وقلت: "لم آتِ إلى هنا

لأؤذيك". ومددت يدي وأمطرتها بوابل من أوراق الأزهار، ثم ابتسمت، فتفتحت الورود من حولنا. ودرت حولها بلطف مبعدة الظلال والظلام إلى أن أصبحنا فتاتين جميلتين جالستين في حديقة في يوم ربيعي مشرق.

هدأت أنفاس زي النائمة في سريرها واستقرت ملامحها. أما هنا في حلمها، فقد لمع شعرها في ضوء الشمس، وبدا فمها مليئاً بالوعود وبداها نحيلتين وشاحبتين وقدماها الصغيرتان رقيقتين وناعمتين. فلم أجد سبباً يمنعها من إعادة هذه النفس المخبئة إلى العالم الأرضي.

انحنيت أمامها وقلت: "إن الناس يقولون إنك أنانية". فأغمضت عينيها لسماع تلك الحقيقة وبدا وجهها ينقبض من جديد. فقلت لها: "إنني أريدك أن تكوني أنانية هنا". وأدركت أن زي لا تستطيع أن تهرب مني في الحلم. فاستخدمت إصبعي الأوسط لألمس مكان وعيها الكامن داخل صدرها. وشعرت بشيء ينفتح تحت إصبعي، وتذكرت الإحساس الذي خالجني عندما داعبني رين بأوراق زهرة القاوانيا. فشعرتُ الآن بالدفء يشع من خلال ثوبها الحريري إلى أن ارتعشت زي وتنهدت. وارتجفت في سريرها أيضاً. فهمست في أذنها قائلة: "كوني أنانية في هنا". وتذكرت ما قالته لي أمي، فأضفت قائلة: "ينبغي أن تشعر النساء بالمتعة أيضاً".

قبل أن أدعها تستيقظ، توجب عليها أن تعدني بشيء ما. فقلت لها: "لا تذكري شيئاً عن حديثنا أو أنك رأيتني". إذ توجب عليها أن تتكتم على زياراتنا أو على صلتي بها لتستمر. وقلت: "لا أحد، وخاصة زوجك، يريد أن يسمع عن أحلامك. فسوف يظن رين أنك تعتقدين بالخرافات أو أنك جاهلة إن تفوهت بأمور تافهة عن زوجته الأولى".

"ولكنه زوجي! ولا أستطيع أن أكتم أسراراً عنه!".

فقلت لها: "كل النساء يكتمن أسراراً عن أزواجهن. والرجال يكتمون أسراراً عن زوجاتهم أيضاً".

ترى هل كان ذلك صحيحاً حقاً؟ لحسن الحظ أن زي كانت عديمة الخبرة مثلي بحيث إنها لم تشك بكلامي. ومع ذلك، فقد قاومتني.

وقالت زي: "إن زوجي يريد زوجة من نوع جديد، فهو يبحث عن رفيقة".

عندما سمعت تلك الكلمات التي كانت تشبه كثيراً ما قاله لي رين، تلاشت مني مشاعر الغضب العميق واللا بشري. وبعد ذلك، لم تعد زي تتسبب لي بأي مشكلة. فأصبحت أزورها في أحلامها ليلة تلو أخرى إلى أن لم تعد تحاول أن تقاومني.

هكذا أصبحت ونان زي شقيقتين زوجتين لرين. فانتظرتها كل ليلة متوارية خلف الأعمدة التي إلى غرفتها ثم تسللت من مخبأي لأرشدها وأساعدها على التصرف بمحبة وود مع زوجها لتجعله سعيداً.

جعلت حماسة زي المفاجئة زوجنا يعود إلى البيت من صالات الشاي. وأصبح يحب زوجته. ففكرت بسبل جديدة لأجعله مسروراً. ولم تقاوم زي لأنني لم أسمح لها بذلك. ولم أعد أسمعها تتفوه بالتذمر أو الانتقاد أو الكلمات الغاضبة في أنحاء البيت كافة. وبدأت تأخذ الشاي إلى مكتبة رين وتعامل اهتماماته وكأنها اهتماماتها. وأصبحت تعامل الخدم بلطف وإنصاف.

لقد زادت كل هذه التغييرات من سعادة رين. فمنح زي هدايا صغيرة. وطلب من الخدم أن يعدوا أطباقاً خاصة من أجلها. وراح يمضي كل ليلة وهو يتأمل وجهها الحالم الجميل ويغدق عليها كلمات العشق حتى تغمرها بالحب. لقد أحبها بطريقة كنت آمل أن يحبني أنا بها. وزاد حبه لها كثيراً لدرجة أنسته أمري. ورغم ذلك، فقد ظلت زي أنانية في أعماقها بعد كل السعادة التي منحتها إياها بلا مقابل. وبقي هناك شيء لم أستطع أن أجعلها تفعله. وهو أن تنظر إلى عيني رين.

ولكن عزيمتي لم تلن وأنا أحاول أن أجعلها الزوجة التي أريدها أن تكون لرين. لطالما أراد رين زواجاً رفاقياً. ولهذا فقد ملأت أفكار زي بالكتب. وجعلتها تقرأ مجلدات من الشعر والتاريخ. فتحولت إلى قارئة جيدة وعميقة بحيث إنها أصبحت تحتفظ بالكتب على طاولة زينتها إلى جانب مرآتها ومواد تجميلها ومجوهراتها.

فعلق رين في أحد الأيام قائلاً: "إن رغبتك في التعلم قوية كحاجتك إلى الحفاظ على حسن مظهرك".

ألهمتني كلماته ودفعتني إلى أن أصبح أكثر إلحاحاً. وجعلت زي تصبح مهتمة في حديقة القاوانيا. فراحت تقرأ نسختي المحتفظة بها من المجلد الأول مرة تلو أخرى. وسرعان ما أصبحت لا تفارقها إلى أن حفظت مقاطع كاملة من تعليقاتي عن ظهر قلب.

قال لها رين بإعجاب: "إنك لا تنسين أي كلمة". فسررت كثيراً.

وفي نهاية المطاف، بدأت زي تكتب ملاحظات عن الأوبرا على قطع صغيرة من الورق. ترى هل هي أفكارها الخاصة أم أنها أفكاري التي تأثرت فيها؟ لقد جمعت بين كلتيهما. وعندما تذكرت ما كان قد حدث عندما أخبر رين والدي عن أحلامه وكيف كتبنا معاً، حرصت على أن أذكر زي ألا تذكر كتابتها أو كتابتي لأحد. ومن هذه الناحية، برهنت على أنها

زوجة ثانية مطيعة ومذعنة لرغبات الزوجة الأولى.

ومع ذلك، ورغم أن كل شيء كان يسير على ما يرام، فقد عانيت من مشكلة كبيرة. لقد كنت شبعاً جائعاً. ولكنني بدأت شيئاً فشيئاً أفقد تلك الصفة.

الفصل الثالث عشر

مهرجان الأشباح الجائعة

•

هناك أمور كثيرة تحدث لنا في مواعيدها المحددة سواء أأحببنا ذلك أم لا. فالقمر يكبر ويتناقص والعام الجديد يأتي ويتبعه مهرجان الربيع ثم السبعة المزدوجة ثم مهرجان الأشباح الجائعة ثم مهرجان قمر الربيع . إننا لا نملك سيطرة على هذه الأمور، ومع ذلك فأجسادنا تتحرك وفقاً لها. ففي العام الجديد، ننظف بيوتنا ونحضر أطعمة خاصة ونقدم القرابين ليس من باب الواجب أو العرف، ولكن تغير المواسم واقتراب الربيع يحثانا ويغرياننا ويجبراننا على هذه الأعمال. وتنطبق هذه الأمور من بعض النواحي علينا نحن الأشباح، فنحن نملك الحرية للطواف، ولكننا أيضاً مدفوعون بالتقاليد والفطرة والرغبة في العيش. لقد أردت أن أبقى مع رين في كل ثانية من اليوم، ولكن عندما حل الشهر السابع، أصبح جوعي قوياً ومؤلماً كالمغص الشديد. وبينما أنا ملتفة حول نفسي في الزاوية أو أحوم فوق سرير زي، شعرت بشيء يستدعيني ويغريني ويدفعني إلى الخروج.

دفعني الجوع القوي الذي عجزت عن احتماله إلى مغادرة أمان حجرة النوم، وتوجب علي السير في خط مستقيم. فعثرت عليه وطفت عبر الباحات وإلى البوابة الرئيسة لبيت عائلة وو خلف خادمين يحملان الورق والأوعية. وفي اللحظة التي عبرت بها البوابة سمعتها تنغلق من خلفي. فأصابني الرعب وأنا أراقب الخادمين يعلقان قلائد حماية على الأبواب ويقفلانها في وجه أمثالي من الأشباح. حدث ذلك في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري المخصص لمهرجان الأشباح الجائعة . وهكذا، وقعت ضحية لرغباتي كما فعلت زي. واثبتُّ أن أعمالي ارتجالية وهوجاء كأعمالها.

قرعت على البوابة قائلة: "دعوني أدخل".

فسمعت من حولي صراخاً وعويلاً يكرر طلبي: "دعوني أدخل! دعوني ادخل".

فالتفتُّ حولي لأرى أشباحاً ذات ثياب ممزقة ووجوه مزيلة ومجعدة وأجسادها ضعيفة من شدة الوحدة والحرمان والندم. وكان أطراف بعضها مفقودة، وبدا بعضها مفعماً بالخوف والرعب أو الانتقام. فرأيت أجساد أولئك الذين ماتوا غرقاً تقطر منها سوائل نتنة وتفوح منها رائحة السمك

العفن. ورأيت عشرات الأطفال، ومعظمهم من البنات اللواتي تعرضن للإهمال والبيع وسوء المعاملة والنسيان في نهاية المطاف على يد عائلاتهن. تجمهرت هذه المخلوقات جميعاً في زمر كالجرذان وعيونهم مليئة بإحساس أبدي من الحزن. أدركت أن ثمة صفتين مشتركتين تجمعان بين هذه المخلوقات: الجوع والغضب. فقد تملك الغضب بعضها بسبب الجوع والتشرد، أما بعضها الآخر فقد أضناها الجوع وأتعبها التشرد بسبب غضبها. أصابني الرعب لرؤية كل هذا. فطفوت عائدة إلى البوابة وطرقت عليها بكل قوتي.

وصحت مرة أخرى: "دعوني أدخل".

ولكن قوة قبضتي يدي تلاشت أمام الطلاسم وأبيات الشعر الحامية التي استخدمها الخادمان ليحميا الباب مني ومن أمثالي. فوضعت جبهتي على البوابة وأغمضت عيني وتركت تلك المعرفة تتسلل إلى وعيي. وأدركت أنني لست إلا إحدى تلك الأشباح المثيرة للاشمئزاز. فشعرت بالجوع ينهشني في أعماقي ويجعلني نهمة ومسعورة.

أخذت نفساً عميقاً ودفعت نفسي بعيداً عن الباب وأجبرت نفسي على الالتفات إلى الوراء. فوجدت أن الآخرين قد فقدوا اهتمامهم بي وعادوا لأمورهم العادية وراحوا يحشون وجوههم بقرابين عائلة وو. وحاولت أن أشق طريقي عبر أجسادهم المحتشدة المدافعة، ولكنهم دفعوني بعيداً بكل سهولة.

مشيت على طول الطريق وتوقفت عند كل بيت نصب فيه مذبح، ولكنني وصلت بعد فوات الأوان ووجدت الأشباح الأخرى أشد ضراوة مني. فانتهى بي المطاف بفم مفتوح ومعدة فارغة.

كان الأسياد والأسلاف ينالون ما ينالونه لأنهما متفوقان اجتماعياً. إذ إنهما يمنحان الحماية ويحققان الأماني ويربطان الجانب الأعلى بالنماء والإنتاج والحياة. وهكذا، فقد كانت قرابينها تطبخ بعناية وتقدم على أطباق كبيرة مع كمية وافرة من الحصص وأدوات الطعام. ولكن الأشباح مخلوقات محتقرة ذات مرتبة متدنية أسوأ من مرتبة المتسولين أو المجذومين. ويعتقد الأحياء أننا لا نجلب إلا سوء الحظ والتعاسة والكوارث ويلوموننا على الحوادث والجفاف والمرض وسوء المحاصيل وسوء الحظ في اللهو والأعمال الخاسرة والموت. وهكذا، فهل من المفاجئ أن تكون قرابيننا خلال مهرجان الأشباح الجائعة فاسدة ومثيرة للاشمئزاز؟ كلا، إننا نتلقى، بدلاً من صواني الدراق الناضج والأرز المعطر المطبوخ والدجاج المحضر بصلصة الصويا، الأرز غير المطهو والخضار المخصصة لإطعام الحيوانات المقززة وقطع اللحم التي

ما زال وبر الحيوان عليها بدون أي أوعية أو عيدان. إذ إنهم يتوقعون منا أن نقحم وجوهنا في هذا الطعام كالكلاب ونمزقه بأسناننا ونحمله بعيداً إلى الزوايا المظلمة والأقبية الرطبة المعتمة.

لا يدرك عدد كبير من الناس أن العديد منا ينحدرون من بيوت راقية ويفتقدون عائلاتهم. إننا كأشباح لا نستطيع أن نتهرب من طبيعتنا. ولكن هذا لا يعني أننا نحاول عن عمد أن نلحق الأذى بالأحياء. فنحن خطرون بالطريقة نفسها التي يكون فيها الموقد الساخن خطراً. وحتى هذه اللحظة، لم أستخدم وضعي المظلم عن عمد لأؤذي أو أشوه أو أقسو، أليس كذلك؟ ولكن بينما أنا أمشي في طريقي حول البحيرة، قاومت آخرين أشد خجلاً مني للحصول على قشرة برتقالة عفنة أو قطعة من العظم لم يمتص أحد نخاعها بعد. فمشيت وانجرفت وزحفت وجررت نفسي من بيت إلى بيت وأنا آكل ما أستطيع العثور عليه وأتناول بقايا الطاولات التي نهبها أمثالي إلى أن وصلت إلى سور قصر عائلة تشين. فاكتشفت أنني قطعت كل الطريق المحيط بالبحيرة دون أن أدري، وكل ذلك بسبب شدة جوعي المضني.

لم أكن قد خرجت إلى بوابة بيت العائلة من قبل في أثناء هذا المهرجان، ولكنني تذكرت كيف كان الخدم يحملون لأيام وهم يثرثرون مع بعضهم بعضاً عن سخاء الطعام الذي راحوا يحضرونه ويلفونه ويربطونه أمام بواباتنا: كالدجاج، والبط الميت والحي، وشرائح اللحم ورؤوس الحيوانات المقززة والسمك، وكعك الأرز، وحبات الأناناس الكاملة الناضجة، والبطيخ، والموز. وعندما ينتهي المهرجان بعد أن تأكل الأشباح حصتها من الوجبة، يأتي المتسولون أو المعدمون لتناول بقايا الطعام الدنيوي على هيئة وليمة فاخرة على شرف عائلة تشين.

وجدت المنافسة على القرابين وحشية، كحالها أمام كل البيوت الأخرى، ولكن هذا بيتي وأنا المخولة للحصول على هذه الأشياء. شققت طريقي إلى الأمام. فحاول شبح يرتدي رداء ممزقاً عليه شعار مطرز يظهر أنه عالم من المرتبة الخامسة أن يكزني بمرفقه، ولكن صغر حجمي سهل عليّ التسلل من تحت ذراعه.

صاح بغضب قائلاً: "هذه لنا. ليس لك حق فيها. ارحلي!".

فتمسكت بالطاولة، وكان ذلك يساعد كائناً أثيرياً لا مادياً مثلي، وخاطبته بالاحترام الملائم لبيتنا.

وقلت: "هذا بيت عائلتي".

فزمجر مخلوق آخر إلى يميني قائلاً: "ليس لمكانتك في الحياة أي أهمية هنا".

وقالت امرأة بنبرة ساخرة: "لو أنك تتمتعين بأي مكانة على الإطلاق لتم دفنك بطريقة ملائمة. إنك مجرد فرع عديم القيمة". وكان اللحم على وجهها فاسداً بحيث إن جمجمتها بدت ظاهرة من خلاله.

اقترب الرجل ذو الرداء بفمه الكبير ذي الرائحة الكريهة إلى وجهي، وقال: "لقد نسيت عائلتك أمرك كما نسوا أمرنا. إذ إننا اعتدنا أن نأتي إلى هنا منذ سنوات، ولكن انظري ما الذي أعطونا إياه الآن! لا شيء تقريباً. يبدو على أخيك الجديد أنه لا يدرك خطأه! نعم. بعد أن ذهب والدك إلى العاصمة، اعتقد باو أن هذا الاحتفال غير ضروري، فأخذ أفضل القرابين إلى غرفته ليشاركها مع محظياته".

ثم أمسكني ذو الرداء من عنقي وقذفني بعيداً، فارتطمت بجدار القصر في الجانب الآخر من الشارع وسقطت على الأرض، وراقبت بينما أخذ الآخرون يقضمون القرابين الحقيرة ويمزقونها. فتسللت من حولهم وقرعت بلا طائل على البوابة. لقد أمضيت حياتي بأكملها وأنا أتمنى أن أغادر البيت وأخرج في جولة. أما الآن، فكل ما أردته هو الدخول.

مضى وقت طويل لم أفكر فيه في عائلتي. فلا بد أن زهرة اللوتس والمكنسة أصبحتا تعيشان في بيتيهما المستقلين الآن، ولكنني أدركت أن زوجات أعمامي لا يزلن في الداخل وأن المحظيات لا يزلن موجودات. وكانت ابنة عمي الصغيرة زهرة السحلبية تستعد لخطوبتها. ففكرت في أفراد العائلة الذين يعيشون خلف البوابة جميعاً، كالمربيات والخادمات والطاهيات. والأهم منهن جميعاً هي أمي التي عاشت خلف البوابة. لا بدّ أن تكون هناك طريقة لرؤية أمي.

مشيت حول المبنى وانعطفت في زوايا كبيرة لأتجنب حدة المنعطفات، ولكن بلا جدوى. إذ لم تكن لقصر عائلة تشين إلا بوابة واحدة فقط مغلقة في وجه الأشباح الجائعة. ترى هل كانت أمي الجالسة في قاعة براعم اللوتس تفكر فيّ؟ رفعت نظري محاولة أن ألمح شرفة الإطلالة - ترى هل كانت جدتي تنظر إليّ وهي تهز رأسها ساخرة من غبائي؟

إن الأشباح، كالأحياء تماماً، لا يحبون أن يتقبلوا الحقيقة المرة. وهكذا، فنحن نُضلّل أنفسنا لنحفظ ماء وجهنا ونُبقي على مقدار معين من التفاؤل ونستمر في التقدم إلى الأمام في الأوضاع اليائسة. لقد رفضت أن أعتبر نفسي شبحاً جائعاً يقحم وجهه في الفاكهة العفنة ليشبع جوعه الضاري.

فتنهدت وشعرت أنني لا أزال جائعة، وتوجب علي أن آكل في هذا اليوم مقداراً يكفيني عاماً كاملاً.

أثناء إقامتي على شرفة الإطلالة ، نظرت لبعض الوقت إلى عائلة كيان التي زارها والدي خلال مهرجان العام الجديد بعد وفاتي بوقت قصير. فانطلقت في الاتجاه الصحيح وقاومت بعض الأشباح عندما تطلب الأمر، وقمت بانعطافات واسعة عندما اقتضت الضرورة، وتهت في الممرات المتعرجة بين حقول الأرز التي صممها المزارعون لهذا الغرض بالذات.

أرخى الليل سدوله. فحان الوقت الذي يخرج فيه عدد أكبر من الأشباح لتملأ بطونها، ولكنني لم أقابل في الريف إلا عدداً قليلاً من الأشباح. ففي هذا المكان، يلقى معظم الناس حتفهم أثناء الزلازل والفيضانات والمجاعات والأوبئة من مختلف الأنواع. ولهذا فجثثهم لا تضيع لأنهم يموتون قرب بيوتهم. ونادراً ما يطرأ حادث تختفي فيه جثة شخص ما كلياً، ربما في حريق بيت مفاجئ يحرق العائلة بأكملها أو انهيار جسر خلال موسم الفيضانات يحمل جثة رجل وهو متوجه إلى السوق مع حيوانه المقزز. ونتيجة لذلك، فمعظم الموتى في الريف يدفنون بعناية ويستقرون في أماكن راحتهم الملائمة.

ولكنني صادفت بالفعل بعض القلقين، كأم دفنت بشكل غير ملائم فاخترقت جذور الأشجار جسدها وتسببت لها بألم لا يطاق أو رجل انجرف بعيداً في تابوته عندما وقع فيضان. فتلك الغضب والقلق هؤلاء القلقين. وعندما حاولت أن تلتمس المساعدة من عائلاتها أدخلت الرعب في نفوس أفرادها. فلا أحد يحب أن يسمع نحيب الأشباح أو الهم الذي لا يحتمل عندما يحاول أن يستغرق في النوم أو يطعم طفله أو يمضي وقته مع زوجته. ولكن باستثناء هؤلاء، أمضيت رحلة هادئة وموحشة.

وصلت إلى بيت عائلة كيان. فاكتشفت أنهم يتمتعون بقلوب طيبة وكريمة رغم فقرهم وحاجتهم. ومع أنهم قدموا قرابين متواضعة، فقد وجدت نوعيتها أفضل من أي شيء أكلته حتى الآن. وحالما شبعت، اقتربت من البيت لأنني أردت أن أستريح قبل أن أعود في رحلتي إلى المدينة وأنا مستمتعة بشعور الشبع. وتمنيت أن أتواصل لدقائق فقط مع الأشخاص الذين ربطتهم علاقة مقربة مع عائلتي.

ولكنني وجدت النوافذ مغطاة بستائر خشبية والأبواب مقفلة من الداخل. فشممت رائحة الأرز المطهو، ورأيت ضوء القناديل الذي تسرب من تحت الباب. وسمعت أصواتاً تهمس. فأرهفت السمع وتوضح لي صوت

مدام كيان وهي تقول: "منذ توقفت عن جمع ريش الطيور من ضفاف نهر الزمرد، مكثت في بيتي المتواضع الفقير وأنا أنشد قصائدي". وكنت أعرف هذه القصيدة جيداً. فأدخلت الحزن إلى نفسي وذكرتني بشوقي لبيتي، ولكن ماذا بيدي أن أفعل؟ لقد أصبحت كائناً وحيداً ومحروماً من العائلة والرفقة وموهبة الكلمات والفن. فدفنت وجهي بين يديّ وانتحبت. وسمعت من داخل البيت صرير الكراسي وأصوات الرعب. لقد خفف أولئك الناس عني وقدموا لي المساعدة، ولكنني الآن أرعبتهم بصراخي الآتي من العالم السفلي.

عندما انتهى الاحتفال وعدت إلى بيت رين وزي، شعرت أنني شجاعة وقوية بشكل غير متوقع، وبعد أن شبعت للمرة الأولى منذ وقت طويل، شعرت بنوع آخر من الجوع، ذلك الجوع الذي احتفظت به لمشروعي عن حديقة الفاوانيا . ماذا إن استطعت أن أضيف على ما كتبته في الحواشي وأحوله إلى صورة ذاتية يستطيع رين أن يميزها على أنها ترمز لكل شيء أكنه له في أعماقي؟ أليست صورة لينيانغ وكتاباتي مرآة عاكسة؟

وفجأة أصبحت أشبه زي في أنانيتها، وبعد أن علمتها عن حديقة الفاوانيا ولامست أفكارها حتى ألهمتها الكتابة على قصاصات الورق وإخفاءها في غرفة نومها، توجب عليها الآن أن تنفذ مهمة من أجلي.

بدأت أفضل أن أبقي زي في غرفة النوم خلال النهار على أن أسمح لها بالانضمام إلى زوجها وحماتها في قاعة الطعام لتناول الفطور أو الغداء. وكنت أكره الضوء، ولهذا فقد أجبرتها على إبقاء الأبواب مغلقة والنوافذ مغطاة. وخلال فصل الصيف، ظلت الغرفة باردة بالطريقة التي أحبها. أما في الخريف، فقد أحضرت زي اللحف، وعندما بدأ الشتاء، اعتادت على ارتداء السترات المبطنة بالفرو. ثم حل العام الجديد وتبعه الربيع. وفي الشهر الرابع، تفتحت براعم الزهور لتحيي الشمس، ولكننا في الداخل عزلنا على رفقتنا في ظلامنا المشترك الذي رفض أن يسمح لدفء الشمس أن يتسرب إليه حتى في النهار.

طلبت من زي أن تعيد قراءة ما كتبته على المجلد الأول. ثم أرسلتها إلى مكتبة رين لتعثر على مصادر الآثار الأدبية الثلاثة التي لم أستطع العثور عليها وأنا على قيد الحياة، وساعدتها على الإمساك بالريشة وكتابة هذه الأجوبة وأفكاري حولها على الصفحات بجانب كتاباتي الأخرى. وإن كنت قد أفلحت في جعل زي تفعل ما آمرها به، فهل سيصعب عليّ

أن أجعلها تمسك الريشة وتكتب؟ كلا بالطبع، فهذا سهل للغاية.

ولكنني لم أشعر بأي نوع من الرضى. لقد كنت بحاجة ماسة إلى المجلد الثاني الذي يبدأ بمشهد مينغمي وشبح ليناغ وهما يقسمان على الحب الأبدي ثم يضع النقطة على لوحها. لو أنني فقط أستطيع أن أجعل زي تكتب أفكاري ثم تعطيها لرين ليقرأها، ألن يلهمه ذلك أن يحذو حذو مينغمي؟

عندما حل الليل، التقينا في حلم زي عند بركتها المفضلة. فقلت لها: "إنك بحاجة إلى المجلد الثاني، يجب أن تحصلي عليه". وأمضيت أسابيع طويلة وأنا أكرر هذه الأسطر مراراً وتكراراً كالببغاء. ولكن زي كانت مجرد زوجة لا تستطيع أن تخرج لتعثر على هذا المجلد. فتوجب عليها أن تعتمد على خدعها وحب زوجها لتجلبه إلى بيتنا. وقد تحلت بقدراتها الخاصة، إلى جانب المساعدة التي قدمتها لها، واستطاعت أن تكون عنيدة وتافهة ومدللة، وتجاوب معها زوجها بشكل جميل.

فقالت وهي تصب له فنجاناً من الشاي: "إنني أتوق إلى قراءة المجلد الثاني من حديقة الفاوانيا . لقد شاهدت الأوبرا قبل سنوات عديدة والآن أود أن أقرأ كلمات هذا الشاعر العظيم وأناقشها معك". وبينما أخذ يرتشف رين الشاي الساخن نظرت إلى عينيه وهي تداعب كمه الطويل بيدها وأضافت قائلة: "إنني أحياناً لا أفهم ما يعني الكاتب بصوره وإشاراته. أما أنت فشاعر بارع، وربما تستطيع أن تساعدني".

وعندما حل الليل وتمدد رين بجانبها واللحف مكومة عليهما لتبقيهما دافئين، همست في أذنه قائلة: "لا يمضي يوم واحد لا أفكر في زوجتك الأولى. إن القسم المفقود من الأوبرا تذكرة حية على أن المثيلة قد رحلت عن الحياة. ولا بد أنك تفتقدها أيضاً. ليتنا فقط نستطيع أن نعيدها إلينا".

ازددت جرأة، وعندما حل فصل الصيف، بدأت أغادر الغرفة بأن أضع يدي على كتفيّ زي وأتركها تسحبني من غرفة إلى أخرى. وعندما يجري أحد بهذه الطريقة، لا يتوجب عليّ أن أقلق بشأن المنعطفات. إذ إنني كنت مجرد نفحة هواء تسير خلف زي. وعندما وصلنا إلى قاعة الطعام من أجل تناول العشاء، رأيت مدام وو تضع مروحتها جانباً وتستدعي الخدم ليغلقوا الأبواب لمنع هبوب الهواء البارد وتطلب المزيد من الفحم ليشعل في المجمرة مع أننا في أشد أشهر الصيف حرارة.

قالت مدام وو لزي: "لقد أصبحت شفتاك رقيقتين من جديد".

إنها شكوى الحموات المعتادة لأن الجميع يعرفون أن الشفاه الرقيقة تظهر ضعفاً في الشخصية ويُترجم هذا الضعف إلى ضعف في الرحم. والرسالة الضمنية هي: أين حفيدي؟ وهذا تصرف نموذجي جداً وعتيق الطراز.

أمسك رين يد زي من تحت الطاولة. واكتسب وجهه تعبيراً قلقاً.

"يدك باردة، يا زوجتي، مع أننا في فصل الصيف. اخرجي معي غداً. وسوف نجلس بجانب البركة وننظر إلى الزهور والفراشات وندع الشمس تدفئ جلدك".

تمتمت زي: "في هذه الأيام، أصبح من المقدر لي أن أكره البراعم بينما تذكرني الفراشات بالأموات. وعندما أرى الماء لا أفكر إلا في الغرق".

علقت حماتي بسخرية واضحة: "أعتقد أن الشمس لن تساعدها أيضاً. فهي تجلب البرد معها أينما ذهبت. ولا تريد للشمس أن تهرب منها أيضاً".

امتلأت عينا زي بالدموع. وقالت: "يجب أن أعود إلى غرفتي. فهناك بعض القراءة يجب أن أنهيها".

لفت مدام وو شالها بإحكام حول كتفيها. ثم قالت: "هذا أفضل. سأستدعي طبيباً غداً ليشخص حالتها".

فارتعشت زي من ذكر الطبيب وقالت: "هذا ليس ضرورياً".

"كيف ستنجبين ابناً إن لم...؟".

ابن؟ كانت قيمة زي بالنسبة إليّ أكثر من قدرتها على إنجاب صبي! إنها كانت تساعدني. لم نكن بحاجة إلى صبي.

ولكن هذا لم يبعث القلق في نفس الطبيب جاو عندما حضر لزيارتنا. ولم أكن قد رأيته منذ مدة تزيد عن سبع سنوات، ولا يسعني القول إنني سررت لرؤيته مرة أخرى.

أخذ نبضها كالعادة ونظر إلى لسانها وتنحى مع رين خارجاً وأعلن قائلاً: "لقد رأيت هذا مرات عديدة من قبل. لقد توقفت زوجتك عن الأكل وأصبحت تمضي وقتها وهي تفكر في الظلام. يا سيد وو، أستطيع أن أتوصل إلى استنتاج واحد، وهو أن زوجتك مصابة بحالة من العشق ولوعة الحب".

سأل رين بقلق قائلاً: "ماذا يمكنني أن أفعل لها؟".

جلس الطبيب جاو مع رين على مقعد في الحديقة.

قال الطبيب: "عادة ما تشفى الزوجة عندما تمضي ليلة مع زوجها.

أليست زوجتك راغبة في فعل هذا؟ ألهذا السبب لم تحمل بعد؟ إنك متزوج منذ أكثر من عام".

شعرت بالغضب بسبب تلميح الطبيب لهذه الأمور، وتمنيت لو أنني أملك قدرات الشبح الحاقد لأجعل الطبيب يدفع ثمن اتهاماته.

قال رين: "لا يسعني أن أتمنى زوجة أفضل منها من هذه الناحية".

قال الطبيب: "ربما يكون هناك سبب آخر لإصابة زوجتك بلوعة الحب. أهناك شيء آخر تريده؟".

غادر رين البلدة في اليوم التالي. فلم أحاول أن أتبعه لأنني بقيت مشغولة مع زي. دخلت مدام وو بناء على تعليمات الطبيب إلى غرفة النوم وفتحت الأبواب ونزعت الستائر الثقيلة التي تغطي النوافذ. فملأت الحرارة والرطوبة المعروفة في هانغجو خلال أشهر الصيف الغرفة. وكانت مريعة، ولكننا حاولنا قدر المستطاع أن نطيعها ونتكيف ونضع مشاعرنا الشخصية وراحتنا جانباً ونذعن للأوامر. حاولت أن أبقى قريبة من زي قدر المستطاع لأمنحها العزاء من هذا التدخل. وسررت لأن أراها ترتدي معطفاً آخر فوق سترتها. وقد تستطيع الحموات أن يملين علينا ما نفعله، وقد نبدو مطيعات، ولكنهن لا يستطعن أن يراقبننا في كل لحظة.

بعد ثلاثة أيام، عاد رين إلى البيت.

وقال: "لقد ذهبت إلى كل قرية بين نهري تياو وجا، وحصلت على مرادي في شاوخي. إنني آسف لأنني لم أفعل ذلك في وقت أبكر". وأخرج من خلف ظهره نسخة من حديقة الفاوانيا تحوي الجزءين في مجلد واحد. وقال: "هذه أفضل هدية أستطيع على الإطلاق أن أقدمها لك". ثم تردد، فأدركت أنه كان يفكر بي، وقال: "سوف أعطيك القصة كاملة".

رميت وزي نفسينا بين ذراعيه سعادة، ولكن ما قاله تالياً أقنعني أنني ما زلت أسكن أعماق قلبه.

فقد قال: "لا أريدك أن تصابي بلوعة الحب. سوف تتحسنين قريباً".

ففكرت في نفسي قائلة: نعم نعم، سأتحسن. شكراً لك، يا زوجي، شكراً لك.

فكررت زي قولي وهي تتنهد قائلة: "نعم، نعم".

وهكذا، توجب علينا أن نحتفل.

فقالت زي: "هيا بنا نحتفل".

وعلى الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً، فقد أحضر الخدم زجاجة من الشراب وكوبين من اليشب. ولم تكن زي معتادة على الشرب، أما أنا

فلم أذق الشراب في حياتي. ولكننا أمضينا وقتاً رائعاً. فشربت زي كوبها الأول قبل أن يمسك رين كوبه. وكلما وضعت زي كوبها، لمست حافته، فملأته مرة أخرى. حدث ذلك في وضح النهار والنوافذ مفتوحة للحرارة، ولكن نوعاً آخر من الحرارة بدا يسري بين الزوجين. فتوالت الأكواب حتى شربت زي تسعة أكواب واحمرت وجنتاها من تأثير الشراب. وكان رين أكثر احتشاماً. ولكنه أدخل السرور على قلب زوجته. فكافأته هي بدورها بامتنان كبير.

استغرق كلاهما في النوم في فترة العصر المبكر. وفي اليوم التالي، نهض رين في وقته المحدد وذهب إلى مكتبته ليؤلف. فتركتُ زي تكمل نومها لأنني أردتها أن تستيقظ وهي في أتم النشاط والاستعداد.

الفصل الرابع عشر

أحلام القلب

•

عندما تسللت أشعة الشمس واصابت غطاء السرير الأحمر، ايقظت زي، وجعلتها تجمع كل قصاصات الورق الصغيرة التي كتبت عليها طوال الأشهر القليلة المنصرمة وارسلتها إلى مكتبة رين. فأطرقت خجلاً وارته الأوراق التي بين يديها.

وسألته: "أتسمح لي بنسخ تعليقاتي إلى جانب تعليقات زوجتك الأولى تونغ في نسختنا الجديدة من حديقة الفاوانيا ؟".

فقال لها دون حتى أن يرفع نظره عن أوراقه: "إنني أسمح لك بذلك".

فكرت في مدى حسن حظي لأن الزواج لم يخلق عقله المنفتح، فتعمق حبي له أكثر من ذي قبل.

ولكن دعوني أوضح شيئاً: لقد كانت فكرتي أنا أن تنسخ زي تعليقاتي في المجلد الجديد وأن تضيف تعليقاتها إلى تعليقاتي وأن تتابع العمل الذي عجزت عن إنهائه عندما أحرقت أمي المجلد الثاني. ولهذا فقد بدا لي من المنطقي أن يجتمع كل شيء في الكتاب الجديد.

استغرقت زي أسبوعين لتنهي نسخ تعليقاتي بشكل مرتب في النصف الأول من مجلدنا الجديد. واستغرقت أسبوعين آخرين لترتب الأوراق الصغيرة وتنسخها على الأوراق النظيفة في القسم الثاني، ثم بدأنا نضيف تعليقات جديدة على كلا القسمين.

إن المنطق يملي علينا أن نكتب ما نعرفه بالخبرة وأن نتعدى حدود العقل ونتواصل مع الأشياء والأشخاص والخبرات الحقيقية. وهذا ما يجعلني أقتنع قناعة راسخة بما كتبه يي شاويوان في مقدمته التي استهل بها المجموعة التي ألفتها ابنته ونشرت بعد وفاتها. ونتيجة لهذا، فعندما جعلت زي تكتب، بدت تعبيراتها عن بنية الأوبرا أكثر توسعاً مما كتبته وأنا فتاة ملتاعة على سريري. فتمنيت أن يرى رين كتابة زي ويسمع صوتي من خلالها ويعرف أنه ما زال يحظى بحبي.

مرت ثلاثة أشهر. فاختبأت الشمس خلف الغيوم وبدأت تغيب في وقت مبكر. وأغلقت النوافذ وعلقت الستائر الثقيلة وأغلقت الأبواب لتمنع

البرد وأشعلت المجامر. فشكل هذا التغيير في الطقس بيئة مفيدة لي وحفز تفكيري. وأمضيت أسابيع بطولها مسمرة أمام مشروعي وبالكاد أسمح لزي أن تخرج من غرفتها، ولكنني في إحدى الليالي سمعت رين وهو يتحدث إلى زوجته قبل النوم. ورأيته يجلس على حافة السرير وذراعاه تحيطان بكتفيها. فبدت صغيرة وشديدة الرقة بجانبه.

قال لها: "لقد أصبحت شاحبة، وأرى أنك ازددت نحولاً".

فعلقت بفتور قائلة: "إن والدتك لا تزال تتذمر بشأني، كما ألاحظ".

"انسي أمر حماتك. إن زوجك الآن هو من يتكلم". ولمس بيديه الدوائر التي تشبه المرين داكنين تحت عينيها. وقال: "لم تكن لديك هاتان الهالتان عندما تزوجنا، ويؤلمني أن أراهما الآن. هل أنت تعيسة معي؟ أترغبين أن تزوري والديك؟".

ساعدتُ زي على الاتيان بالجواب الصحيح.

فرددت بضعف قائلة: "إن الفتاة مجرد ضيفة في بيت والديها، وأنا أنتمي إلى هذا البيت الآن".

سألها: "أتودين الخروج في جولة".

فتنهدت وقالت: "إنني راضية هنا معك. غداً سوف أبذل المزيد من الاهتمام بزينتي وسوف أحاول بجهد أكبر لأرضيك...".

فقاطعها بحدة قائلاً: "لست أتحدث عن إرضائك لي". وعندما ارتجفت من كلامه، تابع بنبرة أكثر لطفاً: "أريد أن أجعلك سعيدة، ولكنني عندما أراك في فترة تناول الفطور، ألاحظ أنك لا تأكلين أو تتكلمين. إنني نادراً ما أراك خلال اليوم بعد ذلك. لقد اعتدت أن تحضري لي الشاي. أتتذكرين هذا؟ وكنا نثرثر معاً في المكتبة".

فوعدته قائلة: "سأقدم لك الشاي غداً".

هز رأسه وقال: "لست مهتماً بتقديم الشاي. إنك زوجتي وأنا قلق عليك. إن الخدم يقدمون العشاء وأنت لا تأكلين. أخشى أنه سيتوجب علينا أن نستدعي الطبيب مرة أخرى".

لم أستطع أن أتحمل المه. فانزلقت من مكاني فوق العوارض الخشبية وحمت خلف زي تماماً ثم مددت إصبعي ولمست عنقها. وكنا قد أصبحنا مقربتين جداً بحيث إنها أطاعت توجيهاتي بدون مقاومة. فأدارت رأسها وبدون كلمة واحدة غطت فمه بيدها. وقد ساءني كثيراً أن أرى قلقه وأسمع شكواه.

لطالما نجحت وسائلي في إسكاته في الماضي، ولكن ليس الليلة. فقد

ابتعد عنها وقال: "إنني جاد في ما أقوله. لقد ظننت أن إحضار نسخة حديقة الفاوانيا سيشفي مرضك، ولكن يبدو عليها فقط أنها زادته سوءاً. صدقيني، ليس هذا ما كنت أنوي حدوثه. غداً سأذهب وأرجع بصحبة الطبيب. من فضلك استعدي لاستقباله".

عندما استلقيا على السرير، أحاط رين زي بذراعيه وضمها إلى صدره واحتضنها محاولاً حمايتها.

همس لها قائلاً: "ابتداء من الغد ستتغير الأمور. فسوف أقرأ لك بجانب الموقد وسوف أطلب من الخدم أن يعدوا لنا أطباقاً خاصة ونأكل وحدنا. إنني أحبك، يا زي. وسوف أجعلك تتحسنين".

إن الرجال واثقون بأنفسهم ويتمتعون بمقدار كبير من الشجاعة والقناعة. ولهذا، فهم يعتقدون حقاً أنهم يستطيعون أن يجعلوا الأمور تتحسن بمجرد الكلام. وفي العديد من الحالات، يستطيعون ذلك فعلاً. لقد أحببت هذه الصفة في رين وأحببت أن أرى تأثيره على شقيقتي الزوجة. وعندما رأيت الطريقة التي تسرب بها دفؤه إلى جسمها، فكرت وهو يداعب جسد ليniانغ البارد الشبحي ويعيده إلى الحياة. وعندما أصبح تنفس رين عميقاً وهادئاً استجاب تنفس زي بالطريقة نفسها. وحالما استغرق رين في النوم، جررت زي من سريرها وجعلتها تشعل شمعة وتمزج الحبر وتفتح مشروعنا. وشعرت أنني متحمسة ونشيطة. فهذه هي وسيلتي الوحيدة للعودة إلى رين وحياتنا معاً.

لم أستطع أن أجعل زي تكتب الكثير بل قليلاً فقط:

"ليست ليniانغ هي ما يدهش خيال الأوبرا بل العالم. فهناك الكثير من النساء المهووسات بالحب مثل ليniانغ واللواتي يحلمن بالحب ويمتن من أجله. إنهن لا يحظين بينغمي الذي فسر صورة ليniانغ وأحب وجودها وكأنه لحم ودم وتآمر مع الأخت ستون وحملها بلا خوف وسافر بعيداً ليتوسل إلى حماه وعانى العذاب القاسي على يديه. لقد اعتبر العالم الحلم حقيقياً جداً لدرجة أن فتح قبرها لم يبعث الخوف في نفسه. لقد بكى عليها بدون خزي. وفعل كل هذا بدون ندم أو أسف" .

ابتسمت مسرورة من إنجازي ثم تركت زي تعود إلى الراحة والدفء بين ذراعي زوجها. وصعدت الجدار واستأنفت جلوسي على الدعائم الخشبية. لقد توجب عليّ أن أبقي رين مسروراً من زوجته أو أنني لن أتمكن من استخدامها للكتابة. وإن لم أستطع أن استخدمها، فلن يسمعني. لمضيت

الليل بطوله وأنا أراقب الاثنين نائمين وأنقب في ذاكرتي عن كل الأمور التي قالتها لي أمي وزوجات عمي عن واجبات الزوجة. فقد اعتادت أمي أن تقول لي: "كل صباح انهضي قبل زوجك بنصف ساعة". ولهذا، ففي صباح اليوم التالي، جعلت زي تنهض قبل أن يستيقظ رين.

وهمست لزي وهي جالسة أمام علبة زينتها: "إن خسارة نصف ساعة من نومك لا تؤذي صحتك أو جمالك. أتعتقدين أن زوجك يحب أن يراك مستغرقة في النوم؟ كلا. خذي خمس عشرة دقيقة لتغسلي وجهك وتمشطي شعرك وترتدي ملابسك". وساعدتها على خلط مساحيق التجميل ووضع أحمر الشفاه وتجعيد شعرها وتزيينه بالريش. وحرصت على أن ترتدي اللون الزهري، ثم قلت: "خذي خمس عشرة دقيقة أخرى لتهيئي ملابس زوجك وتضعيها بجانب وسادته. وعندما يستيقظ، كوني مستعدة بالماء العذب والمنشفة والمشط".

بعد أن غادر رين الغرفة، ذكرت زي قائلة: "لا تتواني أبداً عن تحسين ذوقك وأسلوبك كامرأة. ولا تملأي البيت بالقسوة والعناد والغيرة، فهذه الصفات لا توجد إلا في الشارع. وبدلاً من ذلك، واصلي التعلم. فالقراءةُ ستثري محادثتك وفنُّ صب الشاي سيبهج زوجك وعزفُ الموسيقى وتنسيق الزهور سيعمقان قواك العاطفية ويضفيان عليه الحيوية على حد سواء". ثم تذكرت أمي في اليوم الذي ساعدتها فيه على ربط قدمي زهرة السحلبية، فأضفت قائلة: "إن زوجك هو شكناك. فكيف يسعك ألا تخدميه؟".

للمرة الأولى منذ وقت طويل، دفعتها خارج الباب وأرشدتها باتجاه المطبخ. ولا يتوجب علي القول إن زي لم تدخل إلى هناك من قبل قط. وعندما رمقت إحدى الخادمات بنظرة استهجان، سحبت رموش عينيها لأبقيهما مفتوحتين وعفويتين. ورغم أنها كانت فتاة مدللة وزوجة شاردة الذهن، فلا بد من أن أمها قد علمتها شيئاً ما. حرصتُ على أن تبقى زي هناك إلى أن تعلمت أبسط الوصفات. فراقبتها الخادمات بتوتر وهي تضع قدراً من الماء لتغلي وتصب فيها قبضة من الأرز وتواصل التحريك إلى أن تحول إلى عصيدة قشدية. ثم راحت تبحث بين السلال والخزائن إلى أن عثرت على بعض حبوب الفول السوداني النيئة والخضار. فقطعتها ووضعتها في أوعية البهارات وصبت العصيدة في صحن للتقديم ووضعته إلى جانب الأطعمة الجانبية والأوعية وملاعق الحساء على صينية وحملتها إلى قاعة الطعام. فجلست مدام وو وابنها عاجزين عن الكلام عندما قدمت

لهما زي الطعام ورأسها منكس ووجهها محمر بشكل جميل من بخار الطهو وانعكاس لون بلوزتها. وعندما انتهوا من تناول الطعام، تبعت زي حماتها إلى حجرة النساء حيث جلست الاثنتان معاً للتطريز وتجاذب أطراف الحديث. فلم أسمح لأي كلمات لاذعة تخرج من فم أي منهما. ولم يشعر رين بالحاجة إلى استدعاء الطبيب.

الححتُ على زي أن تتبع هذه الطقوس لتخفف من قلق زوجها وتكسب احترام حماتها. وجعلتها تحرص عندما تطهو على جعل جميع النكهات منسجمة والطعام معطراً. وعندما أحضرت إلى مائدة العشاء سمكاً من البحيرة الغربية، انتظرت لتتأكد من أن الآخرين قد أحبوا طعمه. وأصبحت تصب الشاي عندما ينقص من كوب زوجها أو حماتها. وحالما تم الإيفاء بكل هذه المتطلبات، جذبتها إلى حجرة النوم وعدنا إلى العمل.

بحلول هذا الوقت، تعلمت الكثير عن الحياة الزوجية والعاطفية بين الزوجين. ففهمت أنها ليست ذلك الشيء القذر الذي تسخر منه الأخت ستون أو الشيء الوضيع الذي تطلق روح الورد تلميحات وقحة عنه في حديقة الفاوانيا . بل استنتجت أنه يتمثل في تحقيق الصلة من خلال اللمس. فجعلت زي تكتب:

"تقول ليينيانغ: قد تكون الأشباح مهملة للعاطفة، ولكن يجب على البشر أن يتكلفوا اللباقة . ولا يمكن لنا ولا ينبغي لنا أن نعتبر أن ليينيانغ قد دمرت نفسها لأنها بادلت مينغمي عاطفته في أحلامها. فالعاطفة في الأحلام تبقى بلا عاقبة ولا تضع أي مسؤولية على عاتق المرء ولا ينبغي له أن يشعر منها بأي خجل. كل الفتيات تراودهن أحلام من هذا النوع، ولكن هذا لا يفسدهن بل يفعل شيئاً أبعد من ذلك بكثير. إن الفتاة التي تحلم بالحب والعاطفة تهيئ نفسها لتحقيق متطلبات الحب. وتقول ليينيانغ: إن الخطوبة تصنع زوجة أما الهرب فلا يصنع إلا محظية . وما يعتبره بعضهم غير لائق يصبح بين الزوج والزوجة تصرفاً أنيقاً" .

ولكن الحب لا يقتصر على العاطفة بين الأزواج والزوجات. ماذا عن حب الأم؟ لقد شعرت أنني لا أزال افتقد أمي وأشتاق إليها. ولا بد أنها ظلت ممتلئة شوقاً إليّ وهي جالسة في البيت في الطرف الآخر من البحيرة. أذلك حب أيضاً؟ جعلت زي تذهب إلى الفصل المتعلق بلقاء الأم وابنتها، وهو الفصل الذي تقابل فيه ليينيانغ أمها بالصدفة في بيت ضيافة مانغنجو.

لطالما اعتبرت هذا المشهد مجرد فترة راحة من مشاهد المعارك والسياسة التي تشوه القسم الثالث من الأوبرا، ولكنني عندما أقرأه الآن، أنجذب إلى عالم من الحب الأنثوي والحماسي والعاطفي جداً.

يصيب الرعب مدام دو وخادمتها عطر الربيع عندما تخطو لينيانغ خارجة من الظلال وتظنان أنهما تريان شبحاً. فتجهش لينيانغ بالبكاء، بينما تنكمش المرأتان الأخريان من الخوف والاشمئزاز. ثم تدخل الأخت ستون إلى الغرفة حاملةً مصباحاً، وبعد أن تقيم الوضع بسرعة، تمسك بذراع مدام دو وتقول: "دعي ضوء المصباح يساعد ضوء القمر على كشف ملامح وجه ابنتك". فينقشع ظلام سوء الفهم عن عيني مدام وو وترى أن الفتاة الواقفة أمامها هي ابنتها فعلاً وليست مجرد شبح. فتتذكر حزنها ويأسها اللذين شعرت بهما عندما ماتت ليانغ، ويصبح عليها الآن أن تتغلب على خوفها من هذه المخلوقة القادمة من عالم آخر. فهكذا هو عمق حب الأم، ولكنه حتى أكثر من ذلك.

أمسكت يد زي وهي تكتب:

"عندما تصدق مدام وو أن المخلوقة الماثلة أمامها بشرية، فإنها لا تعترف فقط أن ابنتها لينيانغ بشرية ولكنها أيضاً تعيدها إلى مكانها الطبيعي في عالم البشر".

هذا هو من وجهة نظري أنقى تعريف لحب الأم. فعلى الرغم من كل الألم والمحاذاة والخلافات بين الأجيال، تمنح الأم طفلتها مكانها في العالم كابنة وزوجة وأم وجدة وعمة وصديقة في المستقبل.

كتبت وزي وواصلنا الكتابة. وبحلول فصل الربيع، وبعد مرور ستة أشهر محمومة، أصابني الإنهاك أخيراً. وظننت أنني كتبت كل شيء أستطيعه عن الحب. فنظرت إلى شقيقتي الزوجة ووجدت عينيها متورمتين من فرط الإرهاق. وبدا شعرها منسدلاً رخواً على وجهها ولزجاً. وأصبحت بشرتها شاحبة جداً من عملنا ومن سهر الليالي ومن محاولة إرضاء زوجها وحماتها. فتوجب عليّ أن أعترف بدورها الهام في مشروعي. نفخت عليها بلطف. فارتعشت وأمسكت الريشة بشكل آلي.

في الصفحتين الفارغتين في مقدمة الأوبرا، ساعدت زي في تأليف مقالة تشرح كيف تمت كتابة التعليق مع حذف كل شيء قد يبدو مخيفاً أو غريباً أو غير محتمل في العالم الأرضي:

كانت هناك ذات مرة فتاة عاشقة ملتاعة تدعى تشين تونغ أحبت أوبرا حديقة الفاوانيا . وكانت خطيبة الشاعر وو رين. فأمضت هذه الفتاة لياليها وهي تكتب خواطرها عن الحب في حواشي الأوبرا. وبعد أن توفيت، تزوج رين فتاة أخرى. فعثرت الزوجة الثانية على نسخة الأوبرا التي تحوي تلك الكلمات اللطيفة. فشعرت بدافع يحثها على إكمال ما بدأته شقيقتها الزوجة، ولكنها لم تكن تملك الجزء الثاني من الأوبرا. وعندما أتى زوجها إلى البيت وبحوزته نص الأوبرا الكامل، انتشت من فرط السعادة. وكلما أمضت وقتها مع زوجها وهما يتأملان جمال الزهور، راح يمازحها عن الوقت الذي أفرطت فيه في الشرب وغفت طوال اليوم حتى صباح اليوم التالي. كانت تان زي مجتهدة وحسنة الانتباه. فأكملت التعليق وقررت أن تقدمه لأولئك الذين يعتنقون مُثل الحب العليا.

كان ذلك تفسيراً بسيطاً ونقياً ومعظمه صحيحاً. والآن، لم يبق أمامنا إلا أن نقدمه إلى رين ليقرأه.

أصبحت معتادة على إطاعة زي لأوامري بحيث إنني لم أنتبه لها عندما أخذت نسختي الأصلية من حديقة الفاوانيا بعد أن خرج رين ليقابل بعض الأصدقاء في صالة الشاي على شاطئ البحيرة. ولم تخطر ببالي أي أفكار عندما رأيتها تأخذها خارجاً. فقد ظننت أنها أرادت أن تعيد قراءة كلماتي وتفكر في كل شيء علمتها إياه عن الحب. ولم يتملكني أي قلق حتى عندما رأيتها تعبر الجسر المتعرج الذي يقطع البحيرة إلى الحديقة الصيفية التي تقع في وسط بركة عائلة وو. ولم أكن في ظل أي ظروف لأتمكن من أن أعبر الزوايا الحادة للجسر. فجلست على أصيص خزفي قرب حافة البركة تحت شجرة الخوخ التي رفضت أن تورق أو تزهر أو تحمل الفاكهة وهيأت نفسي للاستمتاع بهدوء المشهد. حدث ذلك في الشهر الخامس من السنة الحادية عشرة من حكم الإمبراطور كانجخي. فتأملت مشهد أواخر الربيع الهادئ ونظرت إلى زي الزوجة الشابة الجميلة، رغم رقة شفتيها، وهي تستمتع ببراعم اللوتس على سطح البركة الساكن.

ولكنها عندئذ سحبت شمعة من كمها وأشعلتها خارجاً في ضوء النهار. فقفزت على قدمي ورحت أذرع المكان بقلق والهواء من حولي يتحرك استجابة لحركتي. وراقبتها برعب تام وهي تمزق ورقة من المجلد الأول وتضعها ببطء وعن عمد في اللهب. ابتسمت زي وهي ترى الورقة تتجعد وتحترق. وعندما لم تعد تستطيع حملها بعد الآن ألقت بالقصاصة الصغيرة من فوق الحاجز. فسقطت بقية الورقة وهي تحترق وتتلاشى قبل أن تغرق

في الماء.

ثم مزقت ثلاث ورقات أخرى من الكتاب، ومجدداً وضعتها في النار والقت بها في البركة. فحاولت أن أركض إلى الجسر ولكن قدمي المربوطتين عجزتا عن حملي. فسقطت وخدشت ذقني ويدي، ولكنني نهضت بصعوبة على قدمي وأسرعت إلى الجسر المتعرج. فخطوت عليه وحاولت أن أتوجه في طريقي في المنعطف الأول ثم توقفت ولم استطع ان أنعطف حول هذه الزاوية. فقد صممت هذه الجسور المتعرجة خصيصاً للحماية.

فصحت قائلة: "توقفي!" وللحظة ارتجف العالم بأسره. فتوقفت الأسماك عن السباحة في البركة وصمتت الطيور وفقدت الأزهار أوراقها. ولكن زي بقيت ساكنة دون أن يهتز لها جفن ومزقت متعمدة بضع أوراق أخرى من الكتاب وأحرقتها.

أخذت أركض وأتعثر وأقف والوح بيدي وأعود إلى الشاطئ. وصحت من الطرف الآخر للبركة وأرسلت أمواجاً على الجسر المتعرج والحديقة ودوامات هوائية على أمل أن أطفئ الشمعة، ولكن زي الماكرة أخذت الشمعة من الشاطئ وركعت على ركبتيها على أرض الحديقة لتحميها من نسائم الرياح والهبات التي أرسلتها نحوها. وحالما استقرت، خطرت ببالها فكرة أكثر شراً. فمزقت كل الصفحات من الكتاب وجعدتها ووضعتها في كومة. ثم أمالت الشمعة وترددت للحظة تاركة الشمع يتقاطر على الأوراق المجعدة. وألقت نظرة خاطفة حولها وعيناها تتفحصان الشاطئ والتلال المحيطة بقلق لتتأكد من أن لا أحد ينظر إليها ثم لمست الصفحات الممزقة بلهب الشمعة.

غالباً ما كنا نسمع عن مخطوطات تم إنقاذها من الإحراق، ولكن هذه ليست مجرد صدفة أو حتى فقداناً مؤقتاً للاعتقاد بقيمة الكتابة بل عملاً متعمداً يرتكب بحقي من المرأة التي أصبحت اعتبرها شقيقتي الزوجة. رحت أنتحب بألم وكأنني أنا من أضرمت بي النيران، ولكنها لم تحفل لأمري. فبدأت أفتل جسدي وأحرك ذراعي إلى أن تساقطت أوراق الربيع من حولنا كالثلج. ولكن هذا كان أسوأ شيء فعلته. فقد أجج الهواء المسعور النيران وجعلها تتوهج أكثر. ولو أنني تمكنت من الوصول إلى الحديقة، لابتلعت الدخان وأخذت معه كل كلماتي. ولكنني لم أستطع الوصول إلى هناك. فبقيت على الشاطئ راكعة على ركبتيَّ أنتحب وأنا أعلم أن الكتابة التي كتبتها بيدي وبللتها دموعي تلاشت إلى رماد ودخان وذهبت أدراج الرياح.

انتظرت زي على الشرفة إلى أن أصبح الرماد بارداً ثم ألقت به في البركة. وعادت لتعبر الجسر بدون أي قلق أو ندم في قلبها. ولكنها حنث الخطى، وهذا ما جعلني يقظة ومترقبة. فتبعتها إلى غرفة النوم. وهناك فتحت نسخة حديقة الفاوانيا التي نسخت عليها تعليقاتي وأضافت إليها تعليقاتها. وعندما راحت تقلب كل صفحة، ارتعشت من الخوف. ترى هل أرادت أن تدمر هذه النسخة أيضاً؟ قلبت زي الصفحات عائدة إلى الصفحتين الأوليين اللتين شرحنا فيهما مصدر التعليق الحقيقي. وفي حركة حادة ووحشية وسريعة كطعنة سكين، مزقت هاتين الصفحتين. فآلمني فعلها هذا حتى أكثر مما فعلته أمي عندما أحرقت كتبي. وهكذا، لم يتبق لي شيء على الأرض أكثر من لوح أسلاف غير منقوط ضائع في غرفة التخزين. فلم يكن رين سيسمعني أبداً وسوف يطويني النسيان إلى الأبد.

أخذت زي الورقتين الممزقتين وخبأتهما بين طيات كتاب آخر.

وقالت لنفسها: "من أجل الحماية".

وبهذا، أنقذتني. وهكذا شعرت فعلاً. لقد تم إنقاذي.

ولكنني شعرت أنني مجروحة مادياً ومعنوياً. وفي غضون الوقت الذي استغرقته زي لتنفذ خطتها الشريرة، تحولت إلى لا شيء. زحفت خارجة من الغرفة وأنا أجر قدمي على طول الممر المغطى. وعندما شعرت أنني لم أعد أقوى على الابتعاد أكثر، سقطت من فوق الحافة وجعلت نفسي صغيرة جداً وانزلقت تحت الأساسات.

خرجت من مخبأي بعد شهرين لأعثر على الغذاء خلال مهرجان الأشباح الجائعة ، ولكن لم يعد هناك طواف ولا زيارة لبيتي القديم ولا رحلة إلى الريف لرؤية أراضي والدي وتناول قرابين عائلة كيان. إذ لم تبق بي طاقة إلا للنهوض من مكان اختبائي والتسلل إلى البركة وأكل الحبات الصغيرة التي يلقيها الجنائني في الماء للسمك. ثم عدت إلى الضفة وخبأت نفسي مجدداً في ذلك المكان المظلم الرطب.

كيف مرت بي، أنا الفتاة المثقفة الجميلة الذكية التي تنتمي إلى عائلة ذات امتياز ومكانة، كل هذه الأحداث السيئة؟ ترى هل كنت أكفر عن أخطائي التي ارتكبتها في حياة سابقة؟ هل مررت بهذه الأحداث لإرضاء الأسياد المبجلين؟ أم انه من المقدر لي كامرأة ان أعاني؟ خلال الأشهر التي تلت ذلك، ظلت تلك الأسئلة تتبادر إلى ذهني، ولكنني لم أعثر على الأجوبة. ورغم ذلك، بدأت استعيد قوتي وأستجمع تصميمي وعزمي وتذكرت مجدداً أن هدفي، ككل النساء والفتيات، هو ان اجعل صوتي مسموعاً.

الفصل الخامس عشر

الزوجة الصالحة

•

انقضت خمسة أشهر أخرى. وذات يوم، سمعت صوت أناس يسرعون ذهاباً وإياباً في الممر من فوقي ويهرعون ليحيوا الضيوف بتحيات مبشرة بالخير ويحملون قرابين عطرة على صوانٍ وأطباق للاحتفال بالعام الجديد. فاعادني صوت قرع الطبول والصنوج وانفجار المفرقعات ودفعني إلى الخروج إلى ضوء النهار، ولكن عينيّ احرقتني من شدة سطوع أشعة الشمس. وشعرت بأطرافي متيبسة بعدما جلست مطوية على نفسي لأشهر عديدة. أما ملابسي فقد بدت رثة وهيئتها مثيرة للشفقة.

عاد شقيق رين وزوجته من مقاطعة شانخي من أجل حضور الاحتفالات. وكانت زوجة شقيق رين قد أرسلت لي نسخة تانغ خيانجو من حديقة الفاوانيا قبل كل تلك السنوات، ولكنني لم أعش لأقابلها. والآن رأيتها، فوجدتها نحيلة ورشيقة. وأتت برفقتها ابنتها شين زوجة أحد ملاكي الأراضي في مانخجو. فلاحظت أن ملابسهما مطرزة بشكل متقن ومشخصة بمشاهد من العصور القديمة لتظهر تفرد الأم وابنتها ورقيهما. وأوحى لي صوتاهما الناعمان بالرقي والثقافة ومحبة الشعر. جلستا مع مدام وو وتحدثتا عن جولاتهما خلال العطلة وزيارتهما للأديرة في التلال ومشيهما في غابات الخيزران وزيارتهما للونغجينغ لرؤية حصاد أوراق الشاي ومعالجتها. فجعلني حديثهما أتوق مرة أخرى إلى الحياة التي فقدتها.

دخلت زي. ولم أكن قد سمعت عنها شيئاً خلال الأشهر السبعة التي امضيتها تحت الممر. فتوقعت أن أرى شفتين رفيقتين وفكاً حاداً وعينين حقودتين. وأردتها أن تبدو بهذه الهيئة. فوجدتها كذلك فعلاً. ولكن عندما فتحت فمها، لم تخرج منه إلا الكلمات الطيبة.

قالت زي مخاطبة ابنة أخ رين: "لا بد أنك، يا شين، تجعلين زوجك فخوراً جداً بحسن وفادتك. فلا بد للزوجة من أن تظهر حسن ذوقها وأسلوب حياتها الأنيق. وأنا على يقين من أنك مضيفة رائعة تجعلين رجال الطبقة المثقفة يشعرون بالراحة".

اعترفت شين قائلة: "إن الشعراء يأتون إلى بيتنا. وأود أن تزورينا بصحبة عمي يوماً ما".

أجابت زي: "عندما كنت فتاة غير متزوجة اعتادت امي أن تصطحبني في جولات. أما في هذه الأيام فأنا أفضل أن أمكث في البيت واعد الوجبات لزوجي وحماتي".

"أتفق معك، يا خالة زي، ولكن...".

تابعت زي قائلة: "يجب على الزوجة أن تتحلى بالعرض الشديد. فهل يحاول المرء أن يمشي على سطح البحيرة بعد تجمدها أول الشتاء؟ إنني لا أريد أن ألحق الذل بنفسي أو أتسبب بالخزي لزوجي. فالمكان الآمن الوحيد يكمن داخل حجراتنا الداخلية".

أجابت شين الشابة بهدوء متجاهلة كل ما قالته زي: "إن الرجال الذين يزورون زوجي مهمون، وقد يستفيد عمي رين من مقابلتهم".

قاطعتها مدام وو قائلة: "ليست لدي أي تحفظات على الجولات إن كان ابني سيستفيد من هذه العلاقات".

بعد نحو ثلاث سنوات على الزواج، ظلت ترفض أن تنتقد كنتها بشكل صريح، ولكن في كل عمل من أعمال تلك الزوجة بدأ يتضح لها أكثر فأكثر أنها ليست مثيلة لها من أي ناحية.

تنهدت زي وقالت: "إن كانت الوالدة توافق، فسوف نأتي. فأنا مستعدة لفعل أي شيء لأسعد زوجي وحماتي".

يا للهول! ما هذا الذي أسمعه؟ هل هيمنت عليها، أثناء فترة احتباني، الدروس التي علمتها إياها؟

خلال الزيارة التي دامت أسبوعاً، أمضت النساء الأربع فترات الصباح معاً في حجرات النساء. ودعت مدام وو، بطلب من كنتها وحفيدتها، نساء أخريات وصديقات للزيارة. فوصلت لي شو، وهي ابنة خال رين، بصحبة لين يينينغ، التي ارتبطت عائلتها بعائلة وو لأجيال. وكلتاهما شاعرتان وأديبتان. وكانت لين يينينغ عضوة في نادي حديقة الموز الشعري الذي تأسس على يد الكاتبة جو روبو. وقد انتهجت عضوات هذا النادي، اللواتي لم يجدن أي تعارض بين ريشة الكتابة وإبرة التطريز، أسلوباً جديداً لتحديد فكرة الفضائل الأربع. وتوصلن إلى الاعتقاد أن أفضل مثال على الخطاب النسائي هو الكتابة النسائية، ولهذا فقد أمضين معظم وقت زيارتهن في إشعال البخور القوي وفتح النوافذ وإعمال ريشات الكتابة النشطة. فعزفت زي على القانون لتسلية الجميع. وأدى رين وأخوه كل الطقوس لتهدئة أسلاف عائلة وو وإطعامهم وكسوتهم، وتصرف رين بأسلوب عاطفي مفرط مع زوجته أمام الآخرين، ولم تخطر أدنى فكرة عني لأي منهما. ولكن لم

يسعني إلا ان أراقب ما يجري وأتحمله.

ثم تغيرت حظوظي. إنني أسميه حظاً، ولكنه ربما كان قدراً. لقد أمسكت شين نسخة حديقة الفاوانيا وبدأت تقرأ كلماتي التي نسختها زي على الأوراق. وفتحت شين قلبها للمشاعر وتأثرت بكل ما تحويه. وتأملت في حياتها ولحظات الحب والاشتياق التي أحست بها، وتخيلت نفسها تصبح مسنة وتُضمِر مشاعر الخسارة والألم والندم.

سألت شين بوداعة قائلة: "أتسمحين لي باستعارة هذه، يا خالة زي؟" فلم تستطع زي أن تتجاهلها.

وهكذا غادرت نسخة حديقة الفاوانيا بيت عائلة وو وسافرت إلى جزء آخر من هانغجو. فلم أتبع شين لأنني اعتبرت أن مشروعي أصبح بين يديها أكثر أماناً مما كان عليه بين يدي زي.

وصلت دعوة إلى رين وزي ولي شو ولين يينيغ لزيارة شين وزوجها. وعندما وصلت المحفات لتأخذهم، تعلقت بكتفي زي وهي تمشي عبر المبنى. وعندما وصلت إلى محفتها خطت إلى الداخل وتسلقت أنا على السقف. فحملنا الحمالون نزولاً في جبل ووشان ومروراً بالمعبد وحول البحيرة إلى بيت شين. وبدت هذه الجولة مختلفة عن التجوال الخطر الذي قمت به كفتاة ميتة في طريقها إلى العالم الآخر أو البحث المسعور الذي انهمكت به بحثاً عن فتات الطعام خلال مهرجان الأشباح الجائعة . وأخيراً وجدت نفسي أفعل الشيء نفسه الذي وعدني به رين حالما نتزوج: لقد ذهبت في جولة.

وصلنا إلى بيت شين. وللمرة الأولى، خطوت على عتبة بيت لا ينتمي إلى زوجي أو إلى أبي. فاستقبلتنا شين في حديقة مغطاة بنبات معترش قالت إن عمره مائتا عام. ورأيت مجموعات كبيرة من زهور البنفسج تتدلى منه وتملأ الهواء بعطرها المنعش. وأدركت أن شين نفذت وعدها ودعت أعضاء مهمين من الطبقة المثقفة. فمنحت مدرسها الخاص، وهو رجل ذو لحية رفيعة طويلة تظهر عمره وحكمته، كرسي الشرف. ووصل الشاعر هونغ شينغ مع زوجته الحامل وقدما هدايا من الشراب والمكسرات. وقدمت بضع نساء متزوجات، بعضهن شاعرات، التهنئة للشاعرة لي شو على طباعة مسرحيتها الجديدة. تأثرتُ كثيراً لرؤية خو شيجونغ، مؤلف كتاب انعكاس على أمواج الربيع الذي يتحدث عن خياوكينغ. وقد اشتهر هذا الأديب بتشجيعه نشر الكتابات النسائية. أما اليوم، فقد دعي لمناقشة محاورات

بوذا. وكانت حدائق محفة: فقد سنحت الفرصة لرين لإنشاء بعض العلاقات المثيرة للاهتمام اليوم. فجلس بجانب زي وهما يبدوان زوجين شابين سعيدين.

يقول كتاب الطقوس إنه لا ينبغي للرجال والنساء أن يستخدموا علاقات الثياب والمناشف والأمشاط نفسها ناهيك عن أن يجلسوا معاً. أما هنا فقد اختلط الرجال والنساء الغرباء عن بعضهم بدون اعتبار لهذه الطريقة القديمة بالتفكير. صب الخدم الشاي وقدموا الحلوى. وجلست أنا على الحاجز وانتشيت من عطر الكرمة وأبيات الشعر التي راحت تطفو جيئاً وشمالاً عبر الشرفة كالطيور المحلقة بين الغيوم. ولكن عندما تنحنح مدرس شين التزم الآخرون على الشرفة الصمت.

وقال: "يمكننا أن نلقي الشعر ونؤلفه طوال فترة العصر، ولكنني أشعر بالفضول حيال الكتاب الذي طلبت منا شين أن نقرأه طوال الأسابيع القليلة الماضية". فأومأ بعض الضيوف برؤوسهم موافقين. ثم قال المدرس مخاطباً رين: "أخبرنا عن التعليق الذي ألفته عن حديقة الفاوانيا ".

اصبتُ بالدهشة وانزلقت عن مكان جلوسي على الحاجز. لهبت نفحة رياح على الشرفة وجعلت النساء يشددن حرير أثوابهن على أجسادهن والرجال يحنون أكتافهم. وكنت أتمتع بسيطرة ضئيلة على تأثير أفعالي على العالم الطبيعي، ولكنني حاولت أن ألتزم السكون والهدوء. وعندما هدأ الجو، نظرت شين إلى رين وابتسمت وسألته قائلة: "كيف كتبت هذا التعليق؟".

أجاب رين: "إن التواضع لا يسمح لي بالاعتراف بعمق مشاعري للأوبرا، ولكنني لم أكتب شيئاً عنها".

قال المدرس: "لقد شعرنا نحن بالتواضع، ولكننا نعلم أنك ناقد مميز. فقد كتبت الكثير عن المسرح...".

فأكمل رين جملته قائلاً: "ولكنني لم اكتب ابداً عن حديقة الفاوانيا

سأل المدرس: "كيف يمكن أن يحدث هذا؟ لقد عادت تلميذتي من بيتكم وبحوزتها نسخة من حديقة الفاوانيا . فلا بد أنك أنت من كتب الأفكار التي على الحواشي".

أقسم رين قائلاً: "لم اكتب شيئاً". وألقى نظرة خاطفة إلى زوجته، ولكنها لم تقل شيئاً.

علقت زوجة هونغ شينغ قائلة: "بعد ان قرأتها شين، اعارتني إياها.

ولا اعتقد انه من الممكن لهذه المشاعر ان تخالج رجلاً من الرجال. فلا بد أن امرأة هي من كتبت هذه الكلمات، وأتخيلها شابة مثلي". واحمر وجهها خجلاً.

صرف المدرس الفكرة وكأنها رائحة سيئة، وقال: "لا يمكن لما قرأته ان يكون مكتوباً بقلم فتاة أو امرأة. وقد سمحت لي شين ان أري التعليق للآخرين هنا في هانغجو. فأريته لرجل ولامرأة". وأشار إلى الآخرين الجالسين في الشرفة، وقال: "وتأثرنا جميعاً بهذه الكلمات. فسألنا أنفسنا، من ذلك الشخص الذي قد يتمتع بهذه البصيرة المدهشة عن الرقة والإخلاص والحب؟ لقد دعتكم شين إلى هنا لتجيبوا لنا عن هذا السؤال".

لمس رين يد زي وقال: "أهذه نسختك من حديقة الفاوانيا ؟ أهي النسخة التي عملت عليها لوقت طويل؟ تلك التي تبدأ بـ...؟".

حدقت زي إلى الأرض أمامها وكأنه يتحدث إلى شخص آخر.

سأل هونغ شينغ قائلاً: "من كتب هذه الكلمات الجميلة؟".

هل قرأ هو أيضاً تعليقاتي؟ أجبرت نفسي على عدم التحرك أو البكاء من السعادة. لقد فعلت ابنة أخ رين شيئاً استثنائياً. لقد نقلت أفكاري ليس إلى بيتها ومعلمها فقط، ولكن إلى أحد أشهر كتاب البلاد.

في تلك الأثناء، اكتسبت ملامح زي نظرة ارتباك كامل وكأنها نسيت ما كتب في الحواشي.

سأل المدرس قائلاً: "أهو زوجك؟".

أطرقت زي كما تفعل كل الزوجات المتواضعات، وقالت: "زوجي؟" وكررت بصوت عذب: "زوجي؟" وبعد صمت طويل قالت: "نعم، إنه زوجي".

يا للهول! أليست هناك نهاية لتعذيب تلك المرأة لي؟ لقد كانت في السابق طيعة وسهلة الانقياد، ولكنها بالغت في تعلم دروسي وحفظها، فأصبحت زوجة صالحة زيادة عن اللزوم.

أصر رين قائلاً: "ولكنني يا زي، لم اكتب اي شيء عن الأوبرا". ونظر إلى الآخرين وأضاف قائلاً: "أعلم بأمر التعليق، ولكنني لم اكتبه. من فضلك، أيمكنني ان اراه؟".

أومأت شين إلى الخادم ليحضر الكتاب. فانتظر الجميع وهم يشعرون بالارتباك لاختلاف الرأي بين الزوج والزوجة. أما أنا، فقد توازنت على قدمي الصغيرتين محاولة أن ألتزم الهدوء قدر المستطاع بينما اجتاحت مشاعري كالعاصفة من الخوف والدهشة والفضول واليأس والأمل.

عاد الخادم وبحوزته الكتاب ووضعه بين يدي رين. وراقب الضيوف بينما راح يقلب الصفحات. فأردت أن أركض إليه واركع أمامه وأحدق إلى عينيه وهو يقرأ كلماتي. أتسمعني؟ ولكنني بقيت في ملاذي الهادئ. فالتدخل بأي طريقة سواء أكانت مقصودة أو مهملة قد يدمر اللحظة. راح رين يقلب الصفحات ويتوقف هنا وهناك ثم رفع نظره وهناك تعبير غريب من الاشتياق والفقدان على وجهه.

"إنني لم أكتب هذا الكلام. لقد بدأت بكتابة هذا التعليق امرأة كانت ستصبح زوجتي". والتفت إلى قريبته لين يينينغ ولي شو، وقال: "إنكما تتذكران أنني كنت سأتزوج تشين تونغ. لقد بدأت هي بكتابة هذا التعليق ثم أخذت زوجتي المشروع وأضافت إليه ملاحظاتها في القسم الثاني. ولا بد أنكما تعرفان أنني أقول الحقيقة لأنكما تنتميان إلى عائلتي".

قاطعه المدرس قبل أن تتمكن المرأتان من أن تجيبا وقال: "إن كان ما تقوله صحيحاً، فلماذا يبدو أسلوب زي مشابهاً لأسلوب تشن تونغ بحيث إننا لا نستطيع التفريق بينهما؟".

"ربما يكون الزوج وحده، وهو الرجل الوحيد الذي يعرف كلتا المرأتين جيداً، من يستطيع أن يسمع صوتيهما".

اتفق معه هونغ شينغ فقال: "إن الحب ينمو فقط عندما تجمع علاقة حميمة بين الزوجين. وعندما يسطع القمر على البحيرة الغربية لا تجد زوجاً يجلس وحيداً في غرفته. وعندما يسقط دبوس الزينة على الوسادة لا نجد زوجة جالسة وحدها. من فضلك فسر لنا كيف تستطيع فتاة غير متزوجة أن تعرف هذا المقدار عن الحب. وكيف تعرف صوتها إن لم تكونا قد تزوجتما قط؟".

قاطعته إحدى الزوجات بخجل لتنقذ رين من الإجابة عن هذا السؤال المحرج قائلة: "أعتقد أن السيد وو يقول الحقيقة. فأنا أجد كلمات تونغ رومانسية. وقد قامت شقيقتها الزوجة أيضاً بعمل جيد عندما أضافت أفكارها الخاصة عن الحب".

أومأت برؤوسهن بعض الزوجات الأخريات موافقات بينما ظلت زي غافلة عما يجري حولها.

أعلنت شن قائلة: "يسرني أن أقرأ هذه الأفكار حتى من دون الأوبرا".

نعم، هذا هو بالضبط ما أردت أن أسمعه.

ثم صاح خو شيجونغ بشكه قائلاً: "أي زوجة في العالم تود أن تصبح

معروفة خارج نطاق بيتها؟ ليس لدى النساء سبب للتورط في السعي المهني نحو الشهرة".

أيمكن أن يصدر هذا الكلام من رجل لطالما عمل معلماً للنساء وأظهر تعاطفه مع محنة خياوكينغ وقدم دعمه لنشر كتابات النساء؟

أضاف أحد الأزواج متبنياً موقف خو المفاجئ فقال: "لا تود أي امرأة، ناهيك عن زوجتي، أن تعرض أفكارها الخاصة وتجهر بها بهذه الطريقة. فالنساء يلتزمن بالحجرات الداخلية ليعرضن هذه الأمور فيها. إن التحرر ومغامرة النساء بالخروج وتشجيع الرجال للنساء على الكتابة والرسم من أجل الربح، كل هذه الأمور هي التي أدت إلى ولوع الجانحة. ويجب أن تشعر بالامتنان لأن بعض النساء يعدن الآن لتبني التقاليد القديمة".

شعرت بالغثيان. ترى ما الذي حدث لهؤلاء المخلصين؟ لماذا لم تصحح لي شو ولين يينيغ، وهما كاتبتان محترفتان، كلامه؟

قال معلم شين: "يجب على الزوجات أن يتحررن". فشعرت بالراحة للحظة واحدة. ثم تابع قائلاً: "يجب أن يدركن المبادئ العليا ليعلمنها لأبنائهن. ولكن الحال للأسف لا يؤول إلى ما نريده". وهز رأسه بيأس، وقال: "إننا ندع النساء يقرأن. ثم ماذا يحدث؟ هل يرتقين بأنفسهن إلى أفكار نبيلة؟ كلا، إنهن يقرأن المسرحيات والأوبرا والروايات والشعر من أجل المتعة التي لا تفعل شيئاً سوى إتلاف التفكير".

تسمرت في مكاني لسماع قسوة هذه الكلمات. كيف يمكن للأمور أن تتغير بهذا الشكل الجذري في غضون تسع سنوات منذ توقيت؟ وربما يكون والدي لم يسمح لي بالمخاطرة بالخروج من القصر وربما تكون أمي قد غضبت من قراءتي لحديقة الغاوانيا ، ولكن هذه الأفكار بدت غريبة كلياً عني.

استنتج معلم شين قائلاً: "إذاً يمكننا أن نتفق أن اللغز قد حل وأن وو رين قد حقق شيئاً فريداً من نوعه حقاً وفتح لنا نافذة على معاني الحب وأسبابه. إنه فنان عظيم".

وقال أحد الرجال الآخرين: "وحساس جداً".

فأضافت لين يينيغ بنبرة حقد واضحة: "حساس زيادة عن اللزوم".

خلال ذلك كله، لم تتفوه زي بكلمة واحدة. فقد تصرفت بتهذيب وإخلاص. وأبقت عينيها مسبلتين ويديها مخفيتين في كميها. فلم يستطع أحد أن يتهمها بأنها أقل مكانة من أي زوجة مثالية.

أخذ خو شيجونغ التعليق معه ونشره وأضاف إليه مقدمة كتبها عن

رين وأثنى على بصيرته عن الحب والزواج والشوق. ثم سوق للتعليق وسافر في أنحاء البلاد وأقر بأن رين هو مؤلف هذا العمل العظيم. وبهذه الطريقة، أصبحت كلماتي وأفكاري ومشاعري مشهورة جداً بين أفراد الطبقة المثقفة ليس فقط في هانغجو ولكن في أنحاء الصين كافة.

ولكن رين رفض أن يتقبل أي ثناء على عمله.

وقال: "إنني لم أفعل شيئاً بل أدين بكل هذا لزوجتي وللفتاة التي كانت ستصبح زوجتي".

وكان دائماً يتلقى الجواب نفسه: "إنك متواضع جداً، يا سيد وو".

على الرغم من إنكاره، وربما بسببه، نال رين شهرة واسعة لما كتبته وزي. فأخذ المحررون يطلبونه من أجل نشر قصائده، وتلقى دعوات لاجتماعات الطبقة المثقفة. وسافر لأسابيع بينما ازداد اسمه تألقاً وشهرة. وكسب مالاً جعل أمه وزوجته سعيدتين جداً. وفي نهاية المطاف، تعلم أن يتقبل المجاملات. فعندما قال أحد الرجال: "لا توجد امرأة قد تكتب شيئاً نافذ البصيرة هكذا". أطرق والتزم الصمت. ولم تأتِ أي امرأة من اللواتي أتين إلى بيت شين للدفاع عني، فقد كان من الأسهل في تلك المرحلة المتغيرة من التاريخ ألا يتحدث أحد عن إنجازات امرأة أخرى أو يحتفل بها.

كان ينبغي لي أن أشعر بالفخر والسعادة لنجاح شاعري. ولو أنني ما زلت على قيد الحياة لفعلت بالضبط ما فعلته زي لأن من واجب الزوجة أن تجلب الشرف لزوجها بكل طريقة متاحة. ولكنني لم أكن أنتمي إلى عالم الأحياء. فشعرت بالغضب والخيبة والصدمة التي تشعر بها امرأة حرمت من صوتها. ورغم كل الجهود التي بذلتها، فلم يسمعني رين على الإطلاق. وشعرت أنني منهارة ومدمرة.

الفصل السادس عشر

مساء علاج الغيرة

•

بعد الزيارة إلى بيت شين، عادت زي إلى البيت وأوت إلى سريرها. ورفضت أن تشعل المصابيح. والتزمت الصمت المطبق. ورفضت أن تتناول الطعام حتى عندما أحضر خصيصاً من أجلها. وتوقفت عن تنسيق ملابسها وتزيين شعرها بالدبابيس. وبعد الأمور التي اقترفتها بحقي، لم افعل اي شيء لمساعدتها. وعندما عاد رين أخيراً من رحلاته، لم تنهض من سريرها. فأمضيا بعض الوقت معاً في غرفتهما، ولكن ذلك بدا أشبه بالعودة إلى الأيام الأولى من زواجهما لأنها لم تبدِ أي اهتمام. وحاول رين أن يلاطف زي ويقنعها بالخروج من الغرفة بوعود عن جولات لطيفة في الحديقة أو وجبة مع الأصدقاء. وبدلاً من أن توافق، أحاطت نفسها بذراعيها وهزت رأسها قائلة: "هل أنا زوجتك أم محظيتك؟".

حدق إليها وهي جالسة في السرير ووجهها ملطخ وجلدها شاحب ومرفقاها وعظام رقبتها بارزة من جسمها الهزيل. أجابها قائلاً: "إنك زوجتي. وأنا بالطبع أحبك".

وعندما انفجرت باكية، فعل رين الشيء المنطقي الوحيد الذي يستطيع رجل أن يفعله. لقد أرسل في طلب الطبيب جاو الذي أعلن قائلاً: "لقد انتكست زوجتك وعاودتها حالة لوعة الحب".

ولكن لم يبدُ من المعقول أن تصاب زي بلوعة الحب. ورغم امتناعها عن الأكل، فهي لم تكن فتاة عذراء بل امرأة متزوجة في الثامنة عشرة من عمرها.

صاحت زي من سريرها قائلة: "لست ملتاعة. إنني لا أشعر بأي حب".

تأمل الرجلان بعضهما برزانة ونظرا إلى المرأة طريحة الفراش.

"ابتعد عني، يا زوجي، فقد تحولت إلى شريرة ومصاصة دماء ومخلوقة متوحشة. وإن جلست معي فسوف أثقب قدميك بالمثقاب وأمتص الدماء من عظامك لأغذي الفراغ الذي يسكنني".

كانت هذه طريقة مناسبة للتهرب من زوجها، ولكن لم تعد لي رغبة في التدخل.

قال الطبيب جاو: "إن زوجتك ربما قلقة على موقعها في الأسرة. هل أنت تعيش معها؟".

حذرت زي الطبيب قائلة: "توخ الحذر وإلا ففي المرة التالية التي تخفو فيها سأستخدم قطعة من الحرير لأخنقك".

تجاهل الطبيب جاو نوبة غضبها، وقال: "هل تفرط مدام وو بالتفوه بالانتقادات؟ إذ إن مجرد ملاحظة عابرة من الحماة قد تبعث القلق في نفس الزوجة الشابة وتجعلها غير واثقة من نفسها".

وعندما أكد رين للطبيب أن هذا غير ممكن، وصف حمية مكونة من قوائم حيوان لتساعد على تقوية زي.

ولكن زي لم توافق على تناول طعام وضيع كهذا.

ثم أمر الطبيب بتحضير حساء من كبد حيوان مقزز للمساعدة على تقوية كبد زي. وسرعان ما جرب إعطاء مريضته كل عضو من أعضاء حيوان مقزز لتقويتها. فلم يجد أي منها نفعاً.

قال الطبيب بتردد: "لقد كان من المقرر لك أن تتزوج امرأة أخرى. فربما عادت لتطالب بمكانها الشرعي".

فصرف رين الفكرة وقال: "إنني لا أعتقد بالأشباح".

فكّر الطبيب جاو ملياً وعاد ليصغي إلى نبض زي. وسألها عن أحلامها التي قالت إنها مليئة بالأشرار والمشاهد المرعبة.

وروت زي أحلامها قائلة: "إنني أرى امرأة هزيلة يكاد لا يوجد لحم على عظامها تمد يديها إلي وتلفهما حول عنقي وتأخذ بأنفاسي".

اعترف الطبيب جاو لرين قائلاً: "إنني لم أشخص حالة زوجتك بدقة تام، ولكنني اكتشفت الآن أن زوجتك تعاني من نوع مختلف من لوعة الحب. إنها تعاني من حالة من أكثر أمراض النساء شيوعاً، إنه: الكثير من الخل".

وهذه الكلمة تبدو في لغتنا مثل كلمة غيرة .

اعترض رين قائلاً: "ولكن ليس لديها سبب للغيرة".

وعندئذ أشارت زي بإصبعها النحيل إليه وقالت: "إنك لا تحبني".

عاد الطبيب جاو لموضوعه الأول وقال: "ماذا عن زوجتك الأولى؟".

"زي هي زوجتي الأولى".

فألمني هذا. أيمكن لرين أن ينساني كهذا؟

ذكره الطبيب قائلاً: "إنك ربما نسيت أنني اعتنيت بتشين تونغ وهي تحتضر. ويقول التقليد إنها زوجتك الأولى. ألم تتم مطابقة صفاتكما الثمانية؟

ألم ترسل هدايا المهر إلى بيت عائلتها؟".

قال رين باستهجان: "إن تفكيرك عتيق الطراز. فزوجتي لا تعاني من إزعاج الأشباح. إذ إن الأشباح موجودة فقط لإخافة الأطفال وإجبارهم على إطاعة والديهم ومنح الشبان العذر لتفسير سلوكهم السيئ مع النساء الوضيعات أو ربما لجعل الفتيات يتأملن على شيء لن يحصلن عليه أبداً".

كيف أمكنه أن يقول هذه الأشياء؟ أنسي كيف تحدثنا عن حديقة الفاوانيا ؟ أنسي أن لينانغ كانت شبحاً؟ وإن لم يعتقد بالأشباح، فكيف سيسمحني على الإطلاق؟ لقد كان وقع كلماته على مسامعي مربعاً وقاسياً بحيث إنني اقنعت نفسي بأنه يقولها فقط ليخفف عن زوجته ويطمئن قلبها.

اقترح الطبيب محاولاً مناقشة الموضوع من زاوية أخرى: "إن الكثير من الزوجات يستخدمن الغيرة وسوء المزاج للإضراب عن الطعام، ويحاولن بهذا أن يعاقبن الآخرين بتعريضهم للمعاناة من الذنب والندم".

وصف لها الطبيب حساء شافياً للغيرة مكوناً من حساء طائر الصفارية. وفي إحدى المسرحيات التي تتكلم عن خياوكينغ، استُخدم هذا الحساء لمعالجة الزوجة الغيورة. فخفض هذا العلاج من مرض الزوجة العاطفي للنصف، ولكنه تركها مصابة بعلامات الجدري.

دفعت زي بالحساء جانباً، وقالت: "أتريد أن تدمرني. ماذا عن بشرتي؟".

وضع الطبيب يده على ذراع رين وتحدث بصوت عالٍ بما يكفي لتسمعه زي. وقال: "تذكري وحسب أن الغيرة هي أحد الأسباب السبعة المؤدية إلى الطلاق".

لو أنني كنت أعرف علاجاً ما لعالجتها به. ولكن لو كنت أعرف أي علاج، ربما لم أمت في المقام الأول. ولهذا فقد لزمت مكاني على العارضة الخشبية عندما حاول الطبيب أن يطرد النار الزائدة من بطن زي بعلاج أقل إخافة وذلك بغسل أمعائها بدواء مقوٍّ مكون من الكرفس البري. فامتلأت مبولة الغرفة مرة تلو أخرى، ولكن زي لم تستعد قوتها.

وصل الضالع تالياً. فتنحيت عن طريقه عندما لوح بسيف مبلل بالدماء فوق سرير زي. وغطيت أذني عندما صاح بالطلاسم. ولكن لم تكن هناك أي أرواح شريرة تطارد زي، وهكذا لم تأتِ جهوده بأي نتيجة.

مرت ستة أسابيع، وساءت حالة زي أكثر من قبل. فكانت تتقيأ عندما تستيقظ صباحاً وعندما تحرك رأسها خلال النهار وحتى عندما

تطعمها حماتها الحساء النقي.

استدعت مدام وو الطبيب والضالع ليأتيا معاً.

وقالت بإيجاز: "لقد عانينا من الكثير من الإزعاج في هذا البيت بسبب كنتي، ولكن ربما يكون كل ما يحدث لها طبيعياً. وربما يجب عليك أن تعيد فحصها من جديد. وهذه المرة، تذكر أنها زوجة وأن ابني زوجها".

نظر الطبيب إلى لسان زي وحدق إلى عينيها وأصغى إلى نبض رسغها من جديد. وحرك الضالع نبتة سحلبية رغوة من طاولة إلى أخرى. وبحث في طالع زي وطالع رين. وكتب سؤالاً على قطعة من الورق وأحرقها في محرقة البخور لكي تسافر الكلمات إلى السماء وطلب من الرماد أن يتلقى الإجابة. ثم حنى الرجلان رأسيهما ليتباحثا في تشخيصهما ويعملا على تنقيحه.

أعلن الطبيب جاو قائلاً: "إن الوالدة حكيمة جداً. وعادة ما تميز النساء الأعراض قبل غيرهن. إنّ كنتك تعاني من أفضل أعراض الحب: إنها حامل".

بعد مرور كل هذا الأسابيع من التشخيصات، لم أصدق ما سمعته، ولكنني سحرت به. أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ وعلى الرغم من وجود الآخرين في الغرفة، هبطت إلى سرير زي وجلست بجانبها واسترقت النظر إلى بطنها. فرأيت الدلالة الضئيلة على وجود الحياة وروحاً تنتظر أن تولد. لقد توجب علي أن أميز ذلك في وقت أبكر، ولكنني كنت شابة وجاهلة في هذه الأمور. وكان الجنين ابناً.

صاحت زي قائلة: "إنه ليس لي! أخرجوه!".

ضحك الطبيب جاو والضالع من كل قلبيهما.

وقال الطبيب جاو: "إننا غالباً ما نسمع هذا من الزوجات الشابات. من فضلك، يا مدام وو، أريها كتاب النساء السري مرة أخرى واشرحي لها ما قد حدث. يا سيدة زي، من فضلك، استريحي وتجنبي الثرثرة وتناولي الطعام الملائم وامتنعي عن تناول كستناء الماء ولحم غزال المسك والحمل والأرانب".

وأضاف الضالع قائلاً: "واحرصي على أن ترتدي زنبقة نهار حول خصرك، فهي ستضمن تخفيف آلام المخاض وولادة ابن معافى".

ناقش رين ووالدته والخدم الاحتفالات بالكثير من البهجة والفرح. وقال رين: "إن الابن أفضل، ولكنني سأرحب بالابنة أيضاً". فأعجبت بما قاله وبشخصيته الحكيمة، ولهذا السبب ما زلت أحبه.

ولكن زي لم تبتهج لقدوم الطفل ولم يتحسن حالها. ورغم أنها قد لا تصادف غزال مسك ورغم أن الطاهية منعت لحم الأرانب والجمل من البيت كلياً، فقد بدأت زي تتسلل إلى المطبخ في وقت متأخر من الليل لتتناول الكستناء. ومزقت الوردة التي على خصرها والقت بها على الأرض. ورفضت أن تطعم الطفل الذي ينمو في أحشائها، وظلت تسهر طوال الليل وهي تكتب أن الطفل ليس لها على قطع من الورق. وكلما رأت زوجها، انتحبت قائلة: "أنت لا تحبني". وفي الوقت الذي كانت تتوقف فيه عن البكاء والتفوه بالاتهامات والامتناع عن الطعام، كانت تتقيأ. وسرعان ما بدأنا نرى قطعاً زهرية من بطانة المعدة في الأوعية التي يخرجها الخدم من الغرفة. فأدرك الجميع خطورة الوضع، ولم يكن أحد يود لشخص محبوب ان يموت، ولكن موت امرأة حامل او أثناء الولادة يحيلها إلى مصير مريع: الا وهو الترحيل إلى بحيرة تجميع الدم .

حل مهرجان قمر الربيع وانقضى. فتوقفت زي حتى عن تناول الماء. وعلق الخدم مرآة ومنخلاً في الغرفة. ولحسن الحظ، لم يعلقاهما في مكان مرتفع حيث اعتدت أن أبقى ساهرة.

أعلن المفوض تان عندما حضر للزيارة: "إنها لا تعاني من أي خطب، ولكنها لا تريد الطفل الذي في رحمها لأنها لا تملك أي شعور في قلبها".

فذكر ربي الرجل قائلاً: "إنها ابنتك وزوجتي".

لم يتأثر المفوض بل غادر تاركاً وراءه نصيحة وتحذيراً فقال: "عندما يولد الطفل، ابعدوه عنها، فهذا سيكون أكثر أماناً لأن زي لا تحب ان تنظر العيون إلى أحد سواها".

لم تحظ زي بأي سلام. فبدت في النهار مرعوبة وهي ترتجف وتبكي وتخفي عينيها ولم تمنحها الليالي اي راحة بل امضتها وهي تتقلب من جانب إلى آخر وتصيح والعرق يتصبب منها. فأعد لها الطالع مكاناً خاصاً من خشب الدراق، ووضع عليه البخور والشموع. وكتب طلاسم واحرقها ثم مزج الرماد بماء أحد الينابيع. وامسك سيفه بيده اليمنى وكأساً مليئة بالرماد الممزوج بالماء بيده اليسرى وانشد قائلاً: "طهري هذا المكان من كل الشر الكامن فيه". وغمس غصناً من شجر الصفصاف بالكأس ونثر الماء في الاتجاهات الأربعة. ولكي يقوي تأثير السحر، ملأ فمه بالرماد الممزوج بالماء ونفثه على الجدار فوق رأس زي. وقال: "طهري عقل هذه المرأة من أرواح الظلام".

ولكن كوابيسها لم تتوقف بل ازداد تأثيرها سوءاً. وكانت الأحلام شيئاً

أعرفه جيداً. ففكرت أن أمدها بيد المساعدة، ولكنني عندما رافقتها في هذا الطريق لم أجد شيئاً مخيفاً أو غير اعتيادي ولم أر أي مطاردين أو مؤذين في أحلامها على الإطلاق، مما زادني حيرة وارتباكاً.

تساقطت أوائل ثلوج الشتاء، فزارنا الطبيب وقال لرين: "إن الطفل الذي تحمله زوجته ليس طفلاً جيداً، فهو متشبث بأحشائها ولا يريد أن يتركها. وإن منحتني الإذن فسوف أستخدم الوخز بالإبر للتخلص منه".

بدا هذا تفسيراً منطقياً وحلاً عملياً، ولكنني استطعت أن أرى الطفل، وأدركت أنه ليس شريراً وإنما مجرد طفل يحاول وحسب أن يبقى على قيد الحياة.

فسأل رين: "وماذا إن كان ابناً؟".

تردد الطبيب، وعندما رأى قصاصات الورق التي كتبتها زي مبعثرة في أنحاء الغرفة، قال بحزن: "إنني أرى هذا كل يوم ولا أعرف ما أفعل. وأدرك أن القراءة والكتابة تهديدان خطيران على الجنس الأنثوي، وغالباً ما أرى صحة النساء الشابات وسعادتهن تتلاشان لأنهن رفضن أن يتخلين عن الريشة والحبر. وأخشى..." ثم وضع يداً مواسية على ذراع رين وتابع قائلاً: "أنا سنتذكر الماضي ونلوم لوعة الحب التي أصابت زوجتك بسبب الكتابة على موتها".

فكرت، وليست هذه المرة الأولى، أن الطبيب جاو لا يعرف شيئاً عن النساء أو الحب.

عندما حانت اللحظة الكئيبة وجلس أفراد عائلة وو حول زي وهي تحتضر، وصل شقيقي بالتبني. فصُدمنا جميعاً لرؤية مظهر باو البدين موفور الصحة بعد أن أمضينا وقتاً طويلاً نراقب شخصاً يذوي ويتلاشى شيئاً فشيئاً. أتى باو ممسكاً بين أصابعه الثخينة القصائد التي كتبتها وأنا أحتضر وخبأتها في كتاب يتحدث عن السدود في مكتبة والدي. ولكن كيف عثر عليها؟ وعندما نظرت إلى يديه الناعمتين، لم يبدُ لي من النوع الذي قد يتفاوض على بناء سد أو يصممه. وبدت عيناه الصغيرتان ضيقتين وقريبتين من بعضهما بحيث لا يمكن له أن يجد السعادة في القراءة بدافع الفضول العلمي ناهيك عن أن يجد فيها المتعة. ولا بد أن شيئاً آخر دفعه إلى فتح ذلك الكتاب بالذات.

عندما طالب بالنقود ثمناً لقصائدي البسيطة، أدركت أنه لم يأتِ ليقدم هدية لزوج شقيقته، وأيقنت أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام

في قصر عائلة تشين. واعتقد أنني قد توقعت هذا. فليس من الممكن لهم أن يتجاهلوا موتي دون أن يتوقعوا حدوث بعض العواقب. ولا بد أن باو عثر على القصائد وهو يفكك المكتبة ليبيعها. ولكن أين كان والدي؟ إن والدي يفضل أن يبيع محظياته على أن يبيع مكتبته. ترى هل أصابه المرض؟ هل مات؟ ألم أكن لأسمع شيئاً من ذلك القبيل لو أنه حدث؟ اينبغي لي أن أسرع بالعودة إلى بيت أهلي؟

ولكن هذا أصبح بيتي الذي أعيش فيه مع زوجي رين وشقيقتي الزوجة زي. أعترف أنني غضبت منها في بعض الأوقات وكرهتها في إحدى المناسبات. ولكنني سأبقى إلى جانبها عندما تموت وسأرحب بها في العالم الآخر وأشكرها لأنها كانت شقيقتي الزوجة.

دفع رين لشقيقي. ولكن سوء حالة زي منعه من النظر إلى القصائد. فاختار كتاباً من المكتبة ودس الأوراق بين صفحاته وأعاد وضع الكتاب على الرف وعاد إلى غرفة النوم.

عدنا للانتظار. وأحضرت مدام وو الشاي والوجبات الخفيفة لابنها. فلم يلمس منها إلا القليل. وأتى المفوض تان وزوجته مرة أخرى لرؤية ابنتهما. فتلاشت قسوتهما عندما أدركا أن زي كانت تحتضر فعلاً.

توسلت مدام تان ابنتها قائلة: "أخبرينا ما خطبك".

استرخى جسد زي وتوهج اللون في خديها عندما سمعت صوت أمها.

حاولت مدام تان مجدداً بعد أن شجعها هذا التغيير فقالت: "يمكننا أن نأخذك معنا من هنا. تعالي معنا إلى البيت ونامي في سريرك. سوف تتحسنين عندنا".

عندما سمعت زي هذه الكلمات، تيبس جسمها وزمت شفتيها وأشاحت بوجهها. فانهمرت الدموع من عيني مدام تان عندما رأت حال ابنتها.

حدق المفوض إلى ابنته العنيدة.

وعلق قائلاً: "لطالما كنت عنيدة، ولكنني أتذكر دائماً الليلة التي شاهدنا فيها الأوبرا على أنها اللحظة التي تحولت فيها مشاعرك إلى حجر. ومنذ ذلك الوقت لم تصغي لأي تحذير أو نصيحة أقدمها لك. والآن تدفعين ثمن أخطائك. سوف نتذكرك في قرابيننا".

عندما أوصلت مدام وو عائلة تان إلى محفاتهما أنّت الفتاة المريضة متحدثة عن مرضها الذي لم ترغب أن تخبره لوالديها فقالت: "إنني أشعر بخدر يطفو في أنحاء جسمي. ولا استطيع تحريك يدي او قدمي. وجفت

الدموع من عيني، وتجمدت روحي من البرد".

وبعد بضع دقائق فتحت عينيها، وحدقت إلى السقف وارتجفت واغمضتهما مجدداً. وطوال الوقت، ظل رين ممسكاً بيدها وهو يتحدث إليها بلطف.

في وقت متأخر من تلك الليلة، وعندما اشتد الظلام ولم أعد أخشى الانعكاس من المرايا، هبطت إلى الغرفة وفتحت الستائر لأدع ضوء القمر ينير غرفة النوم. وكان رين نائماً في كرسيه، فلمست شعره وشعرت به يرتعش. وجلست مع شقيقتي الزوجة وشعرت بالبرد يخترق عظامها، وكان جميع من في البيت نائماً في أحلامه، لذا بقيت مع زي لأحميها وأخفف عنها. فوضعت يدي فوق قلبها وشعرت بنبضه يتباطأ ويتوقف ثم يتسارع مجدداً ويتباطأ من جديد. وعندما بدأ الظلام يفسح مجالاً للون الفجر الوردي، تغير الهواء في الغرفة، فانهارت عظام زي وتحللت، وهكذا ببساطة بدأت رحلتها محلقةً عبر السماء.

الفصل السابع عشر

بحيرة تجميع الدم

•

خضعت جثتها بتواضع للطقوس التي يجب تأديتها. فاستأصل الطبيب الجنين من أحشاء زي وألقى به بعيداً لئلا يذهب معها إلى بحيرة تجميع الدم . ثم غسل جسدها الهزيل وألبسها الملابس. وبقي رين إلى جانبها رافضاً أن يبعد نظره عن وجهها الشاحب وشفتيها اللتين لا تزالان حمراوين وكأنه ينتظرها لتستيقظ. انتظرتها لتظهر وأنا على يقين من أنها ستشعر بالراحة لرؤية شخص مألوف بالنسبة إليها. ولكن لم يكن من الممكن أن أخطئ التقدير أكثر. ففي اللحظة التي رأتني فيها زمت شفتيها وكشرت عن أسنانها.

"أنت! كنت أعلم أنني سأراك".

"كل شيء سيكون على ما يرام. إنني هنا لأساعدك...".

"لتساعديني؟ لقد قتلتني!".

قلت لها مواسية: "لقد اختلطت عليك الأمور". وكنت قد أصبت بالتشوش أيضاً عندما حانت وفاتي. ولكن الحظ حالفها لوجودي إلى جانبها لأخفف عنها.

تابعت بنبرة لا تقل ضراوة عن السابقة: "لقد أيقنت حتى قبل أن أتزوج أنك ستلحقين بي الأذى. لقد طاردتني في يوم زفافي، أليس كذلك؟ كان ينبغي لي أن ألطخ قبرك بدماء كلب أسود".

وكان هذا أسوأ شيء يستطيع إنسان أن يفعله بميت لأنه من المعتقد أن هذا النوع من الدماء شديد الفساد. ولو أنها فعلت ذلك، لجعلني ذلك أعود وأقتل عائلتي. فصدمتني قسوتها، ولكنها لم تنته بعد.

وأضافت قائلة: "لقد لاحقتني منذ البداية. فقد سمعتك تبكين في رياح الليالي العاصفة".

"لقد ظننت أنني جعلتك سعيدة".

"كلا! لقد جعلتني أقرأ الأوبرا. ثم جعلتني أكتب عنها. وجعلتني أقلدك في كل شيء أفعله إلى أن لم يعد هناك في النهاية شيء متبقٍّ في داخلي. ثم جعلتني أقلد تقليدك لليتيانغ، فتسببت تلك الأوبرا بوفاتي".

"لقد أردت وحسب أن أجعل رين يحبك أكثر. ألم تستطيعي أن

تدركي ذلك؟".

فهدأها هذا نوعاً ما. ثم نظرت إلى أظافرها ورأت أنها تحولت إلى اللون الأسود. فحطمتها الحقيقة القاسية لوضعها الحالي.

سألت بصوت مثير للشفقة: "لقد حاولت أن أحمي نفسي، ولكن أي فرصة أملكها ضدك؟".

وكنت قد قلت عكس ذلك لنفسي عدة مرات: إن شقيقتي الزوجة لا تملك أي فرصة ضدي.

تابعت قائلة واللوم يتسلل عائداً إلى صوتها: "لقد ظننت أنني سأستطيع أن أجعله يحبني إن قرأ التعليق وظن أن العمل كله تم بيدي. ولم أكن أريده أن يقرأ عن لوعة حبك ويعتقد أنني أتابع مشروعك كوسيلة لتكريم الزوجة الأولى. إنني أنا الزوجة الأولى. ألم تسمعي ما قاله زوجي؟ إنكما لم تتزوجا قط. وهو لا يأبه لأمرك".

لقد كانت عديمة الرحمة حتى وهي ميتة.

فقلت لها بقناعة راسخة: "لقد جمعت بيننا الأقدار، ولكنه أحبك أنت أيضاً".

"لقد جعلت البرد يسري في جسدي وأبقيتني معك في الظلام وطاردتني في أحلامي. وأجبرتني على إهمال وجباتي وراحتي وما تبقى من...".

لم يطمئني كلامها المقتبس من حديقة الفاوانيا لأنني جعلتها لا مبالية فعلاً.

أردفت قائلة: "لم أجد طريقة أهرب بها منك إلا في أمان الحديقة في وسط البركة".

"الجسر المتعرج".

"نعم!" وانفرجت شفتاها مظهرة أسنانها البيضاء المخيفة. ثم قالت: "لقد أحرقت نسختك من حديقة الفاوانيا لأطردك من حياتي. وظننت أنني نجحت في ذلك، ولكنك لم ترحلي أبداً".

"لم أستطع أن أرحل، ليس بعد ما فعلته لاحقاً. لقد جعلت الناس يعتقدون أن زوجنا هو من كتب التعليق".

"هل هناك من طريقة أفضل لأظهر له إخلاصي؟ هل هناك من طريقة أفضل لأثبت أنني زوجة مثالية؟".

وبالطبع كانت محقة في كلامها.

فسألتها: "ولكن ماذا عني؟ لقد حاولت أن تخفي ذكري من الحياة. كيف أمكنك أن تفعلي ذلك ونحن شقيقتان زوجتان؟".

ضحكت زي من سؤالي الغبي، وقالت: "إن الرجال هم الطاقة المزهرة والنقية أما الأشباح من أمثالك فهي تمثل كل ما هو ميت ومريض في المرأة. لقد حاولت أن أقاومك، ولكن تدخلك الدائم قتلني، ارحلي. فأنا لست بحاجة إلى صداقتك. ونحن لسنا صديقتين ولسنا شقيقتين زوجتين. إن الناس سيتذكرونني أنا أما أنت فستظلين طي النسيان. وقد حرصت على ذلك".

"بأن خبأت الصفحتين المفقودتين اللتين تشرحان مصدر التعليقات".

"إن كل شيء جعلتني أكتبه هو كذبة".

"ولكنني منحتك حق الإنجاز. وكان كل شيء تقريباً عنك...".

"إنني لم أكتب التعليق رغبةً مني بإكمال عملك ولم تنبع تلك الكتابة من قلبي. لقد جعلت هوسك هوسي. وكنتِ شبحاً، ولكنك لم تعترفي بما فعلته، لذا مزقتُ الورقتين من الكتاب، وهكذا لن يجدهما رين أبداً".

حاولت مجدداً أن أجعلها تدرك الحقيقة، فقلت: "لقد أردتُ أن أسعدك...".

"لقد عملتِ على استغلالي".

"ولكنني سررتُ عندما حملت".

"لم يكن ذلك الطفل طفلي".

"بالطبع كان طفلك".

"كلا! لقد أجبرتني على القيام بأمور ضد إرادتي..." وارتعشت من الغضب والاشمئزاز وقالت: "ثم وضعت ذلك الطفل في داخلي".

"إنك مخطئة. فأنا لم أضعه هناك، بل حرصت فقط على حمايته...".

"هراء! لقد قتلتني وقتلت الطفل أيضاً".

"لم أفعل...".

ولكن ما فائدة إنكار اتهاماتها في حين أن الكثير منها صحيحة؟ لقد أبقيتها ساهرة طوال الليل أولاً مع زوجها ثم بالكتابة. وجعلت غرفتها باردة وحجزتها في الظلام لأحمي عينيْ الحساستين وأرسلت نسمات باردة معها أينما حلت. وعندما أجبرتها على العمل بمشروعي، منعتها من الانضمام إلى زوجها وحماتها لتناول الوجبات. وعندما انسحبت إلى غرفتها بعد أن أحرقت مؤلفاتي الأصلية ومنحت حق تأليفها لرين، لم أشجعها على الأكل لأن الإحباط سيطر عليّ. فأدركت ذلك تمام الإدراك حتى وأنا أنكر أنني رأيته وفعلته بنفسي. بدأت أشعر بالاشمئزاز لهذه الحقيقة. ما الذي اقترفته يداي؟

انفرجت شفتاها من جديد وكشفت عن جوهرها القبيح، فأشحت بوجهي عنها.

وصاحت قائلة: "لقد اختبأت فوق العارضة الخشبية حيث ظننت نفسك غير مرئية، ولكنني رأيتك".

"كيف استطعت ذلك؟" وشعرت بكل شجاعتي السابقة تتلاشى، واصبحت أنا الآن من بدت خائفة ومثيرة للشفقة.

"لقد كنت احتضر فرأيتك! حاولت أن أغمض عينيّ لئلا أراك، ولكنني كلما فتحتهما رأيتك هناك تحدقين إليّ بعينيك الميتتين المخيفتين، ثم هبطت ووضعت يدك على قلبي".

يا للهول! أحقاً لعبت دوراً في موتها؟ هل جعلني هوسي بمشروعي عمياء بحيث إنني مت أولاً ثم قتلت شقيقتي الزوجة؟

عندما لاحظت الرعب الذي ارتسم على وجهي لإدراكي الحقيقة، ابتسمت بظفر وقالت: "لقد قتلتني، ولكنني تفوقت عليك. يبدو أنك قد نسيت الرسالة الأعمق التي تتحدث عنها أوبرا حديقة الفاوانيا. إنها قصة عن انتصار الحب من خلال الموت، وهذا هو بالضبط ما فعلتُه. إن زين سيتذكرني، ولكنه سينسى تلك الفتاة الغبية الماكثة في حجرتها. وهكذا، سيتلاشى ذكرك من الأرض وسيطوي النسيان مشروعك ولن يتذكرك أحد".

التفتت بعيداً عني بدون أن تتفوه بكلمة أخرى وغادرت الغرفة واستأنفت طوافها في أنحاء الأرض.

بعد تسعة وأربعين يوماً، أتى والد زي ليضع النقطة على لوح الأسلاف الذي وضع في قاعة أسلاف عائلة وو. ولأنها توفيت حاملاً فقد ختم عليها داخل التابوت الذي يبقى معرضاً للعوامل الجوية إلى أن يموت زوجها حيث تجتمع العائلة من جديد من خلال الدفن معاً في مكان واحد. وهكذا، تقرر مصيرها الأبدي ما لم تشتر عائلتها حريتها من خلال قرابين الطعام والرشى للموظفين البيروقراطيين الذين يحكمون هناك. وعندئذ فقط يصبح بوسعها أن تركب قارباً لتجتاز بحيرة الألم إلى الضفة، وهناك تنضم إلى الأسلاف أو تجد مكاناً لها في أرض مباركة.

أما بالنسبة إليّ فقد أدركت أنني لو ساعدت زي وماتت طفلها، عمداً أم لا، فأنا إذاً أفتقر إلى أي مقدار من الأخلاق والتعاطف والخزي والتمييز بين الخطأ والصواب. لقد ظننت نفسي ذكية، ولكن زي كانت على حق، فادركت أنني شبح شرير عديم الرحمة.

القسم الثالث

تحت شجرة الخوخ



الفصل الثامن عشر

المنفى

•

اعتادت أمي أن تقول إن الأشباح ليست شريرة بطبيعتها، فلو أن الشبح يحظى بمكان لينتمي إليه لما أصبح شريراً. ولكن الرغبة في الانتقام تحرِّضُ العديد من الأشباح على القيام بأعمالهم الشريرة، فحتى حشرة صغيرة مثل الجدجد تستطيع أن تنزل انتقاماً متوحشاً بمن تسبب لها بالأذى. لا أظن أنني أردت أن ألحق الأذى بزي، ومع ذلك، فربما يكون ما قالته صحيحاً. ملأتني الرغبة في معاقبة نفسي والخوف من أن أفعل شيئاً مهلكاً لزوجي بدون قصد. فنفيت نفسي من بيت ربن. وفي العالم الأرضي، كنت قد بلغت الخامسة والعشرين. فاستسلمت وأخذت أذوي وأتلاشى، وهكذا صدقت توقعاتُ زي.

المنفى...

لم أعرف إلى أين أذهب. فتوجهت في طريقي حول البحيرة إلى قصر عائلة تشين. ووجدت البيت أجمل من المعتاد، مما أثار دهشتي. فقد أضاف باو الأثاث والخزف والمنحوتات إلى كل غرفة من غرفه. وعُلقت ستائر حريرية جديدة براقة على الجدران. ورغم المظهر الرائع الذي اكتسبه البيت، فقد ساد صمت مزعج واكتنف كل شيء. إذ إن عدد السكان أصبح أقل بكثير. فقد ظل والدي يعتلي منصبه في العاصمة ويعيش فيها ومات اثنان من إخوته وماتت محظيتي جدي أيضاً. وتزوجت المكنسة وزهرة اللوتس وبعض بنات عمي الأخريات وانتقلن من البيت. وبعد أن نقصت أعداد عائلة تشين في البيت، صرف أهلي عدداً كبيراً من الخدم. فبدا القصر والحديقة يشعان بالجمال والرفاهية والثروة الطائلة، ولكنهما أصبحا فقيرين بأصوات الأطفال والفرح والسعادة.

ومن ذلك الصمت المخيف، سمعت صوت عزف على القانون أثار في نفسي ذكريات الطفولة، فوجدت زهرة السحلبية، وهي الآن في الرابعة عشرة من عمرها، تعزف لأمي ولزوجات أعمامي في قاعة براعم اللوتس . وبدت فتاة جميلة. فغمرني الفخر لأنني وجدت قدميها المربوطتين جميلتين جداً. ثم رأيت أمي جالسة بجانبها، وبعد مُضي تسع سنوات لم أرها فيها، أصبح شعرها رمادياً وملأ الحزن العميق عينيها. وعندما قبلتُها، ارتعشت أوصالها.

فرثُت الأقفال التي اعتادت أن تضعها في طيات ثوبها.

بدا وجه زوجة باو ذابلاً من حزن العقم. ولم يبعها زوجها، ولكنه اتخذ محظيتين، فتبين أنهما أيضاً عاقرتان. فجلست النساء الثلاث معاً دون أن يتشاجرن. ولكن الحسرة ملأت نفوسهن على كلّ ما حرمن منه. لم أزر باو، ولكنني بدأت أعتبر نفسي مخطئة بشأنه. فقد كان من حقه تماماً أن يبيع أولئك النساء، ولكنه لم يفعل ذلك. وخلال تلك السنوات الماضية، تخيلت أن هذا الغريب المُتبنى سيدمر عائلتي بسوء الإدارة والمقامرة وإدمان الأفيون، وربما تمنيت ذلك أيضاً. وتخيلت العقار يتضاءل وباو يبيع كتب والدي وشايه وصخوره وتحفه وبخوره. وبدلاً من ذلك، ازدادت تلك الأشياء أكثر من ذي قبل. وأحضر باو أيضاً نسخاً بديلة للكتب التي أحرقتها أمي. وربما يكون باو قد عثر على القصائد وهو يقرأ ذلك الكتاب عن السدود. ولكن لماذا باعها؟ لم يكن أحد يحتاج إلى المال.

ذهبت إلى قاعة الأسلاف، ورأيت لوحة جدي وجدتي لا تزال معلقة. فقدمت الاحترام لهما ثم انحنيت لألواح أقاربي الآخرين. وبعد ذلك، ذهبت إلى غرفة التخزين التي أخفي فيها لوحي. ولم أستطع الدخول بسبب حدة الزاوية، ولكنني رأيت طرفه المغبر على رفّ مغطى بفضلات الفئران والجرذان. ورغم أن أمي قد حزنت عليّ، فقد نسيني جميع أفراد العائلة. ولم أتمنَّ الضرر لأحد منهم، ولكن لم يعد لي شيء هناك.

المنفى...

توجب علي أن أذهب إلى مكان ما. وكان المكان الوحيد الذي زرته سابقاً هو قرية غودانغ خلال مهرجان الأشباح الجائعة حيث أطعمتني عائلة كيان لسنتين. فظننتُ أنني قد أعثر على مكان لديهم.

عندما أرخى الليل سدوله على الأرض انطلقتُ متوجهة إلى القرية. وراحت الحشرات تطير من حولي وتضيء طريقي. فوجدت الطريق طويلاً لأنني لم أكن مدفوعة بالجوع المُهلك. وعندما انبلج الفجر، أحرق الضوء عيني. وصلتُ إلى بيت عائلة كيان عندما ارتقت الشمس إلى كبد السماء. فرأيت البنتين الكبريين تعملان في الخارج تحت تعريشة ظليلة وتحشيان بصينية من ديدان القز التي راحت تلتهم أوراق التوت المقطوعة حديثاً. أما البنتان الأخريان فقد جلستا في مبنى صغير مع بضع فتيات أخريات وأيديهن مغموسة في مياه يتصاعد منها البخار وهن يغسلن اليرقات ويسحبن منها الحرير وينسجنه خيوطاً. دخلت البيت، فوجدت مدام كيان تحضر طعام الغداء، وكانت بي، الطفلة التي رأيتها أول مرة رضيعة بين

يدي أمها، في الثالثة من عمرها، فبدت طفلة صغيرة سقيمة واهنة الجسم. جلست الطفلة على رصيف خشبي منخفض في الغرفة الرئيسة حيث تستطيع أمها أن تراقبها، فجلستُ إلى جانبها. وعندما راحت تتلوى أمسكت كاحلها، فضحكت بنعومة. وظننت أنها لن تعيش لتبلغ السابعة من عمرها.

وصل السيد كيان، رغم أنه من الصعب علي أن أتخيل هذا المزارع سيداً لأي شيء، من بستان التوت وجلس الجميع لتناول الغداء. فلم يطعم أحد بي أي شيء، لأنهم اعتبروها مجرد فم آخر يجب إطعامه إلى أن تموت.

حالما انتهت الوجبة، أشار السيد كيان إلى ابنتيه الكبريين، وقال لهما بغضب: "إن الديدان الجائعة لا تنتج الحرير". وعندما سمعتا ذلك، نهضتا وعادتا إلى الخارج على أقدامهما الكبيرة لتستأنفا عملهما. وصبت مدام كيان الشاي لزوجها ونظفت الطاولة، ثم حملت بي وأعادتها إلى الرصيف وأخرجت سلة وسلمت الطفلة قطعة من القماش وإبرة مغروزة فيها.

قال والد الفتاة باحتقار: "ليست تلك الفتاة بحاجة إلى تعلم التطريز، بل يجب أن تصبح قوية لتساعدني".

قالت مدام كيان: "لن تصبح الابنة التي تحتاج إليها وتريدها، ويؤسفني أنها تشبه أمها".

"لقد كنت رخيصة، ولكنك كلفتني الكثير، والفتيات فقط...".

فأكملت كلامه نيابة عنه قائلة: "ولا أساعدك على العمل بتربية الديدان".

ارتعشتُ من فرط الاشمئزاز. فلا بد أنه من الصعب على امرأة تتمتع بهذا الرقي أن تسقط إلى هذا المستوى الوضيع.

تذمّر قائلاً: "إن بقيت بي على هذا الحال، فلن أتمكن من تزويجها. فما الذي ستفعله العائلة بزوجة عديمة الفائدة؟ كان ينبغي أن ندعها تموت عندما وُلدت".

ارتشف آخر رشفة من الشاي بغضب وغادر. وحالما ذهب، منحت مدام كيان جل اهتمامها لابنتها بي وعلمتها كيف تطرز صورة خفاش، وهو رمز السعادة.

قالت مدام كيان لابنتها بصوت حالم: "في الماضي، كان والداي ينتميان إلى الطبقة الراقية، ولكننا خسرنا كل شيء في الجائحة. وظللنا لسنوات نهيم على وجهنا ونتسول. وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمري أتينا إلى هذه القرية. فاشتراني والدا والدك بدافع الشفقة. ولم يكونا يملكان الكثير من

المال، ولكن ألا ترين؟ لقد عشت في الشارع طويلاً. فتوجب علي أن أتحلى بالقوة. وكنت قوية فعلاً".

تعمق اليأس في داخلي أكثر من ذي قبل. ترى أيجب على كل فتاة أن تعاني؟

تابعت مدام كيان قائلة: "لقد أنقذتني قدماي المربوطتان من العمل إلى جانب والدك، ولكنني حققت له الرفاهية بوسائل أخرى. فأنا أجيد صنع اللحف والأحذية والملابس الراقية بحيث إنها يمكن أن تباع في هانغجو. ستمضي أخواتك بقية حياتهن وهن يؤدين العمل اليدوي. ولا أستطيع أن أتخيل الألم الذي يشعرن به في قلوبهن. ولكن ليس بيدي حيلة لأساعدهن".

أطرقت ودموع الخزي تقطر من عينيها وتلطخ تنورتها القطنية العادية. فلم أستطع أن أتحمل المزيد من الأسى. فتسللت من البيت وابتعدت عن المزرعة وأنا محرجة من ضعفي وخائفة من أن ألحق الأذى بهذه العائلة ولو بدون قصد وأضيف إلى بؤسهم وشقائهم.

المنفى...

جلست على ناصية الطريق. وللمرة الأولى منذ سنوات فكرت في خادمتي السابقة، شجرة الصفصاف. ولكنني لم أجد وسيلة أستطيع بها أن أعثر عليها. وحتى لو فعلت ذلك، فماذا يسعها أن تفعل من أجلي؟ لقد ظننتها في الماضي صديقة لي، ولكن في المحادثة الأخيرة التي أجريناها معاً أدركتُ أنها لم تبادلني الشعور نفسه. لم تعد لي صديقة واحدة في الحياة. وعندما توفيت، تمنيت أن أنضم إلى مجموعة العذارى الملتاعات. فاكتشفت أنهن لسن مثلي. وحاولت أن أكون شقيقة زوجة صالحة لزي. ففشلت في ذلك. وكان حضوري إلى هنا خطأ أيضاً لأنني لا أنتمي إلى عائلة كيان وهم لا ينتمون إليّ. فربما سأبقى منفية طوال حياتي وموتي أيضاً.

توجب عليّ أن أعثر على مكان أعيش فيه حيث أبقى مطمئنة من أنني لن أؤذي أحداً. فعدت إلى هانغجو وأمضيت بضعة أيام وأنا أستطلع شاطئ البحيرة، ولكن الكثير سبقوني وسكنوا الكهوف أو اختبأوا خلف الصخور أو لجأوا إلى جذور الأشجار. فتجولت على غير هدى. وعندما وصلت إلى جسر خيليتغ، عبرته إلى الجزيرة المنعزلة التي نُفيت إليها خياوكينغ قبل وقت طويل من أجل حمايتها من الزوجة الغيورة. فوجدت المكان هادئاً ونائياً ومكاناً مثالياً لأمضي أيامي في حزن وندم. وبحثت في أرجاء المكان إلى أن عثرت على قبر خياوكينغ مخبأً بين البحيرة والبركة

الصغيرة حيث اعتادت أن تتأمل في انعكاس صورتها الواهنة. انطويتُ حول نفسي في مدخل القبر وأصغيت إلى الطيور وهي تغرد على أغصان الأشجار من فوقي ورحت أفكر متأملة في ما اقترفته يداي في حق تلك الزوجة اليتيمة زي.

على مدى العامين التاليين، لم أبقَ وحدي إلا نادراً. فقد اكتشفتُ أن النساء والفتيات كنّ بشكل شبه يومي تقريباً يغادرن حجراتهن ويأتين إلى قبر خياوكينغ ليبجلن ذلك المكان ويقرأن القصائد ويتحدثن عن الحب والحزن والندم. وتبيّن لي أنني لستُ إلا واحدة من مئات النساء والفتيات الشابات اللواتي عانين من الحب وفكرن ورغبن فيه. ورغم أنهن لم يتأثرن بعمق، كما فعلت خياوكينغ وغيرها من العذارى المتاعات اللواتي لقين حتفهن من فرط العاطفة، فقد تشوّقن إلى ذلك المصير. وكانت كل واحدة منهن مشتاقة إلى حب رجل أو غاضبة من حب رجل.

ذات يوم أتت عضوات نادي حديقة الموز إلى القبر ليقدمن احترامهن. وقد كن مشهورات بكل المقاييس. ولطالما أحببت تلك النساء الخمس أن يجتمعن معاً ويذهبن في جولات ويكتبن الشعر، ولكن دون أن يحرقن مخطوطاتهن بسبب الشك في قدراتهن أو التواضع. فقد كانت تُنشر، ليس على يد عائلاتهن كتذكارات، ولكن من قبل ناشرين تجاريين يبيعون أعمالهن في أنحاء البلاد كلها.

للمرة الأولى من عامين، أبعدني الفضول عن قبر خياوكينغ. فتبعت النساء وهن يتجولن في ممرات الجزيرة المنعزلة التي تنمو الأشجار على جانبيها ويزرن المعابد ويجلسن معاً في إحدى الحدائق ليتناولن بذور عباد الشمس. وعندما صعدت على متن أحد القوارب، انضممتُ إليهن وجلست على الدفة وهي تمخر عباب المياه. فأخذن يضحكن ويستمتعن بوقتهن. ولعبن ألعاباً وتحدين بعضهن في كتابة الشعر تحت قبة السماء في وضح النهار. وعندما انتهت نزهتهن، عدن إلى بيوتهن وبقيت أنا في القارب. وفي اليوم التالي، اجتمعن ليلتقين عند البحيرة، فقابلتهن هناك، وأنا أغش في فترة عقابي، واستعددت للذهاب معهن أينما ذهبن.

لطالما تاقت نفسي وأنا فتاة على قيد الحياة إلى السفر والذهاب في جولات. وعندما توفيت أول الأمر، بدأت أهيم على وجهي على غير هدى. أما الآن، فقد أصبحت أمضي أيامي بتكاسل جالسةً على طرف قارب من قوارب البحيرة وأنا أصغي وأتعلم ونحن نمر بالقصور والأنزال والمطاعم

وبيوت الغناء. فشعرت وكأن العالم بأكمله أتى إلى مدينتي. إذ إنني سمعت لهجات مختلفة ورأيت سلوكاً مختلفاً من الناس: فهناك التجار الذين يعرضون لروائهم والفنانون الذين يميزهم الناس بريشهم وحبرهم ولفافات الورق التي يرسمون عليها والمزارعون والجزارون وصيادو السمك الذين أتوا ليبيعوا بضاعتهم والأجانب الذين يتميزون بشعرهم وملابسهم وبشرتهم الغريبة. لقد احتشد كل هؤلاء الناس إما ليبيعوا أو يشتروا. فباعت الفنانات المحترفات لوحاتهن وقصائدهن لجامعي الأعمال الفنية والأدبية الذين يمارسون التمييز ضدهن بينما قدمت راميات السهام مهاراتهن تسليةً لمحبي الملح بينما باع الحرفيون المقصات والمظلات لزوجات وبنات العائلات الراقية اللواتي يأتين إلى بلدتي الجميلة من أجل التكاسل والتسلية والمرح. لقد كانت البحيرة الغربية مكاناً تجتمع فيه الأساطير والخرافات والحياة اليومية وحيث يجتمع الجمال الطبيعي الهادئ في بساتين الخيزران وأشجار الكافور الباسقة جنباً إلى جنب مع صخب الحضارة التي يلتقي فيها الرجال من العالم الخارجي والنساء المحررات من العالم الداخلي ليتحدثوا معاً بدون بوابة أو جدار أو ستارة أو أخمرة يفصل بينهم.

في الأيام اللاحقة، ازداد عدد القوارب حتى ملأت المياه. وبدا معظمها مكسواً بخيم مزدانة برسوم مبهجة وتطريز على دفتها. فرأيت نساء مرتديات فساتين فخمة من الحرير لها أذيال طويلة وأقراطاً من اليشب والذهب وأغطية رأس محلاة بريش الطيور. ولم يكن النساء ذوات سمعة وضيعة أو من محدثات النعمة بل نساء عظيمات ينحدرن من الطبقة الراقية مثل أمي وزوجات أعمامي ويتشاركن بالكلمات والورق والريش والحبر. وكن متواضعات في ملابسهن وتزيين شعرهن. فأخذن يتنفسن عبير الكلمات التي تطفو في الهواء كخيوط الصفصاف.

يقول لنا الفلاسفة أن ننأى بأنفسنا عن الأمور الدنيوية. وقد أدركت أنني لا أستطيع أن أصلح كل الأخطاء التي ارتكبتها، ولكن نساء نادي حديقة الموز ساعدنني أن أفهم أن كل الشوق الذي شعرت به وكل المعاناة التي مررت بها حرراني في نهاية المطاف من كل شيء مادي ودنيوي. ولكن بينما بدأت أتحرر من أعباقي، أخذ نوع جديد من اليأس يشوب نشاطات نادي حديقة الموز . وكان المانشو قد حلوا معظم نوادي الشعر الخاصة بالرجال، ولكنهم لم يعثروا بعد على جماعات النساء.

قالت جو يوري، ابنة أخت جو روبو العبقرية، في أحد الأيام وهي تصب الشاي للأخريات: "يجب علينا أن نواصل اجتماعاتنا".

أجابت لين يينيغ بلا قلق: "سنبقى مخلصات، ولكننا من وجهة نظر المانشو عديمات الأهمية لأننا مجرد نساء ولا نستطيع أن نطيح بالحكومة".

فاصرت جو يوري على كلامها قائلة: "ولكننا، يا أختي، نشكل مصدر قلق بالنسبة إليهم. وقد اعتادت عمتي أن تقول لي إن حرية الكائنات متعلقة بحرية أفكارهن أكثر من المكان الذي تتواجد فيه أجسادهن".

اتفقت معها لين يينيغ فقالت: "وقد ألهمتنا جميعاً". وأشارت إلى الأخريات من حولها. وقد كن مختلفات عن نساء عائلتي اللواتي يتبعن سيد البيت بوجوه باسمة لأنه يتوجب عليهن ذلك ومختلفات عن العذارى المتاعات اللواتي جمعهن هوسٌ قَبْعَة موت مبكر. لقد اجتمعت نساء نادي حديقة الموز بمحض إرادتهن، فلم يكتبن عن الفراشات والزهور وتلك الأشياء التي يستطعن رؤيتها في حدائقهن، بل كتبن عن الأدب والفن والسياسة وعما شاهدنه وفعلنه في الخارج. ومن خلال كلماتهن المكتوبة، شجعن أزواجهن وأبناءهن على المثابرة في ظل النظام الجديد واستكشفن بكل شجاعة مشاعر عميقة وحتى كئيبة، كشعور الصياد بالوحدة على شاطئ البحيرة وكآبة أم افترقت عن ابنتها وبأس فتاة تعيش في الشارع. فشكلن أخوية من الصداقة والكتابة وبنين مجتمعاً فكرياً وعاطفياً للنساء في طول البلاد وعرضها من خلال القراءة. وبينما هن يلتمسن العزاء والكرامة والتمييز، امتدت مهمتهن إلى نساء أخريات لا يزلن محبوسات خلف البوابات أو أعدن إلى داخل البيوت على يد المانشو.

تابعت لين يينيغ قائلة: "لماذا ينبغي لإنجاب الأطفال ورعاية البيوت أن يمنعانا من التفكير في القضايا العامة ومستقبل بلادنا؟ ليس الزواج وإنجاب الأبناء الطريقتين الوحيدتين لحصول المرأة على الكرامة".

فمازحتها جو يوري قائلة: "إنك تقولين هذا لأنك تتمنين لو كنت رجلاً".

عارضتها يينيغ قائلة: "لقد تلقيتُ تعليمي على يد أمي، فكيف يمكنني أن أتمنى هذه الأمنية؟" ومررت أصابعها في الماء مرسلة تموجات هادئة عبر البحيرة. ثم قالت: "إنني زوجة وأم، ولكن لو كنت رجلاً لحققت نجاحاً أكبر".

قاطعتها إحدى النساء الأخريات وقالت: "لو أننا رجال لما سمح لنا المانشو بالكتابة أو النشر على الإطلاق".

تابعت يينيغ قائلة: "كل ما أقوله هو أنني أنجب الأبناء من خلال كتابتي".

فكرت في مشروعي الفاشل وقلت في نفسي: أليس مشروعي أشبه بطفل أحاول أن أخرجه إلى العالم ليربطني برين؟ ارتعشت أوصالي للتفكير في هذه الفكرة. إذ إن حبي له لم يتلاش قط، ولكنه تغير وحسب فأصبح أعمق من ذي قبل واخترقني كالمياه التي تتسرب إلى أعماق الجبال.

بدلاً من السماح لمشاعري أن تعذبني، بدأت أستغلها للفائدة. فإن أصابت الحيرة إحداهن وهي تكتب إحدى القصائد، ساعدتها. وعندما بدأت لين يبنغ أحد الأبيات مثل: "أشعر بقرابة تربطني..." أكملتها بعبارة: "بالضباب والغيوم". إن الأهلّة الجديدة تظهر في السماء العالية وخلف الغيوم، ولكنها تستطيع أيضاً أن تؤثر بنا وتذكرنا بفناء كل ما حولنا. وكلما غرقت تلك الشاعرات في أحزانهن تذكرن أصوات النساء الضائعات والبائسات اللواتي كتبن على الجدران خلال الجائحة.

رددت جو يوري قصيدة يبدو أنها تتحدث عن وجودي الحزين: "قلبي فارغ وحياتي لم تعد لها قيمة. وفي كل لحظة، أذرف ألف دمعة".

لقد استطاعت أعضاء نادي حديقة الموز الناشئة أن يمزحن بشأن عدم أهميتهن النسبية في نظر المانشو، ولكن من الواضح أنهن بدأن يمزقن النظام الأخلاقي للمجتمع. ترى كم سيمر من الوقت قبل أن يرسل المانشو وأتباعهم، كل النساء اللواتي طفون على سطح البحيرة في يوم دافئ وقرأن الشعر والأدب ليغذين قلوبهن، ويعيدوهن إلى حجراتهن الداخلية إلى الأبد؟

الفصل التاسع عشر

حب الأم

•

مرت ثلاث سنوات وأنا أخشى أن أقابل رين، ولكن عندما أوشك احتفال هذا العام بيوم السبعة المزدوجة على الحلول، وجدت نفسي أفكر في العذراء الحائكة وراعي الأبقار وكيف شكلت كل الغربان على الأرض جسراً ليتمكنا من أن يلتقيا في هذه الليلة المميزة. الا يمكن ان احظى ورين أيضاً بليلة بلم شملنا فيها؟ لقد ظننت أنني تعلمت من الدروس ما يكفي بحيث إنني لن أؤذيه مرة أخرى. وهكذا، وقبل حلول مهرجان السبعة المزدوجة بيومين، وهي الذكرى الثانية عشرة للقاء الأول الذي جمعنا معاً، غادرت الجزيرة المنعزلة وصعدت جبل ووشان إلى أن وصلت إلى بيته.

انتظرت خارج البوابة إلى أن خرج من البيت. فوجدته لم يختلف عن الرجل الذي لطالما عرفته، وكان ببساطة رجلاً وسيماً. فاستمتعت بعطره وصوته ووجوده كله. وبدون أن أفكر علقت نفسي بكتفيه. فجرني معه إلى المكتبة ثم إلى اجتماع مع بعض الرجال. وبعد ذلك، تملكه القلق والاضطراب وأمضى بقية ليلته يشرب ويقامر. ثم تبعته عندما عاد إلى البيت. ولم يكن أحد قد دخل غرفة نومه منذ وفاة زي، فرأيت آلة القانون التي اعتادت أن تعزف عليها قائمة على حاملها في الزاوية. واكتست عطورها وفراشي شعرها وزينته بطبقة من الغبار وخيوط العنكبوت على طاولة الزينة. ظل رين ساهراً إلى وقت متأخر من الليل وهو يسحب كتبها من على الرف ويفتحها. ترى هل كان يفكر فيها أم في أم في كلينا؟

بقي رين نائماً إلى ما بعد وقت الغداء وكرر النمط نفسه الذي قام به في اليوم السابق. ثم أمضى عصر يوم السبعة المزدوجة ، وهو ذكرى ميلادي الثامنة والعشرين، مع أمه. فقرأت له الشعر وصبت له الشاي وربتت على وجهه الحزين. وبحلول ذلك الوقت، أيقنت أنه ما زال يتذكرني.

بعد أن خلدت أمه إلى النوم، بدأ رين مجدداً يقلب في كتب زي، فعدت إلى مكاني السابق عند العارضة الخشبية، وهناك اجتاحتني مشاعر الندم والألم بشأن رين وزي وحياتي وموتي في موجة تلو أخرى، وأدركت أنني فشلت من نواحٍ عدة. وعندما رأيت شاعري يفتح كتاباً تلو آخر

وعقله يجوب في الماضي، تألمت ألماً يفوق الوصف. فأغمضت عيني عن ذلك الألم، ووضعت يدي على أذنيّ اللتين لم تعتادا قط على أصوات العالم الأرضي، ولكنني ظللت أسمع صوت تقليب الصفحات، وكل واحدة منها تذكرني بما حرمنا منه.

عندما سمعته يئن من تحتي، اخترق صوته جسدي. ففتحت عينيّ ونظرت إلى الأسفل. ووجدت رين جالساً على حافة السرير ممسكاً صفحتين بيده، وكان الكتاب الذي أتت منه الصفحتان موضوعاً بجانبه. تسللت إلى الأسفل وأتيت لأجلس بجانبه. فرأيته يمسك الورقتين اللتين مزقتهما زي بكل قسوة من نسخة حديقة الفاوانيا المشتركة التي شرحت مصدر تعليقاتنا. وهكذا وجد رين أخيراً الدليل الذي احتاج إليه ليعرف أنني وزي كنا قد عملنا معاً. فابتهجت بهجة عارمة، ولكن رين لم يبدُ سعيداً أو مستريحاً على الإطلاق.

طوى الورقتين ودسهما في قميصه وانطلق في ظلام الليل وأنا معلقة على كتفيه، وشق طريقه وسط الشوارع إلى أن وصل إلى بيت لم أعرفه. فدخل وأرشده الخادم إلى غرفة مليئة بالرجال ينتظرون زوجاتهم لينتهين من مراسم السبعة المزدوجة والعابها ليأتين ويجلسن معهم لتناول الوليمة. وكان الهواء مثقلاً بالدخان ورائحة البخور. وفي البداية، لم يميز رين أحداً. ثم وقف هونغ شينغ، الذي أتى إلى بيت ابنة أخ رين عندما خرجت في جولتي الأولى، وتقدم إلى الأمام. وعندما لاحظ هونغ شينغ أن رين لم يأتِ للمشاركة في الاحتفال، أخذ مصباحاً زيتياً بيد وكأسين وزجاجة من الشراب باليد الأخرى. ومشى الرجلان خارجين إلى حديقة البيت وجلسا.

سأل هونغ شينغ: "هل تناولت طعاماً؟".

فرفض رين دعوته بأدب ثم بدأ كلامه قائلاً: "لقد أتيت...".

"يا أبي!".

وأتت طفلة صغيرة لم تُربط قدماها بعد تجري إلى الحديقة وتسلقت على حضن هونغ شينغ. فتذكرت أن زوجة الشاعر كانت حاملاً بهذه الطفلة عندما رأيتها.

سأل هونغ شينغ: "ألا ينبغي أن تمكثي بصحبة أمك والآخرين؟".

راحت الطفلة تتلوى على حضن أبيها لا مبالية بألعاب الخنجر الداخلية. ثم رفعت نفسها إلى الأعلى ووضعت يديها حول عنقه وأخفت وجهها في كتفه.

قال هونغ شينغ: "حسناً إذاً. يمكنك أن تبقي، ولكن يجب أن تلتزم

الهدوء، وعندما تأتي أمك سيتوجب عليك أن تعودي معها بدون جدال ولا دموع".

ترى كم مرة لجأتْ إلى اي؟ هل كانت هذه الفتاة أيضاً مخطئة بشأن أبيها كما كنت أنا بشأن اي؟

سأل رين: "أتتذكر ما حدث قبل بضع سنوات عندما زرنا بيت قريبتي؟ كانت قد قرأت قريبتي شين والآخرون التعليق المكتوب عن حديقة الفاوانيا ".

"لقد قرأته أيضاً. فأعجبت كثيراً بعملك، ولا زلت معجباً به".

"في ذلك اليوم، قلت للجميع إنني لم أكتبه".

"ما زلت متواضعاً، وهذه صفة حميدة".

أخرج رين الورقتين وأعطاهما لصديقه. فقربهما الشاعر من ضوء المصباح وقرأهما، وعندما انتهى من القراءة، رفع نظره، وسأل: "هل هذا صحيح؟".

أطرق رين برأسه قائلاً: "لطالما كان صحيحاً، ولكن لم يرغب أحد في الإصغاء، والآن أريد أن أخبر الجميع".

سأل هونغ شينغ: "أي نفع ستجنيه إن غيرت القصة الآن. سوف تبدو مغفلاً كبيراً في أفضل الحالات أو رجلاً يحاول أن يعزز شهرة النساء في أسوأ الأحوال".

كان هونغ شينغ محقاً. فالاكتشاف الذي ظننته اكتشافاً رائعاً تسبب لرين بالمزيد من الحزن واليأس. أخذ رين زجاجة الشراب وصب لنفسه كأساً وشرب محتواها دفعة واحدة. وعندما أخذ الزجاجة من جديد انتزعها هونغ شينغ من يده.

وقال: "يا صديقي، يجب أن تعود إلى عملك وأن تنسى معاناتك والمآسي المتعلقة بتلك الفتاة وبزوجتك".

إن نسي رين مآسيه فما الذي سيحل بي؟ ولكن بقائي في قلب رين يزيد من عذابه. لقد رأيت هذا في وحدته وتعاطيه الشراب والطريقة التي تعامل بها مع كتب زي بحب شديد. لقد توجب على رين أن يتجاوز حزنه وينسى أمر الأوبرا. وهكذا غادرت الحديقة وأنا أتساءل إن كنت سأراه مرة أخرى.

بدا الهلال الرقيق معلقاً في سماء الليل. وكان الجو رطباً ودافئاً. فمشيت ومشيت معتقدة أن كل خطوة تنقلني إلى مكان أبعد في منفاي. وراقبت السماء طوال الليل. فلم أرَ العذراء الحائكة ولا راعي الأبقار

يلتقيان، ولم أعرف ما فعله زين بالورقتين.

بعد أسبوع واحد فقط، حل مهرجان الأشباح الجائعة . وبعد مرور كل تلك السنوات، أدركت حقيقتي وما أنا بحاجة إليه. فدفعت الآخرين وشققت طريقي بينهم وحشوت فمي بكل ما استطعت انتزاعه. وذهبت من بيت إلى آخر، وكالمعتاد، وجدت نفسي أمام قصر عائلة تشين. فحشرت وجهي في وعاء من قشور البطيخ القديمة الزلقة. وعندئذ، سمعت شخصاً ينادي باسمي، فصحت بأعلى صوتي وقفلت إلى الوراء ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع أمي.

كانت وجنتاها مطليتين باللون الأبيض وهي مرتدية طبقة فوق طبقة من الحرير الراقي. ارتدت إلى الوراء عندما أدركت أنها تراني فعلاً. وملأ الرعب عينيها. ثم ألقت المال عليّ وتراجعت بضع خطوات. فتعثرت بذيل ثوبها.

"أمي!" وأسرعت إليها وساعدتها للوقوف على قدميها. ترى كيف استطاعت أن تراني؟ أحدثت معجزة؟

"ابتعدي عني!" وألقت عليّ المزيد من المال. فتزاحمت الأشباح الأخرى لتنزعه لنفسها.

"أمي، أمي...".

بدأت تتراجع إلى الوراء، ولكنني بقيت معها حتى ارتطمت بجدار البيت على الجانب الآخر من الشارع. راحت تنظر من مكان إلى آخر على أمل أن تعثر على وسيلة للهرب، ولكنها وجدت نفسها محاطة من كل جانب بتلك الأشباح التي تريد المزيد من المال.

فقلت لها: "أعطيهم ما يريدونه".

"لم يعد لديّ المزيد".

"أريهم ذلك إذاً".

فمدت أمي يديها الفارغتين ثم مدت يدها إلى ملابسها لتظهر لهم أنها لا تملك شيئاً أكثر من بضعة أقفال على شكل الأسماك. فانصرفت الأشباح بدافع الجوع وأسرعت عائدة إلى الطاولة.

مددت يدي لألمس خدها الناعم البارد، فأغمضت عينيها واهتز جسدها كله من الرعب.

"لماذا أنت هنا، يا أمي؟".

فتحت عينيها ونظرت إليّ بارتباك. فقلت لها: "تعالي معي".

أمسكتها من مرفقها وقدتها إلى زاوية مبنى بيتنا. ونظرتُ إلى الأرض فوجدت أننا كلتينا لم نلق ظلالاً على الأرض. ولكنني رفضت أن استوعب ما فهمته من ذلك. تقدمت بخطوات واسعة لأنعطف في الزاوية المحاذية للشاطئ. وعندما رأيت أن أقدامنا لم تترك آثاراً على الوحل الطري ولن ملابسنا لم تتسخ، أغلقت قلبي على الحقيقة التي رأيتها بأم عيني. وعندما أدركت أن أمي لم تستطع أن تخطو أكثر من عشر خطوات بدون أن تترنح تقبلت الحقيقة فعلاً: لقد ماتت أمي وبدأت نهيم على وجهها، ولكنها لم تكن تدرك ذلك.

وصلنا إلى حديقة إطلالة القمر . فساعدتها على الصعود، ثم انضممت إليها.

قالت أمي: "إنني أتذكر هذا المكان. فقد اعتدت أن آتي إلى هنا مع والدك. ولكن لا ينبغي أن تكوني هنا. ينبغي أن أعود. إذ يجب أن أضع قرابين العام الجديد". ثم استولى الاضطراب على ملامحها وقالت: "ولكن هذه القرابين مخصصة للأسلاف. وأنت...".

"شبح؟ أعلم، يا أمي. وهذا ليس احتفال العام الجديد". ولا بد أنها قد ماتت في وقت قريب جداً لأن ارتباكها ما زال شديداً.

"كيف يمكن أن يحدث هذا؟ إنك تملكين لوحاً للأسلاف. فقد صنع لك والدك واحداً رغم أن هذا مخالف للتقاليد".

لوحي...

وتذكرت قول جدتي إنني لا أستطيع أن أفعل أي شيء لأضع النقطة عليه. ولكن ربما أستطيع أن أجعل أمي تساعدني.

سألتها محاولة أن أبقي صوتي حيادياً: "متى رأيته لآخر مرة؟".

"لقد أخذه والدك معه إلى العاصمة لأنه لم يتحمل أن يفترق عنك".

شكلت الجمل في ذهني لأخبرها بما حدث فعلاً، ولكن مهما حاولت بجهد، فلم تخرج الكلمات من فمي. وتملكني شعور مريع من العجز.

قالت أمي بعد وقت طويل: "تبدين بالضبط كما كنت. ولكنني أرى الكثير في عينيك. فقد كبرت وأصبحت مختلفة".

ورأيت أنا أيضاً الكثير في عينيها. رأيت الأسى والاستسلام والشعور بالذنب.

مكثنا في حديقة إطلالة القمر لثلاثة أيام. ولم تقل أمي الكثير ولم أفعل أنا ذلك أيضاً. وكان قلبها بحاجة إلى الاستقرار لتدرك أنها فارقت

الحياة. وتدريجياً بدأت تتذكر أنها كانت تستعد لمهرجان الأشباح الجائعة ثم انهارت على أرض المطبخ.

فقالت لي في الليلة الثالثة بينما راحت ظلال الزهور ترتجف من حولنا: "إنني لا أخرج من البيت. ولا ينبغي لك أنت ذلك أيضاً. فأنت تنتمين إلى البيت الذي تبقين فيه بأمان".

"لقد مضى وقت طويل جداً وأنا أهيم على وجهي، يا أمي". وفكرت في كلماتي بعناية شديدة ثم قلت: "ولم يحدث أي أذى لجسدي لي".

فحدقت إلي. ووجدتها لا تزال جميلة ونحيلة وأنيقة ورافية. ولكنها بدت متأثرة بحزن عميق جداً منحها أناقة وعزة نفس. فكيف لم ألاحظ هذا سابقاً؟

قلت لها: "لقد مشيت إلى غودانغ لأرى بساتين القز التي تملكها هناك. وذهبت في جولات. وانضممت حتى إلى نادٍ لكتابة الشعر. هل سمعت بنادي حديقة الموز ؟ وأبحرنا في القارب وساعدتهن بكتاباتهن".

وأردت أن أخبرها عن مشروعي والجهد الذي بذلته فيه وأن زوجي تلقى شهرة واسعة بسببه. ولكنها لم تكن تعرف عنه شيئاً وأنا على قيد الحياة. وأردت أيضاً أن أعترف لها أنني تابعته بجهد كبير لدرجة جعلتني أتسبب بموت زي، ولكنها لم تكن لتشعر بالفخر بل بالاشمئزاز والخزي.

عندما تحدثت ثانية أدركت أنها لم تسمع ما قلته. فقد قالت: "إنني لم أكن أريدك قط أن تخرجي. وبذلت كل جهدي لأحميك. فهناك الكثير لم أرد أن تعرفيه. ولم أكن ووالدك نريد لأحد أن يعرف".

مدت يدها وتحسست أقفالها. ولا بد أن زوجات أعمامي قد وضعنها هناك عندما هيأنها للدفن.

تابعت كلامها قائلة: "قبل أن تولدي، حلمت بك وبما ستصبحين عليه. وعندما بلغت السابعة من عمرك، كتبت قصيدتك الأولى. وكانت قصيدة جميلة. فأردت لموهبتك أن تحلق كالطير. ولكن قصيدتك أصابتني بالخوف. فقد قلقت مما سيحدث لك. واستطعت أن أستشف مشاعرك المرهفة والمسها. فأيقنت أنك ستحظين بسعادة قليلة في الحياة. وعندئذ أدركت المغزى الحقيقي لقصة العذراء الحائكة وراعي الأبقار وفهمت أن موهبتها وذكاءها وقدرتها على الحياكة لم تضع حداً لحزنها بل تسببت به. فلولا براعتها بحياكة الثياب للأسياد، لعاشت إلى الأبد على الأرض مع راعي الأبقار".

"لطالما ظننت أنك قصصت علي تلك القصة لأنها رومانسية. ولكنني لم

افهم قصدك".

تبع ذلك صمت طويل. وكان تفسيرها للقصة مظلماً وسلبياً. فادركت ان هناك اموراً كثيرة لم افهمها عن امي.

"من فضلك، يا امي، قصي عليّ ما حدث لك".

فاشاحت بوجهها عني.

قلت لها وأنا أشير إلى المكان من حولي: "إننا بأمان الآن". فسمعنا صوت الجداجد تغني ورأينا البحيرة ممتدة ساكنة امامنا. وقلت: "لا يمكن لأي مكروه أن يحدث لأي منا هنا".

ابتسمت أمي لسماع هذا. ثم بدأت حديثها بتردد. وراحت تتذكر زواجها ودخولها عائلة تشين وذهابها في جولات مع حماتها وكتابتها وما عناه ذلك لها وعن جمع أعمال شاعرات منسيات كتبن والفن الأدب منذ دخلت بلادنا حيز الوجود.

قالت لي: "لا تدعي أحداً يقول لك أبداً إن النساء لا يؤلفن. فإن عدت أكثر من ألفي سنة إلى الوراء ونظرت إلى كتاب الأغاني لرأيت ان الكثير من القصائد كتبت بأقلام شاعرات من النساء والفتيات. أينبغي ان نفترض أنهن يؤلفن تلك القصائد بمجرد فتح أفواههن والتفوه بالكلمات بلا تفكير؟ بالطبع لا. إن الرجال يسعون وراء الشهرة بكلماتهم وبكتابة الخطابات وتسجيل التاريخ وتعليمنا كيف نعيش. ولكننا نحن من نعانق المشاعر ومن نجمع الفتات المتبقية لأيام تبدو عديمة المعنى ومن نتأثر بدورات الحياة ونؤرخ أحداث عائلاتنا. ولكنني أسألك، يا زهرة الفاوانيا، اليس ذلك أكثر أهمية من كتابة المقالات المطولة عن الإمبراطور؟".

لم تنتظر مني إجابة. ولا أظن أنها أرادت أن تسمع مني إجابة اصلاً.

وتحدثت عن الأيام التي سبقت وقوع الجائحة وعن الأحداث التي ترافقت مع وقوعها. فتطابق حديثها مع كل ما قالته لي جدتي. ثم امسكت أمي عن الكلام عندما وصلت في قصتها إلى شرفة فرجة الفتيات حيث جمعت المجوهرات والفضة من النساء الأخريات.

استأنفت أمي حديثها قائلة: "لقد ابتهجنا كثيراً للخروج من البيت. ولكننا لم ندرك أن هناك فرقاً كبيراً بين أن نؤثر الخروج من حجراتنا الداخلية بمحض إرادتنا وأن نجبر على الخروج منها. لقد قيلت لنا أشياء كثيرة عن الكيفية التي ينبغي لنا بها أن نتصرف وما ينبغي أن نفعله، وإننا يجب أن ننجب الأبناء ونضحي بانفسنا من أجل ازواجنا وأبنائنا وإن

من الأفضل لنا أن نموت على أن نلحق العار بعائلاتنا. فآمنت بكل تلك المبادئ وما زلت أعتقد بها".

بدت مستريحة لأنها تمكنت أخيراً من بث مكنونات صدرها، ولكنها حتى الآن لم تفصح عن كل ما أردت أن أعرفه.

سألتها بلطف قائلة: "ماذا حدث بعد أن غادرت الشرفة؟" وأمسكت يدها وضغطت عليها، ثم قلت: "مهما قلت أو فعلت، فسوف أبقى أحبك. إنك أمي وسوف أحبك دائماً".

حدقت إلى البحيرة والضباب الذي يكتنفها والظلام المحيط بها.

وقالت أخيراً: "إنك لم تتزوجي قط، ولذلك فلا تعرفين طبيعة العلاقة بين الزوج والزوجة. لقد جمعتني بوالدك علاقة جميلة. فكنا نشعر ونحن معاً وكأننا شخص واحد وليس شخصين".

وكنت أعرف عن ذلك الموضوع أكثر مما أجرؤ أن أخبر أمي، ولكنني لم أفهم مغزى كلامها تماماً.

فقالت: "إن ما فعله الجنود معي ليس أمراً طبيعياً بل عملاً وحشياً وغير ممتع حتى بالنسبة إليهم. أتعلمين أنني كنت حاملاً عندئذ؟ ولكن من أين لك أن تعرفي؟ فأنا لم أخبر أحداً سوى والدك. لقد كنت في الشهر الخامس، ولم يكن الحمل ظاهراً من تحت ملابسي. ففكرت ووالدك أن نذهب في هذه الجولة الأخيرة قبل أن ألزم البيت. وفي ليلتنا الأخيرة في يانغجو كنا ننوي أن نخبر جديك، ولكن ذلك لم يحدث قط".

"لأن المانشو هاجموا المدينة".

"لقد أرادوا أن يدمروا كل شيء غالٍ على قلبي، وعندما أخذوا والدك وجدك، أدركت ما يتوجب عليّ فعله".

فسألتها: "ما يتوجب عليك فعله؟ ما الذي تدينين به لهما؟" وتذكرت قسوة ما قالته لي جدتي.

نظرت إلي بدهشة وقالت: "إنني أحبهما".

تزاحمت الأفكار في رأسي، فحركت ذقنها بأسلوب مرتجل.

وقالت: "سلب الجنود مجوهراتي ثم أخذوني وفعلوا بي فعلتهم الشنيعة، ولكن ذلك لم يكن كافياً. فقد ضربوني بحد السيوف إلى أن تفتح جلدي ثم ركلوني على بطني لحرصهم على عدم تشويه وجهي".

بينما راحت أمي تقص عليّ قصتها، تحول الضباب المتجمع حول البحيرة إلى رذاذ ثم أمطرت السماء. فلا بد أن جدتي كانت تصغي إلينا من شرفة الإطلالة .

"شعرت وكأنني أجر إلى الموت، ولكنني أخفيت حزني وقاومت دموعي. وعندما بدأت أنزف من الداخل تراجعوا إلى الوراء ورأوني أتسلل بعيداً عنهم إلى العشب. وبعد ذلك، تركوني وحدي. وأصابني ألم مبرح لدرجة أنه تغلب على كراهيتي وخوفي. وعندما سقط الطفل، أتى ثلاثة من الرجال الذين آذوني وأخذوه. وامسك أحدهم بيدي وغمغم شيئاً بلغته البربرية الفظة. لماذا لم يقوموا بمجرد قتلي؟ لقد قتلوا العديد من الناس قبلاً. فماذا تساوي امرأة واحدة أخرى؟".

لقد حدث ذلك كله في الليلة الأخيرة من الجائحة عندما بدأ الرجال أخيراً يتذكرون أنفسهم وحقيقتهم. فأحرق الجنود بعض القطن والعظام البشرية معاً واستخدموا الرماد لمعالجة جراح والدتي. ثم ألبسوها ثوباً نظيفاً من الحرير الخام، ولكن ذلك لم يكن نابعاً من صفاء قلوبهم.

قالت أمي: "ظننت أنهم تذكروا أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم وبناتهم. ولكن لا. لقد اعتبروني جائزة". رنت الأقفال في ملابس والدتي وهي تمسكها بتوتر، ثم قالت: "تجادلوا حول ملكيتي. فأراد أحدهم أن يبيعني لأغراض المتعة بينما أراد الآخر أن يبقيني في بيته كخادمة وأرادني الأخير محظية له. وقال الرجل الذي أراد بيعي: إنها ليست منفرة. سأدفع عشرين أونصة من الفضة إن تركتموني أحتفظ بها . فزمجر الآخر الذي أرادني خادمة قائلاً: لن أتركها مقابل أقل من ثلاثين أونصة . فأجابه الرجل الأول قائلاً: يبدو لي أنها ولدت للغناء والرقص وليس للحياكة والغزل . واستمر الجدال على هذا النحو. وقد كنت في التاسعة عشرة من عمري فقط. ورغم كل شيء حدث لي وكل ما واجهته في المستقبل، فقد اعتبرت هذه أكثر لحظات حياتي ظلاماً. هل يختلف بيعي لمتعة عشرة آلاف رجل عن التجارة بالنساء كزوجات أو محظيات أو خادمات؟ أيختلف بيعي عن التجارة بالملح؟ نعم، لأن النساء أقل قيمة من الملح".

بينما أخذت أمي تتحدث عن محنتها، رأيت كل شيء وشعرت به. ففي صباح اليوم التالي، وصل جنرال ذو مرتبة كبيرة من المانشو يرتدي رداء أحمر له سيف على خصره وبصحبته امرأة من المانشو ذات قدمين كبيرتين وشعرها مرفوع على هيئة كعكة ومزين بزهرة على أحد صدغيها. وكانا كلاهما حارسين لأمير المانشو. فأخذا أمي من الجنود وأعاداها إلى البيت الذي احتجزت فيه في الليلة الفائتة مع حماتها والمحظيات وكل النساء الأخريات اللواتي افترقن عن عائلاتهن.

تذكرت أمي الأحداث وقالت: "بعد أربعة أيام من المطر والقتل،

سطعت الشمس وألقت بأشعتها على المدينة. وفاحت رائحة رهيبة من الجثث، ولكن السماء من فوقنا كانت زرقاء صافية. انتظرت دوري لأخضع للفحص، ورأيت النساء من حولي يبكين ويتساءلن في أنفسهن: لماذا لم نقتل أنفسنا؟ لأننا لا نملك حبالاً ولا سكاكين ولا جروفاً عالية لنرمي بأنفسنا. ثم تقدمي لتلك المرأة من المانشو نفسها، ففحصت شعري وذراعي وراحتي يدي وأصابعي، ثم رفعت تنورتي ونظرت إلى قدمي الصغيرتين اللتين تعبران عن مكانتي كامرأة. فقالت لي بازدراء: أرى أين تكمن موهبتك. سوف تفعين . كيف تستطيع امرأة أن تفعل هذا لامرأة أخرى؟ ثم اقتادني من جديد واحتجزت وحدي داخل إحدى الغرف".

ظنت أمي أنها ستنال فرصتها لقتل نفسها، ولكنها لم تجد شيئاً تستطيع به أن تقطع عنقها. وكانت الغرفة في الطابق الأول، فلم تستطع أن ترمي بنفسها من النافذة، ولم تتوقع أن تجد حبلاً. فجلست ومزقت من حاشية ثوبها وصنعت عدة قصاصات من القماش وربطتها معاً.

قالت أمي: "وأخيراً أصبحت مستعدة، ولكن بقي أمامي شيء يجب أن أفعله. فعثرت على قطعة من الفحم بجانب المجمرة وأمسكتها وجربتها على الجدار ثم بدأت أكتب".

عندما بدأت أمي تردد ما كانت قد كتبته، أصابت الصدمة قلبي:

"الأشجار مجردة من أوراقها،
وأسمع من بعيد صياح الإوز الحزين.
لو أن بكائي بدل الدموع دماً تصبغ براعم شجرة الخوخ،
ولكنني لن أستطيع أبداً أن أجعلها تتفتح.

فانضممت إليها في إلقاء البيتين الأخيرين:
قلبي فارغ وحياتي لم تعد لها قيمة بعد الآن.
وكل لحظة أذرف ألف دمعة" .

كانت قد قالت جدتي إن أمي شاعرة عظيمة، ولكنني لم أعلم أنها أشهر شاعرة على الإطلاق. إنها تلك الشاعرة التي تركت القصيدة المأساوية على الجدار. نظرتُ إلى أمي بدهشة وأدركت أن قصيدتها هي ما مهدت الطريق الذي حققه خياوكينغ وتانغ خيانجو وغيرهما من الشعراء العظماء. ولا عجب في أن والدي قد سمح لأمي بأخذ لوح الأسلاف الخاص بي. إذ

إنها كانت امرأة ذات مكانة عظيمة. وكنت سأحظى بتكريم وشرف عظيمين إن نفذت بنفسها وضع النقطة على اللوح. يا للأخطاء والالتباسات التي حدثت!

قالت أمي: "لم أدرك وأنا أكتب هذه الكلمات أنني سأعيش ولن مسافرين آخرين، معظمهم من الرجال، سيصادفونها وينسخونها وينشرونها ويوزعونها. لم أكن أرغب أن أصبح معروفة بها ولن يشار إليّ على أنني ساعية إلى الشهرة. آه، يا زهرة الفاوانيا، عندما سمعتك ترددين القصيدة في ذلك اليوم في قاعة براعم اللوتس ، شعرت أنني بالكاد أستطيع التنفس. لقد كنتِ مصدر سروري الوحيد في الحياة وطفلتي الوحيدة. وكنت أعتقد أنك تعرفين بالأمر لأن ارتباطاً وثيقاً جمع بيننا كأم وابنة. فظننت أنك شعرت بالخزي مني".

"لو أنني عرفت الحقيقة لما رددت تلك القصيدة أبداً. فأنا لم أكن لأجرح شعورك قط بتلك الطريقة".

"ولكنني حبستك في غرفتك. فعشت مع الندم منذ ذلك الحين".

لم أستطع أن أمنع نفسي من إلقاء اللوم على والدي وجدي لما حدث في يانغجو. فقد توجب عليهما أن ينقذا زوجتيهما.

"كيف استطعت أن تعودي إلى أبي بعد أن تركك تنقذينه وبعد أن استخدم جدي جدتي لتنقذهما كليهما؟".

قطبت أمي جبينها وقالت: "لم أعد إلى والدك، بل هو من جاء من أجلي. إنه السبب في بقائي على قيد الحياة وإنجابي لك. لقد أنهيت قصيدتي وثبتُّ الحبل المصنوع يدوياً على العارضة ولففته حول عنقي، ولكن تلك المرأة من المانشو أتت لتأخذني. فغضبت كثيراً وصفعتني بقوة، ولكن ذلك لم يزعزع إصراري على تنفيذ خطتي. وأيقنت أنني سأحظى بفرصة لاحقاً. فإن أرادوا أن يحتفظوا بي من أجل أحد أمراء المانشو، توجب عليهم أن يلبسوني ملابس لائقة ويأووني ويطعموني. وكنت سأرتجل سلاحاً ما".

أعادت المرأة الحارسة أمي إلى القاعة الرئيسة. فوجدتا الجنرال جالساً إلى طاولته ووالدي راكع على ركبتيه ورأسه على الأرض وهو ينتظر.

تابعت أمي قائلة: "في البداية، ظننت أنهم أمسكوا بأبيك وأنهم سيقطعون رأسه. فأيقنت أن كل شيء فعلته وعانيته سيذهب هباء. ولكنه عاد ليشتريني منهم، وبعد أن انقضت أيام الرعب والجرائم، بدأ المانشو يحاولون أن يثبتوا أنهم متحضرون وهم يأملون أن يصنعوا نظاماً من

اللانظام. فاصغيت إليهم وهم يتساومون. وكانت مشاعري مخدرة من شدة الألم والحزن لدرجة أنني استغرقت وقتاً طويلاً لأتمكن من التفوه بالكلمات. فقلت: يا زوجي، لا يمكنك أن تستعيدني، فأنا مدمرة. ففهم ما أعنيه، ولكنه ظل مصمماً، فاعترفت له قائلة: لقد فقدت ابننا. فانهمرت الدموع على خدي والدك، وقال: لا آبه لذلك، فأنا لا أريدك أن تموتي ولا أريد أن أفقدك. أنرين، يا زهرة الفاوانيا، لقد احتفظ بي بعد كل ما حدث. لقد اصبحت محطمة لدرجة تبرر له بيعي أو مقايضتي، بالضبط كما اراد أولئك الرجال الذين آذوني ان يفعلوا. وكان بوسعه ان ينبذني إلى الأبد".

ترى هل سمعت جدتي هذا؟ لقد منعت عائلتي من إنجاب الأبناء لتعاقب والدي وجدي. هل ادركت الآن الخطأ الذي ارتكبته؟

سألت امي وكأنها تقرأ أفكاري: "كيف يسعنا ان نلوم الرجال بعد أن اتخذت وجدتك قرارنا بأنفسنا؟ لقد أنقذني والدك من مصير فظيع كان سينتهي بالانتحار".

"ولكن والدي ذهب ليعمل لدى المانشو. كيف أمكنه أن يفعل ذلك؟ هل نسي ما حدث لك ولجدتي؟".

سألت امي وهي تبتسم لي بصبر: "كيف امكنه ان ينسى؟ لم يستطع أن ينسى قط. لقد حلق مقدمة رأسه وضفر شعره وارتدى ملابس المانشو. فلم يكن هذا أكثر من مجرد تنكر يتخفى به. لقد برهن على شخصيته الحقيقية واثبت أنه رجل مخلص لعائلته أكثر من كل شيء آخر".

"ولكنه ذهب إلى العاصمة بعد وفاتي، وتركّكم جميعاً وحدكم. لقد..." ولا بد أنني بدأت اتجه نحو موضوع لوح الأسلاف لأنني لم أعد قادرة على الإكمال.

عادت أمي بذاكرتها إلى الوقت الذي سبق وفاتي، فقالت: "لقد تحددت تلك الخطة منذ وقت طويل. وكان من المقرر لك ان تتزوجي. لقد احبك كثيراً، فلم يتحمل ان يفقدك، لذا قرر أن يستغل الفرصة في العاصمة. وبعد موتك، أصبحت رغبته في الابتعاد عن اي ذكريات عنك أعظم من ذي قبل".

لوقت طويل، اعتقدت أنه رجل يفتقر إلى أي نزاهة، ولكنني اكتشفت أنني كنت مخطئة حياله وحيال الكثير من الأمور الأخرى.

تنهدت امي ثم غيرت الموضوع فجأة مرة اخرى وقالت: "إنني لا أعرف وحسب ما الذي سيحل بعائلتنا إن لم ينجب باو ابناً قريباً".

"إن جدتي لن تسمح بذلك".

أومأت أمي برأسها وقالت: "لقد أحببت جدتك، ولكنها أصبحت محبة للانتقام. وعلى أي حال، فهي مخطئة من هذه الناحية. لقد ماتت في يانغجو ولم تر ما حدث لي، ولم تكن على قيد الحياة أثناء حياتك. لقد كان والدك يحبك ويعتبرك كالجوهرة في يده، ولكنه أراد أن ينجب ابناً ليرعى الأسلاف. ما الذي تظن جدتك أنه سيحصل لها ولجميع أسلاف عائلة تشين إن لم ننجب أبناء وأحفاداً ليؤدوا الطقوس؟ إن الأبناء وحدهم هم من يفعلون ذلك. وهي تعرف هذا حق المعرفة".

قلت: "فتنني والدي ذلك الرجل المدعو باو". ولم أستطع أن أخفي خيبة الأمل التي شعرت بها لأن والدي استطاع بسهولة أن يستبدلني في مشاعره.

"لقد استغرق باو بعض الوقت ليتعلم عاداتنا، ولكنه عاملنا بطيبة ومحبة. انظري كم بعثني بي الآن. لقد ألبسني ملابس تكفيني للأبد وأطعمني ومنحني الكثير من المال لرحلتي...".

قاطعتها قائلة: "لقد عثر على قصائدي. فذهب إلى رين ليبيعها".

قالت أمي: "إنك تتصرفين كأخت غيورة. لا تدعي شعور الغيرة يتملكك. فقد أحببتك ووالدك كثيراً". ولمست خدي. وكان وقت طويل قد انقضى منذ عبر أحد لي عن عاطفته. ثم قالت: "لقد عثرت على قصائدك بالصدفة وأنا أعيد ترتيب رفوف كتب والدك. فقرأتها وطلبت من باو أن يأخذها إلى زوجك. وقلت لباو أن يحرص على أن يدفع رين ثمنها. فقد أردت أن أذكره بقيمتك".

ووضعت ذراعها حولي.

وقالت: "لقد أتى المانشو إلى منطقتنا لأننا المدينة الأغنى في البلاد ونملك الكثير من الأشياء المعرضة للدمار، ولكننا نملك أيضاً أفضل الوسائل للشفاء. ومن نواح كثيرة، كانوا على حق، ولكن كيف يمكننا أن نتعافى من كل ما فقدناه في عائلاتنا؟ لقد ذهبت أنا إلى البيت وأغلقت الباب على نفسي. والآن عندما أنظر إليك، أدرك أنه مهما حاولت الأم، فليست هناك وسيلة لحماية الابنة. لقد أبقيتك مسجونة في الداخل منذ ولادتك. ولكن ذلك لم يمنعك من الموت وأنت في ريعان شبابك. والآن انظري إلى نفسك: لقد ركبت القوارب وسافرت...".

فاعترفت لها قائلة: "وألحقت الأذى بالآخرين". فبعد كل شيء قالته لي، ألم أكن أدين لها بإخبارها حقيقة ما فعلته مع زي؟ فقلت لها: "لقد ماتت شقيقتي الزوجة بسببي".

قالت أمي: "لقد سمعت القصة بشكل مختلف. فقد لامت والدة زي ابنتها على عدم أداء واجباتها الزوجية. لقد كانت تدع زوجها يجلب الماء. أليس هذا صحيحاً؟".

وعندما أومأت برأسي، تابعت كلامها.

"يجب ألا تلومي نفسك على إضراب زي عن الطعام. فهذه الطريقة قديمة قدم البشرية. ولا شيء أقوى أو أشد قسوة من امرأة تدع زوجها يراقبها وهي تموت". وأمسكت بوجهي بين يديها وقالت: "أنت ابنتي المحبوبة مهما يكن ما اقترفته يداك".

ولكن أمي لم تكن تعرف كل شيء.

"وبالإضافة إلى ذلك، فأي خيار تملكين؟ لقد تعرضت للخذلان وخيبة الأمل من والدك ووالدتك. وهذا يجعلني أشعر أنني مسؤولة. فقد أردتك أن تبرعي بالتطريز والرسم والعزف على القانون، وأردتك أن تبقي فمك مقفلاً وأن تتظاهري بالابتسام وتتعلمي أن تطيعي الأوامر. ولكن انظري ماذا حدث. لقد غادرت القصر ووجدت حريتك هنا". وأشارت إلى قلبي وقالت: "في أعماقك وقرارة نفسك".

أدركت حقيقة كلماتها. إذ لطالما حرصت أمي أن تثقفني ثقافة عالية لأصبح زوجة صالحة، ولكنها ألهمتني أن أتخلى عن النموذج المعتاد للشابة المقبلة على الزواج.

تابعت أمي قائلة: "إنك تتمتعين بقلب كبير وطيب. ويجب ألا تشعري بالخزي لأي شيء. وبدلاً من ذلك فكري في رغباتك إلى الشفقة ومعرفتك وما يكمن هنا في قلبك. وقد كان الفلاسفة واضحين في هذه النقطة عندما قالوا: إن من يفتقر إلى الشفقة ليس بشراً ومن يفتقر إلى الخزي ليس بشراً ومن يفتقر إلى حس الاحترام ليس بشراً ومن يفتقر إلى الخجل ليس بشراً ومن يفتقر إلى حس الخطأ والصواب ليس بشراً".

"ولكنني لست بشراً، بل أنا شبح جائع".

ما قد قلت لها! ولكنها لم تسألني كيف حدث هذا، وربما شكل هذا الخبر صدمة لها. فسألتني قائلة: "ولكنك اختبرت ذلك كله. أليس كذلك؟ لقد شعرت بالشفقة والخزي والندم والحزن لكل شيء حدث لتان زي. أليس هذا صحيحاً؟".

بالطبع شعرت بذلك. فقد أجبرت نفسي على الخروج إلى المنفى كعقوبة على فعلتي.

سألت أمي: "كيف يمكننا أن نتحقق من بشرية المرء؟ بأن نتحقق

من انه يلقي ظلاً على الأرض أو يترك آثار أقدام على الرمل؟ لقد أعطاك تاتنغ خيانجو الأجوبة في الأوبرا التي تحبينها كثيراً وقال إن أحداً لا يستطيع أن يعيش بدون الفرح والغضب والحزن والأسى والحب والكره والرغبة، كما أنك عرفت من كتاب الطقوس ومن حديقة الفاوانيا ومني أن المشاعر السبعة هي ما تجعلنا بشراً. إنك لا تزالين تكنين تلك المشاعر في صميمك".

"ولكن كيف بوسعي أن أغير الأخطاء التي ارتكبتها؟".

"لا أصدقك أنك ارتكبت خطأ. ولكن إن فعلت ذلك، فيجب عليك أن تفكري في كل ما تتمتعين به من صفات الأشباح وتستغليها للمنفعة. يجب أن تعثري على فتاة أخرى تستطيعين أن تصلحي حياتها".

فخطر اسم الفتاة ببالي بلمح البصر، ولكنني احتجت إلى مساعدة أمي.

سألتها قائلة: "هلا تمشين معي؟ فالمكان بعيد جداً...".

فشعت الابتسامة على وجهها وأرسلت ضوءاً أنار سطح البحيرة المظلم. وقالت: "هذا حسن. فمن المفترض بي أن أهيم على وجهي".

وقفت ونظرت حولها في أنحاء حديقة إطلالة القمر للمرة الأخيرة. فساعدتها على عبور الحاجز والهبوط على الشاطئ. مدت يدها في طيات ثيابها وأخرجت الأقفال التي على شكل أسماك، وواحداً تلو الآخر، ألقت بها في البحيرة. فأصاب كل واحد منها سطح الماء بلا صوت وأرسل تموجات بالكاد يمكن رؤيتها وهي تتجه نحو اللانهاية.

بدأنا نمشي. فأرشدتُ أمي وهي تمشي وأذيال تنورتها تتجرجر خلفها على الأرض خلال المدينة. وبحلول الصباح، وصلنا إلى الريف. فرأينا الحقول تمتد حولنا كقطعة قماش مطرز محبوكة بإتقان. وانتشرت عليها أشجار التوت كثيفة الأوراق. فراحت نساء ذوات أقدام كبيرة يعتمرن قبعات من القش يتسلقن الأغصان ليقطعن الأوراق. ومن تحتهن، أخذت نساء أخريات مسمرّات من الشمس وقويات من جهد العمل يحرثن الأرض حول الجذور أو يحملن سلالاً مليئة بالأوراق.

لم تعد أمي خائفة. فتوهج وجهها بالسلام والسعادة. وفي الأيام الخوالي، كانت قد مرت من هذا الطريق عدة مرات بصحبة والدي. فاستمتعت بتأمل المعالم المألوفة لها. لقد تبادلنا الثقة والتعاطف والحب وكل تلك الأمور التي تستطيع أم وابنتها فقط أن تتشاركا بها.

لطالما تمنيت أن انضم إلى أخوية. فلم أعثر عليها في حجرات النساء

مع بنات أعمامي وأنا على قيد الحياة لأنهن لم يكن يحببنني ولم أعثر عليها مع الفتيات الملتاعات على شرفة الإطلالة لأن لوعة حبهن كانت مختلفة عن لوعتي ولم أعثر عليها مع عضوات نادي حديقة الموز لأنهن لم يكن يعرفن بوجودي، ولكنني عثرت عليها مع أمي وجدتي. وعلى الرغم من ضعفنا وإخفاقاتنا، فقد ربط خيط واحد بيننا، أنا الشبح الجائع المثير للشفقة، وبين جدتي على الرغم من قسوتها وانتقادها، وأمي، على الرغم من يأسها وعجزها. وبينما نحن نمضي في طريقنا عبر سكون الليل، أدركت أخيراً أنني لم أعد وحيدة.

الفصل العشرون

قدر ابنة

•

وصلنا إلى قرية غودانغ في وقت مبكر من صباح اليوم التالي وتوجهنا في طريقنا إلى بيت الزعيم. وبعد أن طفْتُ في أماكن كثيرة لم تعد المسافات الطويلة تؤذيني، ولكن توجب على أمي أن تجلس وتدلك قدميها. صاحت طفلة صغيرة وركضت حافية القدمين خارج البيت. وكانت تلك هي كيان بي. وكان شعرها مصففاً على شكل خصلات صغيرة، مما منحها حيوية تناقضت مع جسمها النحيل ووجهها الشاحب.

سألت أمي بشك: "أهذه هي؟".

"دعينا ندخل. فأنا أريدك أن ترى أمها".

دخلنا ووجدنا مدام كيان جالسة في إحدى الزوايا تطرز. فتفحصت أمي القطب ونظرت إليّ بدهشة، وقالت: "إنها تنتمي إلى طبقتنا. انظري إلى يديها. لا تزالان ناعمتين وبيضاوين رغم عيشها في هذا المكان. إن قطبها دقيقة جداً. ترى كيف آل بها الحال إلى هنا؟".

"المجاعة".

تحولت دهشة أمي إلى قلق وهي تستحضر صور ما حدث لها. فمدت يديها إلى ثيابها لتعثر على الأقفال التي لطالما شعرت بالأمان لوجودها. وعندما لم تعثر على شيء، ضمت يديها معاً.

قلت لها: "فكري في الفتاة، يا أمي. أينبغي لها أن تعاني هي أيضاً؟".

اقترحت أمي قائلة: "إنها ربما تدفع ثمن خطيئة ما ارتكبتها في حياة سابقة. وربما يكون من المقدر لها أن تعيش هذه الحياة".

فعبست وقلت: "وماذا إن كان من المقدر لها أن نتدخل لصالحها؟".

بدت أمي ميالة للشك، وقالت: "ولكن ماذا بيدنا لنفعله؟".

فأجبت عن سؤالها بسؤال من عندي وقلت: "هل تتذكرين عندما قلت لي إن ربط القدمين هو عمل مقاومة ضد المانشو؟".

"نعم، ولا يزال كذلك".

"ولكن ليس هنا. فهذه العائلة بحاجة إلى بنات ذوات أقدام كبيرة ليعملن. ولكن هذه الفتاة لن تتمكن من ذلك".

اتفقت أمي مع تخميناتي وقالت: "إنني مندهشة أنها قد عاشت حتى

الآن. ولكن كيف يسعك أن تساعديها؟".

"أود أن اربط قدميها".

نادت مدام كيان ابنتها، فأطاعت بي وأتت لتقف بجانب امها.

قالت أمي: "إن ربط القدمين وحده لن يغير قدرها. فنحن لا نغزل او نحيك او نصنع الثياب لعائلاتنا، ولكننا نطرز لنعبر عن إبداعنا ورقينا".

"أستطيع ان اساعدها لتحقق هذا، وكذلك تستطيع امها".

ما زالت امي تبدو غير واثقة.

فأضفت قائلة: "إن أردت أن أكفر عن أخطائي، فلا يمكنني أن اختار تحدياً سهلاً".

"نعم، ولكن...".

"لقد هبط مستوى الأم في الجائحة، فماذا لا يرتقي مستوى بي؟".

"يرتقي إلى أين؟".

"لا أعرف، ولكن حتى لو انتهى بها المطاف بالبيع في سوق العبيد، الن يكون ذلك أفضل من هذه الحياة؟ وإن أصبح هذا مسار حياتها، فالقدمان المربوطتان بشكل مثالي ستضعانها في بيت أعلى مقاماً".

نظرت امي حولها في الغرفة ذات الزينة الشحيحة، ثم عاودت النظر إلى مدام كيان وابنتها، ثم قالت: "ليس هذا موسم ربط القدمين، فالطقس حار جداً". وأدركت أنني فزت بموافقتها.

كان إقناع مدام كيان بالفكرة سهلاً، ولكننا اكتشفنا أن إجبار زوجها على الموافقة مسألة مختلفة كلياً. فقد عدّد لها أسباب معارضته للفكرة، وهي أن ابنته ستصبح عاجزة عن مساعدته على تربية ديدان القز (وهذا صحيح) ولن يرغب اي رجل في الريف أن يتزوج امرأة عديمة الفائدة ذات قدمين مربوطتين (وهذه إهانة مقصودة موجهة ضد زوجته).

أصغت مدام كيان بصبر منتظرة الفرصة المناسبة لتتكلم. وعندما حانت الفرصة، قالت: "يبدو انك قد نسيت، يا زوجي، أن بيع ابنة يعود عليك بمبلغ محترم من المال".

في اليوم التالي، رغم ان امي قد ذكرتني مجدداً أن الموسم ليس مناسباً، جمعت مدام كيان الشبّ والمادة القابضة وقماش الربط والمقص ومقصات الأظافر والإبرة والخيط. فجلست أمي على ركبتيها أمامي ووضعت أنا يديّ الباردتين فوق يديّ مدام كيان لأساعدها وهي تغسل قدميّ ابنتها ثم تنقعهما في حمام أعشاب لتطريهما. ثم قصصنا أظافر بي ولطخنا اللحم بالمادة القابضة وطوينا الأصابع تحت قدمها ولففنا القماش حول القدم

وأخيراً خيطنا القماش وأغلقناه لكي لا تتمكن يي من تحرير قدميها. همست أمي بلطف في أذني وهي تشجعني وتثني علي، وهكذا منحتني حبها الأمومي ومنحته أنا من خلال يديّ لقدميّ يي.

لم تبدأ الطفلة في البكاء حتى وقت متأخر من الليل عندما بدأت قدماها تحرقانها من بطء الدورة الدموية وضغط الأربطة. وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية، ونحن نشد الأربطة أكثر كل أربعة أيام ونجعل يي تمشي جيئة وذهاباً لتضغط على العظام التي يجب أن تنكسر، تقدمت إلى الأمام بتصميم كبير. وكانت الليالي أسوأ من غيرها، عندما بدأت يي تنتحب وتتنفس بصعوبة من شدة ألمها.

كانت هذه العملية ستستمر عامين. فأعجبتني يي بشجاعتها وقوتها الداخلية وإصرارها، وفي اللحظة التي وضعت فيها الأربطة على قدمي يي ارتفعت طبقتها الاجتماعية بشكل تلقائي فوق طبقة والدها وأخواتها. ولكنها لم تعد تستطيع أن تهرب من أمها أو تتبع أخواتها حافية القدمين عبر القرية المغبرة، فقد أصبحت الآن فتاة حبيسة البيت. وأدركت أمها هذه الحقيقة أيضاً. وكان البيت يتمتع بتهوية قليلة، ولكن وجودي جلب البرودة حيثما حللت. وفي أشد أيام الصيف حرارة، وعندما عجزتُ عن التغلب على الحرارة الشديدة والرطوبة وأصبحت معاناة يي شديدة، أحضرت مدام كيان كتاب الأغاني. فخف الألم الذي شعرت به يي عندما رددت لها أمها قصائد الحب التي كتبتها نساء قبل عشرات القرون. وبعد لحظات، عاودها الشعور بالحرق والنبض في قدميها. فلم تعد تقوى على الإصغاء لحديث أمها.

نهضت مدام كيان من سريرها، ومشت متمايلة إلى النافذة على زنابقها الذهبية وحدقت إلى الحقول لبضع دقائق. ثم عضت شفتها العليا وتشبثت بعتبة النافذة. ترى هل خطرت لها الأفكار نفسها التي خطرت لي؟ هل ارتكبت غلطة رهيبة؟ هل تسببت لابنتها بكل هذا الألم؟

أتت أمي إلى جانبي. وقالت: "إن الشكوك تراود الكثير من الأمهات، ولكن تذكري أن هذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيع الأم أن تفعله لتمنح ابنتها حياة أفضل".

أرخت مدام كيان أصابعها من على النافذة. وكفكفت دموعها وأخذت نفساً عميقاً وعادت إلى السرير، وفتحت الكتاب من جديد.

وقالت: "بعد أن تصبح قدماك مربوطتين ستصبحين مختلفة عن أخواتك. ولكن هناك هدية أفضل أستطيع أن أقدمها لك. ففي هذا اليوم،

يا صغيرتي، ستبدأين بتعلم القراءة".

عندما بدأت مدام كيان تشير إلى أحرف معينة وتشرح أصلها ومعناها، نسيت بي قدميها واسترخى جسدها وخف الألم الذي يحجب تفكيرها. وبعد أن بلغت بي سن السادسة، أصبحت في العمر المناسب لأن تبدأ تعليماً ملائماً. وكانت القراءة والكتابة أمرين أعرفهما حق المعرفة. فأردت أن أكفر عن ذنوبي وأساعدها لتدرك ما فاتها.

بعد بضعة أيام، وبعد أن لاحظت جدارة بي، أعلنت أمي قائلة: "أعتقد أن هذه الفتاة ستكون بحاجة إلى مهر. سأتمكن من مساعدتها في هذا الشأن حالما أستقر".

بسبب تركيز اهتمامي على كيان بي، توقفت عن إبداء الاهتمام لمرور الوقت. فاكتشفت أن أيام والدتي في الطواف وصلت إلى نهايتها.

فقلت لها: "أتمنى لو أننا نحظى بالمزيد من الوقت معاً. أتمنى لو أننا عشنا هذه الحياة دائماً معاً. أتمنى...".

"لا مزيد من الندم، يا زهرة الفاوانيا. عديني بذلك". واحتضنتني ثم أبعدتني عنها لتنظر إلى وجهي مباشرة، وقالت: "قريباً ستذهبين إلى بيتك أيضاً".

سألتها بارتباك: "إلى قصر عائلة تشين؟ أم إلى شرفة الإطلالة ؟".

"إلى بيت زوجك. فذلك هو المكان الذي تنتمين إليه".

"لا أستطيع الذهاب إلى هناك".

"أثبتي مقدرتك هنا، ثم عودي إلى البيت". وعندما بدأت تتلاشى داخل لوح الأسلاف، نادتني قائلة: "ستعرفين أنك مستعدة حالما تصبحين كذلك".

طوال الإحدى عشرة سنة التالية، بقيت في غودانغ وكرست نفسي لكيان بي وعائلتها. وأصبحت أجيد التحكم بصفاتي الأساسية بأن أصبحت أبني دروعاً حول نفسي أرفعها وأخفضها حسبما أريد. ففي الصيف، كنت أدخل إلى البيت مع العائلة وأبرد البيت من أجلهم. أما في الخريف، فقد أصبحت أجيد النفخ على الجمر في المجمرة لأجعله يتوهج ويصبح أشد حرارة بدون أن ألسع جلدي أو أحرق ثيابي.

يقال إن تساقط الثلج النظيف يدل على الرخاء في العام القادم. وبالفعل غطى ثلج نظيف خلال أول فصل شتاء أمضيه في غودانغ بيت عائلة كيان وكل ما حوله كالملاءة. وفي العام الجديد، أتى باو ليتفحص أراضي والدي ويحض العمال على زيادة الإنتاج. وكان يحمل خبراً سعيداً،

وهو أن زوجته حامل، ولهذا فقد أعلن أنه لن يزيد من الأجرة والضرائب المستحقة لعائلة تشين كالمعتاد.

في شتاء العام التالي، تساقط مزيد من الثلج النظيف. وهذه المرة، أتى باو وأعلن أن زوجته أنجبت ابناً. فأدركت أن أمي قامت بعمل جاد في العالم الآخر. ولم يقدم باو بيضاً أحمر اللون لكل شخص احتفالاً بهذه المعجزة بل فعل شيئاً أفضل من ذلك؛ لقد كافأ كل واحد من زعماء القرية التي تأوي عمال والدي بقطعة أرض. وفي العام التالي، حدث حمل آخر وتبع ذلك ابن آخر. والآن، بعد أن أصبح مستقبل عائلة تشين مضموناً، أصبح بوسع باو أن يتصرف بكرم وسخاء. فمنح قطعة أرض أخرى للزعماء بعد ولادة كل ابن من أبنائه. وهكذا، ازداد رخاء عائلة كيان. فمنح الأب بناته مهوراً صغيرة ليتزوجن. وفي الوقت نفسه، وصلت هدايا المهر لعائلتهن، مما زاد من ثروة السيد كيان.

كبرت يي وأصبحت قدماها الصغيرتان جميلتين ودقيقتين وعطرتين ولكنها ظلت معتلة الصحة مع أنني أبعدت عنها الأشباح التي تؤذي الضعفاء. وبعد أن رحلت أخواتها عن البيت، حرصت على أن تحصل على مقدار أكبر من الطعام لتزداد قوة. وهكذا قمت ومدام كيان بتحويل هذه الفتاة من قطعة يشب غير مصقولة لا تصلح للاستخدام إلى فتاة نفيسة وراقية. وعلمناها أن ترقص على قدميها الصغيرتين بحيث بدت وكأنها تطفو على الغيوم. وتعلمت أن تعزف على القانون بأسلوب نقي ومتقن. وأصبح أسلوبها في لعب الشطرنج عديم الشفقة كالفرسان. وتعلمت أيضاً أن تغني وتطرز وترسم. ومع ذلك، فقد افتقرنا إلى الكتب لأن السيد كيان لم يقتنع بالهدف من اقتنائها.

فذكرت مدام كيان زوجها قائلة: "إن تثقيف يي جزء من استثمار طويل الأمد. فكر فيها وكأنها صينية مليئة بديدان القز يجب أن تتم رعايتها بشكل ملائم لكي تغزل يرقاتها. إنك لن تتجاهل هذه الصفقة الرابحة، ولكن إن قمت برعاية ابنتك، فسوف تصبح ذات قيمة أيضاً". ولكن السيد كيان ظل مصراً على موقفه، ولهذا فقد بذلنا ما بوسعنا باستخدام كتاب الأغاني. فأصبحت يي تجيد الحفظ والإلقاء، ولكنها لم تفهم معاني القصائد تماماً.

سرعان ما أصبحت يي ثمرة جاهزة للقطاف. وعندما بلغت السابعة عشرة، بدت صغيرة الحجم ونحيلة وجميلة وذات ملامح رقيقة. وكان شعرها فاحم السواد وجبهتها عريضة وبيضاء كثوب من الحرير وشفتاها بلون

المشمش ووجنتاها شاحبتين كالمرمر. وكانت غمازتاها تظهران كلما ابتسمت وعيناها تشعان جرأة وأنفها المستقيم ونظراتها المتسائلة يكشفان عن فضولها واستقلاليتها وذكائها. وأظهر تخطيها للمرض والإهمال وربط القدمين وبنيتها الضعيفة بالمجمل تماسكاً وجلداً خفيين. فتوجب العثور على زوج لها.

ولكن فرص زواجها بدت شحيحة في الريف بسبب عجزها عن القيام بالعمل الشاق المطلوب منها. وكانت لها عادة مربكة تدفعها إلى قول كل شيء يخطر ببالها. ولم تبلغ ثقافتها المبلغ الذي يجب أن تبلغه. ولهذا فحتى لو وُجدت عائلة في المدينة قد تفكر في فتاة من الريف فلن تعتبرها مناسبة أو جاهزة. ولن ترغب في ذلك حتى العائلات الفقيرة التي قد يقال عنها إنها مستيرة بابنة ثانية او ثالثة أو رابعة ناهيك عن ابنة خامسة لأن هذا يوحي بأن ذريتها ستكون كلها من البنات. ولكل هذه الأسباب، أعلنت الخاطبة المحلية أن بي غير قابلة للزواج. أما أنا فقد كان رأيي مختلفاً تماماً.

للمرة الأولى منذ أحد عشر عاماً، غادرت غوداغ إلى هانغجو متوجهة مباشرة إلى بيت زين. وكان قد بلغ الحادية والأربعين من عمره، وكل شيء فيه لا يزال كما هو: شعره الأسود الفاحم وجسده الطويل الرشيق. وظلت يداه مصدر بهجة ومتعة لي. واكتشفت أنه أقلع عن الشرب وزيارة بيوت المتعة أثناء غيابي، وهي مسرحية كتبها صديقه هونغ شينغ فنُشرت وذاع صيتها. وجُمعت قصائد زين الشعرية في نسخ تتحدث عن أفضل الشعراء في منطقتنا. فنال سمعة حسنة كناقد مسرحي محترم وبارز. وعمل لبعض الوقت كسكرتير لأحد العلماء المهمين. وبمعنى آخر، أدركت أنه قد عثر على السلام بدوني وبدون تان زي وبدون صحبة النساء بشكل عام. ولكنه كان وحيداً. ولو أنني بقيت على قيد الحياة لأصبحت في التاسعة والثلاثين من عمري بعد أن انقضت ثلاث وعشرون سنة على زواجنا. وربما يكون الوقت قد حان عندئذ لأبحث له عن محظية، وبدلاً من ذلك، فقد أردت أن أجلب له زوجة.

ذهبت إلى مدام وو التي جمع حب زين بيني وبينها. ولطالما كانت منفتحة أمام أفكاري. فهمست في أذنها قائلة: "إن واجب الابن الوحيد في الحياة هو أن يمنح عائلته ابناً. وقد فشل ابنك الأول في هذه المهمة. وإن لم يصبح لك حفيد، فلن يرعاك أحد في العالم الآخر ولن يرعى أحد أسلاف عائلة وو. وهكذا، فابنك الثاني هو الوحيد الذي يستطيع أن

يساعدك الآن".

على مدى الأيام القليلة التالية، راحت مدام وو تراقب ابنها بحرص وتسبر أمزجته وتلاحظ وحدته وتتذكر أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ سُمع صوت الأطفال في هذا البيت.

نفخت على مدام وو لأبردها في حرارة ذلك اليوم وقلت لها: "لا تقلقي بشأن المرتبة الاجتماعية. إذ إن رين لم يكن فتى ذهبياً عندما تمت خطبته على ابنة عائلة تشين أو عندما تزوج ابنة عائلة تان، وانتهى كل من هذين الترتيبين بكارثة". وكنت أحترم حماتي بعدم الجلوس في حضرتها، ولكنني حثثتها بكلامي، فقلت لها: "قد تكون هذه الفرصة الأخيرة. يجب عليك أن تفعلي شيئاً الآن في الوقت الذي أصبح فيه المجتمع مرناً قبل أن يطبق الإمبراطور قوانينه الخاصة".

في تلك الأمسية، فتحت مدام وو موضوع الزوجة الجديدة مع ابنها. فلم يمانع. وفي وقت لاحق، استدعت أفضل خاطبة في المدينة.

ذكرت الخاطبة أسماء عدة فتيات، فحرصتُ على أن يتم رفضهن جميعاً.

وهمست في أذن مدام وو قائلة: "إن فتيات هانغجو نفيسات ومدللات. فقد سبق وحظيت بواحدة منهن في البيت ولم يناسبك ذلك".

فوجهت مدام وو الخاطبة قائلة: "يجب أن نذهب إلى مكان أبعد. ابحثي عن فتاة تتمتع بذوق بسيط وتستطيع أن ترافقني في شيخوختي. إذ لم تبق لي سنوات كثيرة في هذه الحياة".

ركبت الخاطبة في المحفة وسافرت إلى الريف. وساهمت بضع صخور مرمية هنا وهناك على الطريق في إجبار الحمالين على اتباع إرشاداتي إلى غودانغ. فقامت الخاطبة بالاستفسار وتم إرشادها إلى بيت عائلة كيان الذي تعيش فيه امرأتان متعلمتان لهما أقدام مربوطة. فبدت مدام كيان رابطة الجأش بشكل جدير بالملاحظة وأجابت عن كل الأسئلة المتعلقة بابنتها بصدق. وأخرجت بطاقة سجلت عليها أسماء أسلاف بي من ناحية أمها لثلاثة أجيال بما فيها ألقاب جدها وجد جدها.

فسألت الخاطبة قائلة: "ماذا تعلمت الفتاة؟".

فعددت مدام كيان إنجازات ابنتها ثم أضافت: "لقد علمتُها أن الزوج هو الشمس والزوجة هي القمر. فالشمس لا تتغير في أشكالها أما المرأة فتذبل وتتناقص وأن الرجال يتصرفون بناء على إرادتهم أما النساء فيتصرفن بناء على مشاعرهن. وعلمتها أن الرجال يبادرون بالأعمال وأن النساء

يتحملن العواقب. ولهذا السبب يخرج الرجال إلى العالم الخارجي بينما تبقى النساء حبيسات في الداخل".

أومأت الخاطبة برأسها بإمعان ثم طلبت أن ترى يي. وخلال الوقت الذي تذوب فيه شمعة واحدة، حضرت يي لتفحصها الخاطبة. ثم تفاوضت المرأتان على المهر وتبادلتا النقاش حول هدايا المهر التي يقدمها أهل العريس. وأبدى السيد كيان استعداداً بتقديم خُمس محصوله من الحرير لخمس سنوات بالإضافة إلى قطعة من الأرض. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت الفتاة ستذهب إلى بيت زوجها وبحوزتها بضعة صناديق من بياضات الحرير والأحذية والملابس والمطرزات الأخرى وكلها من صنع يد العروس.

فكيف يمكن للخاطبة ألا تشعر بالتأثر؟

علقت قائلة: "غالباً ما يكون من الأفضل للزوجة أن تنحدر من عائلة ذات مكانة وثروة أقل من زوجها لكي تتكيف بسهولة مع وضعها الجديد ككنة في بيت زوجها".

عندما عادت الخاطبة إلى هانغجو، ذهبت مباشرة إلى بيت عائلة وو، وأعلنت لمدام وو قائلة: "لقد عثرت على زوجة لابنك. إنها فتاة لن يرغب إلا رجل خسر زوجتين من قبل أن يتزوجها". ثم درست المرأتان مواعيد ولادة رين ويي وقارنتا طالعيهما وحرصتا على أن تطابق الصفات الثماني لكل منهما. وناقشتا هدايا المهر مع الأخذ بعين الاعتبار أن والدها مجرد مزارع. ثم عادت الخاطبة إلى غودانغ وأوصلت أربعة مرطبانات من الشراب وثوبين من القماش وبعض الشاي وفخذاً من لحم الضأن لتثبيت الاتفاق.

تزوج رين وكيان يي في السنة السادسة والعشرين من حكم الإمبراطور كانجخي. فشعر والد يي بالراحة للتخلص من تلك الابنة عديمة الفائدة وغير المرغوب فيها. وفرحت الأم لتحول مجرى طالع عائلتها. وكانت لدي كلمات كثيرة أود أن أقدمها نصيحة ليي، ولكن في لحظة الفراق تلك، تركت أمها تتولى مهمة التحدث إليها.

فنصحتها قائلة: "تحلي بالاحترام والحرص والاجتهاد. اخلدي إلى فراشك في وقت متأخر واستيقظي باكراً كما اعتدت أن تفعلي هنا. أعدي الشاي لحماتك وعامليها بلطف. وإن كانت لديهم حيوانات أليفة فأطعميها. اعتني بقدميك ورتبي ملابسك وسرحي شعرك. ولا تغضبي أبداً. وإن فعلت هذه الأمور، فسوف تكسبين اسماً طيباً".

واحتضنت ابنتها بين ذراعيها.

وقالت بلطف: "هناك شيء آخر. لقد حدث هذا الزواج بسرعة كبيرة

ولا تستطيع أن تتأكد من صدق الخاطبة. وإن اتضح لك أن زوجك فقير، فلا تلوميه. وإن كانت له قدم مشوهة أو كان أبلة، فلا تتذمري أو تصبحي غير مخلصة أو تغيري مشاعرك، إذ لم يعد لديك أحد لتعتمدي عليه سواه. ما فات ذهب ولن يعود. والرضى هو مجرد مسألة حظ". وتدفقت الدموع من عينيها، وقالت: "لقد كنت ابنة صالحة. فلا تنسينا".

ثم أسدلت الخمار الأحمر على وجه بي وساعدتها على الصعود إلى محفتها. وعزفت فرقة موسيقية صغيرة موسيقى محلية وألقى الرجال المحليون الحبوب والفاصولياء والفاكهة الصغيرة والنقود النحاسية. ولكنني لاحظت أن الجميع لم يكونوا سعداء باستثناء وأطفال القرية الذين تزاحموا لأخذ الهدايا معهم إلى البيت. أما بي، التي لم تملك حرية الاختيار في أي من هذا، فقد غادرت قريتها. ولم تكن لديها أي خبرة بالحب أو العاطفة، ولكنها حملت شجاعة أمها في قلبها.

رحبت والدة رين بالمحفة عند البوابة الأمامية. ولم تستطع أن ترى وجه الفتاة، ولكنها تفحصت قدميها ووجدتهما ملائمتين تماماً. ومشت كلتاهما متمايلتين عبر الباحة إلى غرفة النوم. وهناك، وضعت مدام وو الكتاب السري بين يدي كنتها، وقالت: "اقرأي هذا. فسوف يخبرك ما يجب أن تفعليه الليلة. إنني أتطلع إلى وصول حفيدي في غضون تسعة أشهر".

بعد بضع ساعات، وصل رين. فراقبته وهو يرفع خمار بي ويبتسم لرؤية هذه الفتاة الجميلة. وبدا عليه السرور، فتمنيت له الوفرة في ثلاث: الثروة الجيدة والحياة المديدة والأبناء. ثم غادرت.

اتخذت قراري بعدم ارتكاب الأخطاء نفسها التي ارتكبتها مع زي. فلم ألزم حجرة رين وبي التي ستغريني الإقامة بها بالتدخل بالطريقة التي فعلت بها ذلك في الماضي. وتذكرت كيف انجذبت لينيانغ إلى شجرة الخوخ التي رأتها في الحديقة وقالت: إن حالفني الحظ فسوف أدفن بجانبها عندما أموت . فحقق والداها أمنياتها. ولاحقاً، وضعت الأخت ستون غصن شجرة خوخ مزهر في مزهرية على مدفن لينيانغ. فاستجاب شبح لينيانغ وأرسل وابلاً من أوراق أزهار الخوخ. وهكذا ذهبتُ إلى شجرة الخوخ التي لم تزهر أو تثمر منذ توفيت. فناسبني هذا الإهمال الذي تعرضت له. وأويت نفسي خلف الصخور المغطاة بالطحالب المحيطة بجذع الشجرة. ومن هناك، أصبح بوسعي أن أراقب بي ورين دون التدخل فوق اللازم.

تكيفت بي بسرعة مع حياتها كزوجة. وأصبحت تملك من الثروة الآن

ما لم تتخيل أنها ستملكه على الإطلاق، ولكنها لم تظهر أي دلالة على الترف. ولطالما سعت منذ طفولتها نحو الهدوء الداخلي وليس الجمال الخارجي. والآن بذلت جهدها لأن تبدو أكثر من مجرد امرأة أنيقة ترتدي أجمل الثياب. فكانت روعتها نابعة من داخلها. وبدت بشرتها أنعم من اليشب وكل خطوة تخطوها بزنابقها الذهبية أنيقة بحيث إنها تكاد تجعل الأزهار تتفتح من حولها. وكانت مشيتها رقيقة جداً بحيث إنها تجعل تنورتها تهفهف حولها كالضباب. ولم تكن تتذمر قط ولا حتى عندما يتغلب عليها شوقها إلى أمها. وبدلاً من البكاء والصراخ على الخدم أو كسر الكؤوس، اعتادت أن تمضي اليوم جالسة عند النافذة الشمالية وهي تتدرب على التزام الهدوء وليس معها إلا محرقة بخور واحدة، وأنا، لترافقها في وحدتها.

تعلمت بي أن تحب رين وتحترم مدام وو، فلم تحدث أي نزاعات في حجرات النساء، لأنها فعلت كل الأمور المتاحة لتسعد حماتها. ولم تتذمر بي من النساء اللواتي سبقنها. ولم تسخر منا لموتنا في سن مبكرة جداً. ولم تحاول أن تجرح ذكرانا. وفضلت بدلاً من ذلك أن تسلي زوجها وحماتها بغنائها ورقصها وعزفها على القانون. فاستمتعا ببراعتها وشخصيتها المرحة. وبدا قلبها أشبه بطريق فسيح يتسع للجميع. فتعاملت بطيبة مع الخدم وتحدثت مع الطاهية برقة وحنان وعاملت التجار وكأنهم أقاربها. وبسبب كل هذا، عوملت بكل التقدير من قبل حماتها والعشق من قبل زوجها. لقد حظيت بي بطعام جيد لتأكله وملابس مُطرَّزة لترتديها وبيتاً أفضل بكثير لتعيش فيه. ومع ذلك، فلم تتعلم بما فيه الكفاية لتناسب هذا البيت. والآن بعد أن أصبحت أتمتع بحرية دخول مكتبة رين، أصبح بوسعي أن أعلمها بشكل ملائم. ولكنني لم أكن وحدي في جهودي هذه.

عدت بذاكرتي إلى الوقت الذي علمني فيه والدي كيف أقرأ وأفهم. ولهذا دفعت بي في أحد الأيام إلى حضن رين. فجعله إخلاصها وبراءتها يتحمس لمساعدتها. طرح عليها أسئلة عن قراءتها وأجبرها على التفكير والنقد. فأصبحت بي قناة تصل بيني وبين رين. ومن خلال تعليمنا لها، أصبحنا شخصاً واحداً. وبدأت تزداد براعة في الكلاسيكيات والأدب والرياضيات. وشعرت ورين بالفخر لمعرفتها وإنجازاتها المتزايدة.

ولكن بعض المهارات ظلت تنقصها. فما زالت بي تتعامل مع ريشة الكتابة بارتباك مما يجعل أحرفها مهزوزة وغير ثابتة. دخلت مدام وو إلى الغرفة. فعلمت بي من خلالها كل الدروس التي علمتني إياها زوجة عمي

الخامس مستخدمة كتاباً خاصاً بفن الكتابة. فتحسنت بي كما فعلت أنا بالضبط قبل كل تلك السنوات. وعندما راحت تردد بعض القصائد كالببغاء بدون أي إحساس بالمعاني العميقة، علمت أن جهودي لم تصل إلى هدفها بعد. ولكنني تذكرت ابنة عم رين. فخرجت وأحضرت لي شو إلى البيت لتصبح معلمة يي. وبعد أن علمتها، أصبح إلقاؤها للشعر يفتح قلوبنا على المشاعر السبعة وينقلنا إلى أماكن في الذاكرة والخيال. فأحبها جميع من في البيت أكثر من ذي قبل.

لم أشعر بالغيرة ولو للحظة واحدة ولم أرغب أن أفترس قلبها وأنتزع رأسها وأطرافها لتراها رين ولم أحاول أن أكشف عن نفسي لها أو أزورها في أحلامها. ولكنني بحلول ذلك الوقت أصبحت قادرة على فعل أي شيء. فكنت أبرد الماء الذي يغسلان به وجهيهما حين استيقاظهما من النوم. وإن سرحت يي شعرها، أصبحت أسنان المشط محاولة التفريق بين العقد والخصلات. وإن خرج رين من البيت، مهدت له الطريق وأبعدت عنه العقبات وأزلت الأخطار وأعدته إلى البيت بأمان. وخلال أيام الصيف الحارة، أغريت إحدى الخادمات بأن تربط بطيخة في شبكة وتنزلها إلى البئر. ثم هبطت إلى هناك في الظلام وتسربت إلى الماء وبردتها حتى أكثر. واستمتعت برؤية رين ويي وهما يأكلان البطيخ بعد العشاء ويستمتعان بمزاياه المنعشة. لقد استطعت بهذه الوسائل أن أشكر شقيقتي الزوجة لطيبتها مع زوجي ورين لأنه عثر على السعادة والرفقة بعد سنوات عديدة أمضاها في وحدة. ولكن كل هذه الأمور تبقى أموراً ثانوية.

لقد أردت أن أشكرهما بطريقة تمنحهما السعادة العميقة التي شعرت بها وأنا أرى يي جالسة على حضن رين أو أصغي إليه يشرح لها المعاني الخفية لإحدى قصائد شاعرات نادي حديقة الموز. ما هو الشيء الوحيد الذي ما زالا يفتقران إليه؟ ما هو الشيء الوحيد الذي يريده كل الأزواج؟ إنه الابن. إنني لم أنضم إلى الأسلاف بعد ولا أعتقد أنني كنت أملك القدرة على منحهما ابناً. ولكن عندما حان الربيع، شهدت حديقة عائلة وو معجزة. فقد أزهرت شجرة الخوخ. وعندما تساقطت الأوراق وبدأت الفاكهة تنمو، أيقنت أنني أستطيع أن أجعل يي تنجب الطفل الذي لطالما انتظره رين.

الفصل الحادي والعشرون

لآلئ في قلبي

•

وفيت بالوعد الذي قطعته لنفسي وبقيت بعيدة عن غرفة زين ويي في الأمسيات، ولكنني ظللت متابعة لمجريات الأحداث بسبل أخرى. تعتبر بعض الليالي غير مبشرة بالخير ويحتمل أن تكون خطيرة للإنجاب. ففي الليالي العاصفة والقائمة والماطرة والضبابية أو شديدة الحرارة، حرصت على أن ترسل يي زين خارج البيت ليزور أصدقاءه أو يجري بعض الاجتماعات مع الشعراء أو يلقي محاضرة. وفي الليالي التي يهددها البرق والرعد والكسوف أو الزلازل، أصبت يي بالصداع. ولكن هذا النوع من الليالي يبقى نادر الحدوث، وهذا يجعل معظم الأوقات مواتية للإنجاب.

إن إنجاب الأطفال مسألة حياة جديدة على الأرض. وعندما بدأت أعراض الحمل تظهر على يي عمت الفرحة الكبرى أنحاء البيت. ولكن خلف ذلك الفرح، بدأ القلق يتسلل إلى قلوب الجميع. كانت قد ماتت آخر امرأة حامل في البيت، وهذا يوحي بوجود شيء من الشرور. واتفق الجميع أن يي ببنيتها الضعيفة معرضة أكثر من غيرها للأذى الذي ترتكبه الأشباح بحقها.

قال الطبيب جاو عندما أتى بصحبة الضالع ليقدما مشورتيهما: "يجب أن نتوخى الحذر الكافي من الزوجتين السابقتين".

واتفقت معهما في ذلك، ولكنني ارتحت لوجود زي في بحيرة تجميع الدم. ومع ذلك، فما قاله الضالع تالياً جمد الدم في عروقي.

إذ إنه تمتم بشكل منذر بالشؤم بصوت مرتفع بما يكفي للجميع أن يسمعه: "وخاصة إن لم تكن قد تزوجت أصلاً بشكل ملائم".

ولكنني أحب يي! ولن أفكر بالقيام بأي شيء يؤذيها!

عصرت مدام وو يديها بتوتر، وقالت: "أوافقك الرأي. لقد راودني قلق من تلك الفتاة أيضاً. إذ إنها انتقمت من زي وطفلها. وربما يكون ذلك من حقها، ولكن موت زي شكل خسارة فادحة بالنسبة إلى ابني. أخبرنا ماذا نفعل".

للمرة الأولى من سنوات عديدة، بدأت أحترق من الخزي. فلم أدرك أن حماتي كانت تلومني لما وقع لزي. وتوجب علي أن أعيد اكتساب

احترامها. فارتأيت أن الطريقة الوحيدة تكمن في حماية بي وطفلها من المخاوف التي تقض مضجع العائلة. وللأسف، فقد ازدادت مهمتي تعقيداً بعد التوجيهات التي تركها الطبيب والضالع وبسبب المريضة الجيدة وغير المتعاونة رغم ضعفها.

أعد الخدم طلاسم وعلاجات خاصة، ولكن بي كانت متواضعة لدرجة تمنعها من قبول أشياء من أناس لا يملكون ما يقدمونه لها. وحاولت مدام وو أن تبقي كنتها في السرير، ولكن بي كانت مخلصة ومحترمة لدرجة لا تسمح لها بالتخلي عن إعداد الشاي والوجبات لحماتها وغسل أثوابها وإصلاحها والإشراف على تنظيف غرفتها أو فرك ظهرها عندما تستحم. وحاول رين أن يدلل زوجته بإطعامها بحبوبه الخاصين وتدليك ظهرها وإصلاح وسائدها، ولكنها لم تكن لتجلس ساكنة من فرط طيبته.

من وجهة نظري، بصفتي شبحاً يعيش في العالم الذي يستطيع أن يلحق الأذى بالآخرين، أدركت أن هذه الأمور لا تستطيع أن تفعل شيئاً لحماية بي أو مساعدتها، ولكنها بدلاً من ذلك كانت تحرجها وتبعث في قلبها القلق والخوف.

في عصر أحد الأيام، وخلال موجة برد في غير موسمها، تملكني إحباط شديد. وبعد أن دفع الضالع بي من على سريرها لينقل الأثاث ويبني حاجزاً بيني وبينها وسبب لها الغثيان بعد أن أحرق الكثير من عيدان البخور محاولة منه لطردي من الغرفة ونكز رأسها بأصابعه بقوة لينشط مراكز الحماية التي تساعد على حراستها مني إلى أن أصيبت بي بصداع شديد، صحت باشمئزاز قائلة: "يا للهول! لم لا تطلب إقامة زواج أشباح وتتركها وشأنها؟".

أجفلت بي ورمشت بعينيها بضع مرات وراحت تنظر حولها في الغرفة. وحزم الضالع، الذي لم يدرك وجودي من قبل بحدسه، حقيبته وانحنى وغادر. فبقيت في الغرفة بجانب النافذة. وقررت أن أحافظ على موقعي طوال النهار والليل لأحمي الشخصين اللذين أحبهما أكثر من أي شخص آخر. خلال فترة العصر، خلدت بي إلى الراحة في سريرها. وراحت تعبث باللحاف بقلق بين أصابعها وهي مستغرقة في التفكير. وبحلول الوقت الذي أحضر فيه الخادم العشاء، بدا على بي أنها اتخذت قرارها.

عندما أتى رين إلى غرفة النوم أخيراً، قالت بي: "إن كان الجميع قلقين من أن الشقيقة الزوجة تونغ قد ترغب بإلحاق الأذى بي، إذاً ينبغي أن يتم الجمع بينكما بزواج أشباح لكي تستعيد موقعها الملائم بصفتها

زوجتك الأولى".

فوجئت كثيراً لدرجة أنني لم أفهم في البداية المضمون الفعلي لكلماتها. وكنت قد اقترحت ذلك في لحظة انزعاج كامل. فلم يخطر لي أنها ستسمعه أو تأخذه على محمل الجد.

هز رين رأسه وقال: "زواج أشباح! ولكنني لا أخشى الأشباح".

حدقت إليه بإمعان، ولكنني لم أستطع أن أدرك ما يدور بخلده. فقبل أربعة عشر عاماً، وفي الوقت الذي احتضرت فيه زي، قال إنه لا يعتقد بالأشباح. أما الآن، فقد ظننت أنه قال ذلك محاولاً أن يهدئ من روع زي. ولكن هل كان فعلاً لا يخشى الأشباح أو لا يعتقد بوجودها؟ ماذا عن الوقت الذي زارته فيه في أحلامه؟ ماذا عن الوقت الذي أرشدت فيه زي لتصبح زوجة ورفيقة صالحة له؟ وكيف يظن أن شعوره الأخير بالوحدة قد شفي؟ ترى هل اعتبر معجزة زواجه بي قضاء وقدراً؟

إن كان رين يعاني من بعض الشكوك، فلم تكن بي كذلك.

فابتسمت له بدلال وقالت: "تقول إنك لا تخشى الأشباح، ولكنني أشعر بخوفك. إنني لست خائفة، ولكنني أنظر من حولي وأرى الخوف يعمّ أرجاء البيت".

نهض رين وعبر الغرفة إلى النافذة.

وتابعت بي قائلة: "إن كل هذا الفزع ليس جيداً من أجل ابننا. رتب لإجراء زواج أشباح، فهذا سيهدئ من روع الآخرين. وإن هدأت نفوسهم، فسوف أتمكن من رعاية ابني لينمو بهدوء وسكينة".

تغلب الأمل على مشاعري الجريحة. يا لها من فتاة طيبة وجميلة! هل اقترحت ذلك لتضفي السلام على العائلة وليس من أجل نفسها؟ لن يحدث أي مكروه للطفل. فقد عقدت العزم على حمايته. ولكن زواج أشباح؟ هل سيحدث أخيراً؟

تشبث رين بعتبة النافذة. وبدا حزيناً ومتفائلاً. ترى هل كان يشعر بي؟ هل أدرك أنني لا أزال أحبه؟

قال لها أخيراً وصوته صادر من الماضي السحيق: "أعتقد أنك محقة. فقد كان من المقرر لزهرة القاوانيا أن تصبح زوجتي الأولى". وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينطق بها باسمي الحقيقي منذ ثلاثة وعشرين عاماً. فأصبت بالدهشة والبهجة العارمة. ثم قال: "بعد أن ماتت، كان ينبغي أن نتزوج بالطريقة التي اقترحتها، ولكن طرأت مشاكل... فلم تتم المراسم. إن زهرة القاوانيا..." وأبعد أصابعه عن النافذة والتفت ليواجه زوجته. وقال:

"إنها لن تؤذيك قط، وأنا على يقين من هذا. وينبغي أن تتأكدي أنت منه أيضاً. ولكنك محقة بشأن الآخرين. دعينا نقيم زواج أشباح ونزيل العوائق التي يظن الآخرون أنها تحيط بك".

دفنت وجهي بين يدي وبكيت بصمت امتناناً. لقد انتظرت زواج الأشباح وتلهفت نفسي إليه منذ اللحظة التي توفيت فيها. وإن تم ذلك فسوف يتم إخراج لوح الأسلاف الخاص بي من المكان الذي خبئ فيه، وسيلاحظ أحدهم أن النقطة لم توضع عليه ويملأ النقص. وعندما يحدث هذا، لن أعود شبحاً جائعاً بعد الآن وسأنهي رحلتي إلى العالم الآخر وأنضم إلى الأسلاف وأصبح الزوجة المكرمة المبجلة الأولى للابن الثاني لعائلة وو. ملأني الاقتراح الذي تقدمت به شقيقتي الزوجة بسعادة لا توصف، وجعلتني موافقة رين، شاعري وحبي وحياتي، على اقتراحها أشعر بالآلئ تغمر قلبي.

علقت نفسي على كتفي الخاطبة وذهبت معها إلى قصر عائلة تشين لأشرف على مفاوضات مهري. فوجدت أن والدي قد تقاعد أخيراً وعاد إلى البيت، إلى المكان الوحيد الذي يستطيع فيه أن يستمتع بوجود أحفاده. وكان ما زال يبدو فخوراً وواثقاً من نفسه، ولكنني شعرت أن شبح موتي ما زال يلاحقه. ورغم أنه لم يستطع رؤيتي، فقد انحنيت أمامه وقدمت احترامي على أمل أن يتقبل اعتذاري لأنني شككت في أمره. وعندما أنهيت ذلك، جلست في الخلف واستمعت إليه وهو يحاول أن يتفاوض على مهر جديد أعلى من المهر الذي وافق عليه أثناء حياتي. وهذا ما لم أفهمه بادئ الأمر. وسحبت الخاطبة إلى مهر أقل بأن استنجدت بعاطفته وطيبته.

"لقد تمت مطابقة الصفات الثماني لابنتك والابن الثاني لعائلة وو. لقد جمع القدر بين اسميهما في السماء، ولا ينبغي أن تطلب الكثير".

"إن سعري محدد".

فقالت الخاطبة بتعقل: "ولكن ابنتك ميتة".

"ولكن فكري في الفائدة المتزايدة بمرور الوقت".

بالطبع فشلت المفاوضات، وأصبت بخيبة الأمل. فلم تعجب مدام وو بالخبر الذي نقلته الخاطبة.

وقالت بغضب: "اطلبي لي محفة. سوف نعود إلى هناك اليوم".

عندما وصلنا إلى قصر عائلة تشين وترجلنا عن محفتيهما ودخلنا قاعة الجلوس، أسرع الخدم بإحضار الشاي والماء البارد لتنعشا وجهيهما من

الرحلة حول البحيرة. ثم اصطحبت إحدى الخادمات المرافقين عبر الباحة إلى مكتبة والدي حيث جلس مسترخياً على سريره النهاري واحفاده وأبناء إخوته يتسلقون عليه كأشبال النمر. فأرسل أبي الأطفال خارجاً مع الخادمة وتوجه إلى مكتبه وجلس.

جلست مدام وو على الكرسي نفسه الذي اعتدت أن أجلس عليه مقابل مكتب والدي. واتخذت الخاطبة مقعداً بجانب كتفها اليمنى بينما وقفت خادمة بجانب الباب بانتظار أوامر والدي. فلمس جبهته ومرر أصابعه على ردائه بالضبط كما اعتاد أن يفعل وأنا فتاة صغيرة.

وقال: "لقد مضت سنوات عديدة منذ التقينا، يا مدام وو".

فأجابت قائلة: "لم أعد أخرج في جولات بعد الآن. إن القواعد تتغير، ولكن مقابلة الرجال لا تزال أمراً غير مقبول بالنسبة إليّ".

"لقد خدمت زوجك وصديقي القديم جيداً من هذه الناحية".

"إن الصداقة والولاء هما ما أتى بي إلى هنا اليوم. ويبدو أنك قد نسيت وعدك لزوجي بأن عائلتينا ستتحدان معاً".

"إنني لم أنس ذلك قط. ولكن ما الذي بيدي لأفعله؟ لقد ماتت ابنتي".

"كيف يمكن ألا أدرك هذا، يا سيد تشين؟ فقد رأيت ابني يعاني من خسارته كل يوم لعشرين عاماً". واتكأت إلى الأمام ونقرت بإصبعها على المكتب. وقالت: "لقد أرسلت وسيطة إليك بنية حسنة وأنت أعدتها إلي بطلبات غير معقولة".

استند أبي على كرسيه بإهمال.

فأضافت قائلة: "لقد كنت طوال الوقت تعلم ما يجب فعله. فأتيت إليك عدة مرات من قبل للتفاوض على هذا".

هل أنت حقاً؟ كيف فاتني هذا؟

قال أبي: "إن ابنتي تساوي أكثر مما عرضته عليّ، وإن كنتم تريدونها، فيجب أن تدفعوا من أجلها".

فتنهدت تفهماً لموقف والدي. وشعرت أنه لا يزال يقدرني.

قالت مدام وو: "حسناً". وزمت شفتيها ونظرت إليه شزراً. وكنت قد رأيتها تغضب من زي من قبل. ولكن لا يفترض بالنساء أن يغضبن من الرجال. ثم قالت: "اعلم الآن أنني لن أتركك إلى أن توافق". وأخذت نفساً وأضافت قائلة: "إن كنت تريد سعراً أعلى، فسوف أطلب زيادة في المهر".

ولا بد أن هذا بالضبط هو ما أراده والدي. فبدأ يتقايضان

ويتساومان. وطلب والدي سعراً عالياً. فردت عليه مدام وو بطلبات حتى أغرب للمهر. وكانا كلاهما مطلعين تماماً على هذه المقترحات، وهذا ما صدمني لأنه يعني أنهما أجريا هذه المحادثة عدة مرات من قبل. وهكذا، أدهشني الأمر كله وفاجأني وأدخل على قلبي البهجة.

وعندما توصلا إلى اتفاق أخيراً، طرح والدي شيئاً جديداً فجأة.

فقال: "أريد عشرين إوزة حية تسلم في غضون عشرة أيام من الآن أو أنني لن أوافق على الزواج".

وكان هذا طلباً لا يذكر، ولكن مدام وو أرادت المزيد مقابله.

"أتذكر أننا قد اتفقنا على أن تأتي ابنتك مع خادمتها، وهي الآن بحاجة إلى من يعتني بها من خلال لوح الأسلاف عندما ترسلونه إلى بيتي".

فسمح والدي لنفسه بالابتسام وقال: "لقد انتظرت منك أن تطلبي هذا".

وأشار إلى الخادمة الواقفة أمام الباب. فغادرت الخادمة وعادت بعد بضع دقائق بصحبة امرأة أخرى. فتقدمت المرأة وخارت على ركبتيها وركعت أمام مدام وو، وقبل أن ترفع رأسها، رأيت وجهاً أنهكته الظروف القاسية. إنها شجرة الصفصاف.

"لقد عادت هذه الخادمة إلى عائلتنا مؤخراً. فقد ارتكبت خطأ وبعتها قبل بضع سنوات، ولكن أصبح من الواضح لي الآن أنه من المقدر لها أن تعتني بابنتي دائماً".

قالت مدام وو: "ولكنها كبيرة السن. ماذا سأفعل بها؟".

"إن شجرة الصفصاف تبلغ التاسعة والثلاثين ولديها ثلاثة أبناء ما زالوا يعيشون لدى مالكها السابق. لقد أرادت زوجته الأبناء، فمنحتها هذه المرأة إياهم. وقد لا يكون مظهرها حسناً جداً، ولكنها قد تخدم كمحظية إن كنت تحتاجين إلى واحدة. وأنا أضمن لك أنها ستنجب لكم الأحفاد".

"مقابل عشرين إوزة؟".

فأومأ والدي برأسه.

ابتسمت الخاطبة ابتسامة عريضة. فقد جنت ربحاً لا بأس به من هذه الصفقة. وزحفت شجرة الصفصاف على الأرض ووضعت جبهتها على قدميْ مدام وو الصغيرتين.

قالت مدام وو: "سأقبل عرضك بشرط واحد. أريدك أن تجيبني عن هذا السؤال. لماذا لم تمنح ابنتك زواج أشباح قبل الآن؟ لقد ماتت فتاة

بسبب رفضك تلبية عرضي. والآن أصبحت حياة المرأة التي تحمل حفيدي عرضة للخطر. وقد كان من السهل إصلاح هذا. فزواج الأشباح شائع ويخفف الكثير من المتاعب...".

اعترف والدي قائلاً: "ولكنه لم يكن سيساعد قلبي الحزين. فأنا لم أستطع التخلي عن زهرة الفاوانيا. وطوال هذا الوقت، تاقت نفسي إلى صحبتها. وبإبقاء لوحها في قصر عائلة تشين، شعرت أنني لا أزال على صلة بها".

ولكنني لم أبق معه هنا أبداً!

اكتست عينا والدي بغشاوة وقال: "طوال تلك السنوات، تمنيت أن أشعر بوجودها، ولكنني لم أشعر به قط. وعندما أرسلت الخاطبة اليوم، قررت أن الوقت قد حان أخيراً لأدع ابنتي ترحل. من المقدر لزهرة الفاوانيا أن تعيش مع ابنك. والآن... هذا غريب، ولكنني أشعر بها معي أخيراً".

أجابت مدام وو متجاهلة الموضوع: "لقد توجب عليك أن تفعل ما هو صواب لمصلحة ابنتك، ولكنك لم تفعل ذلك. إن ثلاثة وعشرين عاماً وقت طويل جداً، يا سيد تشين. طويل جداً".

وبهذا، نهضت ومشت متمايلة خارجة من الغرفة. فبقيت في البيت لأتمكن من تجهيز نفسي.

ليس زواج الأشباح مناسبة معقدة واحتفالية ومضيعة للوقت كما هو الزفاف العادي الذي يكون فيه الطرفان على قيد الحياة. فرتب والدي لنقل البضائع والمال والطعام من أجل مهري، وبادلته مدام وو بكل شيء ثم الاتفاق عليه من أجل المهر. مشطتُ شعري وزينته بالدبابيس ولمست ملابسي القديمة الممزقة. وتمنيتُ أن أربط قدمي بأربطة نظيفة، ولكنني لم أحظ بأربطة جديدة منذ غادرت شرفة الإطلالة . ورغم ذلك، فقد كنت مستعدة ومهيأة تماماً.

كان التحدي الوحيد هو العثور على لوح الأسلاف، فبدونه لا يمكن صنع العروس البديلة ولا إتمام الزواج. ولكن لوحي ظل مخبأ لوقت طويل ولم يتذكر أحد ما حل به. وفي الواقع، كان هناك شخص واحد يعرف مكان وجوده: إنها شاو خادمة عائلتي. وكانت قد فقدت كل أسنانها ومعظم شعرها وجزءاً لا يستهان به من ذاكرتها، فتبين أنها عديمة الفائدة في ما يتعلق بتحديد موقع لوحي.

وقالت: "لقد تم التخلص من ذلك الشيء البشع قبل سنوات عديدة". وبعد ساعة، غيّرت رأيها فقالت: "إنه في قاعة الأسلاف إلى جانب لوح أمها". وبعد ساعتين، طرأت ذكرى جديدة في ذهنها فقالت: "إنه موضوع تحت شجرة الخوخ كما في حديقة الفاوانيا ، فذلك هو المكان الذي تود زهرة الفاوانيا أن يوضع فيه". وبعد ثلاثة أيام، توسل عدد من الخدم وباو وحتى والدي إلى شاو وأمروها أن تخبرهم بمكان اللوح، فصاحت بصوت خائف وضعيف: "لا أعرف أين هو". وقالت بتذمر: "لماذا تستمرون بالسؤال عن ذلك الشيء البشع على كل حال؟".

إن لم نستطع أن تتذكر أين خبأت اللوح، فمن المؤكد أنها لن تتذكر أنها تسببت بعدم وضع النقطة عليه، ولكنني رفضت أن أدع كل شيء حققته حتى الآن يفشل لأن تلك المرأة العجوز لم تستطع أن تتذكر أنها خبأت ذلك الشيء البشع في غرفة التخزين على رف عالٍ خلف مرطبان من مخلل اللفت.

ذهبت إلى غرفة شاو في منتصف فترة العصر ووجدتها نائمة. فجلست إلى جانبها على السرير وأنا أحدق إليها. ومددت يدي لأوقظها، ولكن ذراعي رفضت أن تلمسها. وبعد أن أوشكت الآن على التخلي عن صفة الشبح، لم أستطع أن أساعد في وضع النقطة على لوحي. فحاولت مراراً، ولكنني ظللتُ عديمة الحيلة.

ثم شعرت بيد تلمس كتفي.

وسمعت صوتاً يقول: "دعينا نقوم بهذا".

فالتفت ورأيت أمي وجدتي.

فصحت قائلة: "لقد أتيتما! ولكن كيف؟".

أجابت أمي قائلة: "إنك قطعة من أعماق قلبي. فكيف أشاهد زفاف ابنتي من بعيد؟".

وشرحت جدتي قائلة: "لقد تقدمنا بطلب إلى موظفي العالم الآخر. فحصلنا على رخصة للعودة لمرة واحدة إلى العالم الأرضي".

فملأت اللآلئ قلبي من جديد.

انتظرنا شاو لتستيقظ. ثم وقفت جدتي وأمي على جانبيها وأمسكتاها من مرفقيها وأرشدتاها إلى غرفة التخزين، وهناك عثرت شاو على لوح الأسلاف. فتركتها أمي وجدتي وتراجعتا إلى الخلف. نفضت المرأة العجوز الغبار عنه. وعلى الرغم من ضعف بصرها، فقد كنت واثقة من أنها ستلاحظ أن النقطة مفقودة وتأخذه إلى والدي مباشرة. وعندما لم يحدث

ذلك. نظرت إلى أمي وجدتي مستجدة بهما.
وتوسلت إليهما قائلة: "ساعداني لأجعلها تراه".
قالت أمي بحسرة: "للأسف لا نستطيع ذلك. إذ لا يسمح لنا بالقيام بأكثر مما قمنا بها".
أخذت شاو اللوح إلى غرفتي القديمة. وفي وسط الغرفة، وضعت الخادمات دمية من القش والورق والخشب والقماش صنعنها لتشبهني في حفل زفافي. وكانت ممددة على ظهرها وكان بطنها مكشوفاً. فرسمت شجرة الصفاف عينين غير متقنتين وأنفاً وشفتين على قطعة من الورق، وثبتتها على وجه العروس بغراء الأرز. ركعت شاو على ركبتيها ودست اللوح داخل الدمية بسرعة بحيث إن شجرة الصفصاف لم تسنح لها الفرصة لرؤيته. ثم ضمت خادمتي القديمة الإبرة وخاطت البطن لتغلقه. وعندما فرغت من عملها، ذهبت إلى صندوق وفتحته. فوجدت ملابس زفافي في داخله. وكان ينبغي التخلص منها مع كل أغراضي الأخرى.
فسألت أمي: "هل احتفظت بملابس زفافي؟".
"بالطبع فعلت ذلك. فقد اعتقدت أن الأمور ستوضع في نصابها يوماً ما".
وأضافت جدتي قائلة: "لقد أحضرنا لك بعض الهدايا أيضاً".
ومدت يدها إلى ردائها وأخرجت أربطة نظيفة وحذاء جديداً. وفتحت أمي حقيبة وأخرجت تنورة وبلوزة. وبدت الملابس جميلة. فألبستاني إياها. وقلدت الخادمات أفعالنا. فألبسن الدمية تنورة داخلية ثم القميص الحريري الأحمر وعليه تطريز الزهور والغيوم وغيرها من رموز حسن الطالع. وألبسنها القميص ثم أغلقن كل الأزرار. وربطن قدمي الدمية المصنوعتين من القش والمكسوتين بالموصلين بقماش أربطة طويل وشددنه إلى أن أصبحت القدمان صغيرتين بما يكفي لتتسعا في خف الزفاف الأحمر. ثم نصبن الدمية على الجدار ووضعن الغطاء على رأسها وغطين وجهها الغريب بالخمار الأحمر. ولو أن النقطة كانت موضوعة على اللوح، لتمكنت من تقمص العروس البديلة بشكل كامل.
غادرت الخادمات. فانحنيت أمام الدمية وتحسست الحرير ولمست الذهب على غطاء الرأس. وكان ينبغي أن أشعر بالسعادة، ولكنني لم أشعر بها. فقد أوشكت أن أحصل على مبتغاي، ولكن بدون وضع النقطة على لوحي، كانت المراسم ستتم بلا فائدة.
قالت أمي: "لقد عرفت كل شيء الآن. إنني آسفة جداً. فقد كنت

مفطورة الفؤاد بحيث إنني عجزت عن وضع النقطة على لوحك. وأنا آسفة أنني تركت شاو تأخذه مني ولم أسأل والدك قط عنه. فقد ظننت أنه أخذه معه".

"لم يأخذه...".

"لم يخبرني بذلك، وأنا لم أسأله. وأنت لم تخبريني عندما توفيت. فاكتشفت ذلك عندما وصلت إلى غرفة الإطلالة. لماذا لم تخبريني؟".

"لم أعرف كيف أخبرك. فقد ساد الارتباك في العائلة. وفعلت شاو...".

قالت أمي وهي تصرف تلك الفكرة وكأنها عديمة الأهمية: "لا يسعك أن تلوميها. فقد شعرت ووالدك بالذنب بسبب موتك لدرجة جعلتنا نتخلى عن مسؤولياتنا. ولام والدك نفسه بسبب إصابتك بلوعة الحب وموتك. فلو أنه لم يزرع فكرة لوعة الحب في ذهنك بكل ذلك الكلام عن خياوكينغ ولينياتغ... ولو لم يشجعك على القراءة والتفكير والكتابة...".

فصحت قائلة: "ولكن تلك الأمور هي التي جعلتني ما أنا عليه الآن".

قالت جدتي: "بالضبط".

أمرتها أمي بفظاظة: "التزمي الصمت. فقد تسببت لهذه الفتاة بما يكفي من الحسرة والارتباك".

أشاحت جدتي بوجهها، وقالت: "إنني آسفة بهذا الشأن. فأنا لم أعرف...".

لمست أمي كم جدتي لتمنعها من قول المزيد.

وتابعت أمي: "لو أنك أصغيت إليّ فقط، يا زهرة الفاوانيا، لما أصبحت الابنة التي أفتخر بها اليوم. إن كل أم تخاف على ابنتها، ولكنني كنت مرعوبة لدرجة جعلتني عاجزة عن التفكير سوى في الأشياء الرهيبة التي من الممكن أن تحدث. ولكن ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟ ما حدث لي في يانغجو؟ كلا. إن أسوأ شيء هو فقدانك. ولكن انظري إلى ما حققته في السنوات الماضية. انظري لما جعله حبك لرين يزهر في قلبك. لقد كتبت قصيدة على الجدار وأنا خائفة وحزينة، وعندما فعلت ذلك، نأيت بنفسي عن كل الأمور التي تسعدني. لقد أردت وجدتك، والكثير من النساء الأخريات، أن نجعل صوتنا مسموعاً. فخرجنا من البيوت وبدأنا نصل إلى مبتغانا. وفي الوقت الوحيد الذي أسمعت فيه صوتي للناس عندما كتبت القصيدة على الجدار، أردت أن أموت. ولكنك مختلفة عني. فقد أصبحت بعد موتك امرأة مثيرة للإعجاب. وبالإضافة إلى هذا، فهناك مشروعك".

تراجعت إلى الوراء بدهشة. فقد أحرقت كتبي وكرهت شغفي بحديقة الفاوانيا .

فتنهدت بحزن قائلة: "هناك أمور كثيرة لم تخبريني بها، يا زهرة الفاوانيا. لقد خسرنا الكثير".

لقد فعلنا ذلك حقاً، ولكن لم تعد هناك وسيلة لاسترجاع ما فقدناه في الماضي، فحبست دموع الندم في عيني. وأخذت أمي بيدي وربتت عليها بمواساة.

وقالت: "عندما كنت على قيد الحياة، سمعت عن تعليق رين على حديقة الفاوانيا . وعندما قرأته، ظننت أنني سمعت صوتك. فأيقنت أن هذا غير ممكن، لذا قلت لنفسي إنني مجرد أم حزينة تشتاق إلى ابنتها. وعندما قابلت جدتك على شرفة الإطلالة ، عرفت الحقيقة كاملة. وبالطبع عرفت جدتك بعض الأمور مني أيضاً".

فحثتها جدتي قائلة: "هيا أخبريها عن السبب الحقيقي لوجودنا هنا".

فأخذت أمي نفساً عميقاً وقالت: "يجب أن تنهي مشروعك، ولكنه سيكون أكثر من مجرد خربشة امرأة يائسة على جدار. إن والدك وأنا وجدتك والعائلة بأسرها، الأحياء منهم وأجيال الأسلاف الذين يرعوننا، سيفخرون بك".

فكرت في ما قالته أمي. لقد أرادت جدتي أن تنال التقدير وتجعل زوجها يسمع صوتها، ولكنّ المطاف انتهى بها إلى شهادة مزيفة. وأرادت أمي أن يسمع الناس صوتها، ولكنها فقدت نفسها. وأردت أنا أن أجعل صوتي مسموعاً، ولكن من قبل رجل واحد فقط. وطلب رين ذلك مني في حديقة إطلالة القمر وقدم لي الفرصة والإمكانية في الوقت الذي أثر فيه العالم بأسره والمجتمع وحتى أمي وأبي أن ألتزم الصمت.

"ولكن كيف سأتمكن من استئناف العمل بعد كل ما حدث...".

"لقد كدت أن أموت لأكتب قصيدتي، بينما مت أنت فعلاً وأنت تكتبين تعليقاتك. وتعرضتُ لجروح عميقة وأذى شديد لِماً للكلمات التي كتبتها على الجدار. ورأيتك تذوبين والكلمات تعذبك. وفكرت لوقت طويل أن هذه التضحية هي ربما ما هو مطلوب منا. وبعد أن رافقتك كل تلك السنوات وأنت مع بي أدركت أن الكتابة ربما لا تتطلب التضحية، ولكنها موهبة تؤهلنا لتجربة المشاعر من خلال ريشنا وحبرنا وورقنا. لقد نبعت كتابتي من الحزن والأسى والكره، بينما نبعت كتابتك من الرغبة والفرح والحب. ودفعنا كلتانا ثمناً باهظاً للتعبير عن آرائنا والكشف عن مكنونات

قلبنا ومحاولتنا أن تبدع، ولكن الأمر كان يستحق العناء، أليس كذلك، يا ابنتي؟".

لم تسنح لي الفرصة للإجابة، فقد سمعت أصوات الضحك في الممر، ثم انفتح الباب ودخلت زوجات أعمامي الأربع مع المكنسة وزهرة السحلبية وزهرة اللوتس وبناتهن. فقد أحضرهن والدي معاً ليحرص على أن يعاملنني كعروس حقيقية. فعدلن الدمية وثنيات التنورة وملسن حرير البلوزة واستخدمن بعض دبابيس ريش الطيور للمساعدة على تثبيت غطاء الرأس في مكانه.

قالت جدتي عندما بدأ قرع الطبول والصنوج: "بسرعة! يجب أن نسرع!".

"ولكن ماذا عن لوحي...؟".

أمرتني جدتي قائلة: "انسي أمره الآن، واستمتعي بكل لحظة من لحظات زفافك لأنه لن يتكرر مجدداً، على الأقل ليس بالطريقة التي تخيلتها وأنت وجدك في السرير قبل كل تلك السنوات". وأغمضت عينيها للحظة وابتسمت لنفسها، ثم فتحت عينيها وضمت يديها إلى بعضهما بحزم، وقالت: "والآن اسرعي".

تذكرت كل شيء ينبغي لي فعله، فانحنيت لأمي ثلاث مرات وشكرتها على كل ما فعلته من أجلي. ثم انحنيت ثلاث مرات لجدتي وشكرتها. فقبلتني أمي وجدتي ثم أوصلتاني إلى الدمية. ولم تكن النقطة موضوعة على لوحي، فلم أستطع أن أتقمصها، ولهذا، فقد أحطتها بذراعي.

لقد كانت جدتي محقة، فتوجب علي أن أستمتع بزفافي قدر استطاعتي، ولم يكن ذلك صعباً. فقد عبرت زوجات أعمامي عن إعجابهن بجمالي واعتذرت بنات أعمامي على تصرفاتهن الطفولية وقالت لي بناتهن إنهن نادمات على أنهن لم يعرفنني قط. ثم حملتني زوجتا عميّ الثاني والثالث ووضعتاني على أحد الكراسي وأخرجتاني من الغرفة. وانضمت أمي وجدتي إلى موكب نساء عائلة تشين وهن يمشين خلال الممرات والحدائق ويمررن بمحاذاة البركة والكهف متجهات إلى قاعة الأسلاف. فرأيت لوحة لأمي معلقة فوق الطاولة بجانب لوحتي جدي وجدتي. وبدت بشرتها مرسومة بطريقة شفافة وشعرها مثبتاً بالدبابيس كعروس شابة وشفتاها ممتلئتين ونضرتين. ولا بد أنها بدت هكذا في شبابها عندما تزوجت والدي. فربما لن ترعب صورتها الآخرين وتدفعهم إلى تحسين تصرفاتهم، ولكنها ستلهمهم القيام بذلك.

حول الطاولة. تجمع الناس في أعداد غير محددة ليدل هذا على أن الزفاف ليس زفافاً نموذجياً. وغلقت بضعة عيدان من البخور في كل مجمرة من المجامر الثلاث. وارتجفت يدا والدي وهو يصب تسعة أكواب من الشراب للأسياد المبجلين ثم ثلاثة أكواب للأسلاف ثم يضع خمس حبات دراق وإحدى عشرة حبة بطيخ.

رُفع الكرسي وحملت إلى البوابة التي تمنيت طوال حياتي أن أعبرها إلى بيت زوجي. والآن نلت مرادي أخيراً. وفي تقليد نموذجي في حفلات زفاف الأشباح. حملت شجرة الصفصاف سلة غربلة الأرز على رأسي لتحجب عني الرؤية. ثم وُضعت في محفة خضراء ولبست حمراء. وحملني الحمالون حول البحيرة وصعدوا بي الجبل مروراً بالمعبد حتى وصلوا إلى بيت زوجي. ثم فتحوا باب المحفة وساعدوني على الخروج ووضعوني على كرسي آخر. وقفت أمي وجدتي على الدرج بجانب مدام وو التي رحبت بي بالطريقة التقليدية ثم التفتت لتحيي والدي. في حفلات زفاف الأشباح. عادة ما يكون الوالدان مسرورين لرؤية ذلك الشيء البشع يغادر بيتهما فيبقيان في البيت ليحتفلا سراً. ولكن والدي أتى معي وتبع المحفة الخضراء في محفة خاصة به لتعلم كل هانغجو أن ابنته، ابنة أكثر عائلات المدينة احتراماً وثروة، قد تزوجت أخيراً. حُملت فوق عتبة باب بيت عائلة وو وقلبي مغمور باللآلئ التي فاضت وملأت البيت بسعادتي.

ذهب موكب الأحياء والأموات إلى قاعة أسلاف عائلة وو حيث ملأت ظلال الشموع الحمراء الجدران. فوجدنا رين بانتظارنا هناك. وعندما رأيته غمرتني مشاعر قوية. فقد ارتدى ملابس الزفاف التي صنعتها من أجله. وبدا وسيماً جداً في عيني. وكان الشيء الوحيد الذي ميزه عن بقية العرسان هو قفازه الأسود. الذي ذكر جميع الحاضرين أن الزفاف. مهما كان سعيداً بالنسبة إليّ، لا يزال محاطاً بالظلام والسرية.

تمت تأدية المراسم. فأمال الخدم كرسيي لكي أنضم إلى زوجي في الانحناء أمام أسلافي الجدد. وبهذا غادرت رسمياً عائلتي الأصلية وانضممت إلى عائلة زوجي. ثم قدمت وليمة كاملة وسخية جداً لم توفر فيها أي نفقات. ووصلت زوجات أعمامي وبناتهن وأزواجهن وأطفالهن وملأوا طاولة تلو أخرى. وجلس باو، وهو لا يزال بديناً وعيناه خرزيتين، إلى جانب زوجته وأبنائه الثلاثة، الذين كانوا بدينين جداً وعيونهم قريبة من بعضها بعضاً. وحضرت محظيات عائلة تشين. فجلسن إلى طاولة في طرف القاعة ورحن يثرثرن ويتكلمن مع بعضهن وهن سعيدات لخروجهن في جولة. أما

أنا فقد احتللت موقعاً بارزاً. فجلس زوجي إلى جانبي ووالدي إلى الجانب الآخر.

قال والدي لرين بعد أن تم تقديم آخر طبق على الطاولة: "في الماضي، ظن بعض الأشخاص في عائلتي أنني سأزوج ابنتي لشخص من مرتبة متدنية. وإنه لصحيح أن المال والمنصب ليسا متساويين بيننا. ولكنني لطالما أحببت والدك واحترمته. فقد كان رجلاً صالحاً. ورأيتك وزهرة الفاوانيا وأنتما تكبران وأيقنت أنكما متناسبان في كل شيء. لقد كانت لتسعد معك كثيراً".

أجاب رين: "كنتُ لأسعد معها أيضاً". ثم رفع كوبه وأخذ رشفة قبل أن يتابع قائلاً: "والآن ستبقى معي إلى الأبد".

"اعتنِ بها جيداً".

"أعدك بذلك".

بعد المأدبة، اصطحب الجميع العروسين إلى حجرة الزفاف. ثم وضعت دمية العروس على السرير وغادر الجميع. فتمددت إلى جانب الدمية وأنا متوترة. ولوقت طويل، راح رين يحدق إلى وجه الدمية المرسوم ثم انضم إلينا على السرير.

وهمس قائلاً: "إنني لم أتوقف عن التفكير فيك وعن حبك أبداً. فأنت زوجتي الحبيبة".

ثم أحاط الدمية بذراعيه وضمها إليه.

في الصباح، دقت شجرة الصفصاف برقة على الباب. فسمح لها رين، الذي كان قد نهض وجلس بجانب النافذة، أن تدخل. فدخلت وتبعتها أمي وجدتي. ووضعت شجرة الصفصاف صينية عليها الشاي والفناجين وسكين. فصبت الشاي لرين ثم ذهبت إلى السرير وانحنت على الدمية وبدأت تفك أزرار قميصها.

قفز رين وقال: "ما الذي تفعلينه؟".

قالت شجرة الصفصاف بتواضع ورأسها منكس: "أريد أن أستخرج لوح آنستي الصغيرة. إذ يجب أن يذهب إلى طاولة مقتنيات عائلتك".

عبر رين الغرفة وأخذ السكين ووضعها في جيبه.

وحدق إلى العروس الدمية وقال: "لا أريد أن تمزقها. لقد انتظرت وقتاً طويلاً لأحظى بزهرة الفاوانيا معي. أريدها أن تبقى كما هي الآن. جهزي غرفة وسوف تكرمها هناك".

تأثرت لسماع فكرته، ولكن هذا لم يكن ممكناً. فالتفت إلى أمي

وجدي.

وقلت: "ماذا عن لوحي؟".

رفعتا أيديهما بعجز ثم تلاشتا بعيداً. وبهذا، انتهى زفافي وانقضت لحظة سعادتي القصوى.

هدّأ زواج الأشباح من مخاوف أفراد العائلة، كما توقعت بي. فعاد الجميع إلى روتينهم المعتاد تاركين بي لترعى جنينها بسلام. وجهز رين غرفة جميلة تطل على الحديقة ليضع فيها الدمية واعتنت بها شجرة الصفصاف هناك. فاصبح يزورها يومياً ويبقى فيها أحياناً لساعة أو نحو ذلك ليكتب أو يقرأ. واتبعت بي كل التقاليد والعادات فعاملتني كما يجب للزوجة الأولى أن تعامل بأن قدمت لي القرابين. ولكنني في أعماقي شعرت بالحزن. فقد أحببت هذه العائلة التي نفذت رغبتي في الحصول على زواج أشباح، ولكن بدون أن توضع النقطة على لوحي. ذلك الشيء البشع. ما زلت شبحاً جائعاً يرتدي بعض الملابس الجديدة وينتعل حذاء ويضع أربطة أعطتني إياها أمي وجدتي. ولم أفكر في طلب أمي وجدتي أن أكمل مشروعي لأن بي ما زالت لم تلد بعد.

حل آخر شهر من أشهر حمل بي، فامتنعت عن غسل شعرها طوال ثمانية عشر يوماً حسب التقليد المتبع. وحرصت أنا على أن تبقى مسترخية وألا تتسلق السلالم وأن تتناول طعاماً خفيفاً. وعندما اقترب موعد مخاضها، أقامت مدام وو حفلاً خاصاً للاسترضاء التي قد تدمر حياة امرأة عند المخاض. ووضعت أطباق الطعام والبخور والشموع والأزهار والمال وسرطانين حيين على الطاولة، وأنشدت بعض الطلاسم لحمايتها. وحالما انتهت الطقوس، أخذت مدام وو وشجرة الصفصاف السرطانين وألقيتا بهما إلى الشارع وهما تعلمان أنهما حالما يزحفان مبتعدين فسوف تذهب الشياطين معهما. ثم لفتا رماد البخور المحترق في قطعة من الورق وعلقتاه فوق سرير بي حيث يبقى لثلاثين يوماً بعد ولادة الطفل ليحميها من الذهاب إلى بحيرة تجميع الدم. وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات، فلم يكن مخاض بي سهلاً.

قالت القابلة: "هناك شبح شرير يمنع الطفل من القدوم إلى العالم. إن هذا يوم خاص بالشياطين، وربما يكون هناك شخص من حياة سابقة أتى ليسعى وراء سداد دين لم يسدد بعد".

تركت الغرفة خوفاً من أن أكون أنا المقصودة، ولكن عندما علا صراخ

يي عدت. فهدأت حالما دخلت الغرفة. وبينما راحت القابلة تمسح جبين يي، نظرت حولي. فلم أجد أحداً غيري، ولكنني شعرت بوجود شيء شرير يتجاوز حدود مقدرتي.

ضعفت يي وخارت قواها. وعندما بدأت تنادي أمها، ذهب زين ليحضر الضالع. فحضر وتفحص المشهد ورأى ملاءات السرير المجعدة والملطخة بالدم والقابلة الحائرة. فأحضر ثلاث قلائد من الورق الأصفر بعرض سبعة سنتيمترات وطول متر تقريباً. فعلق إحداها على باب غرفة النوم ليمنع دخول الأشباح وعلق الثانية حول عنق يي وأحرق الثالثة ومزج رمادها بالماء وجعل يي تشرب المزيج. ثم أحرق المال وتلا الطلاسم وأخذ يضرب الطاولة لنحو نصف ساعة.

تملكني خوف شديد من معاناة الطفل. فقد كان أحد ما يمنعه من الخروج دون أن يستطيع أيٌ منا أن يراه أو يمنعه. لقد بذلت كل جهدي لأمنح هذه الهدية لزوجي وفعلت كل ما يمكنني فعله. أليس كذلك؟

عندما قال الضالع: "إن الطفل متشبث بأحشاء أمه. ولا بد أن شبحاً يحاول أن يستولي على حياة زوجتك". وهي الكلمات نفسها بالضبط التي قالها بجانب سرير زي، علمت أنه يجب عليّ أن أجرب القيام بشيء خطير وعنيف. فأمرت الضالع أن يجدد طلاسمه وأمرت مدام وو أن تدلك بطن يي بالماء الساخن. وطلبت من شجرة الصفصاف أن تجلس بجانب يي لتساعدها على الجلوس ومن القابلة أن تستعد لاستقبال المولود. وعندما نظرت إلى الداخل رأيت ابن زين وجهاً لوجه، ولكنني وجدت الحبل ملتفاً حول عنقه، ومع كل تقلص أخذ يشتد حول عنقه أكثر. فمددت يدي وأمسكت طرف الحبل وشددته لأفكه من الداخل. وتحرك الصبي استجابة لذلك. فحللت الضغط من على عنق الطفل ثم أمسكت الطرف البعيد من الحبل وسحبته بأقصى استطاعتي لأحرره مما كان متشبثاً به. فبدأ الطفل ينزلق ببطء وأنا أحاول أن أحميه إلى أن سقط بين يدي القابلة. ولكن فرحتنا ظلت مشوبة بشيء من القلق.

بعد أن أخذ الطفل أول أنفاسه ووضع على صدر أمه، بدا مزرقاً وضعيفاً. فلم يخامرني شك أن الطفل قد تعرض لظروف غير مواتية، وخشيت ألا ينجو. فساعدت مدام وو وشجرة الصفصاف والقابلة والضالع على القيام بأربعة طقوس حماية أخرى. فأحضرت مدام وو أحد سراويل ابنها وعلقته على طرف السرير، ثم جلست بجانب الطاولة وكتبت أربعة أحرف تعني: كل التأثيرات غير المرغوب فيها ستدخل السروال ، على قطعة

من الورق ودستها في السروال.

في ما بعد، ربطت مدام وو والقابلة قدمي الطفل ويديه بخيط أحمر مرخي وعلقتا به قطعة نقدية. إذ إن القطعة النقدية تقوم مقام القلادة ضد الشر بينما تحمي الطفل من أن يصبح شقياً أو عنيداً في حياته. وأخذت شجرة الصفصاف قطعة الورق الصفراء التي حول عنق بي ودستها داخل قبعة ووضعتها على رأس الطفل لتستمر الحماية من الأم إلى الطفل. وفي تلك الأثناء، أخذ الضالع قطعة الورق من على الباب وأحرقها ومزج الرماد بالماء. وبعد ثلاثة أيام، استخدم المزيج لغسل الطفل للمرة الأولى. فزالت عنه زرقة الموت أخيراً. ولكن تنفسه ظل يصدر صوت صفير. وهكذا، كان ابن رين لا يزال بحاجة إلى مزيد من الطلاسم. فحرصت على أن يتم جمعها في حقيبة وتعليقها خارج الباب وأن يتم كنس الشعر من الزوايا المظلمة لمنع أصوات القطط والكلاب من إزعاجه وعلى إحضار الفحم ليجعله جريئاً والبصل ليجعله سريع البديهة ولب البرتقال ليمنحه النجاح وحسن الطالع.

نجت الأم والطفل من الأسابيع الأربعة الأولى. فأقيمت حفلة فخمة بمناسبة مرور شهر على ولادة الطفل وقدمت فيها مقادير كبيرة من البيض الأحمر والكعك المحلى. وأبدت النساء إعجابهن بالطفل. وربت الرجال على كتف رين وهم يحتسون كؤوساً من الشراب. ثم أقيمت وليمة ضخمة. وانسحبت النساء إلى الغرف الداخلية حيث تجمعن حول بي والطفل وتهامسن حول زيارة الإمبراطور كانجخي الأولى إلى هانغجو.

تذمرت لي شو قائلة: "إنه يريد أن يثير إعجاب الجميع بحبه للفنون. ولكن كل خطوة يخطوها في رحلته تكلف سكان البلاد ما يساويها من الفضة. فقد تم رصف الطريق الذي سافر عليه باللون الأصفر الإمبراطوري وتم نحت الجدران والأسيجة الحجرية التي مر بها بصور التنانين".

أضافت هونغ جايز: "لقد أقام الإمبراطور مهرجاناً". وسررت لأن أرى ابنة هونغ شينغ تكبر لتصبح شاعرة جميلة ومثقفة بموهبتها الطبيعية. ثم قالت: "لقد راح يعدو على صهوة جواده ويرمي السهام. فأصاب كل سهم هدفه. وحتى عندما انطلق الجواد بسرعة كبيرة ظل الإمبراطور يصيب الهدف. فتأثر زوجي لرؤية هذا. وفي تلك الليلة، أصابت سهام زوجي الهدف أيضاً".

فألهم هذا النساء الأخريات للتحدث عن مآثر الإمبراطور الرجولية التي غيرت أزواجهن أيضاً.

انحنت لي شو إلى الأمام وقالت بصوت منخفض: "يقول الإمبراطور إن هذه بداية عهد مزدهر، ولكنني قلقة. فهو يعارض حديقة الفاوانيا أشد المعارضة. ويقول إنها تفسد البنات وتضع الكثير من الأهمية على المشاعر العاطفية".

حاولت النساء أن يبهجن بعضهن بكلمات شجاعة، ولكن أصواتهن ارتجفت من الشك وانعدام الثقة. فالتعليقات التي بدرت من بعض الأزواج من هنا وهناك بدأت الآن تتحول إلى سياسة إمبراطورية.

قالت لي شو بقناعة لم تصدقها إحداهن: "إنني واثقة من أنهم لا يستطيعون منعنا من قراءة حديقة الفاوانيا أو غيرها".

سألت يي بحزن قائلة: "ولكن إلى متى؟ فأنا ما زلت حتى الآن لم أقرأها".

قال رين الواقف عند الباب: "ستقرأينها". ودخل الغرفة وأخذ ابنه من زوجته. فرفعه عالياً للحظة ثم أنزله ليحتضنه بين ذراعيه. وقال: "لقد عملت بجد كبير لتقرأي الأمور التي أحبها وتفهميها. والآن منحتني ابناً. فكيف لا أود أن أشاركك بشيء يعني لي الكثير؟".

الفصل الثاني والعشرون

قاعة الغيوم

•

أيقظت كلمات رين الرغبة في داخلي لاستكمال مشروعي. ولكنني لم أكن مستعدة تماماً. وكذلك بي. وكانت قد مرت خمسة عشر عاماً منذ نظرت إلى الأوبرا آخر مرة. وخلال ذلك الوقت، ظننت أنني كبحت كل صفاتي المؤذية. ولكن بوجود الطفل الجديد في البيت توجب عليّ أن أتأكد تماماً. وكانت بي أيضاً بحاجة إلى أن تدرس أكثر قبل أن تستطيع أن تستوعب معاني حديقة الفاوانيا . فسخّرت لي شو ورين ومدام وو ليساعدوني في تهيئة شقيقتي الزوجة. وبعد عامين لمضيهما وأنا أعتني بالعائلة بدون أن تطرأ أي حوادث، سمحت أخيراً لزوجي أن يعطي بي نسخة حديقة الفاوانيا التي عملت عليها مع زي.

اعتادت بي أن تذهب كل صباح بعد أن ترتدي ملابسها إلى الحديقة لتقطف زهرة فاوانيا ثم تتوجه إلى المطبخ لتأخذ دراقة طازجة أو زبدية من الكرز أو حبة بطيخ. وبعد أن توجه تعليماتها للطاهية، كانت تأخذ قرابينها إلى قاعة الأسلاف ثم تشعل البخور وتقدم الاحترام لأسلاف عائلة وو وتضع حبة الفاكهة أمام لوح أسلاف زي. وعندما تنتهي من أداء هذه الواجبات، كانت تذهب إلى الغرفة التي وُضعت فيها دميتي وتضع زهرة الفاوانيا في مزهرية ثم تتحدث إلى لوح الأسلاف المدفون داخل الدمية عن آمالها لابنها وتمنياتها أن يبقى زوجها وحماتها بصحة جيدة.

وبعد ذلك، كنت أرافقها إلى حديقة إطلالة القمر ، وهناك كانت تفتح كتاب حديقة الفاوانيا وتقرأ كل الملاحظات المكتوبة في الحواشي والتي تتحدث عن الحب حتى وقت متأخر من العصر وتترك شعرها متدلياً على ظهرها وفستانها يهفهف حولها ووجهها مقطب بعض الشيء، وهي تفكر متأملة في هذه الفقرة أو تلك. وفي أوقات أخرى، اعتادت أن تتوقف عند أحد الأبيات وتغمض عينيها وتلتزم السكون وهي تتغلغل عميقاً داخل القصة. فتذكرت أن لينبانغ فعلت الشيء نفسه واستخدمت السكون كطريقة تحثّ بها الجمهور على البحث عميقاً في داخلهم لسبر مشاعرهم العميقة. أليست الأحلام هي ما تمنحنا القوة والأمل والرغبة؟

أحياناً، كنت أجعل بي تترك قراءتها وتتجول في البيت إلى أن تعثر

على ربن او لي شو او مدام وو ثم أجعلها تسألهم عن الأوبرا وأنا أعلم أنها كلما تعلمت ازداد تفكيرها انفتاحاً". ثم طلبت منها أن تستفسر عن التعليقات الأخرى التي كتبتها النساء، ولكن عندما سمعت أن كتاباتهن ضاعت أو دمرت تملك الحزن قلبها.

فسألت بي لي شو: "لماذا تشبه أفكار النساء الأزهار في مهب الرياح، فتنجرف مع التيار وتتلاشى بدون أثر؟".

فاجأني سؤالها الذي أظهر لي المستوى المتقدم الذي بلغته.

لم يجعل الفضول بي متغطرسة أو متطفلة أو غافلة عن واجباتها كزوجة وكنة وأم. وأصبحت شغوفة بالأوبرا، ولكنني حرصت على ألا أسمح لشغفها أبداً أن يتحول إلى هوس. فتعلمت منها عن الحياة والحب أكثر من كل ما عرفته وأنا على قيد الحياة أو حتى وأنا أوجه شقيقتي الزوجة زي، لقد ولت أيام أفكاري الطفولية عن الحب الرومانسي. فقد تعلمت من خلال بي أن أقدر حب القلب العميق.

لقد رأيته في ابتسامة بي المدللة عندما قال لها ربن إنه لا يعتقد بالأشباح ليهدئ مخاوفها وهي حامل. ورأيته عندما نظرت إلى ربن وهو يضع ابنهما في حضنه ويبني الطائرات الورقية معه ويعلمه أن يصبح رجلاً صالحاً يعتني بأمه من بعده. ورأيته بالطريقة التي أثنت بها بي على زوجها لإنجازاته رغم قلة أهميتها. واكتشفت أنه ليس الشاعر العظيم الذي تخيلته وأنا فتاة صغيرة ولا الرجل العادي الذي أذلته زي وإنما مجرد رجل له صفاته الحسنة والسيئة. وتعلمت من بي أن حب القلب العميق يعني أن تحب المرأة رجلاً برغم قيوده ونقاط ضعفه وربما بسببها.

ذات يوم، وبعد مرور أشهر على القراءة والتفكير، خرجت بي إلى شجرة الخوخ التي أعيش فيها وصبت الماء على الجذور وقالت: "هذه الشجرة رمز دو لينيانغ وأنا أمنحها قلبي. من فضلك قربيني من شقيقتي الزوجتين".

وكانت لينيانغ قد استجابت لهذا اللطف بوابل من أوراق الخوخ. فتوخيت الحذر الشديد من تجربة شيء يدل على التباهي كهذا. ولكن قربان بي أثبت لي أنها أصبحت مستعدة للبدء بالكتابة. فأرشدتها عبر الممر إلى قاعة الغيوم - وهي غرفة صغيرة ولطيفة لها جدران مطلية بلون السماء ونوافذ مغطاة بزجاج أزرق. وكانت تحوي مكتباً بسيطاً عليه مزهرية خضراء فيها بعض أزهار السوسن. جلست بي وبحوزتها نسخة حديقة الفاوانيا ومزجت الحبر وأمسكت ريشة كتابتها. فاسترقت النظر من فوق

كتفها ورأيتها تقلب الصفحات حتى وصلت إلى المشهد الذي يغري به شبح لينيانغ مينغمي وكتبت:

تظهر شخصية لينيانغ من خلال الكآبة التي تسكنها وهي تقترب من العالم. وقد تكون شبحاً، ولكنها تبقى عفيفة بالفطرة.

أقسم إنني لم أوحِ لها بهذه الكلمات. فقد كتبتها من تلقاء نفسها، ولكنها عكست ما أصبحت أعتقد به. ومع ذلك، لما كتبته ثانياً أثبت لي أن اهتماماتها مختلفة كل الاختلاف عن كل الأفكار التي راودتني وأنا مستلقية في سريري قبل تلك السنوات:

لا تكون الأم مفرطة في الحرص عندما تبدأ ابنتها بالتفكير في العاطفة بين الزوجين.

ثم عادت إلى أحلامها الطفولية الخاصة وحقيقة طبيعتها الأنثوية التي لا مفر منها، فكتبت:

إن لينيانغ خجولة وجبية عندما تقول: "قد يخضع الشبح غير المادي للعاطفة ولكن يجب على المرأة أن تبذل كل اهتمامها للطقوس". إنها ليست لعوباً، ولكنها امرأة حقيقية تريد أن تحظى بالحب كزوجة.

عكست تلك الكلمات أفكاري الخاصة لدرجة لا تصدق. ورغم أنني توفيت وأنا في ريعان شبابي، فقد أدركت في طوافي ما يعنيه أن تكون المرأة زوجة وليست مجرد فتاة تحلم وحدها في غرفتها.

لقد كتبت تان زي بأسلوب خط يشبه أسلوبي. فكيف يسعها ألا تفعل ذلك وقد اعتدت أن أرشد يدها في أغلب الأحيان على أمل أن يلاحظ رين أن الكتابة صادرة عن يد واحدة فيدرك أن كل الكلمات كلماتي أنا؟ ولكنني لم أعد أقلق بهذا الشأن بعد الآن. فقد أردت أن تشعر بي بالفخر لما أنجزته يداها.

كتبت المزيد ثم وقعت باسمها. وقعت باسمها! إنني لم أفعل ذلك قط ولم أسمح لزي بأن تفعله.

على مدى الأشهر القليلة التالية، ذهبت بي يومياً إلى قاعة الغيوم لتضيف مزيداً من التعليقات على الحواشي. وشيئاً فشيئاً، بدا شيء ما

يحدث، فقد انهمكت معها في حوار صامت، وبدأت أهمس وهي تكتب:

إن صيحات الطيور والحشرات الحزينة وأنين الرياح المحملة بالمطر التي يشعر بها المرء بين السطور غامرة.

وحالما أصبحت فكرتي مكتملة، غمست يي الريشة في الحبر ثم أضافت كلماتها:

إن قراءة هذه الكلمات وأنا وحدي في ليلة غائمة تبعث الخوف في نفسي.

ثم اعتمدت على تجربتها الشخصية فكتبت:

في يومنا هذا، تؤجل زيجات جيدة كثيرة لأن الناس متعصبون لأمور متعلقة بالعائلة ومصرون على طلب مهور كبيرة. فمتى ستتغير هذه التقاليد؟

كيف أمكنها أن تدرك أن الحب وحده، وليس المال ولا العلاقات العائلية، هو ما ينبغي أن يكون عليه الزواج؟
بدت كلماتها أحياناً أشبه بزهور تتدفق من ريشتها عندما كتبت:

لقد غير مينغمي اسمه بسبب حلم، وأصاب المرض لينيانغ بسبب حلمها، ولكل منهما شغف، ولكل منهما حلم. وعامل كل منهما حلمه على أنه حقيقة. إن الشبح مجرد حلم وليس الحلم إلا شبحاً.

عندما قرأت هذا الكلام نسيت السنوات التي أمضيتها في موسو وغمرني الفخر لحدة بصيرة يي ومثابرتها.
استجابت يي للأفكار التي كتبتها أنا وأحياناً للأفكار التي صدرت عن ريشة زي، وأصبحت طوال الوقت أسمع صوت زي بوضوح في بعض الفقرات وكأنها لا تزال معنا. وبعد كل تلك السنوات، أدركت أنها ساهمت في المشروع بمقدار كبير لم أدرك أهميته. ورغم أن يي لم تظهر ميلاً للانضمام إلينا في لوعة حبنا، فقد شعرتُ أنها أرادت أن تستحضرنا في

كتابتها. فاستجبنا لها من خلال كتابة ريشاتنا المخضلة بالدموع وأفكارنا التي ملأت الصفحات.

ابتهجت بإنجازات يي وساعدتها بأقصى قدر أستطيعه. فإن سهرت يي ليلاً لتقرأ، جعلت الشمعة تتوهج لئلا ترهق عينيها. وعندما أصبحت عيناها منهكتين، ذكرتها أن تصب فنجاناً من الشاي الأخضر وتغسل به عينيها لتنعش احمرارهما وتخففه. وهكذا كافأت شقيقتي الزوجة على كل فقرة فهمتها وكل أثر أدبي حللته وكل لحظة عاطفية اختلجت بها مشاعرها وكتبت عنها. فأبقيت ابنها آمناً وهو يتجول في الحديقة ومنعته من الوقوع من على الصخور والتعرض للدغ من الحشرات أو الهرب من البوابة الأمامية. وحذرت أشباح المياه من أن تخدعه ليغرق في البركة وأشباح الشجرة من أن تجعله يتعثر بجذورها.

وبدأت أيضاً أغير في البيت وأحميه. أثناء حياة زي لم أكن أعرف إلا حجرة النوم. وفي ذلك الوقت من الماضي، قارنت البيت بقصر عائلة تشين من وجهة نظر سلبية. ولكنني أدركت الآن أن ما ظننته جميلاً في بيت عائلتي كان في الواقع البرودة والجفاء اللذين تسببت بهما الثروة. فهناك أناس كثر يسكنون البيت دون وجود أي خصوصية أو هدوء، وانتشرت بينهم الثرثرة والاحتيال والتخطيط لاحتلال المواقع. أما هذا البيت، فهو بيت فنان حقيقي وبيت كاتبة أيضاً. وحولت يي قاعة الغيوم شيئاً فشيئاً إلى غرفة تستطيع فيها أن تجد الملاذ من متطلبات البيت وتكتب بسلام وتدعو زوجها لتمضية أمسيات هادئة. فبذلت ما بوسعي لأضفي عليها مسرة أكبر بأن أرسلت عبير الياسمين عبر النوافذ ونفخت على النوافذ الزرقاء لأجعلها تبدو أكثر برودة ومررت أصابعي على أطراف الورود التي أزهرت في الحديقة لتنعكس ظلالها على الجدران.

جعلت العالم الطبيعي منفتحاً عليّ وخاضعاً لإرادتي. وعبرت عن مشاعري في إزهار الغاردينيا الخصب في الربيع على أمل أن تتذكرني عائلة وو في جمالها وعطرها. وفي الثلج الذي يتساقط على الأشجار في الشتاء، وهو الوقت الذي توفيت فيه، وفي النسيم العليل بين أغصان الصفصاف التي تذكر رين أنه سيبقى في نظري إلى الأبد مثل ليو مينغمي. وفي الفاكهة الناضجة المعلقة من شجرة الخوخ والتي تجعلهم يقدرون تلك المعجزة. هذه هي الهدايا التي منحتها لرين ويي وابنهما. لقد سقت يي جذور الشجرة بالماء. فتوجب عليّ أن أدفع ثمن هذه المنحة وأقدرها.

ذات يوم، وبينما راحت بي تهوي كتب مكتبة رين، سقطت بعض أوراق الخيزران من أحد المجلدات، فأخذت بي الأوراق الهشة المكسرة وقرأت بصوت مرتفع: "لقد تعلمت أن أطرز الفراشات والزهور...".

وكنت قد كتبت هذه القصيدة قبل وفاتي بوقت قصير وخبأتها مع الأخرى في مكتبة والدي، فباعها ياو لرين بينما كانت زي على فراش الموت.

قرأت شقيقتي الزوجة الأوراق الأخرى، وكلها مصفرة وهشة بسبب قدمها، فبكت، وفكرت أنا في الوقت الذي مضى على وفاتي. وذكرتني الأوراق المجعدة بجسدي الفاني.

أخذت الأوراق معها إلى طاولة كتابتها، وهناك قرأتها مراراً وتكراراً. وفي تلك الليلة أرتها لرين.

وقالت: "أعتقد أنني الآن أفهم شقيقتي الزوجة تونغ. آه، يا زوجي، إنني أقرأ كلماتها وأشعر أنني أعرفها، ولكن هناك أموراً كثيرة مفقودة".

قرأ رين الآن القصائد التي نسيها لوقت طويل بسبب انشغاله بأمور أخرى عندما اشتراها من أخي بالتبني، فوجدها طفولية وغير ناضجة، ولكنّ عينيه امتلأتا بالدموع ولمعتا وهو يتذكرني.

قال لها: "لو التقيتها لأحببتها". وكان هذا أقرب ما وصل إليه من حد الاعتراف بلقائنا، فطفوت في السماء من شدة الفرح.

في اليوم التالي، نقلت بي القصائد إلى أوراق جديدة مضيفة بضعة أسطر من تأليفها إلى تلك التي تقشرت وامحت. وهكذا، أصبحنا شخصاً واحداً.

وبينما هي تفعل هذا، سقط كتاب من على الرف وبقي مبسوطاً على الأرض وسقطت ورقتان منه، فالتقطتهما بي ووجدت فيهما القصة الحقيقية وراء التعليق الذي أجبرت زي على كتابته قبل أن تنتزعهما وتخفيهما ثم يعثر عليهما رين ويخفيهما مجدداً. ولم تبدُ هاتان الورقتان قديمتين أو متحللتين أو ممزقتين بل بدتا جديدتين تماماً. وعندما أعطتهما إلى رين، ملأ الحزن قلبه وفاض من عينيه.

وفي تلك اللحظة، خطرت الفكرة ببالي: يجب على مشروعي أن يُنشر. فقد تذكر الناس الكاتبات اللواتي جمعت أعمالهن قبل ألفي عام والكاتبات اللواتي جمع والدي أعمالهن في مكتبته ونساء نادي حديقة الموز وكرموهن لأن أعمالهن نشرت وقرأها الآخرون. فهمست الفكرة في أذن بي وانتظرت.

وبعد بضعة أيام، جمعت بي مجوهرات زفافها ووضعتها داخل وشاح

حريري. ثم ذهبت إلى مكتبة رين ووضعت الوشاح على الطاولة وانتظرته ليرفع نظره إليها. وعندما فعل ذلك، رأى عينيها مثقلتين بالأسى وأصابه القلق. فسألها عن المشكلة التي تعاني منها وكيف يمكنه أن يساعدها.

"لقد كتبت الشقيقة الزوجة تونغ تعليقاً عن القسم الأول من الأوبرا وكتبت الشقيقة الزوجة زي تعليقاً عن القسم الثاني، وأنت كسبت شهرة بسبب كلماتهما، ولكنّ اسميهما ظلا مخفيين ومنسيين. ولكن إن لم نكشف عن الحقيقة ونجعل شقيقتيّ الزوجتين معروفتين للعالم، ألن تشعرا أن عملهما لم ينجز في العالم الآخر؟".

فسألها رين بحذر قائلاً: "ماذا تريدين مني أن أفعل؟".

"امنحني الإذن لأنشر التعليق الكامل".

لم يكن رد فعل رين إيجابياً كما توقعت، فقد قال: "إن هذا مشروع مكلف".

فأجابت بي: "ولهذا السبب سأستخدم مجوهرات زفافي لأدفع ثمن الطبع". وفتحت طيات قطعة الحرير لتكشف عن خواتمها وقلائدها وأقراطها وأساورها.

سأل رين: "ماذا ستفعلين بهذه المجوهرات؟".

"سآخذها إلى مرهن".

ولم يكن من المناسب لها أن تذهب إلى مكان كهذا، ولكنني قررت أن أرافقها وأرشد خطواتها وأحميها.

فرص رين ذقنه بإمعان وقال: "ومع ذلك، فهذا المبلغ لا يكفي".

"إذاً، فسوف أرهن هدايا زفافي أيضاً".

فحاول أن يقنعها بالعدول عن هذه الحماقة وأن يكون زوجاً صارماً وقوياً.

وتمتم قائلاً: "لا أريد لأي من زوجاتي أن يقال عنها إنها ساعية وراء الشهرة. فالموهبة الأنثوية تنتمي إلى الحجرات الداخلية".

ولم تكن التعليقات من هذا النوع من شيمه، ولكن القلق لم يجد طريقه إلى قلبينا.

فعارضته بهدوء قائلة: "لا أبه إن دعاني الناس ساعية وراء الشهرة، لأنني لست كذلك. فأنا أفعل هذا من أجل شقيقتي الزوجتين. ألا ينبغي أن نعترف بهما؟".

"ولكنهما لم يسعيا وراء الشهرة قط! فلم تترك زهرة الفاوانيا أي شيء يوحي بأنها تريد أن يقرأ الغرباء كلماتها. وبالتأكيد لم تكن زي تريد أن

يعترف أحد بها". وأضاف محاولاً أن يستعيد هدوءه: "لقد التزمت بموقعها كزوجة".

"ولا بد أنهما نادمتان على هذا الآن".

استمر النقاش بين رين وبي. فاصغت بي بصبر ولكنها لم تتزحزح عن موقفها. وظلت مصممة على رأيها حتى كشفت أخيراً عن أسوأ مخاوفه.

فقد قال: "لقد أدى التعليق بزي وزهرة الفاوانيا إلى نهاية وخيمة. وإن حدث لك أي مكروه...".

"إنك تقلق جداً عليّ، ولكن يجب أن تدرك أنني أقوى مما يوحي به مظهري".

"ولكنني أقلق عليك فعلاً".

فتفهمت موقفه لأنني شعرت بالقلق على بي أيضاً. ولكنني كنت بحاجة إلى هذا، وكذلك بي. وطوال السنوات التي عرفتها فيها، لم تطلب أي شيء لنفسها.

"أرجوك وافق، يا زوجي".

أمسك رين بيديّ بي وحدق إلى عينيها بشدة. وفي النهاية، قال: "سأوافق بشرطين: أن تأكلي جيداً وتنامي بشكل كافٍ. وإن بدأت تمرضين، فسوف أجبرك على التخلي عن المشروع برمته على الفور".

وافقت بي وباشرت العمل على الفور. فنسخت كل ما كتب في نسخة شاوخي مع كتابة زي وكتابتها إلى نسخة جديدة من حديقة الفاوانيا لتعطيها للناشرين. فتسللتُ إلى داخل الحبر واستخدمت أصابعي بدلاً من شعيرات ريشة الكتابة وهي تنزلق على الصفحة.

انتهينا مساء أحد الأيام في مطلع الشتاء. فدعت بي رين لينضم إليها في قاعة الغيوم ليحتفلا. ورغم النار المشتعلة في المجمرة، فقد غزا البرد الغرفة. وفي الخارج، تمايل الخيزران في الهواء المتجمد وبدأ البرد يتساقط بخفة. فأشعلت بي شمعة ودفأت الشراب. ثم قارن كلاهما الصفحات الجديدة مع الأصلية. وكان هذا عملاً دقيقاً، ولكنني راقبتهما وأنا أشعر بالرهبة وأنفاسي مقطوعة بينما أخذ رين يقلب الصفحات ويتوقف هنا وهناك ليقرأ كلماتي. فابتسم عدة مرات. ترى هل كان يتذكر محادثتنا في حديقة إطلالة القمر ؟ واكتست عيناه بغشاوة عدة مرات. فهل كان يفكر فيّ وأنا وحدي والشوق يملأني؟

أخذ نفساً ورفع رأسه ووسع صدره. واستقرت أصابعه على الكلمات

الأخيرة التي كتبتها وأنا على قيد الحياة: " عندما يكون الناس أحياء فإنهم يحبون. وعندما يموتون يستمرون في الحب...". وقال لي: "إنني فخور بك لإكمالك هذا العمل". وعندما داعبت أصابعه كلماتي، علمت أنه سمعني أخيراً. فشعرت بالرضا والفرح والبهجة والنشوة.

نظرت إلى رين وبي، وأدركت أنهما شعرا بالسعادة والبهجة نفسيهما اللتين شعرت بهما.

بعد بضع ساعات، قالت بي: "لا بد أن الثلج بدأ يتساقط". ومشت إلى النافذة. وأخذ رين النسخة الجديدة وانضم إليها. فتحا النافذة معاً. وكان الثلج الثقيل يغطي الأغصان بمسحوق براق نقي كالبشب الأبيض. فهتف رين ثم أمسك بيد زوجته وركضا معاً خارجاً تحت رقاقات الثلج وهناك رقصا وضحكا وسقطا على الثلج. فانضممت إليهما ضاحكة وأنا مسرورة لرؤيتهما فرحين هكذا.

ولكن شيئاً ما جعلني أستدير في الوقت المناسب وأرى الشرارات تتطاير من الشمعة وتسقط على نسخة شاوخي.

كلا! هرعت عبر الغرفة، ولكنني وصلت بعد فوات الأوان. فقد اشتعلت الصفحات. وتصاعد الدخان خارجاً من الغرفة. فأتت بي ورين راكضين وأمسكا بمرطبان الشراب وألقيا بمحتوياته على النار، وهذا ما زاد الأمور سوءاً. فأصابني الاهتياج والرعب ولم أعرف ما أفعل. امسكت بي لحافاً وأخمدت به النيران.

ساد الظلام في الغرفة. وسقط رين وبي على الأرض يلهثان من الجهد الذي بذلاه وهما مصعوقان من الأسى. فأحاط رين زوجته المنتحبة بذراعيه، وهبطت على ركبتي بجانبه ولففت نفسي حوله لأنني كنت بحاجة إلى حمايته وعزائه. وبقينا على هذا الحال لبضع دقائق. ثم تحسس رين طريقه في أنحاء الغرفة ببطء وحذر إلى أن عثر على الشمعة فأشعلها. وبدا المكتب المدهون بالطلاء اللامع متفحماً ومسوداً. وكان الشراب قد تدفق على الأرض في كل الاتجاهات، فأصبح الهواء مثقلاً بروائح الشراب والخشب المحترق والدخان.

سألت بي بصوت مرتجف: "أمن المعقول أن شقيقتي الزوجتين لا تريدان لكتابتهما أن تبقى في عالم البشر؟ هل تسببتا بحدوث هذا؟ أهناك مخلوق دفعته غيرته إلى تدمير هذا المشروع؟".

حدق الزوج والزوجة إلى بعضهما بعضاً بأسى، وللمرة الأولى منذ زواجهما، انسحبت إلى العارضة الخشبية وتعلقت عليها وأنا أرتجف من

شدة اليأس والأسى. لقد سمحت لنفسي أن اتمسك بالأمل والآن تحطمت كل آمالي.

ساعد رين يي على النهوض على قدميها وأرشدها إلى كرسي لتجلس عليه.

وقال لها: "انتظري هنا". وعاد إلى الخارج.

وبعد دقيقة عاد ومعه شيء في يده. فهبطت من العارضة لأراه ووجدت أنه النسخة الجديدة من التعليقات على حديقة الفاوانيا التي هيأتها يي للنشر.

قال وهو يريها إياها: "لقد أوقعت هذه عندما رأينا النار". راقبناه بقلق وهو يمسح الثلج عن الغلاف ويفتحه ليتأكد من أنه لم يتعرض للتلف. فتنفسنا جميعاً الصعداء.

قال رين: "قد يكون هذا الحريق نعمة وليس نذير شر. إذ إننا فقدنا كتابات زهرة الفاوانيا الأصلية بحريق قبل وقت طويل. والآن دمرت النيران المجلد الذي أحضرته لزي. ألاحظت هذا يا يي؟ لقد اجتمعت أنتن الثلاث في هذا الكتاب الوحيد". وأخذ نفساً وأضاف: "لقد عملتن جميعاً بجهد. فلن نقف الآن أي عقبة في سبيل نشر هذا الكتاب. وسوف أحرص على هذا".

فامتزجت دموع الشبح الجائع بدموع شقيقتي الزوجة.

في صباح اليوم التالي، أمرت يي إحدى الخادمات بحفر حفرة تحت شجرة الخوخ. ثم جمعت الرماد والأجزاء المحترقة من نسخة شاوخي ولفتها في قطعة من الحرير الخام ودفنتها تحت الشجرة. فانضمت إلي وذكرتني بما كان قد حدث وكيف يجب علينا أن نتقدم بحرص.

خطر ببالي أن أجعل الآخرين يقرأون ما كتبته ويقيمونه قبل نشره. وكان القراء الذين أعرفهم وأثق بهم أكثر من غيرهم هن أعضاء نادي حديقة الموز . فغادرت المجمع وهبطت إلى البحيرة وانضممت إليهن للمرة الأولى منذ ستة عشر عاماً. ووجدتهن أصبحن أكثر شهرة حتى من الوقت الذي رافقتهن فيه خلال فترة منفاي وأن اهتمامهن بكتابة النساء الأخريات قد تنامى مع نجاحهن. ولهذا فلم يكن من الصعب علي أن أهمس لهن أن هناك امرأة تعيش في جبل ووشان لديها مشروع فريد من نوعه تأمل أن تنشره وأن أثير في نفوسهن الحماس والفضول بشأنه. وبعد بضعة أيام، وصلت دعوة إلى يي لتنضم إلى أعضاء نادي حديقة الموز في إحدى

جولاتهن في القارب.

لم تكن بي قد ذهبت في جولة قط أو التقت نساء حققن إنجازات كبيرة أو احرزن مركزاً هاماً مثلهن. فتملكها الخوف. ولكن رين كان متفائلاً. فحرصت على أن تنال بي استقبالاً ودياً وساعدتها على ارتداء ملابس بسيطة ومتواضعة ثم تعلقت على كتفيها وهي تمشي عبر باحات البيت.

قبل أن نخطو داخل المحفة لتأخذنا إلى البحيرة، قال رين: "تخلي عن التوتر، وسوف يجدنك ساحرة".

ووجدنها كذلك فعلاً.

أخبرت بي النساء في نادي حديقة الموز عن إخلاصها وقناعتها ثم قرأت القصائد التي كتبتها وأرتهن نسخة حديقة الفاوانيا التي تحوي كتاباتنا في حواشيها.

قالت جو يوري: "أشعر وكأننا نعرف تشين تونغ".

وأضافت لين يينينغ قائلة: "كأننا سمعنا صوتها من قبل".

وبكت النساء على القارب من أجلي أنا تلك العذراء التي لوعها الحب ولم ندرك دنو أجلها.

سألت بي: "هل ترغبن في كتابة شيء استطيع أن أضمه في الصفحات في نهاية مشروعنا؟".

ابتسمت جو يوري وقالت: "أود أن أكتب له خاتمة".

وأضافت لين يينينغ: "وأنا أيضاً".

فسررت كثيراً لسماع هذا.

قمت وبي بزيارة النساء عدة مرات أخرى، لكي تسنح لهن فرصة قراءة ومناقشة ما كنت قد كتبته مع شقيقتي الزوجتين. فلم اتدخل بأي طريقة لأنني اردت لتعليقاتهن أن تبقى خاصة بهن فقط. وأخيراً، أخرجت النساء ريشاتهن وحبرهن وأوراقهن ليكتبن افكارهن.

نظرت جو يوري عبر البحيرة حيث تفتحت زهور اللوتس ثم كتبت:

إن الكثير من القارئات داخل حجرات النساء مثل خياوكينغ يتمتعن ببصيرة حقيقية حيال حديقة الفاوانيا. ويؤسفني القول إن أياً من تعليقاتهن لم ينتقل إلى العالم الخارجي. والآن اجتمعت تعليقات ثلاث زوجات من عائلة وو يشرحن فيها المسرحية بشكل كامل. فحتى المعاني المخبأة بين السطور أصبحت مفهومة. أليس هذا حظاً سعيداً وعظيماً؟ إن الكثير من النساء يأملن أن يعثرن على مجتمع وعلى أخوية مؤلفة من

نساء أخريات يشبهنهن، ولكن الحظ حالف هؤلاء الزوجات الثلاث فوجدنها في كتابتهن.

انجرفت إلى لين بينينغ ورأيتها تكتب:

لم يكن تانغ خيانجو نفسه ليعلق على المسرحية بهذه الجودة .

وأضافت رداً على كل أولئك الذين ظنوا أن لينانغ غير لائقة وتقدم رسالة سيئة للشابات:

بفضل عمل الزوجات الثلاث، تمت تبرئة اسم ليتيانغ، فهي لا تتخطى حدود اللياقة وما زال إرثها اللائق مستمراً.

وأما بالنسبة إلى أولئك الذين قد لا يوافقونها الرأي، فقد عبرت عن نفسها بكلمات قاسية:

أما أولئك السذج فلا يستحقون الرد عليهم.

ولم تكن تطيق أيضاً أولئك الذين يرغبون في إعادة النساء إلى حجراتهن الداخلية حيث تُكتم أصواتهن وتخمد أنفاسهن.

لدينا هنا ثلاث زوجات، كلهن موهوبات، تابعت كل واحدة منهن عمل السابقة لإتمام هذا التعليق الهام. ومن الآن فصاعداً، يجب على أي شخص في هذا العالم الفسيح يريد أن يدرك الحكمة ويتقن النظريات الثقافية أن يبدأ بهذا الكتاب. إن هذا المشروع العظيم سيستمر إلى الأبد.

تخيلوا ما شعرت به وأنا أقرأ هذا الكلام الرائع!

في الأسابيع التي تلت ذلك، أخذت وبي نسختنا من حديقة الفاوانيا مع الملاحظات التي في حواشيها إلى نساء أخريات مثل لي شو وهونغ جايز. وقرتا هما أيضاً أن يُعملن ريشاتهن ويدونّ أفكارهن. فكتبت لي شو أنها ذرفت الدموع عندما قرأته، وتذكرت هونغ جايز أنها سمعت رين،

وهي طفلة صغيرة جالسة في حضن أبيها، يعترف أنه لم يكتب النسخة الأولى من التعليق بل كان يحاول أن ينقذ زوجته من النقد. وأضافت قائلة:

بؤسفني أنني ولدت متأخرة جداً بحيث لم تسنح لي فرصة التعرف على الزوجتين الأوليين.

عندما خرجت في جولات مع بي، أدركت مدى الشجاعة التي تحلت بها أولئك النساء للاعتراف بمشروعنا والدفاع عنه وأن رياح التغيير بدأت تهب على العالم، لطالما اعتبر معظم الرجال الكتابة تهديداً للمجتمع ونشاطاً غير ملائم للسيدات. وفي هذه الأيام، ما زالت هناك عائلات قليلة تفخر بأن تنشر أعمالها النسائية، ولكنني وبي لم ننشر كتاباتنا وحسب بل بدأنا نستجمع تأييد النساء من حولنا.

وجدنا فناناً يقوم برسم التوضيحات على الكتاب. وطلبت بي من رين أن يكتب مقدمة عن المشروع يقول فيها الحقيقة من وجهة نظره. ومع كل كلمة كتبها، أدركت أنه لا يزال يحبني. ثم نسخت بي قصائدي على حواشي النص الذي كتبه رين، وكتبت تعليقاً يقول:

لقد تأثرت بهذه الأبيات بحيث إنني جمعتها هنا على أمل أن يستفيد جامعو الكتابات النسائية من عطرها وعبيرها الباقيين.

بهذه الطريقة، وضعتني بي بجانب زوجي إلى الأبد، وهذه هدية أخرى ثمينة جداً لم أعرف كيف سأكافئها عليها.

بحلول هذا الوقت، بدأ رين يشاطرنا شغفنا حيال المشروع. وأخذ ينضم إلينا عندما نذهب لمقابلة التجار الآخرين. يا لها من فرحة بالنسبة إلينا نحن الثلاثة أن نتواجد معاً بهذه الطريقة، ولكننا بصراحة لم نكن بحاجة إلى مساعدته.

قالت بي للتاجر الذي زرناه: "أريد رواسم خشبية مصنوعة بدقة".

فأرانا التاجر إياها، ولكنني لم أشعر بالراحة للكلفة، وهمست في أذن بي، فأومأت برأسها وسألت: "ألديك شيء مستعمل أستطيع استعماله من جديد؟".

رمق التاجر بي بنظرة تقدير ثم اصطحبنا إلى الغرفة الخلفية. وقال:

"هذه الرواسم جديدة تقريباً".

قالت بي بعد أن تفحصتها: "هذا حسن. سوف نوفر بالكلفة دون أن نضحي بالجودة". وهذا ما قلته لها، ولكنها أضافت شيئاً جديداً: "إنني أفكر أيضاً في المتانة. فأنا أريد أن أطبع آلاف النسخ".

قال التاجر دون أن يحاول إخفاء ترفعه: "ولكنك يا سيدتي قد لا تبيعين أي نسخ على الأرجح".

فأجابته ببرود: "إنني آمل طباعة الكثير من النسخ وجذب عدد كبير من القراء".

لجأ التاجر إلى زوجنا قائلاً: "ولكن، يا سيدي، هناك مشاريع مهمة أخرى يمكن أن تستخدم هذه الرواسم لها. أليس من الحكمة أن نوفرها لعملك أنت؟".

ولكن رين لم يبد اهتماماً بكتابه الشعري التالي أو النقد الذي سيليه، وقال: "قم بعملك جيداً وسوف نعود من أجل الطبعة التالية. وإن لم تفعل ذلك فسوف تساعدنا شركة أخرى".

انتهت المفاوضات بعد جهد كبير. فاتفقنا على سعر مناسب. ثم عدنا لنعثر على مطبعة ونختار الحبر الجيد ونحدد شكل الغلاف. فتم نقل كل شيء كتب في الحواشي أو بين السطور إلى قمة الصفحة ووضع نص الأوبرا تحته. وعندما تم نحت الرواسم الخشبية شارك الجميع، بمن فيهم ابن رين الصغير، في البحث عن الأخطاء. وحالما أرسلنا كل شيء إلى المطبعة، لم يعد هناك ما يتوجب علي فعله سوى الانتظار.

الفصل الثالث والعشرون

مجرد حلم

•

غنت ليتيانغ قائلة: "وعندما تهب الرياح الغربية ينفطر قلبي مجدداً". والآن انفطر قلب عائلة وو. فطالما كانت يي ضعيفة البنية ولا سيما بعد أن عملت بجد لعدة أشهر. ورغم عنايتي بها وحرص رين على أن تتناول طعاماً جيداً فقد سقطت طريحة الفراش. فانسحبت إلى غرفتها ولم تعد تستقبل الزوار. وفقدت شهيتها، مما جعلها تفقد وزنها وطاقتها. وبسرعة شديدة وفائقة لم تعد تملك القوة على الجلوس على الكرسي. فتمددت في سريرها وهي تبدو هزيلة ومنهكة وخائرة القوى. حدث ذلك في منتصف الصيف والطقس شديد الحرارة.

سأل رين الطبيب جاو بعد أن فحص مريضته الجديدة: "أهي لوعة الحب؟".

ردد الطبيب يتجهم قائلاً: "إنها تعاني من حمى وسعال شديدين. وقد تكون رئتاها ممتلئتين بالماء أو الدم".

طها الطبيب مزيجاً من التوت وجعل يي تشربه، ولكنه لم يخفف شيئاً من ألم رئتيها. فصب مسحوق عصفور البحر في حلقها ليخيف أي سموم مختبئة هناك، ولكن يي ظلت تذوي وتضعف. فناشدتها لأن تستحضر قوتها الداخلية التي أبقتها على قيد الحياة طوال تلك السنوات، ولكن قلب الطبيب بدأ ينقبض وأصابته الكآبة.

قال الطبيب: "إن زوجتك تعاني من احتقان الغضب. والضغط في صدرها يجعلها تختنق ببطء وتفقد شهيتها. ويجب أن تصحح هذه الأشياء على الفور. فإن ثار غضبها حطم هذا الاحتقان وقضى عليه".

كان الطبيب جاو قد جرّب هذا العلاج معي عدة مرات دون جدوى. ولهذا راقبتهم بتعاسة وهم يجرون يي من السرير ويصرخون في أذنيها أنها زوجة سيئة وأم غير كفؤة وسيدة قاسية مع الخدم. فارتخت ساقاها بضعف تحت جذعها وانزلقت قدماها على الأرض تحتها وهم يدفعونها ويسحبونها محاولين أن يثيروها لتصيح بوجههم أن يتوقفوا. ولكنها لم تستجب لذلك لأن طيبتها وإخلاصها منعاها من ذلك. وعندما بدأت تتقيأ دماً، أعادوها إلى السرير.

قال رين: "لا أستطيع أن أفقدها. فمن المقدر لنا أن نكبر ونعيش معاً وندفن في القبر نفسه".

قال الطبيب بلهجة عقلانية: "كل هذا الكلام عاطفي جداً، ولكنه ليس عملياً. يجب أن تتذكر، يا سيد وو، أن لا شيء في العالم دائم. فالشيء الدائم الوحيد هو عدم الدوام".

أنّ رين بيأس وقال: "ولكنها لم تعش إلا ثلاثة وعشرين عاماً. وكنت آمل أن نحلق كطيرين في السماء لسنوات عديدة".

سأل الطبيب جاو: "لقد سمعت أن زوجتك انغمست في قراءة حديقة الفاوانيا. أليس هذا صحيحاً؟" وعندما قيل له إنه صحيح، تنهد وقال: "لقد واجهت مشاكل كثيرة تسببت بها هذه الأوبرا للعديد من السنوات. وفقدت نساء توفين من أمراض نجمت عن قراءة صفحاتها".

اتبع جميع أفراد العائلة توصيات حمية صارمة. وأتى الضالع، فكتب الطلاسم وأحرقها، ثم جمع الرماد وأعطاه إلى شجرة الصفصاف التي أخذته لتطبخه. فخمرت نصفه مع المادة المستخلصة من اللفت المسلوق ليخفف من سعال بي وأعدت خميرة أخرى من الذرة نصف المأكولة من قبل السوس مع النصف الآخر من الرماد ليخفف من حرارة بي. وأشعلت مدام وو البخور وقدمت القرابين. ولو كان الطقس شتاء، لتمدد رين في الثلج ليجمد نفسه وأتى إلى الفراش وضغط بجسمه البارد على جسم بي ليبردها، ولكنه قام بأفضل حل ممكن. فذهب إلى الشارع وعثر على كلب ووضعه في سرير بي ليمتص كل المرض منها. فلم تفلح أي من تلك الأشياء.

على مدى الأيام القليلة التالية، أصبحت الغرفة باردة وازدادت برودة، وهذا ما أثار دهشتي. وتجمع الضباب على الجدران وتحت النوافذ. فوضع رين ومدام وو والخدم لحفاً على أكتافهم ليدفئوا أنفسهم وأشعلوا المجمرة. ولكن أنفاس رين خرجت كالسحب البيضاء الكبيرة من فمه بينما لم يخرج إلا ضباب خفيف من بين شفتي بي. وتوقفت عن الحركة وعن فتح عينيها وامتنعت حتى عن السعال. وأصبحت فترات نومها طويلة وحركاتها عميقة. ورغم ذلك كله، ما زال جلدها يلتهب بحرارة الحمى.

ولكن الطقس كان صيفياً. فكيف يمكن أن يصبح الجو بهذه البرودة؟ عندما يشهد الناس احتضار شخص ما، فهم عادة ما يشتبهون بوجود الأشباح، ولكنني حرصت على عدم التسبب بأي مشكلات. لقد عشت مع بي منذ كانت في السادسة، وباستثناء ربط قدميها، لم أتسبب لها بأي ألم أو أسى أو تعب. وعوضاً عن ذلك، فقد حميتها ومنحتها القوة. ولكنني

الآن فقدت كل تفاؤلي ووقعت ضحية آلام القلب.

قال الطبيب جاو: "أتمنى لو يسعني القول إن الصالحين يحمون زوجتك، فهي تحتاج إلى ضحكها ودفئها وحكمتها، ولكن الأشباح بدأت منذ الآن تتجمع لتأخذها. إنهم مليؤون بالأمراض والكآبة والعاطفة السقيمة. وأنا أسمع صوتها في نبض زوجتك الغريب المضطرب وأشعر بوجودها في حرارتها الملتهبة ودمائها التي تغلي وكأنها دخلت إحدى الحفر. إن تغيرات قلبها وعاطفتها الملتهبة هذا دليلان مؤكدان على هجوم الأشباح". وحنا رأسه باحترام قبل أن يضيف قائلاً: "كلُّ ما يبدنا أن نفعله هو أن ننتظر".

علّق الخدم المرايا والمنخل في الغرفة، مما قيد حركتي. وتبادلت شجرة الصفصاف ومدام وو الأدوار في كنس الأرض، بينما لوّح زين بالسيف بهذا الاتجاه وذاك ليخيف أي أشباح انتقامية مختبئة تنتظر أن تسرق بي من الحياة. فأفزعتني أعمالهم إلى أن صعدت إلى العارضة الخشبية، ولكنني عندما نظرت في أنحاء الغرفة لم أر أي أشباح شريرة. فانخفضت مباشرة إلى سرير بي متجنبة السيف المتأرجح والمرآتين اللتين تكنسان الغرفة وانعكاسات المرآة، ووضعت يدي على جبينها. فأحرقتني حرارتها أكثر مما يحرق الجمر. تمددت إلى جانبها متخلية عن كل الدروع الواقية التي بنيتها حول نفسي خلال السنوات الماضية وتركت كل البرودة التي حبستها في داخلي تخرج وتتسرب إليها في محاولة لتخفيف الحمى عنها.

ضممتها أكثر وانهمرت الدموع من عيني. لقد ربيت بي بنفسي وربطت قدميها واعتنيت بها وهي مريضة وزوّجتها وأحضرت ابنها إلى العالم. فكرمتني هي بدورها تكريماً لم أكن أحلم به. وافتخرت بها لأنها زوجة مخلصة وأم حنون و...

همست في أذنها قائلة: "إنني أحبك، يا بي. فأنت لم تكوني لي شقيقة زوجة فقط، ولكنك أنقذتني وحرصت على أن تجعلي صوتي مسموعاً". وترددت بينما كاد قلبي ينفجر من ألم حب الأم. ثم أفصحت عن الحقيقة من أعماق قلبي وقلت: "إنك فرحة حياتي. وأحبك كما لو أنك ابنة لي".

"هراء!".

وكان ذلك الصوت قاسياً وظافراً وبالتأكيد ليس بشرياً.

نهضت بسرعة وأنا حريصة على أن أتجنب السيف. فرأيت تان زي. وكانت السنوات التي أمضتها في بحيرة تجميع الدم قد حولتها إلى مخلوقة رهيبة ومشوهة. ضحكت عندما رأت الدهشة واضحة عليّ، مما جعل شجرة

الصفصاف ورين وأمه يوقفون أعمالهم ويرتجفون من الخوف وجسم بي يهتز من نوبة سعال شديدة.

أصابتني صدمة رهيبة لدرجة جعلتني أعجز عن الكلام للحظة وتملكني رعب شديد على اولئك الذين احبهم بحيث إنني عجزت عن التصرف بسرعة. فقلت: "كيف أتيت إلى هنا؟" يا له من سؤال غبي. ولكن عقلي أصيب بحالة هياج وهو يحاول أن يجعلني اكتشف ما أفعل.

لم تجب عن سؤالي. ولكن الجواب كان واضحاً. فقد كان والدها يعرف الطقوس وكان غنياً وقوياً. ولا بد أنه استخدم البعض للقيام بذلك، فقدمته للبيروقراطيين المشرفين على بحيرة تجميع الدم . وحالما أطلق سراحها، أصبح بوسعها أن تنضم إلى الأسلاف، ولكن بدا من الواضح أنها اختارت طريقاً مختلفاً.

شق السيف قطعة من ردائي، فأنّت بي.

بدأت مراجل الغضب تغلي في داخلي، فقلت: "لقد أثقل علي وجودك طوال حياتي. وحتى بعد أن مت، تسببت لي بالمتاعب. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟".

صرّ صوتها كمفصل صدئ، وهي تقول: "أنا تسببت لك بالمتاعب؟".

فاعترفت قائلة: "إنني آسفة أنني أخفتك وآسفة أنني قتلتك. فلم أكن أدرك ما فعلته، ولكن لا يسعني أن أتلقى كل اللوم. لقد تزوجت رين. فما الذي ظننت أنه سيحدث؟".

"لقد كان لي أنا. وأنا رأيته ليلة الأوبرا وقلت لك إنني اخترته". ثم أشارت إلى بي، وقالت: "حالما ترحل هذه، سأحظى به لنفسي أخيراً".

عندما قالت هذا، اتضح لي سبب كثير من أحداث الأشهر القليلة الفائتة: فلا بد أن زي أتت إلى هنا منذ بعض الوقت. وبعد أن عثرت بي على قصائدي، لا بد أن زي تسببت بوقوع الكتاب الذي يحوي الورقتين الممزقتين من التعليقات من على الرف لتحول انتباه رين إلى نفسها وتسرق فرصتي في أن يتذكرني. ولا بد أنها جذبت بي لتعلق على ما كتبته على حواشي الأوبرا. ولا بد أن البرودة القارسة التي حدثت في اليوم الذي احترقت فيه نسخة شاوخي حدثت بسببها هي. ولكنني لم أفهم ما رأيته لأنني انشغلت برين وبي ورقصهما على الثلج. وأصبح تفسير كثير من الأمور واضحاً. كالبرودة في حجرة بي... ومرض بي... وحتى في الماضي عندما ولد الصبي. ترى هل تدخلت زي في ولادته محاولة أن تخنقه بحبله فشدته حول عنقه وأنا أحاول أن أفكه؟

أبعدت نظري عن زي محاولة أن أكتشف المكان الذي اختبأت فيه طوال الوقت. في المزهرية أم تحت السرير أم في رئتي بي أم في رحمها؟ في جيب الطبيب أم في حذاء شجرة الصفصاف أم في حساء الذرة والرماد الذي أعده الطالع لتخفيض حرارة بي؟ لقد كان من الممكن لزي أن تختبئ في أي من هذه الأمكنة أو كلها، ولكنني لم أدرك ذلك لأنني لم أبحث عنها.

استغلت زي فرصة تشتت ذهني، فهبطت إلى الأرض وجلست على صدر بي.

وصاحت قائلة: "أتتذكرين عندما فعلت هذا بي؟".

صرختُ قائلة: "كلا!" ومددت يدي إلى الأسفل، فانتزعت زي وسحبتها إلى الهواء.

أسقطت شجرة الصفصاف المكنسة من يدها وعطت أذنيها. وفتل رين فأصاب ساق زي بالسيف وانتثر الدم في أنحاء الغرفة.

وبختني زي قائلة: "لقد أحبك رين. ومع أنكما لم تلتقيا قط، فقد أحبك".

أينبغي أن أخبرها الحقيقة عن ذلك؟ أيهم الأمر الآن؟

تابعت كلامها بلا شفقة قائلة: "لطالما شغلت باله، وكنت الحلم الذي لم يستطع تحقيقه. لذا، توجب عليّ أن أصبح مثلك. أتذكر أنني سمعت عن لوعة حبك وكيف أنك رفضت تناول الطعام...".

"ولكن ما كان ينبغي لي أن أمتنع عن الطعام! لقد ارتكبت خطأ مريعاً".

ولكن ذكرى من نوع مختلف تماماً خطرت ببالي، فتذكرت أنني لطالما اعتبرت الطبيب جاو غبياً، ولكنه كان محقاً طوال الوقت. فقد كانت زي غيورة، وتوجب عليه أن يجبرها على تناول حساء علاج الغيرة. ثم تذكرت بيتاً من الأوبرا يقول: "إن النساء الحاقدات هن الغيورات، وفقط أولئك الغيورات يصبحن حاقدات".

تابعت زي قائلة: "أتذكر كل ذلك. لقد علمتني ما هي عواقب الإضراب عن الطعام. لذا، ضعفت وذبلت لأصبح مثلك...".

"ولكن لماذا؟".

"لقد كان لي أنا". وانتزعت نفسها مني وغرزت مخالبها السوداء في العارضة الخشبية وتعلقت هناك كمخلوق مثير للاشمئزاز، وكانت كذلك فعلاً. ثم قالت: "لقد رأيته أولاً".

ركع رين على ركبتيه إلى جانب سرير بي وأمسك بيدها وبكى، فمرعان ما كانت سترحل. وأخيراً، فهمت تماماً تضحية أمي من أجل أبي. فصممت أن أفعل أي شيء لأنقذ ابنتي الحبيبة.

قلت لها: "لا تعاقبي هذه الزوجة عديمة الأهمية. عاقبيني أنا".

تحركت باتجاه زي على أمل أن تنسى أمر بي وتسعى ورائي. فأرخت قبضتها من على العارضة الخشبية ونفثت سحابة من القذارة البيضة على وجهي.

"كم أحب أن أفعل هذا!" وسمعت في كلامها صوت الفتاة الصغيرة الأنانية. كلا، بل كانت عديمة الثقة، كما أدركت الآن بعد فوات الأوان، بحيث إنها لم تستطع أن تدع أي شخص يتكلم خوفاً من أن يلفت الانتباه بعيداً عنها.

حاولت مجدداً بيأس وعجز. فقلت: "يؤسفني أنني نسيت أن أدعك تأكلين".

حدقت إليّ بإعجاب قائلة: "إنك لا تسمعين ما أقوله. إنك لم تقتليني ولم تحطميني ولم تسرقي أنفاسي. ولكنني توقفت عن الأكل من تلقاء نفسي. وللمرة الأولى، تحت سيطرة كاملة على مصيري. فأردت أن أميت ذلك الشيء الذي في بطني جوعاً".

صدمت من قسوة كلماتها، فقلت: "هل قتلت طفلك؟". وعندما ارتسمت ابتسامة رضا على وجهها قلت لها: "ولكنه لم يفعل لك شيئاً".

اعترفت قائلة: "لقد ذهبت إلى بحيرة تجميع الدم عقاباً على ما فعلته، ولكنه كان يستحق العناء. لطالما كرهتك، ولكن انظري إلى ما أصبحت عليه! ضعيفة وبشرية!".

"أنا لم أقتلك؟".

حاولت أن تسخر مرة أخرى من جهلي، ولكن الحزن وحده تدفق من فمها، فقالت: "لم تقتليني لأنك لم تعرفي كيف تفعلين ذلك".

مرت ببالي سنوات من الأسى والذنب والندم وتلاشت واختفت في الهواء البارد المحيط بنا.

تابعت وهي تبدو غافلة عن شعوري بالتخلص من العبء الذي حملته لسنوات، فقالت: "إنني لم أخش أمرك قط، ولكن ذكراك هي ما عذبتني. فلطالما سكنت كالشبح في قلب زوجي".

من المرة الأولى التي رأيت فيها زي، شعرت بالأسى لحالها. فلقد كانت تملك كل شيء ولكنها لا تملك شيئاً. وتركها خواؤها تشعر أنها غير قادرة

على الشعور بأي إحساس طيب من زوجها أو والدها أو والدتها أو مني أنا.

تقدمت إلى الأمام وقلت لها: "ولكنك سكنت كالشبح في قلبه أيضاً. لم يستطع أن يهجرنا لأنه أحبنا كلينا، وحبه لي استمرار لذلك الحب. انظري كيف يحدق إليها. إنه يتخيل كيف يبدوت وأنا وحيدة في سريري أعاني لوعة الحب وكيف يبدوت وأنت على فراش الموت".

ولكن زي لم تكن مهتمة بالمنطق والعقل وبالتأكيد لم تحفل لما استطاعت أن تراه بعينيها، إن هي آثرت أن تنظر حقاً. لقد حُكم على كل منا لأننا ولدنا فتاتين، وعانينا من وضع مأساوي نعيش فيه انعدام قيمتنا أو ارتفاعها ولكن كسلعة تباع وتشترى. لقد كنا متعرتين للشفقة. وإن لم أكن قد قتلت زي، ويا له من شعور مريح! فأنا لم أصدق أنها عزمت حقاً على قتل بي.

"انظري إليه، يا زي. هل تودين فعلاً أن تؤذيه مرة أخرى؟".

هزت كتفيها وقالت: "لقد سمحت لزوجنا أن ينال كل التقدير لما فعلناه نحن بحديقة الفاوانيا لأنني أردته أن يحبني".

"لقد أحبك فعلاً. كان ينبغي أن تري كم حزن عليك".

ولكنها لم تصغ إليّ. فقالت: "لطالما ظننت أنني أستطيع أن أتغلب عليك في الموت. لقد قدم لي زوجي وشقيقتنا الزوجة القرابين، ولكنك تعلمين أن هذه العائلة عديمة القيمة. إنها متوسطة الحال. ولحسن الحظ، فقد استطاع والدي أن يشتريني من حفرة تجميع الدم . ولكن حالما فلت حريتي انظري لما وجدته". وشدت شعرها قائلة: "زوجة جديدة!".

"وانظري لما فعلته بي من أجلك ومن أجلي. لقد سمعت كلماتنا. لقد سكنت كلماتك حواشي حديقة الفاوانيا ككلماتي، وأنت ساعدت بي في الجزء الثاني. فلا تنكري ذلك". واقتربت من زي وقلت: "لقد ساعدت شقيقتنا الزوجة رين ليدرك أنه يحبنا ثلاثتنا جميعاً بطرائق مختلفة ولكنها متكاملة. سوف ينشر رين مشروعنا. أليست هذه معجزة؟ سوف يتذكرنا الجميع ويكرمنا!".

عندما بدأت دموع زي تنهمر من عينيها، مسحت معها كل بشاعة السنوات التي أمضتها في بحيرة تجميع الدم كما تلاشى غضبها ومرارتها وحقدها وأنانيتها. لقد نبعتها هذه المشاعر الملحة القوية وطغت على تعاستها الرهيبة وكآبتها وشوقها. والآن خرجت منها مشاعر الهزيمة والحزن والوحدة كما تخرج الديدان من الأرض بعد مطر الربيع إلى أن ظهر

جوهر زي الحقيقي: الفتاة الجميلة التي تاقت إلى أن تنال الحب. ولم تعد شبحاً على الإطلاق. فانضمت إلى الأسلاف وأصبحت أخيراً عذراء لوّعها الحب فعلاً.

استحضرت القوة الداخلية التي وضعتها أمي وجدتي في داخلي ومددت يدي ووضعتها حول زي. ولم أدعها تجادل بل سحبتها معي. فانعطفنا حول مكنسة شجرة الصفصاف وتجنبنا المرايا وانزلقنا من تحت المنخل خارجتين من الغرفة. وعندما أفلتها، حلقت فوقي لبضع ثوانٍ ثم استدارت لتواجه السماء، وتلاشت شيئاً فشيئاً.

عدت إلى الداخل. ورأيت رئتي بي تفرغان من السوائل. فبدأت تشهق لتلتقط أنفاسها. وانتحب رين امتناناً.

الفصل الرابع والعشرون

الوميض

•

تم نشر تعليق الزوجات الثلاث في نهاية فصل الشتاء وفي السنة الثانية والثلاثين من حكم الإمبراطور كانجخي بعد أن بلغت الخامسة والأربعين من عمري، فأحرز نجاحاً فورياً وعظيماً. ومما زاد في دهشتي وبهجتي العارمة، فقد أصبح اسمي واسما شقيقتي الزوجتين معروفة في طول البلاد وعرضها، وراح جامعو الكتب من أمثال والدي يسعون إلى الحصول على كتابي بصفته شيئاً فريداً من نوعه ومميزاً. واشترته المكتبات لتضعه على رفوفها، ودخل الكتاب بيوت النخبة من المجتمع حيث قرأته النساء مراراً وتكراراً وبكين أسفاً على حزني وروعة أفكاري وتحسرن على كلماتهن الضائعة أو المحروقة أو المنسية وتنهدن للأشياء التي يتمنين لو أنهن كتبنها عن حب الربيع وندم الخريف.

وسرعان ما أخذ أزواج هؤلاء النساء وأشقاؤهن وأبناؤهن الكتاب وقرأوه أيضاً، وكانت تفسيراتهم له وتجاربهم عنه مختلفة كلياً. فما الذي يجعل الرجال يشعرون برجولتهم أكثر من اعتقادهم أن عمل الرجال لطالما جذب النساء وفتنهن، ليس فقط ثلاثتنا ولكن كل العذارى الملتاعات، لدرجة دفعتهن إلى الامتناع عن الأكل حتى ذبلن وداهمهن الموت؟ إنها تجعلهم يشعرون بالقوة والتفوق وتساعدهم في استعادة شيء من رجولتهم المفقودة.

حلت ليلة السنة الجديدة. فانضمت بي إلى عائلتها لتنظف البيت وتعد القرابين وتدفع الديون. ولكنني استطعت أن ألاحظ أن ذهنها بدا مشغولاً بأمر آخر. وحالما تم إنجاز الواجبات، أسرعت بالعودة إلى البيت وإلى الغرفة التي احتفظت فيها بدميتي العروس. قدخلت الغرفة وترددت للحظة ثم مدت يدها إلى تنورتها وأخرجت سكيناً، وهي أداة محرمة في الأيام التي تسبق العام الجديد، وركعت أمام الدمية. فراقبتها بدهشة وهي تمزق وجه الدمية وتنزع ثيابها وتضعها في كومة أنيقة وتشق بطن الدمية بعناية.

اهتاجت مشاعري، إذ لم تكن لدي أي فكرة عن السبب الذي يدفعها إلى إلحاق الأذى بدميتي وكان رين سيغضب كثيراً إن اكتشف ذلك، ولكن إن هي أخرجت لوح الأسلاف فسوف تلاحظ أن النقطة مفقودة. فحمت

حولها والأمل يهتاج في داخلي. مدت بي يدها إلى داخل جسم الدمية وأخرجت اللوح ونفضت عنه القش بسرعة. ثم غادرت الغرفة وبحوزتها اللوح والوجه المرسوم. ولكنها لم تمعن النظر إليه فعلاً.

خرجت بي إلى الممر ثم إلى الحديقة. وتوجهت في طريقها إلى شجرة الخوخ التي أعيش فيها. فوضعت اللوح على الأرض وعادت إلى غرفتها. ثم عادت ومعها طاولة صغيرة وغادرت من جديد. وهذه المرة عادت ومعها نسخة تعليق الزوجات الثلاث ومزهرية وبعض الأغراض الأخرى. فوضعت لوحي والصورة على الطاولة وأشعلت الشموع وقدمت قرابين الفاكهة والشراب. وقدمت لي التبجيل الذي يقدم للأسلاف.

أعني أنه قد خيل إليّ أنها بجلتني كأحد الأسلاف.

خرج رين إلى الشرفة ورأى زوجته تقدم احترامها.

فناداها قائلاً: "ماذا تفعلين؟".

"إنها ذكرى السنة الجديدة. ونحن نقدم القرابين للأسلاف الآخرين في عائلتك. فأردت أن أقدم شكري لليانغ على الإلهام الذي منحتني إياه وزوجتيك الأخريين".

فضحك من تفكير زوجته الساذج وقال: "لا يمكنك أن تبجلي شخصية خيالية".

فاعتدلت في جلستها وقالت: "إن فحوى الكون يسكن في كل شيء. فحتى الحجر قد يصبح بيتاً لأحدهم وحتى الشجرة قد تصبح بيتاً لأحد الأشباح".

"ولكن تانغ خيانجو نفسه قال إن ليانغ ليست موجودة قط. فلماذا تقدمين لها القرابين؟".

"كيف يمكنك أو يمكنني أن نقرر في ما إذا كانت ليانغ موجودة أم لا؟".

حدث ذلك في ذكرى السنة الجديدة. وهي وقت لا ينبغي لأي جدالات فيه أن تحدث خوفاً من إزعاج الأسلاف. ولهذا أذعن قائلاً: "إنك محقة وأنا مخطئ. والآن تعالي إلى هنا وانضمي إلي لشرب الشاي. إذ أود أن أقرأ لك ما كتبته اليوم".

كان رين واقفاً بعيداً جداً بحيث إنه لم يستطع أن يرى الوجه المرسوم على قطعة الورق أو الكلمات المحفورة على لوحي. ولم يسأل بي كيف عثرت على هذه الأشياء لتمنحها لليانغ.

في وقت لاحق، عادت بي إلى شجرة الخوخ لتخبئ الأشياء التي

أخرجتها. فنظرت إليها بحزن وهي تعيد خياطة اللوح داخل الدمية وتلبسها وترتبها لكي تبدو بالضبط ما بدت عليه قبل المراسم. فحاولت أن أقاوم خيبة أملي، ولكنني شعرت أنني محطمة من جديد.

لقد حان الوقت لتعرف أنني أنا من ساعدتها وليست لينيانغ. وتذكرت ما كتبته يي في حواشي الأوبرا: إن الشبح هو مجرد حلم والحلم ليس إلا شبحاً . فأقنعتني هذه العاطفة أن الطريقة الوحيدة التي لا يمكن أن أخيفها بها هي أن ألاقيها في أحد أحلامها.

في تلك الليلة وحالما استغرقت يي في النوم وبدأت تهيم على وجهها، دخلت حديقة حلمها التي ميزتها على الفور أنها حديقة حلم لينيانغ. فقد رأيت أزهار الفاوانيا متفتحة من حول. فمشيت إلى حديقة الفاوانيا وانتظرت. وعندما وصلت يي أظهرت نفسي لها. فلم تصرخ أو تهرب. إذ إنني بدوت في عينيها باهرة الجمال.

سألتني قائلة: "هل أنت لينيانغ؟".

ابتسمت لها، ولكن قبل أن أطلعها على حقيقتي، ظهر شخص آخر. وكان رين. ولم نكن قد التقينا على هذا النحو منذ وفاتي. فحدقنا إلى بعضنا عاجزين عن الكلام وتقلبت مشاعرنا علينا. وشعرنا أن الوقت توقف عن المضي. فملأ حبي له الهواء المحيط بنا، ولكن يي كانت هناك فخشيت أن أتكلم. ألقى رين نظرة خاطفة على شقيقتي الزوجة ثم عاود النظر إلي. وأصابه التردد هو أيضاً. فلم يقل شيئاً. ولكنني رأيت عينيه مفعمتين بالحب.

التقطت غصناً من شجرة الخوخ وأعطيته إياه. وتذكرت كيف انتهى حلم لينيانغ، فلففت حول نفسي بسرعة وجعلت كل أوراق الأشجار في الحديقة تتساقط على رين ويي كالشلال. قررت أن أدخل حلم يي من جديد في الليلة التالية. فكنت سأستعد لمقابلة رين وسأجد صوتي وأخبره...

في العالم الأرضي، استيقظ رين. فهز كتف يي ليوقظها.

"استيقظي! استيقظي!".

فتحت يي عينيها، ولكن قبل أن يتمكن من قول أي شيء، قصت له حلمه.

وقالت له بسعادة: "لقد قلت لك إن لينيانغ موجودة".

قال لها: "لقد راودني الحلم نفسه. ولكن تلك ليست لينيانغ". فأمسك يديها وسألها بإلحاح: "من أين أتيت باللوح الذي استخدمته البارحة؟".

هزت رأسها وحاولت أن تسحب يديها، ولكنه أمسك بهما بقوة.

وقال لها: "لن أغضب. فقولي لي".

اعترفت وهي خائفة قليلاً: "لم آخذه من طاولة مقتنيات أسلاف عائلتك. إنه ليس لوح إحدى زوجات أعمامك أو...".

"من فضلك، يا يي، أخبريني".

"لقد أردت أن أستخدم لوح شخص يمثل ليانانغ ولوعة حبها أكثر من الجميع". وعندما رأت يي حدة مشاعره عضت على شفتها. ثم اعترفت أخيراً: "لقد أخذت اللوح من زهرة الفاوانيا، ولكنني أعدته إليها. فلا تغضب مني".

قال لها وهو ينهض من سريره بسرعة وينتزع رداءه: "إن التي زارتك في حلمك هي زهرة الفاوانيا. لقد استدعيتها إليك".

"يا زوجي...".

"أؤكد لك أنها هي. ولم تكن لتستطيع أن تزورك على هذا النحو لو أنها من الأسلاف. فلا بد أنها...".

فشرعت يي بالنهوض.

فأمرها قائلاً: "ابقي هنا. إذ يجب أن أفعل هذا وحدي".

بدون أن يتفوه بكلمة واحدة، غادر الغرفة وركض إلى الممر وإلى الغرفة التي تحوي دميتي. فركع بجانبها ووضع يده على موضع قلبي. وبقي على هذا النحو لوقت طويل ثم حل أزرار ملابس زفافي ببطء شديد كما يفعل العريس ليلة زفافه. ولم يشح بوجهه ولو للحظة عن وجه الدمية. ولم يغب نظري عنه للحظة. وكان قد أصبح أكبر سناً الآن وانتشر الشعر الرمادي في صدغيه وحفرت التجاعيد الدائمة نفسها حول عينيه. ولكنني لطالما وجدته جميلاً. فكانت يداه لا تزالان طويلتين ونحيلتين وحركاته بطيئة ومتمهلة. لقد أحببته بسبب الفرحة والسعادة التي أدخلها على قلبي وأنا فتاة تعيش في قصر عائلة تشن والحب الذي أظهره لزي ويي.

عندما ظهر جسم الدمية المصنوع من الموصلين، جلس القرفصاء وتفحص الغرفة بعينيه، ولكنه لم يجد ما هو بحاجة إليه وتحسس جيوبه فلم يجد شيئاً. فأخذ نفساً واقترب من الدمية ومزق بطنها. وأخرج لوحي وأمسكه أمامه للحظة ثم بلل إبهامه بلسانه واستخدم الرطوبة ليمسح الغبار. وعندما لم يجد النقطة، ضم اللوح إلى صدره وأرجع رأسه إلى الوراء. فركعت بجانبه. لقد عانيت لتسعة وعشرين عاماً كشبح جائع. والآن رفعت نظري إليه ورأيت تلك السنوات تمر على ملامحه بثوانٍ وهو يتخيل

العذاب الذي عانيته في وجودي.

نهض على قدميه، وأخذ اللوح معه إلى المكتبة واستدعى شجرة الصفصاف.

وأمرها بصرامة قائلاً: "قولي للطاهية أن تذبح ديكاً. وعندما تنتهي احضري لي الدماء على الفور".

فلم تطرح عليه شجرة الصفصاف اي أسئلة. وبينما هي تمر بي في طريقها خارجة من الغرفة، بدأت أبكي من الراحة والامتنان. لقد انتظرت طويلاً لأجعل النقطة توضع على لوحي. وعندما لم أعد أصدق أن ذلك سيحدث على الإطلاق، حدث الآن..

عادت شجرة الصفصاف بعد عشر دقائق ومعها وعاء مليء بالدم الحار. فأخذه رين منها وصرفها ثم ذهب إلى الطاولة ووضع الوعاء وقدم الاحترام للوحي. وبينما هو يفعل ذلك، أخذ شيء يتحرك في داخلي وبدأ عطر يعبق في الغرفة. ملأت الدموع عيني رين وهو يغمس الفرشاة في الدماء، ثم مد يده المرتجفة ووضع النقطة على لوحي بالضبط كما كان قد فعل مينغمي ليثبت حبه للينبانغ.

وهكذا، لم أعد شبحاً جائعاً بعد الآن. فانقسمت إلى قسمين. فعثر أحدهما على مكانه الملائم في اللوح حيث سأصبح قادرة على رعاية عائلتي من مكان قريب. أما الجزء الآخر فقد نال حريته مجدداً ليكمل رحلته. لقد عدت من جديد إلى موقعي الملائم بصفتي زوجة رين الأولى. فعدت إلى مكاني الشرعي في المجتمع وفي عائلتي وفي الكون أجمع.

توهجتُ ضياء وأشرق البيت من حولي برمته بوميض السعادة. وبدأت أطفو بعيداً لأكمل رحلتي وأنضم إلى الأسلاف. فنظرت إلى رين للمرة الأخيرة. وكانت ستمضي سنوات عديدة قبل أن ينضم إلي شاعري الجميل. وحتى ذلك الحين، كنت سأعيش من أجله في كتاباتي.

---

* الطوالي: سيقان خشبية طويلة يستخدمها المهرجون في السير للظهور بمظهر طويل فوق العادة.